الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسنطينة

الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

العلامة المصلح والداعية الأديب

بمناسبة تخرج الدفعة الثانية والعشرين

رجب 1430 - جويلية 2009

معلومات الاتصال بالجامعة :

عنوان الجامعة :

ص.ب 408 حي 20 أوت 1955 – قسنطينة –

الهاتف :

031.92.21.34
031.92.21.99
031.92.26.94
031.92.26.95

العنوان- الإلكتروني : : E-Mail

samaismain@yahoo.fr

موقع الجامعة في شبكة الانترنيت :

www.univ-emir.dz

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾

سورة الأحزاب، 23

الدفعة الثانية والعشرون

الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

الإشراف العلمي والتقني

- أ. د. إسماعيل مامعي
- المهندس بشير فاضلي
- محمد فؤاد سعد الله
- صبرينة علاق
- فضيلة عمراني

لجنة القراءة والتحكيم

أ.د/ عبد الله بوخلخال	د/ حسان موهوبي
أ.د/ عبد القادر بخوش	د/ صونيا وافق
أ.د/ سامي الكناني	د/ صالح نعمان
أ.د/ كمال لدرع	د/ بشير كردوسي
أ.د/ سلمان نصر	د/ رمضان بخلف
د/ عبد المجيد قدور	د/ هلال خزاري
د/ علاوة عمارة	د/ عبد الوهاب فرحات
د/ نور الدين صغيري	د/ مصطفى ونتن
د/ كمال حميش	أ/ رياض بن الشيخ الحسين

كلمة مدير الجامعة

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، المبعوث رحمة للعالمين، وبعد:

فيسعد جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية أن يتميز احتفالها لهذه السنة (2009/2008) بتخرج الدفعة الثانية والعشرين (22) التي تتشرف بحمل اسم أحد "فرسان البيان ومنور الأذهان " مع كتاب تذكاري، وهذا التشريف هو سنة حميدة أقرها المجلس العلمي للجامعة منذ سنة 2001 بتسمية الدفعات المتخرجة بتواريخ ناصعة ورموز وطنية بارزة، فمن هي شخصية هذه السنة ؟

إنه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي ولد بتاريخ 14 يونيو 1889 بقرية أولاد براهم برأس الوادي ولاية برج بوعريريج حاليا، تعلم بمسقط رأسه على يد والده وعمه، ثم رحل سنة 1911 إلى الحجاز مرورا بمصر والأزهر ، واستقر بالمدينة المنورة أين تلقى تكوينا عاليا في اللغة والفقه والعلوم الإسلامية ، والتقى بالشيخ عبد الحميد بن باديس، ومن المدينة انتقل إلى دمشق سنة 1917 التي استفاد من مدارسها ومشايخها، ودرس بمعاهدها، ولدى عودته إلى أرض الوطن سنة 1920 استقر بمدينة سطيف وبها باشر مهمة التربية والتعليم وكان على اتصال وثيق بالشيخ عبد الحميد بن باديس حيث اتفقا على إيجاد وسيلة فعالة من أجل إصلاح أوضاع المجتمع الجزائري لتوعيته وتعليمه حتى يكون مستعدا للدفاع عن الجزائر.

لم يكن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – رحمه الله – شخصيةً عاديةً وإنما كان مجموعةً من المواهب والعبقريات، كما يقول فيه صديقُه الشيخ محمد بن إبراهيم الكتاني<< **كان آية في علمه الواسع، وأدبه الرفيع، وخلقه النبيل، ودينه المتين، وإخلاصه، وسعة أفق تفكيره، وبعد نظره، وإنكاره لذاته، وتفانيه في خدمة أمته، وتوفيقه في أعماله، وأقواله، وحسن تربيته لطلبته، ومريديه، وللجماهير المتصلة به،**

وتسخيره كلمة العزيز في تعليم أمته، ورفع مستواها، واستغراق أوقاته، في مواجهة المشاكل الوقتية، وتضحيته بحظ نفسه في القراءة والمطالعة والتأليف، ووفائه العديم النظير لأصدقائه وأحبابه وياما أكثرهم، ونجاحه في أن يحول الجزائر- مع أصدقائه ورفقائه وتلامذته وأعوانه من الحالة التي كانت عليها في أعقاب الحرب العالمية الأولى- إلى جزائر الثورة المباركة معجزة الإسلام الكبرى في العصر الحديث >>

(مذكرات الشيخ محمد خير الدين ج2 ص412)

وإذ اختار المجلس العلمي للجامعة هذه السنة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي – رحمه الله – فليس لما قدمه في حياته من خدمات جليلة للجزائر والعربية والإسلام فحسب، بل لإدراكنا للمهمات النبيلة المتميزة التي أداها بكل إخلاص وتفان في خدمة أمته بأقواله وأفعاله إلى آخر يوم من حياته وهو يوم 19 ماي 1965 بالجزائر العاصمة . ومهما يكن من أمر فلن نفي في هذا التقديم المقتطف بمناقب الشيخ، وأترك لمن يريد الاستزادة الرجوع إلى المقالات والبحوث المنشورة في هذا الكتاب التذكاري وفي غيرها من أجل الارتواء بتراث الشيخ المتنوع والغني بكل المقاييس .

والله ولي التوفيق

قسنطينة في 10 جوان 2009

أ.د. عبد الله بوخلخال

مدير الجامعة

تقديم

قضايا الأمة في رؤى الشيخ البشير الإبراهيمي

أ.د إسماعيل سامعي

نائب مدير الجامعة للتكوين العالي والتكوين المتواصل والشهادات

يصدر هذه السنة الكتاب السابع بمناسبة حفل تخرج الدفعة الثانية والعشرين يحمل اس علامة من علماء الجزائر الأفذاذ، ورجل من رجالاتها الكبار:" الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ـــ أحد أركان الإصلاح في الجزائر، وأحد الذين حملوا لواء تحررها من ربقة التخلف والاستدمار ـــ الذي يضم مجموعة من الدراسات والبحوث التي أعدها نخبة من الباحثين من جامعات الجزائر، اختير من بينها عدد معتبر بعد خضوعها لعملية التحكيم.

وتركز هذه البحوث والدراسات في مجملها على فكر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ودوره الثقافي، والسياسي في نهضة الأمة الجزائرية، والعربية، والإسلامية، لاسيما وأن الشيخ كان يختار موضوعاته بدقة متناهية، ويتابع تطور قضايا الأمة المصيرية في المشرق والمغرب، فيستوعبها، ثم يفيض عليها من علمه، وأدبه، وفكره فتخرج من العيون عيونها، التي استقيت منها بعض مكونات ومصوغات هذا العمل لتقديم كتاب حفل التخرج، تاركا البقية لبحوث الكتاب ودراساته.

إن الكتابة عن الشيخ البشير الإبراهيمي صعبة وشاقة فالرجل عملاق في ثلاثة عناصر متداخلة: اللغة والتاريخ والسياسة، ولذلك فالذي يريد قراءة ما كتب يجب أن يكون متمكنا من هذه العناصر الثلاثة المتداخلة والمتلازمة حتى لا يفهم ما يكتب فحسب بل يصبر أغوار كتابته لاسيما في قضايا الأمة عموما سواء الأمة الجزائرية أو العربية أو الإسلامية.

وقد عالج الشيخ البشير الإبراهيمي من خلال عيون البصائر موضوعات شتى عالج فيها قضايا الأمة الكبرى وفي هذا العمل سنتناول ست قضايا هي : قضية التعليم واللغة العربية، وقضية تطور الأديان الثلاثة في الجزائر. وقضية الاتحاد، وانتفاضة 8 ماي 1945 والمجزرة الفضيعة، وقضية العرب المركزية - فلسطين - وقضية فقه التاريخ.

أ - قضية التعليم واللغة :

لقد أدرك الشيخ البشير الإبراهيمي أن الأمة لا تنهض إلا بالتعليم، فهو حجر الزاوية في أي بناء محكم، وفي أي تقدم يحدث، فالتفاوت بين الأفراد والأمم معياره التفاوت في العلم والجهل.

ففي مقال له بعنوان "المهاجر في سبيل العلم" يبين الإبراهيمي أهمية طلب العلم، ويذكر الطلبة والتلاميذ بالماضي المجيد، ويبين كيف ضحى الأوائل من أجل العلم فيقول: " إن أسلافكم كانوا يعدون الرحلة في سبيل العلم من شروط الكمال فيه بل كانوا في دولة الرواية يعدون الرحلة للقاء الرجال من شروط الوجوب[1]

ويرى الإبراهيمي في الحياة أنها ضمان: حياة علمية، وحياة عملية وإن الثانية منهما تبنى على الأولى قوة وضعفا و.....وخمقا ويربط قوة الأفراد في العمل بشرط قوتهم في العلم[2]

ويكتب الشيخ الإبراهيمي في البصائر حوالي إحدى عشرة مقالا في التعليم العربي، وكيف تعامله حكومة المستعمر الفرنسي يقول:"إن جمعية العلماء ترى أن التعليم الذي تسعى لخريته، وترقيته هو جزء من التعليم العام الذي هو وسيلة التثقيف، والتثقيف هو أشرف مقاصد الحكومات الرشيدة، وإن الحكومات الرشيدة لتلتمس المعونة على تثقيف شعوبها من كل من يستطيعه من جمعيات وأفراد، وتبذل لهم من التنشيط والتيسير ما يحقق ذلك"[3]

---

[1] ـــ عيون البصائر، 218

[2] ـــ نفسه 217

[3] ـــ نفسه 25

والمقالات التي كتبها ونشرها في حلقات بلغت كما أسلفنا إحدى عشرة مقالة كانت كلها تحت عنوان"التعليم العربي والحكومة"، ماعدا المقال الأول الذي كان تحت عنوان " التعليم العربي"- تبين منهج الشيخ الإبراهيمي في الإصلاح الذي أيضا هو منهج جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والذي كان يطبقه بنفسه كمعلم، وخطيب ومرشد حيث أن تعليم أبناء الأمة كان شغله الشاغل، وإن أي تغيير لا يمكن أن يحدث إلا بالتعليم.

والتعليم عنده يرتبط باللغة العربية لغة الأمة، لذلك ينبه الأمة إلى أن من أوكد واجباتها الدينية والدنيوية هو تعليم اللغة العربية، يقول الشيخ الإبراهيمي: ولهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان، كل منهما يقتضي وجوب تعلمها، فكيف إذا اجتمعا، حق من حيث أنها لغة دين الأمة، بحكم أن الأمة مسلمة؛ وحق أنها لغة جنسها بحكم أن الأمة عربية الجنس[1].

2. قضية تجاور الأديان الثلاثة في الجزائر:

في هذه الموضوع يطرح للنقاش قضية أخرى قريبة من التعليم ألا وهي تجاور الأديان الثلاثة في الجزائر، ويبين أصولها، وخصائصها، ويقف عند أهم الميزات لها، فاليهودية دين المصلحة، والمسيحية دين القوة الاستعمارية، أما الإسلام فهو دين الفطرة والإقناع، ويعكس هذا الطرح ما كان معيشا، وما عاشه الشيخ الإبراهيمي في ظل السيطرة الاستعمارية، وهو هنا لا ينتقد اليهودية والمسيحية لذاتها، بل ينقد من ورائهما من يحاول استغلالهما لخدمة مصالح دنيئة وخبيثة، وإضفاء الشرعية على الانتهاكات الاستعمارية، يقول الشيخ البشير الإبراهيمي:"تتجاور في الجزائر أديان ثلاثة أصلها من السماء، وإن أخلد أتباعها إلى الأرض، وأساسها التوحيد، وإن شابها أهلها بالتثليث أو الوثنية، وكتُبها وحي إلهي، ولكن وصمها بعضهم بالتحريف والتبديل، وخلطها بعضهم بالأجنبي والدخيل، وعاملها بعضهم بالتأويل والتعطيل، أما الإسلام فهو أوثقها اتصالا بالأصول السماوية، وأوسعها امتدادا مع التاريخ، وأبقاها أثرا في صحائفه، وأعمقها تأثيرا في نفوس معتنقيه لملائمة روحه روحهم، ولمناسبة الفطرة فيه وفيهم، ولأن تأثرهم به كان

---

[1]- نفسه، 24

من اقتناع لا عن إكراه، ولأن الجانب الإنساني الاجتماعي هو أرحب الجوانب فيه. وكان الإسلام-لأول انتشاره- كان يتبع الفطرة الإلهية، وينتجع مساقطها، لذلك نرى الأمم التي دانت به، فأخلصت له هي الأمم القريبة العهد بالفطرة وسماحتها، على حين أن الأمم التي عبدتها المادة، وعقدتها الحضارة، وغمرتها شهوات العقل، أو شهوات الجسد لم تدن بالإسلام إلا على حرف، ولم تخلص سرائرهم إليه الإخلاص المذعن العميق، وفي أمة البربر وأمة فارس شاهد لا يكذب في ذلك"[1]

وفي خضم هذا الهجوم الغاشم على قيم الأمة، والطعن في أهم مقوماتها الدين واللغة، ووسيلتها للنهوض التعليم يكون من أوكد واجبات علماء الدين هو إعلان جهاد الكلمة والنضال من أجلها، وأن أي سكوت منهم يعد ضلالا في الدين، وقد كتب الشيخ الإبراهيمي مقالا في هذا الموضوع نشره سنة 1948 في البصائر جاء فيه : " ولعلماء الإسلام سلطان على الأرواح مستمد من روحانية الدين الإسلامي وسهولة مدخله إلى النفوس: تخضع له العامة عن طواعية ورغبة، خضوعا فطريا لا تكلف فيه لشعورها بأنهم المرجع في بيان الدين، وبأنهم لسانه المعبر حقا عن حقائقه، والمبين لشرائعه، وبأنهم حراسه المؤتمنون على بقائه، وبأنهم الورثة الحقيقيون لمقام النبوة، وكان العلماء يجمعون بين وظيفة التبيين في التعديات، وبين وظيفة التقنين في المعاملات: أما الخلفاء فلم تكن وظيفتهم-في الحقيقة- إلا تنفيذا لما يراه العلماء من مصلحة في المعاملات الفردية أو الاجتماعية"[2] ثم يستعرض نماذج من التاريخ الإسلامي حيث كان العلماء حراسا للدين، ومصابيح تستضيء بها الأمة حتى يخلص إلى القول:" بقي العلماء ظاهرين على الحق يتولون القيادة الحقيقية للأمة في غير ما يمس السلطان المادي الزائف، وكانوا إيقاظا لكل حدث يحدث في الإسلام[3].

---

[1] - عيون: 61

[2] نفسه: 341

[3] نفسه: 342

3. قضية الاتحاد :

والإبراهيمي رجل يعيش قضايا أمته الصغرى والكبرى، ومن أهمها قضية الاتحاد حيث إن في الاتحاد قوة، لذلك نراه يكتب مقالا عن أقطار المغرب العربي سنة 1948؛ بمناسبة الاحتفال بعيد العرش المحمدي العلوي، فيوجه خطابا تملأه المشاعر الجياشة المملوءة بالحب فيقول: " أيها الإخوان بالمغرب الأقصى تحييكم على بعد الدار، وحيلولة الجدار، ومعاكسة الأقدار-تحية ود- لا تقابل بالرد، وتهنئكم بهذا العيد السعيد"[1] وللإبراهيمي رأي جد هام يرد من خلاله على من يعترون مثل هذه الاحتفالات بذخا، وتبذيرا، وتقليدا للأجنبي، فيقول:" ولكننا حين نصل إلى هذا النوع الذي ينبه ويوقظ، ويحرك الذكرى الكامنة، ويثير القوة الخامدة، ويذكر بالماضي من الأعمال والرجال، ويدعو إلى التأسي بالعاملين، نسلم أنها دروس تلقى على الجاهلين. وأمثال تضرب للمأخوذين الذاهلين، ونؤمن بأنها تاريخ يحيا، وأجيال تنشر، وأعمال تبعث، وما أحوج الأمم الغافلة، النازلة بالسافلة، المنقطعة عن القافلة، المشغولة عن الفرض بالنافلة، إلى أمثال تضرب للمأخوذين الذاهلين؛ ونؤمن بأنها تاريخ يحيا، وأجيال تنشر، وأعمال تبعث، وما أحوج الأمم الغافلة، النازلة بالسافلة، المنقطعة عن القافلة، المشغولة عن الفرض بالنافلة، إلى أمثال هذه الدروس الحافلة"[2].

ويرى في التمسك بالعرش اتحاد وقوة في وجه العدو الاستعماري، ودفعا للباغي ويدعو المغاربة إلى أن يكون دون العرش صفا، وجمعا ملتفا، وساعدا وكفا.[3]

ويتحدث عن ليبيا بلوعة وحرقة وشوق وجداني عاطفي، تاريخي ديني، فهي عنده قطعة ثمينة من وطن العرب الأكبر، ومعقل حصين من معاقل الإسلام الباذخة[4] ويقتطف من التاريخ

---

[1] - عيون. 444

[2] - نفسه. 443

[3] - نفسه. 444

[4] - نفسه. 448

نماذج تدل على معرفة دقيقة بقضايا التاريخ المغربي والإسلامي، وتطوره، فيعتبرها جسرا يربط بين قارتين وجهتين المشرق والمغرب، إلى جانب أنها رابط بشري وحضاري للأمة العربية الإسلامية، فعنها مر التوحيد، والحكمة، والإسلام، وعلى ثراها مر عقبة، والمهاجر، وحسان، ومن بعد موسى، وطارق، وإدريس[1] ، وعبد الرحمان[2]، وفي جنباتها تصاهلت جياد الكماة الصيد من مصر، ويمن، وأنها كذلك كانت مجازا للأبطال من بني هلال الذين غرسوا العروبة بهذا الشمال[3]، إلى غير ذلك

ويتوقف عند فضائع الاستعمار الإيطالي، والذين وقفوا في وجهه وقفة المستميت- حتى جاءت الحرب الأخيرة- الحرب العالمية الثانية-، وعاد الرجاء، ونبض عرق البطولة، وهب المغاوير من سلائل العرب، يثأرون لعمر المختار[4].

ويلاحظ على هذه الهبة، والحماس بأنها كانت أقل وعيا، وتوجيها لأن العواطف والهبة الثأرية لا تحقق المبتغى، ولا تعيد الحقوق إلى أصحابها يقول:"وما كان إخواننا يدرون أنهم يعينون استعمارا على الاستعمار، وأنهم سينتقلون من شدق الأفعى، إلى ناب الأفعوان، ولكنهم لم يهنوا ولم يفشلوا في طلب استقلالهم"، ويحلل الإبراهيمي محاولات الاستعمار في فرض الهيمنة على هذا القطر ويدقق في المصطلحات تدقيق المؤرخ المتمكن، والفيلسوف المحنك فيرى أن كلمة: طلب الاستقلال كلمة خاطئة لأن معناها في الواقع، طلب الحق من غاصبه، أو طلب الملك من سالبه، ولو كان من طبيعة الغاصب السالب أن يرد المغصوب فيئة إلى الرشد،وإنابة إلى الله ، أما الكلمة المصيبة لهدف الحق فهي: العمل للاستقلال".[5]

---

[1] – هو إدريس الأكبر الذي فر إلى المغرب إثر معركة فخ، وهو مؤسس الدولة الإدريسية العلوية بالمغرب الأقصى.

[2] – عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية الإباضية بالجزائر وعاصمتها تاهرت.

[3] – عيون، 448

[4] – عيون، 450 = عمر المختار بطل المقاومة الليبية الباسلة

[5] – نفسه، 452

ويعرض إلى شروط الاستقلال التي هي: الإيمان به مع التصميم، ثم العمل له مع الإصرار، ثم المحافظة عليه بعد تحصيله، وليس منها-إلا عندنا- طلبه[1]، كما يقول الإبراهيمي.

4. انتفاضة 8 ماي 1945 والمجزرة الفضيعة:

إن أهم الأحداث الوطنية التي أثرت في الجزائريين، والشيخ الإبراهيمي في الصميم هي انتفاضة 8 مايو 1945، والمجزرة الفضيعة التي ارتكبها الاستعمار غداة احتفال شعوب العالم بالحرية[2]، حيث وجد الإبراهيمي نفسه معتقلا ومبعدا، لذلك يبدو أن كل هذا قد حز في نفسه، فراح كلما هل هلال شهر مايو يتذكر، ويكتب ويقول شعرا نثرا وشعرا[3] من ذلك:

ذكراك يا يوم — تحز في الأحشا

إذا أقبل القوم — وحش تلا وحشا

يا يوم لم تشرق — شمس على مثلك

آل الضحى مغرق — والملتجى مهلك

حتى يقول:

يا يوم ذكراكا — لم تبرح البالا

لو طاف مسراك — بالليث ما طالا

---

[1] - نفسه. 452

[2] - يعني نهاية الحرب العالمية الثانية في أوربا، وانتصار الحلفاء على النازية والفاشية، ويعتبر ذلك اليوم هو 8 ماي 1945، حيث خرجت الشعوب في العالم تحتفل بعد لكن أتى شعوب البلدان المستعمرة.

[3] نفسه. 359

... اليوم عاد الشيخ الإبراهيمي المنعرج الحاسم في مسار الحركة الوطنية، من أجل ... نعتاق من ربقة الاستعمار، ويبدو أن روح الثورة زرعت في الشيخ، كما زرعت في ... من أفراد الأمة، وخاصة المؤمنين بأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة

زرعت أحساكا منبتها الصدر

فكيف ننساكا إنا إذن غدر

... السياق يكتب ويؤكد نثرا فيقول:"يا يوم.....لك في نفوسنا السمة التي لا تمحى، ... التي لا تنسى، فكن من أية سنة شئت فأنت يوم 8 ماي وكفى، وكل مالك علينا من ... ذكراك، وكل ما علينا لك من واجب أن ندون تاريخك في الطروس لئلا يمسحه ... النفوس[1]

... العرب المركزية . فلسطين .

... حول القضية المركزية للعرب والمسلمين قضية فلسطين، يذكر في البداية بسبب ... العرب ألا وهي انقلترا التي يسميها حلقة الشر المفزعة، ويشبه الانقليز بأنهم كالشيطان ... الشر وإليهم ينتهي، وإنهم ليزيدون على الشيطان بأن هزائمهم صور مجسمة تؤلم ... عناد مسومة تهشم وتحطم وتخرب....[2]

... سبق بعض القيادات الثورية في العالم العربي والإسلامي في إطلاق اسم: الشيطان، ... الولايات المتحدة الأمريكية حليفة وحليفة انقلترا.

... كتب مقالاته في عام النكبة نفسها (1948)، ونبه إلى جريمة العدوان على ... إلى جريمة قد تكون أعظم ألا وهي تقاعس العرب، والمسلمين وخذلانهم، والاكتفاء

... 372

... 50

بالتفجع والتوجع والتظلم والتألم والأقوال تتعالى والاحتجاجات تتوالى-هي كل ما لفلسطين علينا من حق؟ وله من المعقول أن التفجع وما عطف عليه-مجتمعات في زمن، مقترنات في قرن -تدفع حيفا، أو تغل لظالم سيفا، أو ترد عادية عاد، أو تسفه حلم صهيون في أرض الميعاد؟لا.... والذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.[1]

ويرى الشيخ الإبراهيمي أن واجب فلسطين على العرب يتألف من جزأين: المال والرجال، وإن كانت حظوظهم في هذا الواجب متفاوتة[2]، ثم يفصل في طبيعة وخصوصيات هذه الواجبات، بالنسبة للدول العربية، وزعمائها، والكتاب، والشعوب، فأما الدول العربية فواجبها التصميم الذي لا يعرف الهوادة، والاعتزام الذي لا يلتقي بالهوينا؛ والحسم الذي يقضي على التردد؛ والنظام الذي ينفي الفوضى والخلل ..؛ أما واجب زعماء العرب أن يتفقوا في الرأي ولا يختلفوا..؛ والسؤال الذي يطرح هل حسم العرب أمرهم منذ 1948؟ وهل نظموا أمورهم، أم بقيت الفوضى تملأ مخيلاتهم؟ وهل اتفقوا في الرأي؟ وإذا كان جوابنا على هذه التساؤلات بالنفي، فقد صدق الشيخ الإبراهيمي فيما رآه، وشرحه، وفصل فيه.

وواجب آخر يراه هو واجب كتاب العرب وشعرائهم وخطبائهم أن يلمسوا مواقع الإحساس ومكامن الشعور من نفوس العرب، وأن يؤججوا نار النخوة والحمية والحفاظ فيها...أما واجب الشعوب، وخاصة شعوب الشرق العربي أن تندفع كالسيل، وتصيح صهيون وأنصاره بالويل، وأن تبذل لفلسطين كل ما تملك من أموال وأقوات ...والتساؤل: هل وفى الكتاب والشعراء، وأججوا نار الحمية فيها؟ وكم هم ؟ ألم يصل البعض من هؤلاء وغيرهم بعد ستين سنة من كتابة هذا المقال، ومن النكبة إلى الاستجداء من بني صهيون للوقوف معهم على منصات المسارح، بل ودعوتهم إلى زيارة بلدانهم بدعوى التفتح، والديمقراطية، والحداثة، وهم لا يتنازلون لهم قيد أنملة! رغم أن هؤلاء يملكون من القوة ما يمكنهم من السيادة، والريادة ! لقد اقسم الشيخ الإبراهيمي قائلا عن هذه القوة :" والله يمينا برة لو أن هذه القوى — روحيها

---

[1] - نفسه، 514

[2] -- نفسه،516

ومادیها ـــ انطلقت من عُقله، وتظافرت، وتوافت على فلسطين ، وتواقرت، لدفنت صهيون ومطامعه، وأحلامه إلى الأبد[1].

6. قضية فقه التاريخ:

الحديث عن قضايا الأمة الكبرى ترتبط بالضرورة بالتطور التاريخي والحضاري لها، والربط هنا بينهما أساسي عنده، لذلك يعود الشيخ الإبراهيمي إلى التاريخ ليؤكد على معنى عظيم لو ثبت العرب لعادوا إلى مقدمة ركب الحضارة، ألا وهو الوحدة، ونبذ التنابز بالألقاب، والتقاتل على الفتات، وركوب مركب المذاهب والفرق المفرقة، ولكن الإبراهيمي يحدد لهذا المسار البداية انطلاقا من هجرة الرسول ﷺ التي رسمت معالم الطريق يقول الشيخ الإبراهيمي :" كانت الهجرة ... ومازالت، هروبا من الباطل والمبطلين، ونجاة بالنفس أو بالعقيدة أو بهما ، فهي في خلاصها انهزام يعتذر بالضعف إلى أن يجد القوة ، وفرار بعزيز يخاف عليه إلى حيث يؤمن عليه"، ويلاحظ ملاحظة هامة تتعلق بالفرق بين هجرة الأنبياء كإبراهيم، ولوط الذين هاجروا من بابل إلى كنعانن و لم يرجعوا إلى موطنهم، بينما هجرة محمد ﷺ وأصحابه فكانت هجرة قوة ازدادت بالهجرة قوة أدت لا إلى العودة، ولكن لتطهير الأرض ـــ مكة ـــ التي خرج منها من الشرك والوثنية[2].

ويذكر بالقرآن الذي ذكر قصتها فسماها إخراجا من الذين كفروا، و لم يسميها هجرة بصريح اللفظ، وإن سمى الصحابة المهاجرين، ويرى أن التذكير بالإخراج من الديار يذكي الحماس، ويبقي الحنين إلى الديار متواصلا، وينمي غريزة الانتقام والأخذ بالثأر[3].

إن الإبراهيمي يدعو من خلال توظيف التاريخ، وتوظيف معاني الهجرة النبوية إلى الثور على الاستعمار، وعلى الهيمنة، وعلى الفرقة، ويدعو إلى دراسة السيرة النبوية، واستيعاب معانيها،

---

[1] - نفسه،516 ، 517 .

[2] - عيون ، 535 .

[3] - نفسه.

فيقول" مازلت منذ درست السيرة بعقلي، أقف في بعض مقاماتها على ساحل بحر لجيّ من العبر والمثلات"[1]، ويخلص إلى حالنا وواقعنا ويتساءل : هل تحمل ذكرى الهجرة المتكررة مع كل عام — أولئك اليمانيين الراكدين وهم جمهرة أنساب قحطان، وأولئك الحجازيين الراقدين وهم منحدر دماء عدنان — على أن يتداعوا إلى ما تداعى إليه أجدادهم، وأن يتأخوا على ما تأخوا عليه ؟ وهل يرجعون بالذاكرة إلى بيعة العقبة، وما جرت للعرب من أخوة وسيادة، وعزة، وسعادة، فيتبايعون على حماية الحوزة، العربية، والذب عن حياض الغروبة؟

وينبه العرب إلى الاستعمار الأخطر والذي ليس هو السياس والعسكري، بل الاقتصادي، والثقافي، والاجتماعي، إنه الاستعمار الجديد، ويتساءل فيقول:" هل يعلمون أن طلاب الغاز غزاة، وأن الشركات أشراك، وأن رؤوس الأموال الأجنبية ذات قرون ناطحة، وأن الوطن الذي يعمر بمال الأجنبي، ويد الأجنبي، وعلم الأجنبي ! محكوم عليه بالخراب، وإن تعالت في الأفق قباية، وكسيت بوشي السماء هضابه، وسالت بذهب الأرض شعابه"[2]

إن هذا العمل لا ريب أنه سيخلد الجهود العلمية والفكرية للشيخ العلامة أولا، وللأسرة الجامعية، لاسيما الأساتذة الباحثين، والطلبة ثانيا، وسيبقى تاريخا وذكرى لهم جميعا وللجامعة.

فهنيئا لكل من جد وعمل، ونال، وابتهج، ومزيدا من العمل والجهد قال تعالى : ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾، التوبة ، 105.

أ. د إسماعيل سامعي

---

[1] – نفسه.

[2] – نفسه، 537.

حياته

حياة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

بقلم نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي

منذ وفاة والدي الشيخ محمد البشير طالب الإبراهيمي -رحمه الله- في 20 مايو 1965، لم تفارقني ذكراه في حلي وترحالي، وفي يقظتي ومنامي، وذلك لان العلاقة بيننا لم تكن تلك العلاقة التقليدية بين الإبن وأبيه، أو بين التلميذ وأستاذه، بل كانت أقوى من ذلك بكثير، فقد كان بالنسبة لي أبا وأستاذا وصديقا ورائدا ومثلا أعلى أقتدي به، وأستنير برأيه في كل خطواتي، ولذلك فإن صدمتي بفقده جعلتني لا أستطيع الكتابة عنه طوال ثلاثين سنة، باستثناء المقدمة التي كتبتها للطبعة الثانية لـ"عيون البصائر"، بإلحاح شديد من شاعر الجزائر الكبير المرحوم محمد العيد آل خليفة[1] .

... وعني إن كنت لم أستطع الكتابة عنه طيلة هذه السنوات، فإني عملت على جمع آثاره في طبعة أولى[2]، بدأت تظهر منذ السبعينات في أربعة أجزاء. طبع في حياته تحت عنوان"عيون البصائر". وها أنا اليوم-بعد ابتعادي عن المسؤوليات- أقدم للقراء طبعة جديدة من آثار الوالد بعد سنتين من البحث والتنقيب عما تركه من كتابات مخطوطة أو مطبوعة كانت متناثرة هنا وهناك. ولئن كانت هذه الآثار المطبوعة ضئيلة في حجمها بالنسبة إلى حياة الشيخ الحافلة، فإن كثيرا ضاع، وكثيرا مما ألقاه من دروس وخطب ومحاضرات لم تسجل لأنه كان يلقيه ارتجالا، ولم تتسن كتابة إلا أقل القليل منه، وكانت له مؤلفات وكتابات مخطوطة حول العديد من المواضيع في الدين واللغة والأدب والاجتماع ضاعت إبان حرب التحرير، إما عند بعض تلامذته أو في بيته بالجزائر العاصمة حين اقتحمه الجيش الفرنسي سنة 1957- وهو بالمشرق العربي- وعاث في مكتبته تخريبا ونهبا، ففقدت مخطوطاته معظم كتبه. وبالرغم مما للوالد من أبحاث ومقالات فإنه يعد من ذلك الرعيل من المفكرين الذين شغلتهم الاهتمامات القومية ومسؤولياتهم في الحركة الإصلاحية عن الإنتاج المكتوب،وهو في ذلك كالشيخ

---

[1] آثار الإمام الإبراهيمي، ج3، ص35

2 بمساعدة الأستاذين حمزة بوكوشة-رحمه الله- ومحمد حمار. وقد صدر الجزء الأول سنة 1978، والجزء الثالث سنة 1981، والجزء الرابع سنة 1985، والجزء الخامس" في قلب المعركة" سنة1994، و"عيون البصائر" تمثل الجزء الثاني من هذه الطبعة الأولى.

سالم بوحاجب بتونس، والشيخ محمد بن العربي العلوي بالمغرب الأقصى، وقبلهما حكيم الشرق جمال الدين الأفغاني، والإمام محمد عبده، فهؤلاء قضوا حياتهم في تكوين الرجال لا تأليف الكتب، ولقد كان البشير الإبراهيمي يقدم الأهم على المهم إذ نذر حياته للإصلاح الديني والاجتماعي وتكوين الرجال القادرين على حماية إسلام الجزائر وعروبتها. وقد أكد ذلك في آخر حياته بقوله:" لم يتسع وقتي لتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلا، ولكنني أتسلى بأنني ألفت للشعب رجالا. وعملت لتحرير عقوله تمهيدا لتحرير أجساده، وصححت له دينه ولغته، فأصبح مسلما عربيا، وصححت له موازين إدراكه، فأصبح إنسانا أبيا، وحسبي هذا مقربا من رضى الشعب.[1]

وكانت صورة الأمير عبد القادر الجزائري ماثلة أمامه دائما، لان عبد القادر كالإبراهيمي كان لا يفصل بين العلم والعمل، ولا يفرق بين النضال والتفكير.

هذه الآثار وتاريخ الجزائر: إن الحديث عن الإبراهيمي هو حديث عن الجزائر: أصالة وحضارة وصمودا ونهضة وتحررا، فقد جسد الجزائر في شخصيته: نشأة وتكوينا وإشعاعا وقولا وكتابة وسلوكا. إن آثاره التي توزعت حياته بمختلف مراحلها حافلة بما أثمره جهاده الطويل من جلائل الأعمال، فقد جسدت بصدق وأمانة حياة الجزائر خلا حقبة كاملة من تاريخها الحديث وهناك حقيقة لا بد من تأكيدها هنا، وهي أن مفتاح الدخول إلى هذه الآثار وفهمها حق الفهم لمعرفة الإبراهيمي حق المعرفة، ولتقديره بما هو جدير به، ليس الاطلاع على حياته فحسب، بل ضرورة الاطلاع على هذه الحقبة التاريخية المتميزة في حياة الجزائر والوقوف على مختلف أبعادها الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية والجهاد من أجل التحرير والاستقلال لأن الذي لا يفهم طبيعة هذه المرحلة فهما دقيقا لا يستطيع أن يفهم رسالة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، أو يدرك أهدافها البعيدة التي رسمتها وجاهدت من أجل تحقيقها، هذه الجمعية التي نشط فيها الإبراهيمي مع غيره من إخوانه العلماء، فكان نائبا لرئيسها الأول الإمام عبد الحميد بن باديس في حياته، ثم رئيسا لها بعد وفاته.

وإذا استعرضنا العوامل الحاسمة في نهوض المجتمع الجزائري في العصر الحديث دينيا وفكريا واجتماعيا وسياسيا، ونجمل ذلك في حركتين بارزتين ومتكاملتين:

---

1 آثار الإمام الإبراهيمي، ج5، ص 288

1- الحركة العلمية الإصلاحية الدينية التي انطلقت بوادرها مع بداية القرن العشرين، ثم تطورت بقيام الشيخ عبد الحميد بن باديس بالتدريس في قسنطينة، غداة تخرجه من الجامعة الزيتونية سنة 1913، أمثال أبي يعلى الزواوي، والطيب العقبي، والبشير الإبراهيمي، ثم تبلورت في إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931، غداة احتفال فرنسا بالعيد المئوي لاحتلال الجزائر، اعتقادا منا أنها قضت على الشخصية الجزائرية نهائيا بقضائها على الإسلام والعروبة فيها، ومما قاله أحد الحكام الفرنسيين في الجزائر بهذه المناسبة:" إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم، وأن نقتلع العربية من ألسنتهم"

2- الحركة السياسية ممثلة في تأسيس حركة" نجم شمال افريقيا" في باريس من العمال المهاجرين لكل من تونس والجزائر والمغرب عام 1927 وما تلاها كتأسيس "حزب" الشعب الجزائري" عام 1937، ثم "حركة الانتصار للحريات الديمقراطية" عام 1946، وما تولد عنها من منظمات سرية وعلنية تألقت بمواقف وتضحيات بطولية مشهودة، وأخيرا كل عزز الكفاح الوطني من حركات سياسية وثقافية كـــ " أحباب البيان والحرية" و" الكشافة الإسلامية الجزائرية"

وإذا كانت الحركات السياسية اعتمدت-بحكم طبيعتها- الكفاح السياسي لبلوغ غايتها، وتجنيد فئات الشعب حول برامجها، فإن الحركة الدينية التي تمثلها "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" مهدت السبيل باعتماد أسلوب الإصلاح الديني والاجتماعي الذي هيأ الأنفس للانصار في الحركة السياسية، عن طريق التربية والتعليم والتكوين، وبناء المساجد، والنوادي، والمدارس، وإحياء المقومات الذاتية للشخصية الجزائرية، وربط الجزائر بمحيطها العربي الإسلامي الذي أراد الاستعمار انتزاعها منه، وبهذه العناصر تكون الوحدة الوطنية مصونة راسخة، ويكون الجهاد واجبا قائما، فيكون- بإذن الله- الانتصار المبين ميسورا مضمونا.

و لا شك أن إصلاح العقيدة هو أساس كل الإصلاح، فقد قال الإمام رضي الله عنه:"لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"، وهو الشعار الذي رفعه المصلحون في الجزائر وجسدوه في أقوالهم وأفعالهم. وكتاباتهم، فها هو الشيخ مبارك الميلي-مؤرخ الجزائر وأحد علمائنا- يكتب في العشريات في أحد أعداد جريدة" المنتقد"، " من حاول إصلاح أمة إسلامية بغير دينها، فقد عرض وحدتها للانحلال وجسمها للتلاشي، وصار هادما لعرشها بنية تشييده"

إن الحركة الدينية التي قادها علماؤنا الاجلاء تعدى صداها حدود الوطن، وكانت ثورة ثقافية حقيقية-بمفهوم اليوم- قلبت أوضاع الشعب الجزائري، وجعلته يعيش في حالة تناقض دائمة مع الاستعمار، ويتفاعل مع قضايا أشقائه المغرب الأقصى وتونس والمشرق العربي، وكانت حربا بدون هوادة على الجهل والتحجر والبدع والخرافات والخمول والاستكانة. لقد ادخلت تلك الثورة الثقافية على المجتمع الجزائري تحولات في مفاهيمه، إذ أيقظت فيه روح الاخوة والتضامن، وبعثت فيه الأمل الذي هو مفتاح الوصول إلى الغاية المنشودة، واعدت لذلك الوسائل الملائمة التي رسمت الطريق إلى شاطئ الخلاص وبر الأمان. وهذه الحقيقة تؤكد الاتفاق الكلي بين الحركة الدينية والحركة السياسية في الغاية، أي العمل على تمكين الجزائر من استرجاع سيادتها واستقلالها وحريتها، وإذا كان هناك من فرق بين الحركتين فمن المؤكد أنه ليس في الهدف-إذا الهدف واحد وهو الانعتاق- وإنما في الوسائل التي تؤدي إلى تحقيق ذلك الهدف.

تبنت "جمعية العلماء" مشروعا يقوم على الدين والعلم والأخلاق، إيمانا منها أن هذه العناصر الثلاثة توصل الشعب الجزائري إلى الاستقلال، بينما جعلت الحركة السياسية من الاستقلال الوسيلة إلى بناء هذه الأعمدة الثلاثة، وإن كان أحيانا بمسميات مختلفة، بيد أنها تصب دائما في نفس الاتجاه....وقد شاهدت في طفولتي بمدينة تلمسان في الثلاثينات كثيرا من تلامذة والدي وأنصاره يلازمونه في دروسه وخارج دروسه كمريدين أو أكثر، وهم في نفس الوقت منخرطون في حركة "حزب الشعب الجزائري"، ولم يكن لديهم أي شعور بالتناقض في الانتماءين، خلافا لما ركز عليه لاحقا بعض المؤرخين الفرنسيين في كتاباتهم، ممن كان همهم الأكبر التنقيص من دور الإسلام في الحركة الوطنية ثم في الثورة المسلحة .....

وإذا كان هذا النوع من التحيي على الحقيقة بالإصرار على زرع التناقض بين الحركة السياسية في تاريخ الجزائر المعاصر أمرا متوقعا من هؤلاء المؤرخين، لأن صراعنا معهم صراع حضاري متواصل عبر التاريخ بأشكال شتى منذ أشرق نور الإسلام على هذه الربوع، فإن المرء ليندهش حين يسمع من يردد تلك المقولات المغرضة من أبناء وطنه، أو في بعض الدوائر العربية، ممن يبحثون في بعض صفحات التاريخ عن حجج معينة لتبرير موقف سياسي آني يتعارض مع انتماء الشعب الجزائري وأصالته، أو طمعا في الحصول على "شهادة حسن السيرة" من الغرب، قصد توظيفها لغايات معينة لا علاقة لها إطلاقا بما ينبغي أن يتحلى به المؤرخ المنصف من أمانة وتجرد وموضوعية ونزاهة فكرية.....

وقد نلمس لهؤلاء عذرا إذا كان هذا الموقف"الاتباعي" نابعا عن جهل، فقد قال الإمام علي –كرم الله وجهه–:" الناس أعداء ما جهلوا أحياء ما ألفوا". وحياة الإبراهيمي تنقسم إلى سبعة أقسام :

1- **مرحلة التكوين والتحصيل الأولى (1889-1991)**: ولد بقرية "رأس الوادي" بناحية مدينة سطيف بالشرق الجزائري في 14 يونيو عام 1889، وفي بيت أسس على التقوى، من بيوتات العلم والدين، وقد أتم حفظ القرآن الكريم على يد عمه الشيخ المكي الإبراهيمي الذي اكتشف مواهبه المبكرة، وكان له الفضل الأكبر في تربيته وتكوينه، حتى جعل منه ساعده في تعليم الطلبة.

من هذه المرحلة المبكرة من حياة الشيخ الإبراهيمي لم نعثر على آثار تذكر باستثناء بعض الرسائل الإخوانية[1]، وتجدر الإشارة إلى الاستعمار الفرنسي في الجزائر كان ينتهج سياسة التجهيل والتفقير والطمس لمقومات الأمة وثوابتها، وذلك في كل أرجاء الوطن.

2- **الرحلة المشرقية الأولى (1911-1920)**: هاجر جدي، الشيخ السعدي الإبراهيمي إلى المدينة المنورة عام 1908، هروبا من ويلات الاستعمار الفرنسي، ولحق به والدي عام 1911، تأكيدا للتفاعل بين المشرق والمغرب، مرورا بمصر التي أقام بها ثلاثة أشهر، التقى خلالها بعدد من علمائها وأدبائها وشعرائها، وحضر بعض دروس العلم في الأزهر، وعندما استقر بالمدينة المنورة، درس فيها على كبار علمائها-الوافدين من كل أنحاء العالم الإسلامي- علوم التفسير والحديث، والفقه، والتراجم. وانساب العرب، وأدبهم، ودواوينهم، كما درس علم المنطق والحكمة المشرقية، وأمهات كتب اللغة والأدب، ثم أصبح يلقي الدروس للطلبة في الحرم النبوي، ويقضي أوقات فراغه في المكتبات العامة والخاصة باحثا عن المخطوطات. والتقى خلال إقامته بالمدينة المنورة، في موسم الحج عام 1913. بالإمام عبد الحميد ابن باديس، وما من شك في أن تلك اللقاءات شهدت ميلاد فكرة تأسيس جمعية العلماء. وفي سنة 1917 انتقل الإبراهيمي إلى دمشق، حيث دعته حكومتها لتدريس الآداب العربية بالمدرسة السلطانية (مكتب عنبر)، وهي المدرسة العصرية الوحيدة آنذاك، بالإضافة إلى إلقاء دروس في الوعظ والإرشاد في الجامع الأموي، وقد تخرج على يديه جيل من المثقفين كان لهم أثر بالغ في النهضة العربية الحديثة. من الأماكن التي كانت لها مكانة خاصة في قلب الوالد-بعد مسقط رأسه- المدينة

---

1 نشرت مجلة "الموافقات" في عددها 4، السنة 4 (يوليو 1995) ص 762، إحدى هذه الرسائل

شيرة. وكان -رحمه الله- يحتي -بعد الاستقرار- على قضاء شهر رمضان بالمدينة، لما للمكان من بعد روحي. ولنسكانها من خلق وطيبة، ومدينة دمشق التي تزوج فيها بوالدتي رفيقة العمر -رحمها الله رحمة واسعة . ودفن فيها والده وحماه وابنه. ومن هذه المرحلة لم نعثر على آثار مكتوبة للإبراهيمي؛ بالرغم مما كان له من نشاط علمي وثقافي تشهد عليه شخصيات كثيرة مثل الدكتور عبد الرحمن شهبندر في رسالة باسم "النادي العربي" تتضمن دعوة الإبراهيمي لإلقاء محاضرة فيه سنة 1919، وشهادة الدكتور جميل صليبا عن أستاذه[1]، ومن نشاط سياسي مؤيد لفكرة الجامعة الإسلامية.

3- **مرحلة الإرهاصات (1920-1931)**: قرر الإبراهيمي العودة إلى الجزائر سنة 1920، وفي نيته فكرة حركة تحيي الإسلام والعربية في الوطن وتنشر العلم، وتبعث الأمة، وأعجب بعد وصوله بالنتائج المثمرة التي حققها ابن باديس الذي كان يقود حركة ثقافية وصحفية بمدينة قسنطينة، فأقام بمدينة سطيف وانشأ بها مدرسة ومسجدا بعد أن رفض الوظيفة التي عرضت عليه من طرف السلطات الفرنسية وتعاطى التجارة ليقوم بأود عائلته، وبقي على اتصال باين باديس. وخلال هذه المرحلة تردد على مدينة تونس حيث كان يقيم أصهاره، وحيث كانت صداقات في الأوساط العلمية والأدبية.

4- **بدايات جمعية العلماء (1931-1940)**: في عام 1931 تأسست " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، كرد فعل إيجابي على احتفال فرنسا بمرور قرن على احتلال الجزائر، بعدما أيقنت أن الجزائر قد أصبحت إلى الأبد قطعة منها، مسيحية الدين، فرنسية اللسان، فجاء شعار الجمعية صارخا مدويا في وجه فرنسا، وراسما طريق الخلاص منها:" الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا". ووضع الإبراهيمي دستور الجمعية وقانونها الأساسي، وأصبح نائبا لرئيسها الإمام ابن باديس، ومنذ عام 1933 تكفل بالمقاطعة الغربية من القطر، واختار مدينة تلمسان مركزا نشاطه المكثف، وأسس فيها "مدرسة دار الحديث" سنة 1937، بنيت على نسق هندسي أندلسي أصيل، فكانت مركز إشعاع ديني وعلمي وثقافي، واحتوت على مدرسة ومسجد وقاعة محاضرات.

قيادة الحركة الدينية والثقافية بالجزائر (1940-1952) : بعد أن رفض الإبراهيمي رفضا قاطعا كل محاولات فرنسا لإغرائه واحتوائه، أو تثبيط عزيمته، قررت السلطات الاستعمارية نفيه إلى قرية آفلو

[1] مجلة" الثقافة" الجزائرية، عدد 87، مايو 1985، ص 55

في الجنوب الغربي من الوطن، في مطلع الحرب العالمية الثانية. وبعد أسبوع من تنفيه تلقى رفيقه الإمام عبد الحميد بن باديس-رحمه الله-، وخبر اجتماع أعضاء الجمعية وانتخابهم له رئيسا رغم الضغوط الفرنسية الرامية إلى انتخاب غيره، فتحمل مسؤولية قيادة الجمعية غيابيا، وتولى إدارتها بالمراسلة طول الأعوام الثلاثة التي قضاها في المنفى، وبعد إطلاق سراحه عام 1943، أصبح قائدا للحركة الدينية والعلمية والثقافية في الجزائر، يجوب ربوعها معلما وموجها ومرشدا، يوحد الصفوف ويؤسس المدارس والمساجد والنوادي ويهيئ العقول لساعة الصفر التي كانت تخطط لها نخبة من الحركة السياسية. وقد زج به في السجن بعد أحداث مايو 1945، وبقي فيه عاما كاملا ذاق الأمرين في زنزانة تحت الأرض حيث الظلمة والرطوبة، مما استدعى نقله إلى المستشفى العسكري بقسنطينة، فتحمل هذه المحنة بصبر المجاهد، ويقين المؤمن. وفي سنة 1946 استأنف نشاطه، فبعث جريدة "البصائر" من جديد في السنة الموالية بعد أن توقفت أثناء الحرب، وأشرف على تحريرها، كما أسس معهدا ثانويا أطلق عليه اسم رفيقه وصديقه المرحوم عبد الحميد بن باديس في قسنطينة، حظيت شهادته بالاعتراف من الجامعة الزيتونية ومن معاهد الشرق العربي.

الرحلة المشرقية الثانية (1952-1962): سافر الإبراهيمي إلى المشرق العربي للمرة الثانية عام 1952 ممثلا لجمعية العلماء ليسعى لدى الحكومات العربية لقبول بعثات طلابية جزائرية في معاهدها وجامعاتها، وطلب الإعانة المادية والمعنوية للجمعية حتى تستطيع مواصلة أعمالها وجهادها، والتعريف بالقضية الجزائرية في الأوساط السياسية في الدول التي زارها أو التقى مسؤوليتها، ولدى جامعة الدول العربية. وقد اتخذ من مصر منطلقا لنشاطه، ورعى فيها أولى البعثات الطلابية، وكان سفيرا للجزائر وصوتها المدوي، يلقي المحاضرات والدروس-خاصة في مركزي الإخوان المسلمين والشبان المسلمين- والأحاديث الإذاعية قبل الثورة التحريرية وفي أثنائها. وقد زار في هذا الشأن-بعد مصر- كلا من المملكة العربية السعودية، والعراق، وسوريا، والأردن، والكويت، وباكستان.

ووجه يوم 15 نوفمبر 1954- أي بعد أسبوعين من اندلاع الثورة- نداء إلى الشعب الجزائري، يدعوه فيه إلى الالتفاف حول الثورة المسلحة، وخوض غمار الجهاد المقدس.

من آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي(الجزء الأول) بتصرف

تهنئة الإبراهيمي بعضوية المجمع اللغوي

و هذه هنئة للشاعر الكبير الأستاذ محمد العيد، باسمه وباسم الأمة الجزائرية، للأستاذ الرئيس محمد البشير الإبراهيمي، بمناسبة انتخاب فضيلته عضوا مراسلا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، نشرت في العدد 264 من البصائر سنة 1954

حيي الرئيس الأريحي شمائلا ... العبقري فواضلا وفضائلا

وارفع إليه عن الجزائر كلها ... شكرا لطائله المخلد طائلا

فلقد أقام بها يجاهد مرشدا ... ويذود عنها بالبيان مناضلا

متصعبا في حقها متصلبا ... متسامحا في حقه متساهلا

غرس المدارس في الجزائر فازدهت ... بالنشء والتفت عليه خمائلا

فإذا رأيت بها رأيت ازاهرا ... وإذا سمعت بها سمعت عنادلا

جاب المشارق رائدا لبعوثها ... فصفت لهم عند النزول مناهلا

ثم انتحى صوب الكنانة فاتبرى ... فيها بأسواق الخطابة جائلا

حتى أقام على شفوف مقامه ... حججا لأرباب النهى ودلائلا

(المجمع اللغوي) فيها اختاره ... عضوا بإجماع الشيوخ مراسلا

هذا هو الشرف الذي ما فوقه ... شرف فباه به الجحود الناكلا

قل " للبشير" رفعت هامة أمة ... ذلت وشعب كان قبلك خاملا

ما زلت تكشف عن خفي نبوغه ... حتى تبين للنواظر مائلا

أحجلت أقطاب البيان فمن يكن ... سحبان أو قسا يلاقك باقلا

أدركت في الفصحى مدارك لم يكن ... في العصر ذو أدب إليها واصلا

باريت فيها المجد عبر محيطه ... والمجد لا يعدو المجد العاملا

ناهيك بالخطب الفصاح شواهدا ... أدهشت أشهادا بها ومحافلا

مهما خطبت أطبت لفظلك لهجة ... وأصبت في المعنى كلى ومفاصلا

تالله لا أوفيك حقك كله ... مهما نسجت لك المديح غلائلا

لا زلت في فلك المعارف كوكبا ... قطبا يلوح لنا وبدرا كاملا

المصدر: شعراء الجزائر: ديوان محمد العيد آل خليفة

الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1979 ص 411/410

العبْقريُّ الفذّ، "فخرُ علماء الجزائر":
العلاّمة محمد البشير الإبراهيمي

أ . سمير يحيى سمراد

جامعة الجزائر

" لم يكن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله شخصية عادية وإنما كان مجموعة من المواهب **والعبقريات**. كان آيةً في علمه الواسع وأدبه الرفيع وخلقه النبيل ودينه المتين وإخلاصه وسَعَةِ أفق تفكيره وبعد نظره, وإنكاره لذاته وتفانيه في خدمة أمته"[1], كان يعيش من أجل الدفاع عن الإسلام الحق والنهوض باللغة العربية في هذا الوطن العزيز, لقد كان مصلحًا دينيًّا واجتماعيا موفقا, ومفكرا حرًّا جريئًا, وإمامًا في السلفية , ناشرًا لها ومُثَبِّتًا لمبادئها, ونجمًا من نجوم الهداية, صدَّاعًا بالحق, قوَّالاً به, وحاملاً لراية الكفاح والنضال, لم يعرف الفشل والخَوَر, ولا الاستسلام والتقهقر, كانت حياته مشرقةً مملوءةً بجلائل الأعمال, **تَجَلَّتْ فيها عبقريته**, وبزغ من خلالها نجمه, وظهر نبوغه, وصدقت نظراته, وتحقَّقَتْ فراسته.

ونحن نعرضُ في هذه السطور الوجيزة لأبرز الشواهد على ذلك, ونقف مع بعض مجهوداته وجهاده في سبيل الإصلاح الديني, وشيءٍ من الأعباء التي تحمَّلَها, والتضحيات التي بذلها، كل ذلك بإخلاص وعزم متين، ونفسٍ موقنة مطمئنة.

مولده:

"وُجِدَ بخط جدِّه العالم ناصر السنة, وقامع البدعة, الشيخ عمر الإبراهيمي في كتاب أرَّخَ فيه لمواليد الأسرة ووَفَيَاتهم ما نصه : **"أنعم الله على ولدنا محمد السعدي بمولود ذكر بعد ثلاث بنات متواليات عند طلوع الشمس ليوم الخميس الرابع عشر من شهر شوال**

---

[1] – رسالة العالم المغربي : إبراهيم الكتاني, ضمن "مذكرات الشيخ خير الدين"(405/1).

عام ستة وثلاثمائة وألف, ولاستبشارنا بطلعته سميناه محمد البشير, أحياه الله, وجعله من رجال العلم النافع, والعمل الصالح وجعله قاطعا للضلال , آمين"[1]

نشأته وتعلمه :

(وُلِدَ ونشأ بدائرة "سطيف" في قبيلة ريغة الشهيرة بأولاد ابراهم , قرب بلدة "رأس الوادي"), وهو موطن من مواطن بني هلال, فأخذ العلم في بيت أسرته عن عمه : الشيخ محمد المكي – وكان علاَّمةً جليلا–. وقد رزقه الله قوة الحافظة, فما بلغ التاسعة من عمره حتى حفظ القرآن الكريم وآلافًا من أشعار العرب, وعددًا من المتون العلمية المشهورة للتدريس إذ ذاك: كالتلخيص, وجمع الجوامع, وألفية ابن مالك, وألفيتي العراقي في السير وعلوم الأثر, ورقم الحلل في نظم الدول لابن الخطيب, والشاطبيتين في القراءات والرسم, وتحفة ابن عاصم الأندلسي. كما حفظ بعد التاسعة موطأ الإمام مالك ومقدمة صحيح مسلم, والمعلقات, والمفضليات. وكانت لعمه في تربيته طريقة توافق استعداده, وهو أنه كان معه في دراسة مستمرة لا تقطعها عنه إلا ساعات النوم, فكان يُلَقِّنُهُ, ويملي عليه ويشرح له, ماشيا وقاعدا, وفي جميع الأحوال إلى أن يأخذه النوم, كل ذلك مجاراة لحفظه, وذكائه, واستعداده الفطري. فقد رأى منه استعدادا خارقًا وحافظة ملتهمة وذاكرة لا تُفْلِتُ شيئًا, فكان منه ما كان. وقد كان عمره يوم مات عمه أربعة عشر عاما, وختم عليه وهو في مرض الموت الفصول الأخيرة من ألفية ابن مالك بشرح المرادي. وقد أجازه عمه بتدريس العلوم التي علم أنه أتقنها عليه, فانتصب للتدريس وهو ابن خمسة عشر عامًا, واستفاد منه الناس الذين حضروا دروسه وكانوا أكبر منه سنًّا.[2]

---

[1] – "السيرة الذاتية للشيخ الإبراهيمي" من إملائه على تلميذه : الأستاذ بشير كاشة الفرحي ط.دار الآفاق -الجزائر.

[2] – "السيرة الذاتية من إملاء الإبراهيمي"، و"آثار الإبراهيمي"(5:273 274).

الهجرة الأولى للاستزادة من العلم:

كان والده قد سبقه بالهجرة إلى البلاد المقدسة هاربًا من ظلم فرنسا واختار الاستقرار في المدينة. كتب إلى ولده يحثه على اللحاق به, فلحقه بعد سنتين أو ثلاث قضاها في التَّحَيُّلِ على الخروج من قبضة فرنسا, فقد ضيقت عليه الخناق بعد هجرة أبيه, فكان وصوله المدينة بعد مروره (بمصر) وبقائه فيها ثلاثة أشهر في أوائل عام 1330هـ, ولما وصل إلى المدينة فتح دروسا في العلوم التي يُتقنها, ولازم حلقة الشيخ محمد العزيز الوزير التونسي, خمس سنوات كوامل درس عليه جانبا عظيما من الموطإ دراسة تحقيق, وجانبا من مختصر خليل.

وقامت ثورة الشريف حسين على الأتراك في السنة الثانية من سنوات الحرب, وتداعت أحوال المدينة من اليسر إلى العسر, ومن السعة إلى الضيق, حتى أخرج أهلها كلهم إلى الشام, فخرج إليها مع والده, واستقر في (دمشق), في أواخر عام 1916م, ودرس فيها ببعض المدارس الحرة, واحتفى به جماعة من علمائها وأفاضلها الذين عرفوه في المدينة, ثم شاع ذكره في المحافل العلمية والأدبية, ودهش الملتفون حوله من ذاكرته, وحفظه للغة والآداب, والحديث.

ألقى دروسا جامعة بالجامع الأموي, ودرس بالمدرسة السلطانية [1]. "وفي سنة 1921م عاد إلى الجزائر مقتنعا بما اقتنع به عبد الحميد من قبل من أن العمل المنتظر منه إنما ميدانه الجزائر, واتصل فور رجوعه برائد النهضة ابن باديس "[2]

تأثره بالسلفية:

"ورث الشيخُ النزعة السلفية من أسلافه, فقد كان بيته بيت علم منذ ثلاثة قرون, ونبغ من هذا البيت عدة علماء ممتازين في الحقبة المذكورة وكانوا مرجعا في الفتوى والأحكام

---

[1] – المرجع نفسه.

[2] – "مذكرات الشيخ خير الدين"(1/ 414).

والتعليم للقبائل المتجاورة,...وجرى علماء البيت كلهم على حرب البدع والتشدد في الإنكار على أهلها وإقامة السنن الثابتة في خاصتهم وفي أتباعهم ولهم مواقف مشهورة في إقامة النكير على ضلالات العقائد وعلى أوهام مشايخ الطرق, ولجده الأدنى –الشيخ عمر الإبراهيمي– أرجوزة متداولة في التشنيع على هذه الطرق ومشائخها والمنتسبين إليهم,

[المالكية السلفيون:]

وإن كان علماء هذا البيت يرجعون في الفروع إلى مذهب مالك السائد في الشمال الإفريقي وكانوا قائمين عليه متبحرين في الفرعيات, ومذهب مالك مبني على الأثر وعمل أهل المدينة –كما هو معلوم– ولذلك فهو يزرع في مقلديه حب الأثر والرجوع إليه كما يظهر ذلك جليًّا في سيرة أئمة من فقهاء الأندلس والقيروان والحجاز والعراق, فالعلماء أجداد الشيخ كانوا على هذا المشرب وإن لم يكن لهم توسع في علوم الحديث وروايته لكنهم كانوا متأثرين بالسنن العملية عاملين بها واقفين عند حدودها منكرين على مخالفيها. هذا هو السبب الأصيل في تأثر الشيخ بالسلفية

[عنايتُهُ بكتب السُّنَّة والحديث : رواية ودراية]

ثم رزقه الله من الصغر بما يقربه من الحديث ويصله به, وهو الحافظة فقد وجهه عمه ومربيه إلى حفظ الأنفع قبل النافع. فحفظ في صباه كثيرا من متون الأحاديث وأسانيدها وطرائقها وطبقات المحدثين فكان ذلك كله جاذبا له إلى السنة وسيرة السلف, وكان في صباه متعطشا إلى الاطلاع على أمهات السنة وإلى كتب فقه السنة التي تمر به أسماؤها في أثناء مطالعاته في الكتب والتراجم حتى هاجر إلى المدينة –كما أسلفنا– فوجد ما يروي ظمأه في مكتباتها الزاخرة بتلك الأمهات فاستوعبها مطالعة وحفظا لعلومها وبحث من أول يوم عن كتب أئمة الإصلاح وأنصار السنة وكبار فقهائها كالقاضي أبي بكر بن العربي والقاضي أبي الوليد

الباجي, والحافظ ابن عبد البر, والحافظ أبي محمد ابن حزم وخاتمتهم بالأندلس أبي إسحاق الشاطبي.

[عنايتُهُ بكتب شيخي الإسلام: ابن تيمية وابن القيم:]

واستوعب لأول قدومه كتب شيخي الإسلام ابن تيمية وابن القيم, واطلع على تاريخ الحروب التي شنها علماء ذلك العصر المتأثرون بالمذاهب على أئمة السنة ودعاة الإصلاح فزاده ذلك كله قوة ورسوخا في النزعة السلفية
وصلابة في الدعوة إليها والذَّوْدِ عنها

[اطلاعُهُ على مؤلفات شيخ الإسلام ابن عبد الوهاب، وتاريخ دعوته:]

كما اطلع في ذلك على مؤلفات شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وتاريخ دعوته وما صاحبها من إنكار المنكرين واستخلص الحق لنفسه من ذلك كله,

[حالةُ الحجاز في العهد العثماني:]

وإن كان ذلك العصر وأهله وحكومته العثمانية ينظرون إلى هذه الدعوة وأصحابها نظرهم إلى المارقين و لم يكن بالمدينة إذ ذاك عالم واحد يجهر بكلمة الحق حتى المحدِّثونَ منهم[1],

---

1 – لقد أحسن الدكتور(صالح الخرفي)–رحمه الله–, وهو يذكرُ أمر(الوهابيَّة)–وهي مجرَّدُ وَهْمٍ؛ (لا حقيقة له ولا وجودا)–, وما توهمه بعضُهُمْ –أيضًا– من أن المصلحين في الجزائر, قد تبنَّوا مذهب(الوهابية)!, وأتوا به من(الحجاز)!!؛ قال في كتابه:"الشعر الجزائري"(ص:69-70): (وربما التبس الأمر على الكثيرين ممن سموا الحركة الإصلاحية في الجزائر(بالوهابية) وربما ظنها البعض الآخر امتدادًا لها. وقد يجدون مبررا لذلك في أن أغلب زعماء الحركة في الجزائر قد أمضوا فترات ليست بالقصيرة في الحجاز, غير أن(البشير الإبراهيمي) ينفي هذا الوهم ويبدد هذا اللبس, حين يقول: (وإن هذه الفئة التي رجعت من الحجاز بالهدي المحمدي الكامل, قد تأثرت بالإصلاح تأثرا مباشرا, مستمدا قوته وحرارته من كلام الله وسنة رسوله مباشرة, ولم تكن قط متأثرة بحال غالبة في الحجاز, فلم يكن للإصلاح في ذلك الوقت شأن يذكر في الحجاز إلا في مجالس محدودة, وعند علماء معدودين)["السجل"(ص:42)]), وقال (د.الخرفي) في هامش(ص:70): (...ويمكن أن نضيف بأن الحركة الوهابية كانت محصورة في(نجد) إبان وجود الجزائريين في الحجاز, ويوم دخل عبد العزيز مكة كان هؤلاء قد انتقلوا إلى الجزائر)هـ... وأضيفُ: أن الإبراهيميَّ –نفسه–, قد ...

ولكن الشيخ كان بلباقته وهدوئه واقتداره على نقل الحديث من الدين إلى الأدب والمُلَح أو إلى التاريخ كان بذلك يبث الدعوة بين طائفة من الشباب الأذكياء من زملائه, ودام ذلك خافتا إلى أن انتقل إلى الشام في أثناء الحرب الأولى_كما ذكرنا_

[الهجرة إلى الشام:]

فاتصل فور قدومه بصَفِيِّهِ وصديقه [العالم السلفي] الأستاذ محمد بهجت البيطار وجماعة قليلة من تلامذة عالمي الشام الجليلين الشيخ عبد الرزاق البيطار, والشيخ جمال الدين القاسمي, فاتصل حبلهم بحبله واشتد عضدهم به ووجد فيهم الرفقة الصالحة, ولكن صوت الدعوة كان خافتا بالشام لقوة سلطان العلماء المنابذين لها, ومن ورائهم سلطة الحكومة وسلطان العامة ويؤيد ذلك كله الشلل العام الذي يصحب الحروب, فكان هؤلاء الجماعة-على قلتهم- يجتمعون ويفترقون على ذكر السلفية وعلى كتب ابن حزم, وابن تيمية, وابن القيم, والشوكاني, وعلى الآراء التي انتشرت في العالم الإسلامي عن الشيخ محمد عبده, وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا, وكانوا يديرون الخِطط للدعوة السلفية متى خفت العراقيل القائمة في طريقها وكذلك كان[1]

ماذا وقع بعد رجوعه إلى الجزائر؟:

كان ابن باديس تعاهد مع الإبراهيمي بالمدينة المنورة (سنة 1331هـ)(1912م) على نشر دعوة الحق والعلم بالجزائر, إذا رجعا إليها فرجع ابن باديس من سنته تلك بعد أداء الفريضة وشرع في التعليم بمدينة "قسنطينة" ,فاجتمع مئات من الطلاب في السنة الأولى ورتب منهاجا للدروس,... ولما رجع الإبراهيمي إلى الجزائر, وجد رفيقه الشيخ عبد الحميد بن

بأن(أشياخه في الحجاز, كانوا:"متهورين في الضلالة"!, انظر: مقالي في"ترجمة الشيخ محمد نصيف", في مجلة"الإصلاح", العدد:(5).

[1] فصل (تأثره بالسلفية) وما تحته من فروع , مأخوذٌ من "السيرة الذاتية التي أملاها الإبراهيمي على تلميذه بشير كاشة الفرحي".

باديس –رحمه الله– قد سار في التعليم الحر أشواطا بعيدة وتخرج على يده مئات من الشبان يحملون فكرًا صحيحًا , وعقيدة سليمة, وهممًا كبيرة, قد هيأهم للدعوة, فتسلَّحوا بقدرٍ كافٍ من العلم مع ألسنة تخطب , وأقلام تكتب.

ولما سمع ابن باديس بقدوم رفيقه وأخيه الإبراهيمي سارع إلى لقائه بتونس, معبرًا بذلك عن حبوره بعودته وسروره برجوعه[1]

فتعاهدا من جديد على ما اتفقا عليه بالمدينة المنورة من قبل ثمان سنوات ,

ومن يومئذ بدأ التعاون وبدأت الدعوة بحركة بطيئة وبدأت الإرهاصات تظهر متلاحقة, ثم تعززت الحركة برجوع طائفة كانوا في الشرق من أبناء الجزائر وفي مقدمتهم الشيخ الطيب العقبي[2]. وأسس ابن باديس جريدة "المنتقد" لتكون أداة لنشر الدعوة فالتقت عليها أقلام الكتاب والشعراء فكانت تقذف الحِمَم على الطرقية وعلى الاستعمار الذي يؤيدها, وضاقت بها الحكومة ذرعا فعطَّلتها, فأنشأ ابن باديس جريدة"الشهاب".

وحلَّ الإبراهيمي ببلده"سطيف" وبدأ من أول يوم في العمل الذي يؤازر عمل أخيه ابن باديس.

وتخصص الإبراهيمي بنشر الدعوة في أوساط الجماهير لأنه كان أقدر على إقناعهم وكانوا أكثر اتصالاً به لأسباب اجتماعية خاصة, وهو أقدر الناس على هذا الميدان. دام الحال على هذا في التهيئة والإعداد, دروسا عامة ومحاضرات واغتنام الفرص في كل اجتماع لبث الدعوة, والتشنيع على الضالين بجميع الوسائل, والفصل بينهم وبين الطرقية التي غشيهم ظلامها وضلالها قرونا, وكان الشيخ الإبراهيمي أوثق الجماعة صلة بالجماهير الذين هم موضوع الدعوة, وكان يتعاطى سببا يقوم بضروريات أسرته كالتجارة و لفلاحة وينفق كل

---

[1] – "السيرة الذاتية.."، و"آثار الشيخ الإبراهيمي"(26/1).

[2] انظر: ترجمته –بقلمي– في مجلة"الإصلاح"[التي تصدرها دار الفضيلة–الجزائر], العدد(3), بعنوان: (الشيخ الطيب العقبي: خطيب السلفيين وشاعرهم).

وقته في التنقل إلى المراكز المختلفة[في المدن العامرة والقرى] محاضرًا داعيًا مُذَكِّرًا من غير أن يقطع الدروس المنظمة في بلده للشبان والكهول والشيوخ[1] .

وكانت أعماله هذه في التعليم فاترةً أحياناً لخوفه من مكائد الحكومة الاستعمارية, التي كانت تراقب تحركاته, ولا تطمئن لها, مع أنه كان يتغطى لها بأنواع من المخادعة, فقد تظاهر لها عدة سنين بتعاطي التجارة وغشيان الأسواق.

ـــ وهذه شهادةٌ: من نائب صحيفة"المنتقد"[2] (الشيخ الأديب:محمد بن العابد الجلالي).

يقولُ(صيف سنة:1925م): (...سطيف **وهناك قابلتُ نبراس العلوم مبيد ظلمات الجهل محطم قيود التقليد الفاسد الأستاذ الشيخ البشير الإبراهيمي فأراني كيف لا يؤثر النقصان الجسمي[3] في نقصان الهمم والقعود عن الواجبات فهو في سائر حالاته سواء كان ماشيا أو جالسا في المدرسة أو في القهاوي الفرنجية يفيدك من الدروس الممتعة والنكات اللطيفة ما لا تستفيده من غيره في دهر**, وإنّي لأرى أهالي سطيف في غفلة كبيرة حيث لم يأخذوا حظهم من بحره الزاخر وهم في ظمإٍ لِسَلْسَبِيلِهِ مع ما نعرفه من شهامتهم وشدة ذكائهم ولعلهم يلتفتون إلى نصيحتي فيتداركون ما فاتهم..)اهـــ.

وفي هذه الفترة ما بين سنتي(1920م) و(1930م) كانت الصلة قوية بينه وبين ابن باديس. وكانا يتلاقيان في كل أسبوعين أو كل شهر على الأكثر, يزوره في بلده (سطيف) أو يزوره هو في قسنطينة, يَزِنَانِ أعمالهما وآثار ما يخططان له في الشعب, حتى يمكنهما المواصلة. والمضي في خطوات أخرى, كانا قد اتفقا عليها, ووَضَعَا برامج مفصلة لها.[4]

---

1 - "السيرة الذاتية..." – بتصرف-.

2 جريدة: "المنتقد", العدد(6)/16محرم1344هـ/6أوت1925م.

3 يشيرُ إلى عاهة الشيخ؛ وهي العرَجُ!

4 - "آثار الشيخ الإبراهيمي"(5/280.

(كان ابن باديس قد أدرك قيمة الإبراهيمي العلمية وتجاربه الصحيحة [وعقله الوافر, وذكاءه الوقّاد,]وإخلاصه الصادق, فاتخذه مستشارًا ووزيرًا, لا يَصْدُرُ عن أمرٍ إلاّ بإشارته)[1]

وفي هذه الفترة لم يظهر له أثر, في الكتابة في الجرائد التي أنشأها ابن باديس:"المنتقد" و"الشهاب", كما ظهر لغيره, من العلماء والأُدباء, وقد ذهب بعضُهُمْ إلى أن ذلك (لأسباب غامضة)[2] ولكن الذي يظهر أن الإبراهيمي, تخصَّصَ في هذه الفترة بالذات للاحتكاك بفئات الشعب المختلفة, يراقب الأوضاع ببصيرة نَفَّاذَة, ويَتَحَسَّسُ درجة الوعي والتفكير في الأمة, ويدرس نفسية الناس دراسة متأنية عن مقربة,

دوره في مشروع ابن باديس/أو"جمعية الإخاء العلمي"1:

ولقد كانت (فكرة جمعية العلماء) تُراود الإبراهيمي وابن باديس, وكانت من الأهداف التي كانا يعملان لأجلها, فكان ذات يومٍ أن زاره أخوه ابن باديس بمدينة (سطيف) زيارة مستعجلة في سنة 1924م, وأخبره أنه عَقَدَ العزم على تأسيس جمعية باسم (الإخاء العلمي), تجمع شمل العلماء والطلبة وتُوَحِّدُ جهودهم في مقاطعة قسنطينة, وتَحَمَّسَ لها ابن باديس جدًّا, وجعل يعدد من فوائدها ومنافعها, لكن الإبراهيمي [المتخصص في دراسة النفسيات, العارف أكثر من غيره بحال الأمة] استَبْعد هذا المشروع الآن عملاً وواقعًا!, لكنه لم يشأ أن يكاشف أخاه خشية أن يُثَبِّطَهُ, فسايره في الفكرة, وعهد إليه ابن باديس بأن يضع قانونها الأساسي, فوضعه في ليلة, وقرأه عليه في صباحها, فاغتبط به ابن باديس أيما اغتباط. وما لبث ابن باديس بعد أن رجع إلى قسنطينة , يخطو خطواتٍ في العمل حتى تعطل المشروع لأسباب, فلم يستغْرِبْ الإبراهيمي لذلك, لعلمه بأن الأمة لم تنضج بعد للنهوض بمثل هذا العمل العظيم[3]

---

1 كتاب"الإمام الرائد ..." للطاهر فضلاء.

2 – "مذكرات الشيخ محمد الصالح ابن عتيق".

3 – "سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.." (ص:53).

وعن هذه العراقيل التي اعترضت طريق المصلحين, يقول: بسبب أن الاستعمار كان قد بلغ غايته في صرف الأمة عن التفكير في كل نافع,

والشعوب إذا بلغت هذه الدرجة من الغفلة وموت الشعور فإن أصوات الحق والخير لا تجد منافذها إلى النفوس ويصعب على الدعاة أن يؤدُّوا واجبهم في الدعوة, وأيسر ما يقع في مثل هذه الحالة أن يختلط صوت الحق وهو ضعيف خافت بأصوات الباطل وهي جهيرة عالية, ولا يتميز صوت من صوت إلا بصبر من الدعاة واستعداد من المدعوين.[1]

مشاريعُهُ العلمية الدعويّة في"سطيف":

سعى الإبراهيمي ــ زيادة على صيحاته في الجماهير؛ يدعوهم إلى العلم ــ إلى إحداث نهضة تعليمية بمدينة سطيف, فتمكّن(سنة:1924م) من تأسيس مدرسة صغيرة, لتكوين الطلبة, وتسليحهم بالعلم, وبعد بضع سنين أسَّسَ مسجدًا ببلدة "رأس الوادي", وشهد افتتاحه ابن باديس, الذي ذكر أن الإبراهيمي ألقى فيه خطابا عظيمًا[2], ثم ليؤسس (سنة1931م), مسجدًا كبيرا بمدينة سطيف[3]

تأسيسهُ لجمعية خيرية علميَّة!:

ومِنْ (إنجازاتِهِ) غير ما ذكر, وهو في بلدة(سطيف), ما وقفتُ عليه في صحيفة"النجاح"القسنطينية[4]؛ تحت عنوان: (ضيف معتبر): (في الأسبوع الفارط حل بالمدينة النابغة المحقق العلامة الأكمل صديقنا الشيخ البشير الإبراهيمي نزيل رأس الواد وقد نزل بالمدينة ضيفا محترما بين رجال العلم وذوي الهيآت **لما للشيخ من المكانة العلمية والنزاهة العالية التي لا يُبَاريه فيهما مباري بهذه الديار** و لم يكن مكثه لدينا إلا يوما واحدا

---

1 - "السيرة الذاتية.." - بتصرف -.

2 - انظر: (السياق التاريخي)؛ بين يدي:"آثار الشيخ الإبراهيمي"(29/1).

3 - "آثار الشيخ الإبراهيمي"(27/1-29).

4 - "النجاح", العدد(247), 30ربيع الثاني1344هـ/17نفامبر1925م/ص:2.

ثم ودعنا بكل أسف تاركا من بعده ذكرا جميلا وسمعة حسنة. وقد كان السببُ لزيارة الشيخ هذه البلاد مشروع قد عزم على إقامته برأس الواد وهو إقامة جمعية خيرية إسعافية للفقراء والمساكين وذلك بمناسبة قدوم الوطني الأمثل نائب الأمة السيد السماتي عبد القادر الذي قدم إلى العمل بالمجلس العمالي الذي انعقد أخيرا والمقصود من ذلك الحصول على رخصة من الحكومة للجمعية المذكورة وبالفعل قد وقع الإحراز عليها. من أهم فصول هذا الجمعية المباركة نشر التعليم وتغذية الفقير أيضا بالعلوم إلى غير ذلك من الفوائد العاجلة والآجلة. فنرحب بحضرة الشيخ البشير راجين له نجاح مشروعه بل مشروع الأمة الذي يجب على كل غيور مد يده إليه بقدر الاستطاعة)اهـــ.

قلتُ: نشرت جريدة"النجاح" أخبارًا عن هذا المشروع-فيما بعدُ-؛, لكنْ : لا ذكر للشيخ الإبراهيمي فيهِ؟!, ويبدو أن هذه الجمعية وجهود أعضائها الظاهرين والمختفين!, أسفرت عن تأسيس المسجد والجامع المذكورين آنفًا, اللذين تظاهرت شهاداتُ أهل العلم والفضل في المنطقة على الإشادة بعزم الشيخ الإبراهيمي ودوره في إبرازهما.

في ميدان الكتابة:

ثم يظهر أخيرًا اسم الإبراهيمي ضمن كُتَّاب "الشهاب", فكان أن ألقى محاضرةً في نادي الترقي بالعاصمة (سنة 1929م), عنوانها (التعاون الاجتماعي)؛ نُشرت في ثلاثة أجزاء , علّق عليها صاحب "الشهاب"(ابن باديس) بقوله:

(الأستاذ الإبراهيمي صاحب هذه المحاضرة نَعُدُّهُ-بحقٍّ- من أعيان الطبقة الأولى من كتاب الجزائر وخطبائها وأدبائها ومفكريها ورجالها العاملين على نهضتها. وهو اليوم يباشر الأعمال المالية في ناحيته بعلم وأمانة ونشاط, ويعلم الناس هذه الصفات الثلاث في التجارة تعليما عمليا كما يدعوهم دائما إليها بقوله. مضت مدة على هذا الأستاذ كنزًا دفينًا لم تجن الأمة ثمرات يراعه, وطالما وجهنا إليه عَتْبَ الصديق على صديقه فيعتذر ويعتذر, إلى أن ألقى محاضرته هاته بنادي الترقي العظيم بالعاصمة, وجاءنا بها من عنده

أحد مخلص أصدقائه. نقدم شكرنا وشكر قرائنا للأستاذ ونستزيده من هذه الدُّرَر الغوالي لنبثها بين أبناء دينه ووطنه, دام لهما)[1]

دورُهُ في تأسيسِ "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين":

لما دبَّ في الأمة الجزائرية دبيب الحياة وقوي فيها الشعور بسوء الحالة التي هي عليها, وتجلى هذا الشعور بالعمل في عدة نواح, من أعظمها, الإقبال على القراءة والتعلم,..البذل على العلم والتغرب في سبيله,.. تشييد المساجد في القرى والإنفاق عليها من مال الأمة الخالص, كما تجلى في الناحية النفسية بالتفكير الجدي المستقيم,[2]

ولما وجد الاستعداد في الأمة ظهر هذا المشروع العظيم (جمعية العلماء), وأعلن تأسيسها في شهر ماي سنة 1931م, وقد صاغ لها الإبراهيمي: قانونًا أساسيا مختصرًا, وكان من بصيرته, وهو العارف بأحوال الأمة, والحرب قد شبت بين المصلحين والطرقيين, أن لم يصرح بغايات الجمعية ومقاصدها!, بل أجمل القول واقتصر على ما تألفه أذهان الخاصة والعامة, من ذلك لما كان اجتماع ولا كانت جمعية.قدم القانون الأساسي للحكومة ليأخذ صبغته القانونية وهو مجمل قاصر على أن وظيفة الجمعية هي محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر, والميسر, فقبلت الحكومة من غير تردد لأنه غير مثير للمخاوف الاستعمارية, وأصبح وجود هذه الجمعية قانونيا.[3] وكان فيها من الموظفين الحكوميين, ومن الطرقيين, ممن تتسلى بوجودهم الحكومة, وترضى عنهم.

---

[1] – "آثار الشيخ الإبراهيمي"(58/1).

[2] – "سجل المؤتمر.."(ص:57).

[3] – "السيرة الذاتية ..".

وانقضت السنة الأولى في وضع اللوائح وتخطيط الأعمال والمناهج البعيدة المدى, وكان الذي تولى ذلك كله الأستاذ الإبراهيمي **لاختصاصه في هذا النوع من النظم المبنية على روح المجتمع فشكر له إخوانه ذلك ووَكَلُوا إليه هذه الأعمال, وهي روح الجمعية وزمامها**[1]

وضع الإبراهيمي للجمعية لائحة داخلية تشرح أعمالها, كما هي في ذهنه وذهن أخيه ابن باديس, وهما أول من فكر في هذا المشروع , وأعدَّ له, لا كما كانت تتصوره الحكومة وأعوانها المضللون ممن كان في الجمعية.

انتبذ الإبراهيمي ناحية, ووصل طرفَي ليلة في سَبْكِهَا وترتيبها, فجاءت في 147 مادة, وتلاها على المجلس الإداري لمناقشتها في ثماني جلسات من أربعة أيام, وكان يحضر الجلسات طائفة كبيرة من المحامين والصحافيين العرب المتقفين بالفرنسية, فأعلنوا في نهاية عرض اللائحة إيمانهم بأن العربية أوسع اللغات, وأنها أصلح لغة لصوغ القوانين ومرافعات المحامين, وكأنما دخلوا في الإسلام من ذلك اليوم.

وخطب ابن باديس رئيس الجمعية عند تمام مناقشة اللائحة وإقرارها بالإجماع خطبة مؤثرة أطرى فيها الإبراهيمي, وكان مما قال: (**عجبتُ لشعب أنجب مثل فلان أن يَضِلَّ في دين أو يخزى في دنيا, أو يذل لاستعمار.** ثم خاطبه بقوله: (**وَرِيَ بك زِنَادُ هذه الجمعية**)[2]

ولقد وجد في أوراق الإبراهيمي كراسة مرقمة من ورقة10 إلى ورقة 55, هي مسوَّدة القانون الداخلي للجمعية, مؤرخة بسطيف سنة1931, ويبدو أن الأوراق التسع الأولى المفقودة كانت تمثل القانون الأساسي, الذي ليس فيه تصريح بغايات الجمعية, وبرنامجها التفصيلي, والذي قال عنه الإبراهيمي أنه مجمل وقاصر!

وقد كان في المجلس الإداري أُولُو بقية ممن يخضعون للزوايا وأصحابها, فما كان من الإبراهيمي وابن باديس إلاّ أن "صرحوا من أول يوم بأنهم سائرون بهذه الجمعية على المبدإ

---

[1] – المرجع السابق.

[2] – "آثار الشيخ الإبراهيمي"(281/5).

الذي كانوا سائرين عليه من قبلها ومنه محاربة البدع والخرافات والأباطيل والضلالات ومقاومة الشر من أي ناحية جاء"[1].

فأسرُّوا لها الكيد في الباطن, ودبَّروا لها مكيدة في الخفاء, في انتخاب المجلس الإداري, ليبعدوا عنها العلماء الكبار وأصحاب العقول المدبرة مثل ابن باديس, والإبراهيمي. وقف المصلحون لتلك الهجمة وقفة حازمة أنقذت الجمعية من السقوط, ومحَّصَتْها من هؤلاء الرهط, وتألَّفَ المجلس الإداري من زعماء الإصلاح, فاستقلوا بتسيير الجمعية, وأجمعوا على رئاسة ابن باديس ونائبه الإبراهيمي.

وفي فصل(مقاصد الجمعية وغاياتها), ذكر الإبراهيمي أن الجمعية تجري في عملها الديني (على الرجوع إلى صريح الكتاب وصحيح السنة , ثم الرجوع إلى الإجماع الثابت والقياس الجلي فيما لا نص فيه, ثم الترجيح فيما اختلفت فيه الأنظار والاجتهادات), وبعد أن ذكر جملة من الوسائل التي تستخدمها الجمعية, قال: (بهذه الوسائل نفسها تتوسل الجمعية لإماتة البدع والخرافات المخالفة للدين, ولإحياء السنن الصحيحة الثابتة..), وعن علاج أدْوَاء المجتمع الجزائري, وخاصة من الجهة الدينية, أعطى نموذجًا لإصلاح العقيدة, فقال :(والعقيدة الحَقَّة لها ميزان دقيق وهو الكتاب والسنة, فإذا عرضنا أكثر عقائد الناس على ذلك الميزان وجدناها طائشة, فأي سبيل نسلكه لتقويمها,إن اقتصرنا على بيان العقيدة الصحيحة واجتهدنا في إقامة الأدلة,فإن التأثير يكون قليلا, لأن النفوس قد اصطبغت بعوائد وتقاليد مستحكمة, والفِطَرُ قد فسدت بما لابسها من خرافات وأوهام, فالواجب إذن أن نبدأ بمحاربة تلك البدع والخرافات بطرق حكيمة تقرب من أذواق الناس, فإذا ماتت البدع والخرافات وصَفَتِ الفِطَر من ذلك الشَّوْب سَهُلَ تلقين العقيدة الصحيحة وتلقتها النفوس

[1] "سجن المؤمن.."(ص:58-59).

بالقبول)[1] . وهذا مثالٌ من حكمة الإبراهيمي, وتفهُّمِهِ لنفسية الأمة, التي هو بصدد علاج أمراضها, وقيادتها إلى الخير.

(وقد تمكَّن الإبراهيمي بعبقريته الفَذَّة أن يفهم المشاكل الجزائرية فهما عميقا, وكانت آراؤه في مجلس جمعية العلماء محل تقدير إخوانه, حتى إن الأستاذ الرئيس ابن باديس كان ينزل عند رأيه)[2]

مضت الجمعية في أعمالها, **"وكان الاعتماد في تسيير الجمعية وفي سبك القرارات والبلاغات والاحتجاجات على الإبراهيمي "**[3]

في مواجهة الطرقية والفساد الدينيّ:

"وقد وجهت الجمعية في السنوات الأولى كل جهودها إلى حرب الطرقية- بتدبير واتفاق بين الإبراهيمي وابن باديس-, لأنها منبع الضلال في العقائد والعبادات", وعملوا على القضاء على نفوذها في الأمة, لأنها هي الدعامة الكبرى للاستعمار, وهي تلتقي معه في الغاية التي هي الاستغلال, والإلهاء والتخدير [4] فنظَّمت الجمعية "حملة جارفة على البدع والخرافات والضلال في الدين, بواسطة الخطب والمحاضرات ودروس الوعظ والإرشاد في المساجد والأندية والأماكن العامة والخاصة", وبواسطة الجرائد الخاصة التي أنشأتها لخدمة الدعوة الإصلاحية"[5] ، وكان سلاح الجمعية في حرب الطرقية وفتح العيون على مخازيها هو دروس التذكير بالقرآن, وبيان السنة المحمدية الصحيحة, وتكوين المسلمين الأولين على طابع الكتاب والسنة, فأقبلت الجماهير على تلك الدروس وبدأت سحب الظلام تنقشع عن

---

1 - "الآثار"(1/84-86).

2 - كتاب"الإمام الرائد.." للأستاذ: طاهر فضلاء.

3 - "السيرة الذاتية..".

4 - المرجع السابق.

5 - "الآثار"(5/282).

أدهانهم وزالت العقائد السخيفة في مشائخ الطرق من نفوسهم فانفضوا من حولهم وأصبحوا يجاهرون بالنكير [1]

وحقد الطرقيون على الجمعية, ورموها بأنها تعمل لنشر الوهابية, وجعلوا من هذا الاسم سُبَّةً لها, للتنفير عنها, كما رموها بالكفر .. والإلحاد..والإفساد,... وكشَّر الاستعمار عن أنيابه, وتنكَّر لها, فعمل على إصدار القرارات الجائرة, التي تمنع العلماء من إلقاء الدروس في المساجد الواقعة في قبضته, وكان ذلك بوحْي ووشايات متكررة من رؤوس الطرقية وشيوخ الزوايا, وقد فرحوا لقرار المنع, وإغلاق المساجد في وجوه العلماء.

فكرةُ الإنتقال إلى تلمسان:

وفي السنة الثانية"قسمت الجمعية المقاطعات الثلاث التي تنقسم إليها الجزائر ليقوم في كل مقاطعة عالم كفء بإدارة هذه الحرب مع الطرقية [بقي ابن باديس في قسنطينة, للإشراف على الدعوة في جميع المقاطعة الشرقية,

وخصّ الطيب العقبي بالجزائر ومقاطعتها(الوسط)], وكانت المقاطعة الغربية [المجاورة للمغرب الأقصى] وهي "عمالة وهران" أبعد المقاطعات عن العلم وأشدّها رسوخًا في ضلال الطرقية والتمسك بها والتشدُّد في إقامة عوائدها الباطلة وعقائدها الزائفة يضحُّون في سبيلها بكل ما يملكون ويرون أنها هي الدين لا دين غيره [2]

كان ابن باديس قد زار تلمسان سنة 1932, وألقى بها درسًا, و"رَغِبَ بعضُ مصلحي تلمسان من ابن باديس أن ينتقل إليهم, فقال لهم: **أُشير عليكم بمن هو أقدر مني وأجدر**,"، أو قال : **سأُرسل إليكم من هو أعلم مني** [3]

---

1 - "السيرة الذاتية..".

2 المرجع السابق.

3 "الأثر"(31/1). وكتاب (في الذكرى الخمسين سنة لافتتاح دار الحديث-تلمسان)(ص:46).

كان هدف الشيخين ابن باديس والإبراهيمي نشر دعوة الجمعية في غرب الوطن, وهذه النظرية كانت تجسيدا لحديث دار بين أعضاء المجلس الإداري في نادي الترقي عندما قال الإبراهيمي للجماعة:(**إن الطريقة المعشّشة في غرب البلاد تحتاج منا الاهتمام أكثر**), وقد قال الشيخ مبارك الميلي, للإبراهيمي مازحًا:((**إن أفاعي الزوايا تحتاج لحامٍ مثلك**)), وضحك الجميع[1] .

ألزمت الجمعية الأستاذ الإبراهيمي بأن ينتقل إلى هذه المقاطعة المظلمة, **ورأت أنه أكفأ من يشنُّ الغارة على الباطل الراسخ العميق, كما أنه أكفأ من يدعو إلى الله على بصيرة وأعرف بمداخل النفوس**, فانتقل من وطنه الأصلي الذي هو مقاطعة "قسنطينة" واستقر بمدينة "تلمسان", ولبث فيها خمس عشرة سنة ظهرت فيها أعماله الجليلة وآثاره.

الأستاذ الإبراهيمي ينتقل من سطيف إلى تلمسان:

هذا عنوانُ (مكاتبةٍ) لأحد الأدباء المصلحين(هو:محمد العابد الجلالي)؛ أرسلها من(العلمة)[قرب"سطيف"], نشرها صحيفةُ"النجاح"[2], وبعد أن ذكر(كاتبُها) وقوع حكم السعادة والشقاء على الأمكنة كما يقع على البشر!, قال: (ولعل أقرب حادث إلينا يوضح لنا هذه الحقيقة في جلاء هو حادث انتقال الأستاذ الشيخ البشير الإبراهيمي من سطيف إلى تلمسان بعدما قضى في سطيف نحو العشر سنوات بين ثلة من مريديه وعارفي قدره الذين نهلوا من فيض علومه واقتبسوا من أنوار معارفه ما صاروا به زينة سطيف وحلية جمالها وها هو الأستاذ يطلع على تلمسان طلوع هلال العيد بين مظاهر الابتهاج والسرور وها هي تلمسان تفتح صدرها لتضم إليها نابغة العلم وحامل لوائه وها هم أبناؤها الكرام يقيمون البرهان الساطع على كمال استعدادهم لاسترجاع تراثهم الجليل ومجدهم الأثيل بما

---

1 - كتاب(الذكرى الخمسين لافتتاح دار الحديث)(ص:3).

2 - "النجاح", العدد:(1411)/5فيفري1933م.

قاموا به من مظاهر الحباوة والتكريم لجناب الأستاذ؛ فقد بلغنا من طرق عدة أن الاحتفال به كان بالغا حد الإعجاز في الوصف وإن ذكره قد طبق الحواضر والبوادي في مدة أسابيع وليس بعجب أن تظهر تلمسان بهذا المظهر الجليل وهي الدرة اللامعة في تاج الجزائر كما أن ذلك منها لا يعد مبالغة في جانب **الأستاذ الحكيم**: فالأستاذ إذا تكلمت عليه من ناحية ذاتيته لا تقول عنه أكثر من أنه رجل عادي متوسط القامة. إنما إذا تكلمنا عليه من ناحية معنويته لا نجد عبارة تؤدي لنا هذا المعنى من قريب أحصر من قولنا: إنه **مثال مجسم من الفضيلة والحب؛ وأنه ثاني اثنين في الشمال الإفريقي في غزارة العلم وحدة الذهن وقوة الحافظة**[1] **وشهامة القلب وعزة النفس وطيب الضمير**.....) ,ثم ذكر عن أهل تلمسان حرصهم: (على تناول قطوف العلم التي سيجدوها هانية وافرة في دوحة معارفه...), ولما تكلم عن حال الأمة التلمسانية وما أحدثته فيهم الانتخابات!؛ من فرقةٍ!, قال: (والأستاذ ممن يمقتون السياسة بسائر فروعها فلا يوجد لها أثر في جميع دروسه ومحاضراته وخطبه؛ ومن رأيه الخاص أنها مرض اجتماعي يجب على طالب السلامة أن يتوقاه ما استطاع وأن يعالج عقله منه..)اهـ. جاءها بداية من سنة 1933, وكانت "منبتًا للجهل والضلال والتخريف ومنبعًا للطرقية المضلة", قد وجد فيها (الطرقية طاغية).[2] فبدأ في العمل من أول يوم, وأعاد للمدينة ماضي مجدها – فقد كانت عاصمة من عواصم العلم في العهد الغابر –, ونظّم دروسا للتلامذة الوافدين على حسب درجاتهم,ومنها التفسير, والحديث, بالإضافة إلى المحاضرات في النوادي, وهكذا حقق الإبراهيمي آمال الجمعية في "تلمسان", وأحيًا بها رُسوم العلم بعد أن اندثرت.

---

[1] – يغلبُ على الظّنّ, أنّهُ يُريدُ بالثاني: الشيخَ: أبا شعيب الدكالي المغربي؛ فإنه كان مضرب المثل في الحفظ والاستحضار, وقد لقبوه بـ"الحافظ", ووصفه الشيخ ابن باديس بقوله: (الإمام المصلح, العلامة الحافظ الوزير الكبير, مولانا أبو شعيب الدكالي, فخر الأفارقة والمغرب الأقصى...). انظر:"آثار الشيخ ابن باديس"(5/ 349).

[2] – المرجع السابق.

ولم يكن عمل الإبراهيمي قاصرا على "تلمسان" و إنما جعلها مقرا للدعوة, أما أعماله فكانت تشمل "عمالة وهران" كلها, فقد كان يخرج في العطلة الصيفية حين يختم دروسه للجولان في الإقليم الوهراني مدينة مدينة وقرية قرية, فيلقي في كل مدينة درسًا أو درسين في الوعظ والإرشاد,[يدعو إلى الدين الحق, ويفصل بين الناس وبين الطرقية, كما كان يحثهم على البذل والنهوض لتأسيس المساجد الحرة, وبناء دور التعليم,] ويتفقد سير الدعوة، وشُعَب الجمعية التي كوَّنتها لتنفيذ مقاصدها, وكانت الجماهير في كل قرية أو مدينة تلتف حوله, بل تخرج لاستقباله, (وقد كانت جولاته هذه في الناحية الغربية – التي كانت بؤرة البدع–موفَّقة, فأحييت السنة, وكونت الجمعيات, وتأسست المدارس والنوادي), وكان في هذا إزعاجا للاستعمار وإغاظةً له, بما بثَّ في الناس من وعي ديني ووطني.[1]

الإدارة الاستعمارية تعترضُ طريقَ الإبراهيمي:

من الحوادث التي اعترضت طريق الشيخ الإبراهيمي:أن الإدارة الإستعمارية منعته من التدريس في الجامع الأعظم, كما منعت غيره من العلماء المصلحين في بعض جهات"عمالة وهران", وغيرها.

نشرت "النجاح"[وعنها:جريدة"النور"(العدد:69)/21فيفري1931م] الخبر التالي: (أمؤامرة ضد التعليم) (جاءنا من تلمسان أن الأستاذ الشيخ الإبراهيمي قد منع من إلقاء الدروس الدينية في الجامع الأعظم فكان لذلك سوء أثر على الرأي العام, والشيخ يلقي دروسه على كل حال ببعض المساجد الأخرى(الحكومية)...)اهـ.

محاربةُ الطرقية في عُقْرِ دارها:

أزعج الإبراهيمي الطرقيين بدعوته, وحاربهم ولم يسالمهم, لاعتقاده أن الطرق هي " علة العلل في الإفساد ومنبع الشرور, وأن كل ما هو متفش في الأمة من ابتداع في الدين, وضلال

[1] - "السيرة الذاتية"، "الآثار"(5/283-284), و"مذكرات الشيخ ابن عقيل".

في العقيدة, وجهل بكل شيء, وغفلة عن الحياة, وإلحاد في الناشئة, فمنشؤه من الطرق, ومرجعها إليها"[1] فوقف لها وقفة المنكر المشتد, وشن الغارة عليهم بكل جراءة, وزعزع بنيانهم,ووقع الاصطدام العنيف بينه و بينهم, وقامت قيامتهم, وتصايحوا وتنادَوْا بالويل والثبور, حتى إنهم طلبوا المدد من خارج تلمسان, واستنجدوا ببعض فقهائهم؛ فاستقدموه إليها, ليحامي عنهم.

استقدمت "الطائفة العليوية" إلى زاويتها بتلمسان هذا, ليقف في وجه دعوة الإبراهيمي, فوجّهَ إليه دعوة للمناظرة, وألف كتابه "إماطة اللثام عما نشأ في الحاضرة التلمسانية من الشكوك والأوهام والشقاق والخصام", استهلّها بوصف الإبراهيمي بـــ: "الأعرج" [2] "الفيلسوف داعية الضلال والاعتزال بتلمسان", وأن"فتاويه المغرضة الشيطانية.. أثارت فتنة عمياء صماء في الحاضرة التلمسانية تلك الفتنة التي أشابت الصغير وأفنت الكبير وفرقت بين الأحباب والأنساب وصيرت الابن عدوا لأبيه ومحاربا لشريعته وقادحا في السلف الصالح من أمته..", ولما لم يتنزل لمناظرتهم وصموه بـــ"الأنانية والعظمة الفرعونية", ونسب إليه : دعوى " الاجتهاد المطلق", وتأويل الآيات القرآنية على حسب ما يظهر له , وأنه يقدح في المفسرين المتقدمين, وبعد أن نسبوا أنفسهم إلى السنة و الجماعة, نسبوه إلى البدعة والضلالة. وفي قائمة الأسئلة التي وجهوها إليه, نسبوا إليه أنه يضلل أصحاب المذاهب الأربعة , وينكر كرامات الأولياء, ويكفر من يزور القبور, وينكر مشروعية الدعاء,...في قائمة من المغالطات والافتراءات. [3]

---

[1] – "سجل المؤتمر"(ص:61).

[2] – كان الإمام الإبراهيمي (أعرج)!, ولذا كان الطرقيون لانحطاط أخلاقهم!, يعيرونه بعَرَج رجله.

[3] – "مذكرات الأستاذ عبد الرحمن العقون" (1/225-228).

وتجدُ الرد مفصَّلاً على هذه الاعتراضات, مبثوثًا في التصدير الذي كتبه الإبراهيمي لـــ" سجل المؤتمر..." سنة 1935, الذي حمل فيه حملة شعواء عليهم, وفنَّدَ أباطيلهم, وأجرَى القلم في بيان تهافت ما هم عليه.

وتوالت الردود بعدها عليه, في صحيفتهم "لسان الدين" – الدين الطرقي العليوي–[كما كان ينعتُها الإبراهيمي نفسُهُ!], فقد نشرت ردًّا على ما كتبه الإبراهيمي في "السجل" عن مساوئ الطرق ومخازيهم, تحت عنوان :"ويل للأمة التلمسانية من الأعرج وفكره الأعوج" , ملئت سبابًا وشتمًا, مما جاء فيه : (من شر الأفراد الذين ابتلي بهم الإسلام والمسلمون في قطرنا الجزائري هو داعية الضلال بتلمسان ذلك الأفاك الأثيم..), ويقول عن دعوته السلفية: (فرق بها جمع المسلمين وشتت شمل المؤمنين وأثار بينهم العداوة والبغضاء, ومن أقبح ما جاء به هذا الدجال من العقائد الزائفة الضالة هو اعتقاده أن جميع ما عليه المسلمون من العقائد والعبادات والمعاملات كله ضلال وخسران...), (ولقد اختار كما جرت به عادة المشككين من الملحدين – التستر بالإسلام والرجوع إلى الدين الصحيح وإلى الكتاب والسنة ليغر بذلك بسطاء العامة الجاهلين وليستهوي أفئدة طلبة العلم الناقص حتى وقع في شبكته من جعله الله من المطرودين المحرومين,..), ثم يقول: (ولكن, لما أراد الله فضيحته ويبين للناس ما كان يكنه ضميره من الكيد للأمة والإسلام, قام هذا المفتري الأشر إلى جمع أفكار ضالة وآراء سخيفة في سجل خاص سماه بسجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين...)[1]

هذه صورةٌ من المقاومة التي اعترضت دعوة الإبراهيمي, وبيانٌ لما حاربه به هؤلاء, لينفروا عنه, وقد بلغ جنونهم مداه, وتغيظهم أقصاه, وناله من السباب وفحش الكلام الشيء الكثير, وهو ماض في دعوته لا يلتفت إليهم, ولا يأبه لصراخهم وعويلهم, لم يرهبهم, ولم يؤثر فيه وعيدهم وتهديدهم. ولقد سعوا عند الإدارة لإخراجه من تلمسان.

---

[1] – مذكرات الأستاذ عبد الرحمن بن العقون"(1/289-293).

"ولقي الإبراهيمي من مكائدهم وعَنَتِهِمْ ما تهن أمامه أقوى العزائم فلم يزدد إلا صلابة وقوة وثباتا" [1]

وزيرُ صدق وركنٌ شديدا:

ولقد كان ابن باديس لا يفتر عن زيارة أخيه الإبراهيمي في تلمسان, فكان يأتيه مرات متواليات, على بعد المسافة, وازدحام الأعمال, (فكم له من رحلات وهو منهمك في دروسه مابين قسنطينة وتلمسان لأجل الاتصال به واستشارته في المهمات) [2] (كان يأتيه كل أسبوع, ويركب القطار إلى تلمسان, "لإعداد العدة ولإحكام الخطة, مع رجل عظيم, **وحيد في عظمته فَذٌّ في جيله وعصره**, حكيم في إخوانه وزملائه...وكان ابن باديس يعلم كل السر في عظمة هذا الرجل, ويعلم مع هذا أنه لا يمكنه الاستفادة منه للإفادة به إلا بهذا السفر الدائم المرهق, نحو هذا الرجل العظيم في تلمسان). [3]

وعاد ابن باديس مرة من إحدى زياراته لتلمسان, فقال للشيخ الطيب العقبي: (**إذا كنت أنت في العاصمة تحارب الصخر, فالإبراهيمي في تلمسان يحارب الإنس والجن- بالابتسام**). [4]

كما كانت الإدارة الاستعمارية وأعوانها ترقب الإبراهيمي, وأعماله, فقالت إحدى أكبر الجرائد الاستعمارية سنة 1936, "إن تلمسان (هي) مركز التعصب الديني القوي). وقال بعض المتتبعين لتطور الأحداث من المؤرخين الفرنسيين, إن الإبراهيمي (**صار يسيطر من تلمسان على جهة وهران ببصيرة وهدوء**). [5]

---

[1] - "مذكرات الشيخ خير الدين"(415/1).

[2] - كتاب"الإمام الرائد.." للأستاذ :طاهر فضلاء.

[3] - المرجع السابق.

[4] - كتاب (الذكرى الخمسين لافتتاح دار الحديث).

[5] - "الآثار"(38/1).

تأسيسُ مدرسة "دار الحديث"؛ بين فرحة الانتصار وكيد الاستعمار!:

وأثمرت جهود الإبراهيمي بتأسيس مدرسة "دار الحديث" (سنة 1937م)، بما بثَّ من علم ووعيٍ , وبما حثَّ الأمة على البذل للعلم, فتبارى كرامُ التلمسانيين لتشييد هذا الصرح العظيم, الذي يتكون من ثلاث طبقات, ويحتوي على مسجد وقاعة محاضرات, وأقسام لطلبة العلم, واختار لها نخبة من المعلمين الممتازين للصغار, وتولى بنفسه تعليم الطلبة الكبار, من الوافدين ومن أهل البلد؛ يلقي في اليوم أكثر من عشرة دروس, وسميت "دار الحديث"(على دار الحديث الأشرفية التي أسست منذ قرون في دمشق الشام, تلك المدرسة التاريخية التي تخرج منها أئمة في العلم و فحول في الأدب , و التي كان من مدرسيها الإمام الحافظ محي الدين النووي, و الإمام النظار تقي الدين السبكي)[1], (وكان الإبراهيمي هو الذي فكر في تأسيسها, وشارك في تخطيطها وقام بتشييدها, حتى إنه كان يشرف على العمل بنفسه فجاءت) على نسق فني أندلسي جميل[2].

وكان افتتاحها في 27 سبتمبر 1937, في حفل بهيج و(مهرجان) عظيم , تجمهر حوله الناس من كل حدب وصوب , وحضره [عشرون ألفا],

وشهده أخوه ابن باديس, وكان هو الذي فتحها. وما لبثت الإدارة الغاشمة التي ارتاعت لهذا الحدث, وأحست بالخطر, فأصدر الوالي الفرنسي قرار غلقها يوم31 ديسمبر 1937, [3] ليواصل الإبراهيمي في التعليم بعد غلقها, لم ينقطع عنه. (فكان يلقي دروسا يومية متواصلة "أي دون راحة أسبوعية", وكان ربما ألقى في اليوم الواحد 12 درسا, أولها قبيل صلاة الصبح وآخرها بعد صلاة العشاء , واستمر على هذا الحال, يعلم , ويحاضر, ويخطب ويوجه

---

1 - "الآثار"(306/1).

2 - "البصائر": السلسلة الثانية, (العدد93), (ص:1).

3 - "الآثار"(36/1).

ويرشد ويؤسس...). [1] (وفي هذه المدرسة ختم صحيح مسلم دراية, وأتمّ النصف من تفسير القرآن الكريم على طريقته السلفية وبأسلوبه المعروف) [2].

كما زار ابن باديس تلمسان عدة مرات بعد إغلاق مدرستها, يتشاور مع أخيه, ويتدارسان الأحداث والتطورات, ويضعان الخطوات للمراحل القادمة.

ويتم تجديد المجلس الإداري لجمعية العلماء سنة 1938, فينشر ابن باديس كلمة في "البصائر" عن هذه المناسبة, ويكتب تراجم لأعضاء المجلس, فأتى على رفيقه وأخيه , فقال:

(الشيخ البشير الإبراهيمي **الكاتب النابغ, والمحاضر العبقري, والداهية الهادئ, محبي تلمسان ومؤسس دار الحديث بها, ونائب رئيس الجمعية)** [3]

بهذه الكلمات يكون ابن باديس قد أتى بمنتهى الوصف وأدقّه وأصدقه, لمن عرفه وعاشره وصحبه, وهو الذي شهد له الإبراهيمي – نفسه – بدقته في اختيار الكلمات والألفاظ, ولعلك تجد لكل كلمة في هذه الجملة التعريفية, ما يدل عليها ويشهد لها , من سيرة هذا الرجل, التي بثثنا أجزاءً من دُررها في هذه المقالة.

الإبراهيمي: عزّةٌ وإباء:

ثم اندلعت الحرب العالمية الثانية, فعمد الاستعمار إليه, يساومه ويراوده على دينه وشرفه , يُغريه بالمناصب والمنح, وتعرض للضغط الشديد فقد كانوا يريدون منه المشاركة في تحرير صحف أنشؤوها, وفي كتابة محاضرات تسجل للإذاعة, فخيّب ظنهم ورفض كل تعاون معهم. فقرروا اعتقاله ونفيه إلى الجنوب, وفي معتقل " آفلو" الرهيب بقي تحت الضغط والإرهاق ما يزيد على ثلاث سنوات. وفي أوائل أيام المنفى توفي ابن باديس, فانتخبه إخوانه

---

1 –"مذكرات الشيخ ابن عتيق".

2 – "البصائر": السلسلة الثانية, (العدد93), (ص:1).

3 –"مذكرات الشيخ خير الدين"(353/1).

لخلافته ثقة فيه وتحدّيًا للمستعمر, فاضطلع بمهمته وقام بها خير قيام. [1] وجعل يراسل إخوانه, غير آبه بالرقابة؛ يدير الجمعية ويوجهها من المنفى.وبعد إطلاق سراحه (1943م)كانت فاتحة أعماله تنشيط المدارس, كما واصل دروسه العلمية للطلبة والعامة. ثم كانت حوادث (8ماي1945م), ودبرت فرنسا للجزائر ثورة مفتعلة فقتلت من الشعب الجزائري المسلم 60 ألفا, واعتقلت 70 ألفا معظمهم من أتباع جمعية العلماء, واعتبرت الإبراهيمي بصفته رئيسًا للجمعية أحد المسؤولين الأساسيين على الثورة المسلحة, وزُجَّ به في السجن العسكري بتهمة تؤدي به إلى الإعدام.

وعذب في سجنه مما أورثه أمراضًا مُزْمنة بقيت معه إلى آخر حياته.

عهدٌ جديدٌ للعمل والنِّضَال:

وبعد خروجه من السجن استأنف عمله بكل جد ونشاط, فأمر بفتح المدارس التي كانت مغلقة, وأخذ يقوم بجولات في سائر أنحاء الوطن, يؤسس المدارس والنوادي والمساجد[2]

(وفي هذا العهد اتسعت أعمال الجمعية بقيادة الرئيس الثاني الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي, وكثر عدد المدارس الحرة, وتنوعت مشاريعها, ونظمت لجانها, ووضع للتعليم برنامج قارّ, وعينت له لجنة ومفتشون, وحددت ساعات التعليم والعطل, ووضع للمعلمين بالمدارس درجات...ويمكننا أن نقول أنه الدور الهام في نشاط الجمعية وتأدية رسالتها واتساع نطاق أعمالها بفضل الوعي العام وحكمة إدارتها **ونشاط رئيسها**[الإبراهيمي]) [3]

عنايتُهُ بالناحية الغربية من الوطن:

(واستيقظت الحركة الإصلاحية بمقاطعة وهران, وهبَّ الكثير من بلدانها لتأسيس المدارس الحرة بها على إثر الجولة التي قام بها الرئيس الثاني لجمعية العلماء الأستاذ الشيخ محمد البشير

---

[1] -"مذكرات الشيخ خير الدين"(416/1).

[2] -"مذكرات الشيخ خير الدين"(416/1), "الآثار"(285/5).

[3] -"مذكرات الشيخ ابن عتيق".

الإبراهيمي،...و[قد]استنْجَدَ بجمعية العلماء ليمدُّوهُ بمعلمين أكْفَاء لإدارة هذه المدارس وتسييرها و لم يكن بد من تحوُّل الجهود إلى هذه الناحية من الوطن،..)، وذلك أن (هذه المقاطعة كانت لذلك العهد في تأخر وجمود بالنسبة إلى مقاطعتي قسنطينة والجزائر...)، ولا تزال الكثير من مُدُنِهَا (تَرْزَحُ تحت أعباء الطرقية المخرفة)، ولا زالت بها الكثير من آثار ومخلّفات الغزو الإسبانيولي، (فقد كان من الأولين عامل على إفساد عقائدهم وتخريب أفكارهم وسقوطهم في هوة الشرك والوثنية، ومن الآخرين عامل على إذلالهم وانحطاط أخلاقهم، ومع هذا فلا تزال بعض الخصال المحمودة يحتفظون بها: كالكرم والذكاء..).

فاستجابت الجمعية وأمدَّتْهُ بمعلمين ممتازين من العمالة القسنطينية[1]

ثم وجه الإبراهيمي عنايته للتعليم الثانوي، فكوَّن معهدا بقسنطينة(معهد عبد الحميد بن باديس) ليتابع فيه تلاميذ المدارس الابتدائية دراستهم، (وهو قنطرة إلى التعليم الثانوي)، ومنه يمكن أن يلتحقوا بالمعاهد العليا في الشرق لمواصلة تعلمهم أو يقوموا بالتعليم في المدارس الحرة التي تشرف عليها جمعية العلماء.

وفي هذا العهد أيضا تولى مسؤولية جريدة"البصائر"، فأبرزها كأقوى صحف العالم العربي في مبدئها وتحريرها ومواقفها الوطنية الرائعة في القضايا العربية والإسلامية[2]

ثم اتجه نظر الإبراهيمي بعيدًا إلى الشرق العربي، فكوَّن البعثات، ثم خطا خطوات أخرى فالتحق بنفسه لتثبيتها وتكثيرها، وشرح قضية الجزائر في جميع الأقطار الإسلامية[3]

ولقد بلغ عدد المدارس قبل سفره للشرق(1951) حوالي مائة وخمسين مدرسة عربية حرة.

---

[1] – المرجع السابق.

[2] –"مذكرات الشيخ خير الدين"(1/416-417).

[3] –"كتاب " الإمام الرائد..." جمع: الطاهر فضلاء.

الإبراهيميُّ في المشرق العربي:

رحل الإبراهيمي إلى الشرق بتكليف من الجمعية في (سنة 1952م), ودوافعُ الرحلة ترجع إلى أمور, هي:

- العمل على إرسال بعثات علمية من الشباب الجزائري إلى الشرق العربي بغرض الدراسة في مختلف مدارسه, ومعاهده, وجامعاته.

- طلب المساعدة المادية لجمعية العلماء من الأشقاء العرب والمسلمين كي تستطيع مواصلة رسالتها في ميدان نشر التعليم العربي والمحافظة على الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائري التي تواجه محاولات كبيرة لهدمها من طرف الاستعمار الفرنسي الصليبي.

- الدعاية للقضية الجزائرية, و شرح ظروف الكفاح الجزائري إلى قادة الحكومات العربية والإسلامية التي زارها, وتعريف الرأي العام العربي

والإسلامي بمختلف جوانب كفاح الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي وما يقاسيه من عدوان صارخ على مقدساته الإسلامية ولغته العربية.فقد كان الناس هناك في الشرق خاصتهم وعامتهم, الأساتذة والمتعلمون في الجامعات و غيرهم, لا يعرفون إلا أقل القليل عن الجزائر, ومنهم من اقتنع – بسبب الدعاية الاستعمارية الخبيثة– أن الجزائر انتهت وأصبحت فرنسية. وقد شهد على هذا بعض أبناء البعثات الجزائرية, في مصر, وفي العراق.

اتخذ الإبراهيمي القاهرة مركزًا له, وجال في كل أقطار الشرق العربي والإسلامي حيث كان يلقى كل حفاوة وتقدير من حكوماتها وشعوبها. وبعد اتصاله بمختلف الهيئات والمنظمات والشخصيات العربية والإسلامية في القاهرة, وبغداد, ودمشق , والكويت, والحجاز..تبدل الوضع كثيرا, ونجح الإبراهيمي في مهمته نجاحا كبيرا, بفضل نشاطه –على شيخوخته– في عقد المؤتمرات الصحفية, وإلقاء المحاضرات العامة عن الجزائر وقضيتها وكفاحها, وتسجيل الأحاديث الإذاعية في مصر (صوت العرب), وفي الإذاعة العراقية, ولم تمض سنوات حتى كانت الجزائر العربية المسلمة على كل لسان في الأوساط العلمية والأدبية, والقيادية,

وصارت محل عنايتهم. كما أثمرت جهوده التي بذلها في تكوين البعثات العلمية لجمعية العلماء التي عمل بكل جهوده على فتح أبواب معاهد العلم في وجهها في مختلف البلدان العربية, ورعاها ووجّهها.تمكن من الحصول على مِنَحٍ في كل من مصر, العراق, سوريا, الكويت, ثم المملكة السعودية. وكان بين وقت وآخر يقوم بزيارات للعراق وسوريا والكويت, كي يتفقد بنفسه أحوال أعضاء البعثات, ويتصل بالمسؤولين عن التعليم في البلدان التي يزورها بقصد الحصول على منح جديدة للطلبة الجزائريين, ويغتنم زياراته لتفقد البعثات فيلقي على أعضائها المحاضرات التوجيهية, والإرشادات العلمية. ويلتف حوله العلماء والأدباء والشعراء, يتذاكر معهم ماضي وحاضر ومستقبل الأمة العربية والإسلامية في جميع الشؤون,كما كانوا يطلبون منه إلقاء محاضرات في مراكز العلم و الثقافة. فيلبي طلبهم ويلقي محاضرات تلقى تجاوبا واستحسانًا كبيرا ممن يحضرها, وتُنَوِّهُ بها أجهزة الإعلام ولا سيَّما الصحافة المكتوبة. و لم يمض وقت طويل حتى أصبح يحتل مكانة رفيعة في المجتمع وصار لا يقام مؤتمر أو مهرجان أو اجتماع ذو أهمية إلا ويُدعى إليه إما كمحاضر أو خطيب, وإما للإسترشاد برأيه فيما يعرض من مسائل وموضوعات. وكان كثيرا ما تهدى إليه الكتب من معارفه الكثيرين في القاهرة وأنحاء العالم العربي الأخرى[1]

صدى الإبراهيمي في العراق:

وفي العراق احتفوا به احتفاء عظيما, وخرج المئات لاستقباله, وأقاموا لها حفلات وولائم التكريم, كان يرتجل فيها الخطابات العظيمة, التي بهرتهم, وجعلتهم يستعظمون أمره, ويقرون له بالإمامة في العربية والخطابة, وكانت تترك أثرها بعد مغادرته,ولم يكن للناس في بغداد (حديث سوى الإشادة والتنويه بذكر الأثر الكبير الذي تركته زيارة الشيخ, فقد كانت لأحاديثه مع كبار القوم وخطبه المتوالية في الحفلات الخاصة والعامة وفي الإذاعة

---

1 -"...فارس البيان.." لبشير كاشة الفرحي, ومقال(الإبراهيمي في المشرق) لتركي رابح - ضمن مجلة "الأصالة" عدد8 السنة 2 , (ص: 255-264).

العراقية، تأثير السحر، فالناس هنا (العراق) مفتونون بالبلاغة ونصاعة الحجة وسمو المعنى وسرعة البديهة)، وقد وجدوا الإبراهيمي قد جمع هذه الخصال الحميدة وغيرها.

وتناولت الصحافة العراقية أخبار الشيخ , وأجمعت على عظمته, وسلمت لإمامته, فمن الصحف من قالت- وهي تصف إحدى خطبه-: (ثم وقف **سُحْبَانُ العرب** اليوم فارتجل خطابا بليغا...أعاد إلى أذهان السامعين ذكرى الجاحظ والتوحيدي وابن المقفع وابن العميد وأمثالهم من أمراء البيان العربي..)، ومن واصف له بـــ: (**نابغة المغرب العربي**)، وكتب صاحب جريدة"السجل"العراقية : (مرحبًا بالإبراهيمي مرحبًا **بجاحظ العصر وأمير البيان!** مرحبًا بالشيخوخة الصالحة التي لا تعرف معنى للراحة حتى تؤدي ما عليها من واجب الجهاد في سبيل العروبة والإسلام.... مرحبًا بالإمام الأكبر والمجاهد الأول والخطيب الأول والكاتب الأوحد في الشمال الإفريقي العربي..).تقول "البصائر" : (وأما أدباء العراق وصحافيُّوها فمن عناوينهم في وصفه محاضرا وخطيبا (**قسُّ بن ساعدة** يتكلم) وكفى بهذا فخرًا للجزائر)[1]

في الحجاز:

وقد تناولت صحف الحجاز زيارة الإبراهيمي , وعرَّفت به ونوَّهت بجهاده, وكان من المُضيفين له صديقه القديم: الشيخ محمد نصيف[2] - في جدة الحجاز-, الذي أكرم جمعية العلماء في شخص الإبراهيمي, (**وكان سماحته طيلة مكثه بهذه البلاد موضع حفاوة وتقدير**

---

[1] -"البصائر": الأعداد: 195 و 196و262,199 من السلسلة الثانية.

[2] - انظر: ترجمته -بقلمي- في مجلة"الإصلاح"[التي تصدرها دار الفضيلة-الجزائر], العدد(5), بعنوان: (ناصر الإصلاح والمصلحين في الجزائر: الشيخ محمد نصيف).

من الجميع, لعبقريته الفذة في العلوم ولأنه عالم ديني تقدمي ينشد الإصلاح ويسعى له, ولدماثة خلقه وسُموِّ أدبه البحثي والنفسي معًا..)[1]

وكان يزور الإبراهيمي أثناء إقامته بمكة, من أدباء الحجاز وأشراف مكة وأعيانها: الكتيرون, وفي طليعتهم: إمام الحرم المكي.

ومن الشخصيات البارزة التي اجتمع بها: الشيخ عمار بن الأزعر القماري السوفي الجزائري[2], [من مدرسي المسجد النبوي, ومدارس الحجاز]...[3]

وقد حصل الإبراهيمي على منحة للطلبة الجزائريين من المملكة السعودية, بعد قيام الثورة الجزائرية (سنة 1954م).

ثورةُ الجزائر:

ولمَّا اندلعت الثورة الجزائرية, أخذ من القاهرة ينشر ويذيع البيانات, ويدعو الشعب الجزائري إلى مؤازرتها والالتفاف حولها, ويدعو الشعوب والدول العربية إلى تأييدها ومدها بالمال والسلاح, ثم انتدبته الثورة للقيام بمهمات لدى الدول العربية والإسلامية فقام بها أحسن قيام.

ولقد كان لرحلة الإبراهيمي المشرقية أثرا في تحمس العالم العربي والإسلامي لثورة الجزائر, وإنها لتعتبر مرحلة تمهيدية لها, فما كادت أول رصاصة تطلق حتى هب الوطن العربي والعالم الإسلامي يساندها ويؤيدها متأكدا من استمرارها وانتصارها بفضل ما عرف عن الجزائر[والجزائريين] من صمود وتصميم, وقد تولى بيان ذلك وتوضيحه إمامهم

---

[1] - "البصائر", السلسلة الثانية, العدد (209)(ص:2-3) عبد القدوس الأنصاري؛ صاحب"المنهل":(سماحة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في ربوع المملكة).

[2] - انظر: ترجمته -بقلمي- في مجلة"الإصلاح", العدد(7).

[3] -"البصائر: العدد 266 , السلسلة الثانية.

الإبراهيمي؛ الذي كان بحق يُعدُّ للثورة, ويُمَهِّدُ و يُهَيِّئُ لها الأسباب, **وقد بنى المبادئ الوطنية على قاعدة الإصلاح السلفي**, وغرسها في النفوس, بعد أن خلَّصها من عقائد الشرك والخرافة, ومن تلكم الأسباب: المدارس التي دعا إلى تأسيسها, وحثَّ الأمة على بذل الأموال لأجلها,(وكان يقول:"**إن هذه المؤسسات ستحتاج إليها الأمة في يوم من الأيام لمهمات فوق ما نتصوره الآن**".وفعلاً عندما قامت الثورة قامت هذه المؤسسات بدور هام..)[1]

وأما الجزائريون الذين كانوا في المشرق, فقد كانوا مهتمين بما يجري في وطنهم, وقد هبوا لخدمته, وأداء واجبهم على بعدهم, وقد كان للإبراهيمي دور كبير في حثهم على العمل؛ يدعوهم لإكثار من الدعاية لقضية بلادهم, وكان محرِّضا لهم على الجهاد[بالمال] في تحرير الوطن, يبذل لهم النصح, ويوجههم التوجيه الصحيح, وهو ذو الرأي الأصيل, والتوجيه السديد. وقد كان يعمل مع بعض كبار الشخصيات الجزائرية الساكنة في المشرق, على توحيد الجهود, والعمل بجدّية, وعلى جمع كل القوى, وقد كان لجمعية العلماء مندوبون في عدة جهات وفي أوربا. كما كان على اتصال دائم برجال الجمعية في الجزائر.

وعلى بُعْد الإبراهيمي و شيخوخته ومرضه, إلا أنه أدى ما عليه, وعمل على التوجيه الحسن, وقد قال : (**وقد فعلتُ ما أوجبه الله عليَّ, على عجزي وبُعْدي, وَوَاللهِ لو كنت أستطيع حمل السلاح لما بقيت هنا لحظة, ومنذ قامت الثورة وأنا أتقلّى على الجمر, وأبذل كل جهدي من طرق خاصة في إعطاء الرأي وتحريض المؤمنين على القتال**)[2]

وكان الواسطة بينه وبين الجزائريين في الحجاز, (العلاَّمة السَّلَفيّ) الشيخ عمار بن الأزعر[المهاجر إلى المدينة]- إذْ كان له دور كبير في تحريكهم-, وغيره من أفاضل الجزائريين, وكان يأمرهم باستشارة الشيخ نصيف.

---

[1] الشيخ الجزء بوكوشة(رحمه الله): ضمن كتاب"الإمام المجدد..." جمع : الطاهر فضلاء.

[2] [illegible] مدارس البيان..." الأستاذ البشير كاشة الفرجيوي.

وقد كانت له سفرات عديدة, يجري فيها اتصالات لمصلحة الثورة, في القاهرة, وفي بغداد, حيث قضى فيها قريبا من شهر, ثم سافر إلى باكستان, وعقد جولة في دواخلها, حيث زار نحو خمس عشرة مدينة, **وألقى أكثر من خمسين محاضرة وحديثًا في الدعاية للجزائر والتعريف بها, وبثورتها, وكان لها تأثير عظيم, وكان الحاضرون في الاجتماعات يصلون أحيانا إلى ثلاثين ألف**[1], مَقْضِيًّا بها نحو الشهرين(أواخر 1956م). [1]

وإثر استقلال الجزائر, عاد إليها بعد غيبةٍ دامت عشر سنوات,

وفاتُهُ:

وكانت وفاته في 20 محرم 1385هـ ,الموافق لـ:20 ماي 1965م, رحمه الله رحمةً واسعة.

شهادة المعاصرين له:

– العالم السَّلَفِيُّ, علاَّمة الشام: الشيخ **محمد بهجة البيطار**: قال في رسالته الموجهة إلى الإبراهيمي:

(إلى إمام النهضة الثاني , العالم الرباني, الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أدام المولى فضله, السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ما ذكرتك مرة في نفسي أو في ملإٍ من قومي, إلا وذكرت معك الدين الخالص, والعلم النافع, والعمل الصالح, والأدب الجم والرعاية التامة للإخوان...), ثم يذكر تلك الأيام في الشام , أين كان يجلس إليه, ويُقبل عليه, يقول: (وكنا نشعر أننا أمام **دائرة معارف حَوَتْ من كل شيء أحلاه وأغلاه**), (حَسْبُ الجزائر مجدًا وفخارًا أن يكون منهم الإمام الأول للنهضة الإصلاحية الجزائرية الشيخ عبد الحميد بن باديس تغمده المولى برضوانه, والإمام الثاني لهذه النهضة المباركة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي يحق للشام أن تفاخر به كما تفاخر بأبنائها المخلصين,..), (أكان للناس

---

[1] – المرجع السابق.

عجبًا أن يروا جمعية العلماء الأبطال , يتقدمون صفوف الرجال الأحرار, مجاهدين في سبيل استرداد الحق المغصوب, ورفع شأن الوطن المحبوب,)(... دمشق في11[جمادى]1 سنة 1368, **محمد بهجة البيطار** من أعضاء المجمع العلمي ومدرس التفسير والحديث في كلية الآداب من "الجامعة السورية")[1]

– العالم الأديبُ الموحِّد: **محمد بهجت الأثري** (تلميذُ علاَّمة العراق محمود شكري الألوسي , وناشرُ تراثه):قال في استهلال محاضرته في إحدى المدن الجزائرية , وهو يشكر القائمين على الملتقى, على دعوته, ويذكر تعلقه بالشعب الجزائري (الذي تعلقت به ناشئا وكهلاً, **وقد جذبتني إليه مزايا من عرفتُ من نُبغائه ومفكريه** أمثال باعث نهضة الشام العلاَّمة الشيخ "طاهر الجزائري", وقائدي جمعية علماء الجزائر **الذين مهَّدوا للثورة وعبَّؤُوا لها طاقات الأمة**, الشيخين **العظيمين** "عبد الحميد بن باديس"

و"البشير الإبراهيمي", أعلى الله مقامهما في جنانه...)[2]

وفي محاضرة له أخرى , استهلَّهَا أيضًا بذكر مفاخر هذا الشعب؛ فقال:

(... شعب **مجددي شباب الإسلام , وباعثي نهضة الجزائر**: "عبد الحميد بن باديس", و"محمد البشير الإبراهيمي"...)[3].

– العالم السلفي: **محمد نصيف**: بمناسبة زيارة الإبراهيمي للحجاز, بعث برسالة إلى جريدة "أم القرى" تحت عنوان " الزعيم الجزائري", جاء فيها: (... **وفضيلة الأستاذ من العلماء المصلحين**...)[4].

---

[1] – "البصائر": العدد91, السلسلة الثانية, ص:2, (قيمة "البصائر" في الشرق: رسالة عالم الشام الأستاذ محمد بهجة البيطار) , وكتاب(كلمات وأحاديث) بقلم الشيخ بهجة البيطار,ص:126-129.

[2] – مجلة "القبس": السنة 3, العدد2, رمضان 1388, نوفمبر 1968, ص: 69.

[3] – مجلة "القبس": العدد3و4, ذو القعدة ذو الحجة 1388, يناير ,فبراير 1969, ص:27.

[4] – "البصائر": العدد 204, السلسلة الثانية, (ص:8).

- العلامة السَّلَفِيّ الجوَّال : **محمد تقي الدين الهلالي المغربي**: ألقى خطابًا في إحدى الاجتماعات التي أُقيمت على شرف الإبراهيمي في بغداد, وصفه فيه بأنه : (**مثال النبل والعلم والبلاغة**)[1]

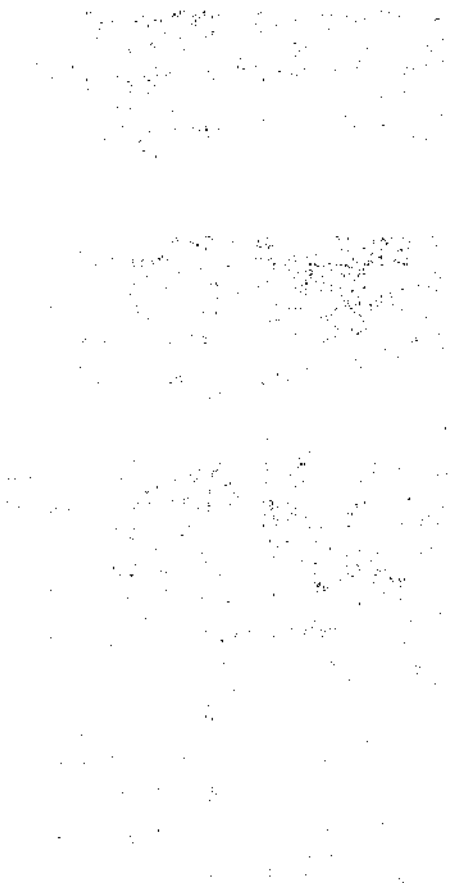

[1] - "البصائر": العدد:195,السلسلة الثانية, (ص:1).

صفحات مشرقة من حياة
الإمام الشيخ: محمد البشير الإبراهيمي

أ. دوادي فرادي

جامعة تبسة

المحور الأول: حياة الشيخ البشير الإبراهيمي

01-التعريف بالشيخ البشير:

المولد والنسب:

ولد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في بيت علم من بيوتات الجزائر العامرة, في بداية القرن الرابع عشر الهجري أواخر القرن التاسع عشر الميلادي, في سنة يقال عنها أنها سنة العباقرة والعظماء في العالم, ويؤرخون لها بالإفرنجي سنة 1889م.

ويكفي هذا العام عزا وفخرا, أن ولد فيه أحد عظماء التاريخ قاطبة وباعث الحركة التجديدية في الجزائر, الشيخ عبد الحميد بن باديس ــرحمه الله ــ الشيخ الرئيس, وكذا صاحبه صاحب هذه الترجمة.

ولد الشيخ في يوم أغر وهو يوم الخميس, وبالتحديد عند طلوع الشمس, في الثالث عشر من شهر شوال سنة ست وثلاثمائة وألف (1306/10/13هـ), الموافق الرابع عشر من يونيو(حوان) سنة تسع وثمانين وثمانمائة وألف (1889/06/14م). ويؤكد هذا التاريخ الشيخ ذاته بقوله:" كما رأيت ذلك مسجلاً بخط جدي لأبي الشيخ عمر الإبراهيمي رحمه الله في سجلٍ أعدَّه لتسجيل مواليد الأسرة"[1], ومن أعاجيب الأقدار أن يصادف يوم موته كذلك يوم الخميس.

[1] – حسن السماحي سويدان: من سير الخالدين بأقلامهم, دار القادري, دمشق, ط1, 1418هـ/1998م, ص 47.

ومسقط رأسه رحمه الله بقصر الطير, والتي تسمى بلدية قصر الأبطال, التابعة إداريا(حاليا) ولاية سطيف, والتي كانت تسكنه قبيلة (ريغة) العربية, والتي اشتهرت فيما بعد بقبيلة (أولاد إبراهيم) والتي كان لها الكثير من البطون والأفخاذ, والتي تلتقي جميعها في الجد الأكبر إبراهيم بن يحي بن مساهل, والتي "ترفع نسبها إلى إدريس بن عبد الله, الجذم الأول للأشراف الأدارسة, وإليه ترجع أنساب الأشراف الحسنيين في المغرب الأقصى والأوسط".[1] ولعلل ذلك هو سبب تلقيب واشتهار العائلة بالإبراهيمي.

والشيخ رحمه الله هو "محمد البشير بن محمد السعدي بن عمر بن عبد الله بن عمر الإبراهيمي"[2], وحيد والديه من الذكور, وثالث أختين, وأمه هي حدة بنت محمد, وينحدر من أسرة كانت على قدر حالها من حيث الثراء المادي, غير أنها كانت عالية الكعب, وراسخة القدم من حيث الشهرة بالعلم والدين.

فلقد" انحدر الإمام محمد البشير الإبراهيمي من أسرة كريمة الْمَحْتِد يتحلى جميع أفرادها بالإيمان العميق بالله سبحانه وتعالى, ويجعلون من سنة نبي الإسلام محمدﷺ هديا لهم"[3].

فبيت الشيخ "أحد البيوت التي حفظت رسم العلم, وتوارثته قروناً من لدن حمول بجاية وسقوطها في القرن التاسع الهجري, وقد كانت بجاية دار هجرة للعلم"[4]

ووراثتهم العلم وعلو الكعب فيه يؤكده قول الشيخ رحمه الله إذ يقول:" ويقع في عمود نسبنا خمسة من العلماء الأجلاء, عاشوا في ما بين المائة التاسعة والمائة الثالثة عشرة للهجرة, وكلهم كَتَبَ عن هذا النسب وأثبته بالأدلة التاريخية الممكنة, وآخرهم جدي الأدنى الشيخ عمر الإبراهيمي".

---

[1] ـ المرجع السابق, ص47.

[2] ـ محمد مهناوي: البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه, دار الفكر دمشق, سوريا, ط1, 1408هـ/1988م, ص 33.

[3] ـ عادل نويهض: البشير الإبراهيمي عظيم من الجزائر, مؤسسة نويهض الثقافية, بيروت لبنان, ط1, 1986م, ص12.

[4] ـ حسن السماحي سويدان, المرجع السابق, ص47.

ويستطرد قائلاً في بيان نسبه العربي الأصيل بقوله:" فمما لا شك فيه أن نسبنا عربي صميم, إن لم يكن في قريش فهو في هلال بن عامر[1]"[2]

نشأة الشيخ وطلبه للعلم

نشأته:

مما لا شك فيه, ومما تقدم ذكره, فالشيخ قد نشأ نشأة غير عادية, حتى ولو كان يظهر لدارس حياته ونشأته, من خلال العوامل الظاهرية, ومن خلال المسحة والدواعي الخارجية من محيط وبيئة, أنه كذلك.

فمن المعلوم أنه نشأ في بيت علم وأدب, ثم أنه وجد الرعاية والعناية الكافيتين لصقل مواهبه وتهيئتها لتلقي فنون العلم والآداب, من لدن والده ثم أهل بيته ثم محيطه, الأقرب فالأقرب.

وكم حدثنا التاريخ عن مواهب وعبقريات نشأت في غير البيوتات ذات الجاه و لم تتوارث العلم كابرا عن كابر, كما يحدثنا التاريخ كذلك عن كثير من الخلف ضيعوا ما استخلفهم عليه أسلافهم من الآباء والأجداد, سواء كان ذلك الإرث عائليا, أو أنه كان ميراث الشعب أو الأمة.

---

[1]_ هلال بن عامر بن صعصعة، من هوازن، من عدنان: جد جاهلي، لبنيه أخبار كثيرة ليس منها أكثر ما تتداوله العامة وبنوه خمسة بطون تفرعت من خمسة أبناء له، وهم: شعبة، وناشرة، ونمير، وعبد مناف، و عبد الله. وتكاثروا في الحجاز ونجد، ثم تحولوا إلى بادية الشام، ومنها إلى صعيد مصر فكانت لهم أسوان وأكثر بلاد الصعيد. ورحلت قبائلهم إلى إفريقية فتغلبوا عليها. الزركلي خير الدين: الأعلام,دار العلم للملايين, بيروت لبنان,ط14, 1999م, ج 8, ص91.

[2]_ أحمد طالب الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي, دار الغرب الإسلامي, بيروت لبنان, ط1, 1997م, ج5 ص 163.

غير أن الشيخ رحمه الله قد اجتمعت فيه وله, أي في ذاته وفي محيطه القريب الضيق وكذا في محيطه الأوسع, خصال وصفات لم تكن في غيره ولا في أقرانه, وتتضح آثار ذلك في ما ندب له عمره وطول وقته في ما هو آت من حياته.

ويقول هو عن نفسه:" نشأت على ما نشأ عليه أبناء البيوتات العلمية الريفية من طرائق الحياة"[1]. غير أن الريف الذي قصده الشيخ, كان فيه من المحاسن التي أثرت في تكوينه الشيء الكثير, ومن ذلك قوله في حياة الريف:" وهي تقوم دائما على البساطة في المعيشة, والطهارة في السلوك, والمتانة في الأخلاق, والاعتدال في الصحة البدنية"[2].

كما قد يكون في هذا الريف من المساوئ الشيء الكثير, والتي قد تعيق الإنسان عن أداء دوره المنوط به في الحياة كلية, أو قد تكون معطلة لقدراته ومواهبه إلى حين, أو قد تفقده بعضاً من مواهبه أو حواسه.

وقد وقع بعض ذلك للشيخ رحمه الله في بداية نشأته, حيث أصيب رحمه الله في أحد أعضائه. فقد أصيب بعاهة العرج في رجله, وذلك بسبب الريف والبادية, وبُعدُه عن التطبيب المنتظم, إلا أن هذا العائق لم يكن بالمؤثر إلى درجة فقدان الثقة بالنفس, أو بالعائق الكبير الذي يحجب عن تحصيل العلم, والقيام بالمهام المنوطة به, بل كان ذلك مدعاة للزيادة في تحصيل العلم والإصرار على الاندماج في الحياة, وتحدي مثل هذه العوائق. فكيف تم ذلك للشيخ؟

يقول الشيخ رحمه الله عن هذه العاهة, وكيفية تخطيه لها كعقبة كؤود:" فلما بلغت التاسعة أصيبت رجلي اليسرى بمرض, وكان للإهمال والبعد عن التطبيب المنظم أثر كبير

---

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي؛ المرجع السابق, ج5 ص164. حسن السماحي سويدان, المرجع السابق, ص48.

[2] ـ أحمد طالب الإبراهيمي؛ المرجع السابق, نفس الجزء والصفحة.

في إصابتي بعاهة العرج في رجلي, وقد أنساني ألَمَها والحزن عليها ما كنت منكبّاً عليه من التهام كتب كاملة بالحفظ, فكان لي ذلك أعظم سلوى عن تلك العاهة"[1]

وقد نشأ الشيخ رحمه الله نشأة بدوية كاملة الأوصاف, وكان لذلك الريف الأثر الطيب على نفسيته وعلى طباعه وخلقه.

فنشأ قوي البدن متزن الطباع, سوي السلوك, معتدل المزاج صافي الذهن, بهي الطلعة, معتدل القد, سوي القامة, سريع البديهة , سريع الحفظ لما يتلقاه مما يلقن له من علوم ومعارف, فيقول في ذلك:" وفي ما عدا تلك العاهة فأنا مدين لتربيتي الريفية في كل ما أتمتع به إلى الآن [كانت كتابة هذه الأسطر من سيرته سنة 1955م بالقاهرة] من قوى بدنية وفكرية وخلقية"[2].

تعهّده والده بالتربية السوية, القائمة على موروث الأسرة العريقة في الشرف والنسب ورسوخ الكعب في العلم, منذ أيامه الأولى.

ففي سن الثالثة من عمره رحمه الله بدأ رحلته العلمية التقليدية في بيت أبيه, ثم لم يدم ذلك طويلا حتى دُفع به إلى مشايخ العائلة الأُوَل ومشايخ القرية لتحفيظه كتاب الله مع أقرانه, فبدت عليه صفات النباهة والفطنة والنبوغ.

فقد أتم حفظ كتاب الله وهو لم يتم من عمره السنة الثامنة وقد أشار بذلك في قوله:" فحفظت القرآن حفظا متقنا في آخر الثامنة من عمري"[3], ثم راجَعَه وعَرَضه كلية على عمه, وهو في سن التاسعة من عمره.

وكانت هذه السُّنّة جارية في الكتاتيب والمدارس القرآنية على ذلك الزمن, للتأكد من

---

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي ,المرجع السابق, نفس الجزء والصفحة.

[2] ـ المرجع السابق, نفس الجزء والصفحة. ثم أعاد الشيخ كتابة ملخص لحياته العلمية والعملية سنة 1961م بالقاهرة كذلك بطلب من مجمع اللغة, وفيها بعض الاختلاف في العبارات لا في الأفكار وتسلسل الأحداث. نفس المرجع, ص272.

[3] ـ ينظر:المرجع السابق, نفس الجزء والصفحة؛ وحسن السماحي سويدان, المرجع السابق, ص49.

إتقان المريد أو الطالب من حفظه, والاستئمان على كتاب الله؛ وفي هذا يقول رحمه الله:" لم أفارق في تعلمي بيت أسرتي, فهي مدرستي التي تعلمت فيها وعلمت"[1]

فلما رُئي منه ذلك, تعهّده عمه شقيق أبيه الأصغر وهو الشيخ محمد المكي الإبراهيمي, الذي كان عالم علماء زمانه, وفريد عصره في إتقان علوم اللسان العربي, فكان يتهعّده طول الوقت ولا يغيب عن نظره ولا عن مجالسته لحظة واحدة, حتى أن عمه هذا هو الذي كان يبرمج له ساعات الراحة والنوم والطعام, وكانت لعمه لطائف وأساليب خاصة كان يرعى بها ابن أخيه ويلقنه بها المعارف والعلوم.

فقد كان يبحر به ـ أثناء تلقينه ـ ما بين فن وفن, فينتشي المتلقي لكل ما يتلقاه ويستزيد في الطلب ولا يسأم, وكانت كل لحظة يقضيها معه إلا وله فيها فائدة, فكان يوجّهه في الحفظ وينوع له من العلوم والمعلومات ما يراه مناسبا له, ومُنَفِّساً عنه كل ما يعيقه عن التحصيل, وكل ذلك بأسلوب علمي دقيق, لما رأى فيه من البداهة وسرعة الحفظ والتجاوب الإيجابي مع ما يُعْطى من مادة علمية.

يقول الشيخ رحمه الله:" وكنت ملازما له حتى في النوم والطعام, فكان لا يخليني دقيقة واحدة من فائدة علمية, وكانت له طريقة عجيبة في تنويع المواضيع والمحفوظات حتى لا أملّ, واختصصت بذاكرة وحافظة خارقتين للعادة, وعرف رحمه الله كيف يصرفهما في. وحفظت معه وأنا في تلك السن نتيجة للتنوع الذي ذكرته, ألفية ابن مالك[2] وتلخيص المفتاح[3], وما بلغت العاشرة حتى كنت أحفظ عدة متون علمية مطولة"[1].

---

[1] ـ الآثار, مرجع سابق, نفس الجزء والصفحة.

[2] ـ ابن مالك بن هشام (708 - 761 هـ/ 1309 - 1360 م) عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام: من أئمة العربية. مولده ووفاته بمصر, قال ابن خلدون: ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه. الأعلام للزركلي,ج 4, ص147.

[3] ـ تلخيص المفتاح في المعاني والبيان: للقزويني(666 -739 هـ/ 1268 - 1338 م)وهو محمد بن عبد الرحمن بن عمر أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق, من أحفاد أبي دلف العجلي, قاض من

ومن رَزَقه الله إيمانا صادقا, وعقلا صافيا, وبديهة مستحضرة, ثم يكون له من العناية والرعاية الشاملة, مثل التي رُزِق بها صاحب الترجمة رحمه الله, حق له أن يكون في عداد العباقرة والعظماء والمصلحين.

وكيف لا وهو الذي يُرى فيه, من خلال مدارستنا لحياته, العجب العجاب في تحصيله للعلوم والحفظ السريع, ما يدهش ويبهر؛ وهذا الذي سيأتي مفصلا في محور طلبه للعلم رحمه الله.

طلبه للعلم:(بداية حياته العلمية والعملية)

بداية حياته العلمية

تمَّ في ما سبق ذكره من النتف العلمية حول بداية حياة العلامة العلمية, والصفات الخارقة التي تميَّز بها, ما أبهر به الأقران والأساتيذ المشرفين على تلقينه العلوم والمعرفة, وهو في بداية مشواره العلمي؛ فكانت هذه الصفات الخوارق علامات دالة على نبوغ مبكر, ومستقبل زاهر منتظر.

وقد مرَّ بنا, فيما سبق, أن عاهة العرج التي أصيب بها الشيخ رحمه الله قد حفزت همَّته, واستجمع بها قواه, وكانت له عامل دَفْع للتحصيل العلمي, حتى أنه وصف ذلك بقوله "من التِهَام كتب كاملة بالحفظ", فلم يكن يدرس كأقرانه بل كان نَهِما في تحصيله.

وإذا ما علمنا أن الشيخ رحمه الله, قد انتصب للتدريس, وامتهان التعليم, وهو ابن أربع عشرة سنة, أيقنا أن الفترة التي سبقتها, كان فيها محصِّلاً, لما يعجز عنه الكثير من العلم.

أدباء الفقهاء, أصله من قزوين ومولده بالموصل ولي القضاء في ناحية بالروم ثم قضاء دمشق سنة 724هـ، فقضاء القضاة بمصر ونفاه السلطان الملك الناصر إلى دمشق سنة 738هـ ثم ولاه القضاء بها فاستمر إلى أن توفي.الأعلام للزركلي،ج 6, ص 192.

[1] ـ الآثار, مرجع سابق, نفس الجزء والصفحة؛ وحسن الساحي سويدان, المرجع السابق, ص49.

وهذه دلالة واضحة, على صدق ما قاله بأنه أوتي حافظة وذاكرة خارقتين للعادة, فهو قد حفظ:" ألفيتي العراقي في الأثر والسير[1], ونظم الدول لابن الخطيب[2], ومعظم رسائله المجموعة في كتابه ريحانة الكتاب, ومعظم رسائل فحول كتاب الأندلس كابن شهيد[3] وابن أبي الخصال[4] وأبي المطرف بن أبي عميرة[5] "[6].

وقد ذكر الشيخ رحمه الله, في غير هذه الترجمة, أنه حفظ الشيء الكثير من الكتب والمتون والدواوين الشعرية وكتب الأصول, فقد:"كنت أحفظ "ألفية ابن مالك", ومعظم

---

[1] ـ الحافظ العراقي: عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن، أبو الفضل، زين الدين، المعروف بالحافظ العراقي(725-806 هـ / 1325 - 1404 م) بحاثة، من كبار حفاظ الحديث.أصله من الكرد، ومولده في رازنان, من أعمال إربل، نزل صغيرا مع أبيه إلى مصر، فتعلم ونبغ فيها. وقام برحلة إلى الحجاز والشام وفلسطين، وعاد إلى مصر، فتوفي في القاهرة. الأعلام للزركلي, ج 3, ص 344.

[2] ـ ابن الخطيب, محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب(713- 776 هـ/1313- 1374 م) وزير مؤرخ أديب نبيل,كان أسلافه يعرفون ببني الوزير, ولد ونشأ بغرناطة, واستوزره سلطانها أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل,سنة 733 هـ ثم ابنه الغني بالله محمد، من بعده. الأعلام للزركلي,ج 6, ص 235.

[3] ـ ابن شهيد: أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن مروان بن ذي الوزارتين الأعلى أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد الأشجعي الأندلسي القرطبي؛ هو من ولد الوضاح بن رزاح الذي كان مع الضحاك بن قيس الفهري يوم مرج راهط ، ذكره ابن بسام في كتاب الذخيرة، وبالغ في الثناء عليه، وأورد له طرفاً وافراً من الرسائل والنظم والوقائع. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان: وفيات الأعيان, تحقيق: إحسان عباس دار صادر بيروت, 1968م, ج 1, ص 116.

[4] ـ ابن أبي الخصال: محمد بن مسعود بن خالصة بن فرج الغافقي الوزير أبو عبد الله (465-540هـ/1073-1116م) شاعر أديب ولد بقرية شقورة بالأندلس سكن قرطبة وغرناطة له تصانيف منها مجموعة ترسله وشعره(5ج), وظل العمامة في مناقب الصحابة, ومنهاج المناقب في السيرة وغيره كثير. الأعلام للزركلي, ج 7 ص 95-96.

[5] ـ أبو المطرف : أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن عميرة المخزومي (582- 656هـ/1186-1258 م) عالم فقيه أديب, ولد في شقورة في رمضان، ونشأ في بلنسية، وانتقل إلى غرناطة ومات بتونس، وولي القضاء في عدة مواضع منها: مكناسة، ومليانة. الأعلام للزركلي, ج 1, ص 159.

[6] ـ الآثار, مرجع سابق, ج5 ص164-165.

"الكافية" له, و"ألفية" ابن معطي الجزائري, و"ألفيتي" الحافظ العراقي في السير والأثر, وأحفظ "جمع الجوامع" في الأصول, و"تلخيص المفتاح" للقاضي القزويني, و"رقم الدول في نظم الدول" لابن الخطيب وأحفظ الكثير من شعر أبي عبد الله بن خميس التلمساني شاعر المغرب والأندلس في المائة السابعة"[1]

و لم يقتصر حفظ الشيخ للمتون وألطاف الشعر, ونوادر الأخبار وأسماء الرجال, على ما أنتجه جيل من الأجيال أو قطر من الأقطار أو فترة من الفترات, بل كان موسوعيا في طلبه للعلم وفنونه, يأخذ من كل فن ما علا شأنه, ومن كل علم ما صح منه.

وكانت للشيخ, مع أهل العلم من المشرق ومجموع الفنون التي كتبوا فيها, جولات عديدة وجلسات متعددة تحت إشراف عمه, حتى حفظ لفحول كل فن منهم ما لَذَّ وطاب, وهو في ذلك لم يتجاوز الرابعة عشرة؛ فيقول عن ذلك فحفظت:"معظم رسائل فحول كتّاب المشرق كالصابي[2] والبديع[3], مع حفظ المعلقات والمفضليات وشعر المتنبي كله وكثير من

---

[1] ـ حسن السماحي سويدان, المرجع السابق, ص49.

[2] ـ الصابي: هلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال الصابئ الحراني، أبو الحسين، أو أبو الحسن (359-448هـ/970- 1056م) مؤرخ، كاتب، من أهل بغداد. كان أبوه وجده من الصابئة، وأسلم هو في أواخر عمره. وكان قد تعلم الأدب وهو على دين آبائه. وولي ديوان الإنشاء ببغداد زمنا. الأعلام للزركلي, ج 8, ص 92.

[3] ـ بديع الزمان: أحمد بن الحسين بن يحيى الهمذاني، أبو الفضل (358 - 398 هـ/969 - 1008 م) أحد أئمة الكتاب. له المقامات أخذ الحريري أسلوب مقاماته عنها.وكان شاعرا وطبقته في الشعر دون طبقته في النثر. ولد في همذان وانتقل إلى هراة سنة 380 هـ فسكنها، ثم ورد نيسابور سنة 382 هـ ولم تكن قد ذاعت شهرته، فلقي أبا بكر الخوارزمي، فشجر بينهما ما دعاهما إلى المساجلة، فطار ذكر الهمذاني في الآفاق.ولما مات الخوارزمي خلا له الجو فلم يدع بلدة من بلدان خراسان وسجستان وغزنة إلا دخلها ولا ملكا ولا أميرا إلا فاز بجوائزه.كان قوي الحافظة يضرب المثل بحفظه.ويذكر أن أكثر مقاماته ارتجال، وأنه كان ربما يكتب الكتاب مبتدئا بآخر سطوره ثم هلم جرا إلى السطر الأول فيخرجه ولا عيب فيه. الأعلام للزركلي, ج1, ص115.

شعر الرضي[1] وابن الرومي وأبي تمام والبحتري وأبي نواس"[2]

وكان من حرصه على الحفظ لما يتلقاه من معارف وفنون, فقد كان يستعرض على عمه في يوم التلقي ذاته, حتى يجيزه أو ينقّح له أو يزيده, بحسب حالته النفسية وقدرته الاستيعابية.

فهذه الطريقة في الحفظ, ساعدته على "التهام" العديد من أشعار فحول الشعراء, وكتب الأدب واللغة والتراجم والسير والتاريخ.

فحين نعلم أنه ــ رحمه الله ــ حفظ كتبا كاملة, فغدا في نفسه مكتبة متنقلة, أيقنّا صدقَ قوله, وألزمَنا الحجة بفعله, فيغدو مثالاً يُحتذَى به, وأسوة يُقْتدَى بها.

وكمثال على ذلك حفظه كتب الإصلاح[3] والفصيح في اللغة, وكتب الكامل[4] والبيان وأدب الكاتب في الأدب, ونفح الطيب[5] من غصن الأندلس الرطيب في التاريخ والتراجم المغاربية والأندلسية.

---

[1] ــ الرضي: محمد بن الحسين بن موسى، أبو الحسن، الرضي العلوي الحسيني الموسوي (359-406 هـ/970-1015م) أشعر الطالبيين، على كثرة المجيدين فيهم, مولده ووفاته في بغداد, انتهت إليه نقابة الأشراف في حياة والده, وخلع عليه بالسواد، وجدد له التقليد سنة 403 هـ. الأعلام للزركلي, ج6, ص99.

[2] ــ كتاب الآثار, نفس الجزء, ص165.

[3] ــ إصلاح المنطق: لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق بن السكيت (186-244هـ/802-858م) إمام في اللغة والأدب أصله من خوزستان, تعلم ببغداد واتصل بالخليفة المتوكل, وله من التصانيف الشيء الكثير. الأعلام للزركلي, ج8, ص195.

[4] ــ الكامل: لمحمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد(210- 286 هـ/ 826-899 م) إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار, مولده بالبصرة ووفاته ببغداد. الأعلام للزركلي,ج7 ص144.

[5] ــ نفح الطيب: لاحمد بن محمد بن أحمد بن يحي أبي العباس المقري التلمساني(992-1041هـ/1584-1631م) المؤرخ الأديب الحافظ, ولد ونشأ في تلمسان وانتقل إلى فاس، فكان خطيبها والقاضي بها, ومنها إلى القاهرة وتنقل في بعض البلاد المصرية والشامية والحجازية، وتوفي بمصر ودفن في مقبرة المجاورين. الأعلام للزركلي, ج 1, ص237.

ومن شدة حرصه على التحصيل, كان يقرأ ويراجع ويستعرض على أستاذه(عمه) حتى وهذا الأخير, كان يعاني مما يجده, في لحظات العسرة والمرض.

وهو في حالته تلك (الأستاذ) قد أجاز الشيخ-رحمه الله-, على عادة ما كان من التعليم- ولا تزال هذه العادة في التعليم في بعض المناطق من العالم العربي والإسلامي حتى أيامنا هذه-, على ما حصَّل من العلوم والمعارف.

بداية حياته العملية الأولى:

وبعد هذه الإجازة, وانتقال الشيخ محمد المكي الإبراهيمي إلى الرفيق الأعلى, وكان ذلك سنة 1903م على ما ذكر الشيخ, بدأت الخطوات الأولى لشيخنا مع الحركة التربوية والتعليمية, وبداية حياته العملية الأولى, والتي خاض غمارها وكان فيها الأستاذ المقتدر, بعد أن كان الطالب القادر في مرحلة التحصيل, وقد نذر لهذه الحركة حياته كلها.

و لم يجلس للتدريس _تدريس أقرانه وطلبة صفه_ إلا بأمر من شيخه رحمه الله, لما رأى فيه من علامات النبوغ المبكرة, ولما لَمس فيه من صحة المقصد في تحصيله, فكان كما تُوُسِّم.

وقد أعانه على أداء هذه الأمانة, وهو في هذه السن المبكرة, بعد عون الله له, قوة حفظه, وذاكرته المتينة, والتي تم صقلُها من قبلُ وتطويعُها من قبل أستاذه الشيخ محمد المكي الإبراهيمي.

وفي هذا يقول الشيخ رحمه الله :" وأمرني [عمه] أن أخلفه في التدريس لزملائي الطلبة الذين كان حريصا على نفعهم, ففعلت ووفق الله, وأمدتني تلك الحافظة العجيبة بمستودعاتها, فتصدّرت دون سن التصدر, وأرادت لي الأقدار أن أكون شيخا في سن الصبا"[1].

وقد تَحدُث للإنسان في مسيرة حياته, سواء كانت العلمية منها أو العملية, بعض ما ينغِّص عليه صفوها, أو يكدِّر عليه طيبها, غير أنه يُخْفِي ذلك ولا يُظْهره إلا إذا كان فيه

[1] _ كتاب الآثار, نفس الجزء والصفحة.

من الخصال الحميدة, والنفسية المتجردة من هواها, فيذكر ذلك إن حدَّثَ أو كتبَ عن نفسه؛ والشيخ رحمه الله لا نخاله إلا من هذا الصنف الراقي, صاحب الهمة العالية, والقول الصادق, والذي يحدِّث عن نفسه بكل ما يختلجُها أو ما يعتلجُها.

ففي بداية الشباب, ومع ما يصاحب ذلك من نقص الخبرة المهنية وتجارب الحياة, وقلة التوجيه, قد تعتري الإنسان بعض لحظات الضعف البشري, ويُحسُّ في نفسه الكمال والرشد, ويأخذه بعض الغرور, فتزدهي النفس وتنتشي بما ليست هي له أهل, إن لم يصاحب كل ذلك كبح للجماح من عقل وتوجيه, فقد تردیه المصارع الكبرى والمهلكات العظام.

وقع مثل هذا للشيخ رحمه الله, وأصابته نوبة من الغرور, وأحسَّ في نفسه شيئا من العظمة المزيفة, غير أنه سرعان ما تداركها (النفس) بتقييدها, وألجمها خطَامها.

وقد ذكر ذلك من غير أن يَحس بأنها منقصة له, حيث يقول:" وما أشرفتُ على الشباب حتى أُصبتُ بشر آفة يُصاب بها مثلي وهي آفة الغرور والإعجاب بالنفس, فكنت لا أرى نفسي تقصر عن غاية حُفَّاظ اللغة وغريبها, وحفاظ الأنساب والشعر, وكدت أهلك بهذه الآفة"[1]

ويعزو الشيخ, بعد ذلك سبب نجاته من هذه الآفة, إلى المخزون الأدبي الكريم الذي تشبع به وكان متأصلاً فيه, ثم بما فتح الله عليه من السياحة في الأرض, والتي وجد فيها مغنماً وعِوضاً فيقول:" وكدت أهلك بهذه الآفة لولا طبع أدبيٌّ مَرِح كريم, ورحلة إلى الشرق كان فيها شفائي من تلك الآفة"[2].

---

[1] ـ كتاب الآثار, نفس الجزء والصفحة.

[2] ـ المرجع السابق, نفس الجزء والصفحة.

ثم إن الحياة لا تستقيم إذا كانت على نهج واحد, ووتيرة واحدة, ما لم تتخللها محطات تكدِّر صفوها أو محطات يحلو فيها الكدر, حتى يجد لها الإنسان طعمها الحقيقي ويعيشها بحلوها ومرها, وبخاصة إذا كانت الظروف المحيطة بالإنسان تتدخّل فيها عوامل متعدِّدة.

وفي بعض الأحيان تكون هذه العوامل قاتلة, ويكفي في ذلك ذكراً, أن يكون مثل الإستدمار الفرنسي عاملاً, أو بحسب تعبير الشيخ فهو السرطان.

فقد ضيقت فرنسا على الجزائريين, كلهم دون استثناء, وعلى كل الاتجاهات والأصعدة, منذ وطأت نعال عسكرها النجسة الأرض الطيبة, سواء بالقوانين المتتالية التي أصدرتها, أو بالممارسة الميدانية التي قامت بها وتاريخ حالها ينبئنا بذلك, وبخاصة على كل من له وما له علاقة بالعلم وأهله ومؤسساته, لأنه كان يمثل مصدر الخطر والإزعاج الذي ينغِّص حياتها وتواجد مؤسساتها الاستعمارية في الجزائر.

فهي قد جدَّت واجتهدت, وأجلبت في ذلك بخَيْلِها ورَجْلِها, ووفرت المال وبذلت الجهد لأجل قتل شعلة العلم في النفوس فتموت الهمة وتتقاعس الأمة.

لكن ذلك لم يكن, وهيهات أن يَقْدِر مستبد, حبيب الفناء عدو الحياة, أن تكون له الغلبة ويقتلع جذور الأمة, مهما أوتي من قوة وعسكر, ومهما نوَّع من أساليب, إلا بالإبادة الكلية للأبشار, وقد فعل ذلك المستبد في العديد من المرات والمراحل التاريخية, وتاريخ الجريمة الإنساني قد تَمَعَّر وجهُه مما اقترفته فرنسا بحق الشعب الجزائري, وما تاريخ الثامن مايو ألف وتسعمائة وخمس أربعين منا ببعيد (1945/5/8م).

وأهل العلم سواء كانوا فرادى أو في شكل عائلات توارثوا العلم, أو في شكل مؤسسات, قد ضربت عليهم فرنسا الخناق دون عِنَاق.

ومن ذلك عائلة الشيخ, فقد كان لها ولوالده خاصة الدور البارز في الحفاظ على موروث الأمة العلمي مُدَارسةً وإنفاقاً, مما لفت أنظار الإدارة الفرنسية إليه فقامت بتهجيره وطرده من الجزائر.

وقيل:" أنه خرج فرارا متخفيا سنة 1908م "[1], فالتحق النسلُ الطيب بالأرض الطيبة المدينة المنورة.

وجاءه الأمر من والده بالالتحاق, وكان الشيخ وقتها:" قد اطّلع على كل ما كان في الجزائر وقتئذ من كتب أو مراجع علمية, و لم يقنع بما كان عليه من عمق الثقافة وسعة الاطّلاع"[2], وما أن وجد إلى الخروج من الجزائر سبيلا قفل راحلا إلى المشرق,"متخفياً أوائل سنة 1912م"[3], وقد يكون تاريخ خروجه على الأرجح بداية سنة 1911م, ومن هنا بدأت مرحلة جديدة في حياته رحمه الله.

رحلاته وأسفاره:

لم تعرف أمة من الأمم الرحلة والرحلات في طلب العلم والهجرة والسياحة, مثل أمة الإسلام, فقد امتلأت كتب الأعلام والتراجم بالرحّالة مشرقا ومغربا, سواء في القديم أو في العصر الحديث.

سنَّ الرسول ﷺ هذه السُّنَّة بهجرته إلى المدينة المنورة, بعدما أن أمر الصحابة ﷺ قبل ذلك بالهجرة للحبشة المرة الأولى والثانية ثم إلى المدينة, وجعل باب الهجرة بعد ذلك مفتوحة إلى يوم القيامة ما دعت الضرورة إلى ذلك.

ومن هؤلاء الرحالة المسلمين من أفرد لرحلاته وتطوافه حول العالم والأقاليم التي طوّف بها وزارها تآليف مفردة وذكر فيها ما كان له سواء كانت رحلته برا أو بحرا, أو

---

[1] ـ حسن السماحي سويدان, المرجع السابق, ص51.

[2] ـ عادل نويهض, المرجع السابق, ص29.

[3] ـ حسن السماحي سويدان, المرجع السابق, ص51.

كلاهما معا فأخذت اسمه واشتهر بها, مثل ابن بطوطة[1], وابن حمدوش[2] وابن جبير[3], أو أخذت اسم الإقليم المزار, مثل الرحلة الشامية لصاحبها محمد علي باشا, ونفحة البشام في رحلة الشام لمحمد عبد الجواد القاياتي, والنفحة النابلسية في الرحلة الطرابلسية لعبد الغني بن إسماعيل النابلسي وغيرها كثير.

الرحلة إلى مصر:

لم يكن الشيخ بِدْعاً في فعله, وقد سبقه أبوه في ذلك, فبدأ رحلته العلمية المشرقية بأن حطَّ رحاله بمصر, ودامت إقامته بها ثلاثة أشهر, قام خلالها بالعديد من الجلسات العلمية, من حيث السماع والمحاورة.

وإقامته في مصر-كانت بالنسبة إليه اضطرارية, لأن وجهته كانت المدينة المنورة- حيث التقى فيها بأساطين كل علم وفن.

---

[1] ـ ابن بطوطة(703-779هـ/1304-1377م) محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله، رحالة مؤرخ, ولد ونشأ في طنجة بالمغرب الأقصى, وخرج منها سنة 725هـ، فطاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس, اليمن والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين والجاوة وبلاد الترّ وأواسط إفريقية. وعاد إلى المغرب الأقصى، فانقطع إلى السلطان أبي عنان (من ملوك بني مرين) فأقام في بلاده.وأملى أخبار رحلته على محمد بن جزي الكلبي بمدينة فاس سنة 756 هـ وسماها :تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. وكان يحسن التركية والفارسية. واستغرقت رحلته 27 سنة (1325 – 1352م) ومات في مراكش. الأعلام للزركلي,ج 6,ص235-236.

[2] ـ ابن حمدوش(1107- نحو 1195هـ/1695- نحو1780م) عبد الرزاق بن محمد بن حمدوش: عشّاب فقيه رحالة,من أهل الجزائر.كانت حرفة أسرته الدباغة وعرف أبوه بالدباغ.حج حجته الأولى (سنة 1130) مارا بتونس.وقام برحلات إلى المغرب (1156) قرأ فيها على جماعة.وأشار في رحلة أخرى إلى أنه زار بلاد العرب والعجم والترك. الأعلام للزركلي,ج 3 ص 352

[3] ـ ابن جبير (540- 614هـ/1145-1217م) محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين: رحالة أديب.ولد في بلنسية ونزل بشاطبة، وبرع في الأدب، ونظم الشعر الرقيق, وحذق الإقراء، وأولع بالترحُّل والتنقل فزار المشرق ثلاث مرات إحداها سنة 578-581هـ، وهي التي ألف فيها كتابه "رحلة ابن جبير" ومات بالإسكندرية في رحلته الثالثة. الأعلام للزركلي,ج5,ص319 .

بدأ رحلته العلمية فيها, كما هو حال وعادة طلاب العلم والمعرفة النازلين بمصر, بالأزهر الشريف, لأنه كان قبلة كل مريد, وحلقاته العلمية ومجالسة بعض علمائه كالشيخ سليم البشري[1] والشيخ محمد بَخيت[2], والشيخ يوسف الدَجوي[3] فزيارة الشاعر شوقي ثم حافظ إبراهيم, حيث كانت له معهما جلسات ومساجلات, وانتهاءً بالشيخ رشيد رضا.

الرحلة إلى البقاع المقدّسة:

فلما استنفذ ما عندهم, خَلُص إلى حطّ رحاله بالمدينة المنورة حيث يقيم والده, مرورا من بورسعيد إلى حيفا في البحر, ثم ركوبه القطار إلى المدينة المنورة التي كان وصوله إليها في أواخر سنة 1911م.

وهناك انكب على اغتراف العلم ومجالسة علماء المدينة ممن كانوا في ذاك الزمان وكان أشهرهم, الشيخ عبد العزيز الوزير التونسي, والشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي.

وكان أن أخذ على الأول الفقه المالكي, و"الموطأ" مشافهةً, والثاني أخذ عنه صحيح "الإمام مسلم" في الحديث؛ وقد كان لهما الأثر الحميد والكبير في نفسيته وتوجيه فكره.

---

[1] سليم البشري (1248- 1335 هـ/1832- 1917م) سليم بن أبي فراج بن سليم بن أبي فراج البشري، شيخ الأزهر ولد في محلة بشر من قرى مديرية البحيرة بمصر تعلم وعلم بالأزهر تولى نقابة المالكية. الأعلام للزركلي ج3,ص119.

[2] الشيخ محمد بخيت (1271- 1354هـ/1854-1935 م) محمد بخيت بن حسين المطيعي الحنفي: مفتي الديار المصرية ومن كبار فقهائها.ولد في بلدة (المطيعة) من أعمال أسيوط.وتعلم في الأزهر، واشتغل بالتدريس فيه.وانتقل إلى القضاء الشرعي سنة 1297.وعين مفتيا للديار المصرية ولزم بيته يفتي ويفيد إلى أن توفي بالقاهرة. الأعلام للزركلي ج6,ص50.

[3] يوسف الدجوي (1287- 1365هـ/ 1870-1946م) يوسف بن احمد بن نصر بن سويلم الدجوي، المالكي، نصري، عالم ناقد، مشارك في بعض العلوم.ولد بقرية دجوة من أعمال مديرية القليوبية بمصر، وكف بصره في صغره، وتعلم بالأزهر. وتوفي بعزبة النخل من ضواحي القاهرة، ودفن في عين شمس. الأعلام للزركلي ج9,ص287.

ويصفهما الشيخ رحمه الله بقوله:"وأشهد أني لم أر لهذين الشيخين نظيرا من علماء الإسلام إلى الآن, وقد علا سني, واستحكمت التجربة, وتكاملت الملكة في بعض العلوم, ولقيت من المشايخ ما شاء الله أن ألقى, ولكنني لم أر مثل الشيخين"[1]

وكان الشيخ يغشى العديد من المكتبات العامرة المحاذية لحرم الرسول ﷺ, وأهم تلك المكتبات مكتبة الشيخ محمد عبد العزيز الوزير التونسي والذي يلقبه الشيخ البشير رحمه الله بشيخنا حيث يقول:" وكنت أغشى ثلاث مكتبات جامعة غنية بعشرات الآلاف من المخطوطات النادرة: مكتبة شيخ الإسلام ومكتبة السلطان محمود ومكتبة شيخنا الشيخ الوزير التونسي"[2].

وكان يُلقي في الحرم النبوي, وهو في ذلك متطوعاً, بعض الدروس لعلمه أن العلم يزكو بالعطاء, وبخاصة في العلوم والمعارف التي أحس أنه قد اكتملت الملكة فيها كالنحو والصرف وعلم اللغة والعقائد والأدب, وبالمقابل كان يتلقى بعض الدروس في التفسير والحديث وعلم الرجال, وأعانته على التحمل في ذلك, ذاكرته التي صقلها منذ نشأته الأولى, فكان أن حفظ كتبا كاملة في الحديث واستوعب أسماء الرجال, وكان هذا ديدنه رحمه الله لمدة فاقت خمس سنوات.

وفي هذه المرحلة من عمره, زادت معارفه وتفتقت قدرات عقله ونضجت أفكاره باحتكاكه مع غيره, وكانت له همّة عالية, مما رشحته للتصدر والقيادة, وزاد عزمه مما كان يسمعه أو يراه من واقعه وواقع الأمة, فلم يكن بالمنعزل في مجتمعه, بل كان مشاركا وفعّالاً وفاهماً لما يدور من حوله.

وكان أن جمع القدر في موسم حج سنة1331هـ/ 1913م, بين الشيخ رحمه الله وبين السيد الرئيس, الشيخ عبد الحميد بن باديس, مع أخ لهم ثالث وهو الشيخ الطيب العقبي,

---

[1] ـ حسن السماحي سويدان, المرجع السابق, ص53. والآثار, ج5, ص275.

[2] ـ كتاب الآثار, ج5, ص166.

والذي كان قد سبقهما إلى تلك البقاع بمدة, وجعل الله بين ثلاثتهم ألفة ومودة شديدة زادها وثاقاً ميولهم واهتماماتهم المشتركة وأهدافهم المسطّرة، وأصبغت عليها الغربة مزيدا من القوة والعمق والمتانة.

ففي تلك الربوع الطاهرة, وأجواء الروحانية الصافية, لمدة فاقت ثلاثة أشهر كان التدارس لحال الأمة جميعا وحال الجزائر على وجه الخصوص.

وفي هذه الجلسات الطوال, والتي كانت تتم من بداية عتمة الليل إلى آذان الفجر, كان أمر الجزائر يتقرر, وسبل النهوض بها ترتسم خيوطها الأولى, ونواة العمل الجماعي بدأت تتأسس, حتى ولو لم تظهر نتائجه إلى غاية1349هـ/ 1931م, حين الإعلان الرسمي عن ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وقد أشار إلى ذلك الشيخ رحمه الله قائلاً:" (وكانت تلك الأسمار المتواصلة كلها، تدابير للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة، التي كانت كلها صورًا ذهنية تتراءى في مخيلتنا، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حققها في الخارج بعد بضع عشرة سنة. وأشهد الله على أن تلك الليالي من عام 1913 ميلادية، هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تبرز للوجود إلا في عام 1931م)[1].

وعلى قدر مشاركته العلمية في مجالس العلم وحلقاته, كان مشاركا كذلك بلسانه وقلمه في ما يهم الأمة من مواقف سياسية واجتماعية. فقد كان سليط اللسان في الحق, وشارك بالعديد من المقالات والحوارات لإصلاح وتوجيه السياسة العثمانية وتحديد علاقاتها مع الدول التي كانت تابعة لها سواء كانت عربية إسلامية أو إسلامية.

---

[1] مصطفى محمد حميداتو: عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية, كتاب الأمة, العدد57, الدوحة, قطر, ط1,محرم 1418هـ/1997م , ص88. والآثار, ج5 ص278.

كما قاد حملة توعوية تصحيحية للمناهج التربوية التي كانت سائدة في الحرم المدني مع مجموعة من المثقفين, لِمَا رأى فيها من اعوجاج وتلقين بالٍ فاسد لا يكاد ينفع صاحبه, بل قد يقعدُه بجوار الجهل ويُصاحبُه, وفي ذلك يقول الشيخ:" وطفت بحلق العلم في الحرم النبوي مختبراً فلم يَرُق لي شيء منها, وإنما هي غثاء يلقيه رهط ليس له من العلم والتحقيق شيء"[1]؛ إلا ما وجد عند شيخيه سالفي الذكر, الوزير التونسي والمحدّث الهندي.

وكادت تنجح تلك الحركة لولا بعض الظروف الخارجية, ومنها قيام الحرب العالمية الأولى, وثورة الشريف الحسين بن علي[2], والتي كان الشيخ رحمه الله من المقاومين لها بلسانه وقلمه, هذه الثورة كما يقول عنها الشيخ:" كانت هي السبب في إجلاء سكان المدينة عنها إلى الشام والأناضول"[3].

الرحلة إلى الشام:

توجه الشيخ مع عائلته ومجموع من العائلات المغربية التي كانت تسكن المدينة المنورة تلقاء دمشق, وكم كانت الرحلة متعبة في حد ذاتها, وزاد من مشقتها ما لقيَه الشيخ من استدارة الزمان له, وما رافق ذلك من شظف العيش.

ورغم الإغراءات التي حظي بها عند بعض أعيان دمشق, فلم تحبه نفسه الأبية إلى ما دُعي إليه؛ وألزم نفسه للمهمة التي وكّل ووهب نفسه لها وهي التعليم.

فقام رحمه الله بوظيفته التي تولاّها على أحسن وجه, في المدرسة السلطانية, وهي المدرسة الثانوية الوحيدة إذ ذاك بدمشق, وساعده في ذلك مخزونه المعرفي, والرحلة المصرية ثم الحجازية, وما كان له فيهما من مُدارسة ومُجالسة للعلم وأهله, وما كادت تمر عليه أيام

---

[1] ـ الآثار, نفس الجزء, ص275.

[2] ـ الملك حسين (1270- 1350هـ/ 1854-1931م) الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون، من أحفاد أبي نمي ابن بركات، الحسني الهاشمي: أول من قام في الحجاز باستقلال العرب عن الترك.وآخر من حكم مكة من الأشراف الهاشميين. ووافته منيته.فحمل إلى القدس، ودفن في المسجد الأقصى. الأعلام للزركلي. ج 2.ص(240-241).

[3] ـ الآثار, نفس الجزء, ص106.

حتى صار فيها الشيخ أسد العرين في السلطانية, وصار خِطَامُ العربية بيده, فهو سيد الفرسان فيها.

وأسَّس الشيخ مع مجموعة من علماء ومثقفي ديار الشام "مجمع اللغة" بدمشق, وكان الهدف من وراء ذلك تعريب التعليم, ثم الدواوين الحكومية, وصَلُح أمر التعليم بعد ذلك, فصار عربيا صرفا بعد خروج الحاكم التركي وأعوانه القائمين على التعليم من دمشق.

وخرَّج الشيخ في فترة تدريسه بالسلطانية, العديد من الدفعات, وكان منهم الطلبة النجباء الذين تقلَّدوا مناصب التعليم في الوطن العربي, أو مناصب المسؤولية في الشام, جاء قول الشيخ فيها:" وتخرج على يدي في ظرف سنة واحدة جماعة من الصفوف الأولى هم اليوم في طليعة الصفوف العاملة في حقل العروبة"[1].

وعن دروسه وطريقة إلقائها, ومنهجه في تقريب المفاهيم وانتخابه لمفردات حلقاته العلمية وجذب المريدين, يقول أحد تلامذته, وقد تتلمذ عليه وكان في الصفوف النهائية, وهو الدكتور جميل صليبا[2]:" أعْجبنا بسعة علمه, وقوة ذاكرته, واستقامة منهجه, لأنه كان يملي علينا قصائد المتنبي والبحتري وأبي تمام, من حفظه من أول القصيدة إلى آخرها, ويقرب معانيها منا بالتفسير المحكم, والشرح الدقيق, والتعليل الأدبي الجميل, حتى ولَّد في نفوسنا حب اللغة العربية وآدابها"[3]

وعَلِم أهلُ الشام, وبخاصة علماؤهم, مقامَ الشيخ رحمه الله, فدعوه إلى إلقاء بعض الدروس الرمضانية في المسجد الأموي, من قِبَل الوعظ والإرشاد, تحت "قبة النصر الشهيرة", وما كان ليجلس تحت هذه القبة من العلماء إلا من كان باعه في العلم كبير, وشأوه عالٍ.

---

[1] ـ الآثار, نفس الجزء والصفحة.

[2] ـ حبيب الخوري داود صليبا(1902-1976م) ولد بلبنان وتوفي بها, كان عضوا بمجمع اللغة العربية بدمشق وعميدا لكلية التربية بجامعة دمشق. هامش رقم 4 من كتاب محمد مهداوي: البشير الإبراهيمي,ص40.

[3] ـ محمد مهداوي, مرجع سابق, ص40.

وأحاط بما لم يحط به أهل زمانه من فنون العلوم ودروب الدراية, وشهد له علماء عصره بعلوّ كعبه في العلم.

أصابت أهلُ الشام من الشيخ دهشةٌ في طريقة إلقائه للدروس, وفي منهج تلقينه لهم من معارف فقد جاءهم بما لم يكن لهم به عهد, إلاّ ما كان على عهد سلفه الشيخ بدر الدين الحسني[1]. وفي هذا يقول الشيخ:" ثم حملني إخواني على إلقاء دروس في الوعظ والإرشاد بالجامع الأموي بمناسبة حلول شهر رمضان فامتثلت وألقيت دروساً(تحت قبة النصر الشهيرة) على طريقة الأمالي فكنت أجعل عماد الدرس حديثاً أمليه من حفظي بالإسناد إلى أصوله القديمة, ثم أملي تفسيره بما يوافق روح العصر وأحداثه, فسمع الناس شيئا لم يألفوه و لم يسمعوه إلا في دروس الشيخ بدر الدين الحسني"[2]

وطاب المقام للشيخ رحمه الله وتحسنت أوضاعه المالية واستقرت أحوال أهل بيته بدمشق فقام أبوه بتزويجه من بنت طيبة الأعراق تونسية, يرجع أصلها إلى الأتراك كانت وعائلتها قد نزحوا إلى المدينة المنورة, بعد أن دخل الاستدمار الفرنسي أرض تونس سنة 1881م, ثم هاجروا معهم من المدينة المنورة إلى دمشق.

وكانت مدة إقامته رحمه الله بالشام من ألذ وأطيب أيامه وأسعد فترات حياته, وقد وصفها رحمه الله بأنها كانت أياما عامرة بالخيرات مثمرة بالأعمال الصالحات, حيث يقول:" فأشهد صادقا أنها هي الواحة الخضراء في حياتي المجذبة, وأنها هي الجزء العامر في عمري الغامر وأنني كنت فيها أقر عينا وأسعد حالاً"[3].

---

[1] ـ بدر الدين الحسني (1267- 1354هـ/1851- 1935م) محمد بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن عبد الله بن عبد الملك بن عبد الغني المغربي المراكشي البياني، محدث الشام في عصره. الأعلام للزركلي,ج7, ص157.

[2] ـ الآثار, ج3, ص277. وحسن السماحي, مرجع سابق, ص56.

[3] ـ محمد مهداوي, مرجع سابق, ص41.

غير أن الآجال والأقدار تفعل في دنيا النّاس فعلها دون أن تترك لهم الخيار, ففي أواخر سنة 1919م أو قبلها بقليل, كان الشيخ رحمه الله قد أودع تربة دمشق أعز ما يملك من قربته وذويه, أودع فيها أباً عالماً, عطوفاً عارفاً, وحماه أو حماته, كما أودع فيها أحد ذريته, وهو أول مولود له بدمشق.

ويقول في ذلك مخاطبا تربة مقبرة الدحداح بدمشق:"ويا تربة الدحداح بوركت من تربة, لا يذوق الغريب فيها مرارة الغربة, ولازلت مسقطاً لرحمات الله. إنني أودعت ثراك أعز النّاس عليّ, أبي وابني وجدّي أولادي فاحفظي الودائع إلى يوم تجزى الصنائع"[1].

وكان فضل الله على الشيخ كبيرا, فقد رزقه بالذرية الطيبة بعد عودته للجزائر, بعد أن رزأه الموت في أول الطالع منها, والدكتور أحمد طالب الإبراهيمي خير شاهد وقائم.

وكان هذا هو حال الشيخ حتى عام 1920م, أين جاءته أخبار من الجزائر, مفادها أن الأوضاع فيها قد تحسنت وأنه بإمكانه الرجوع والمساهمة في العملية التعليمية والتربوية للشعب الجزائري؛ و لم ينس العهد الذي كان قطعه على نفسه مع أخيه الشيخ عبد الحميد ابن باديس, زمن إقامتهما بالبقاع المقدسة.

ويصف الشيخ ذلك الموقف المهيب والمؤثر في نفسه يوم خروجه من دمشق, ومجموع من محبيه ورفاقه وطلبته يودّعونه بالمحطة القائمة إلى هذه اللحظة, وهي محطة البرامكة بوسط دمشق فيقول:" ويا يوم الوداع ما أقساك, وإن كنت لا أنساك, لا أنسى بعد ثلاثين سنة ولن أنسى ما حييت موقف الوداع بمحطة البرامكة والأستاذ الخضر[2] يكفكف العبرات

---

[1] ـ محمد مهداوي, مرجع سابق, ص43.

[2] ـ محمد الخضر حسين(1293-1373هـ/ 1876-1958م) عالم جزائري, نشأ بتونس وتوفي بمصر, عالم بالشريعة وأديب ولغوي باحث, تولى مشيخة الأزهر بعد جامع الزيتونة, كان عضوا في مجمعي القاهرة ودمشق, درّس مع الشيخ الإبراهيمي بالمدرسة السلطانية بدمشق, مؤلفاته كثيرة. محمد مهداوي, المرجع السابق, هامش رقم 1 ص 42. وذكره الزركلي في الأعلام, ج6, ص 113. أنه تونسي ولعله وَهْم تَوَهَّمَه, والصحيح أنه تونسي المولد, وأصوله من مدينة طولقة.

وتلامذتي الأوفياء جميل صليبا وبديع المؤيد ونسيب والأيوبي, يقدمون إليّ بخطوطهم كلمات في ورقات, مازلت محتفظاً بها احتفاظ الشحيح بماله"[1].

عودته إلى الجزائر:

في تلك السنة، أي عام 1920م, خرج الشيخ قافلاً من بلاد أحبته وأحبها, ولا يزال حب بعض أهل الشام من العلماء وطلبة العلم , من يحمل له الذكرى العطرة حينما يذكرونه إلى حين كتابة هذه الأسطر, ممن لقيتُهم بها, ويعتبرون خروجه منها فاجعة ثانية كبرى, بعد فاجعة فقدانهم الأمير عبد القادر الجزائري الذي كان له هو كذلك الفضل والأيادي البيضاء على أرض الشام وأهلها.

وفي طريق الأوبة, التقى الشيخ والرئيس (الشيخ عبد الحميد بن باديس) بأرض تونس, والتأم الشمل بعد الفراق, وابتهج الرئيس بمقدمه أكثر من كل أحد لتحقيق أمله المعلق عليه, وكم كانت الفرحة كبيرة, لأنها فرحتان, فرحة لقاء من يحملون أفكار بعضهم بعضاً ويشاركون هموم بعضهم بعضاً, وفرحة الأوبة إلى الموطن بعد طول غياب, ومعها كذلك بدأت ساعات الجهد المضني, بل الأيام بل السنوات.

وجد الشيخ رحمه الله أن الرئيس قد هيأ المناخ المناسب والأرضية الطيبة التي-إن أحسن استغلالها- ستأتي أُكلها بعد حين, وذلك لم يتأت من فراغ. فقد بذل الشيخ الرئيس مجهودات كبيرة تنوء بحملها العصبة, وأوصل ليله بنهاره وهو في جد واجتهاد وصبر ومصابرة, حتى غدت قسنطينة مدينة التطهُّر من لوثة الجهل ونجاساته.

وسجل الشيخ هذا بإعجاب- حافظا لأهل الفضل فضلهم- حينما قال مستبشرا: " ورأيت بعيني النتائج التي حصل عليها أبناء الشعب الجزائري في بضع سنوات من تعليم ابن باديس, واعتقدت من ذلك اليوم أن هذه الحركة العلمية المباركة لها ما بعدها, وأن

[1] ـ محمد مهداوي, مرجع سابق, ص41-42.

هذه الخطوة المسددة التي خطاها ابن باديس هي الحجر الأساس في نهضة عربية في الجزائر, وأن هذه المجموعة من التلاميذ التي تناهز الألف, هي الكتيبة الأولى من جند الجزائر"[1].

رأى الشيخ ذلك في واقعه وأمام عينيه ماثلاً, فبدأ حملته العلمية والتعليمية من مسقط رأسه بمدينة سطيف, ولكن بمناهج وطرق وأساليب جديدة, وبأفكار تصحيحية وإصلاحية, يوخز فيها الضمائر, ويرفع عنها ما أسدى الجهل عليها من ستائر, حتى ينتبه الناس إلى حالهم ويقررون بعد ذلك عقبى مآلهم.

أعماله بعد العودة:

بدأ مشروعه الإصلاحي في تلك المنطقة بالمسجد, حيث كان يلقي به الدروس الوعظية العامة والندوات والمحاضرات عدا الجمع والأعياد, ويتخير من تلك المجالس بعض النبهاء من الطلبة من الحاضرين, حتى اجتمع له فتية آمنوا بفكرته وبالرسالة التي يود نشرها وتبليغها, فأسس بعد ذلك مدرسة بسطيف عام 1924م, على شاكلة المدارس النظامية الفرنسية, مخالفة لها في روحها ومناهجها.

وكان الهدف من التأسيس هو تنشئة فئة من الشباب يحملون العلم بعده, ويدربهم على الكتابة والخطابة وقيادة الجمع الكبير من الجماهير الجزائرية, والتي فعلت فيها مناهج ووسائل وقوانين فرنسا الخبيثة فعلتها, فقد قاربت اجتثاثها من أصولها.

وتمر الأيام والشهور والشيخ لا يكل ولا يمل لما نذر له نفسه, فهو في غدوته معلماً وفي روحته مؤدبا, وبين هذا وذاك كان مسيرا وموجهاً, ومتنقلاً بين المساجد في مدينة سطيف وأحيائها وقراها يعطي العلم دون فتور همة ولا خَور.

وفي هذه الفترة ما انقطعت صلاته ولا اتصالاته مع الشيخ الرئيس, فقد كان يتبادل الزيارة معه غدوة أو روحة, ما وجد لذلك سبيلا, فتارة يتم اللقاء بقسنطينة وأخرى

---

[1] ـ الآثار, مرجع سابق, ج5,ص279. وحسن السماحي, مرجع سابق, ص59.

بمدينة سطيف من أجل تضليل العدو وإبعاد شكوكه. وأثمرت جهود السنوات، وأخرج الزرع شطأه واستوى على سوقه، يعجب الزرّاع ويغيظ به العدو والكفار.

فأصبح لهذه الحركة العلمية جيش من التلامذة يحملون فكرها وعقيدتها، مدجّجين بما يحتاجون من سلاح من خطباء وكتّاب وشعراء.

واكتمل لفرنسا قرن من التواجد بأرض الجزائر الطاهرة، وظنت أنها قد استولت على الأرض وطاب مقامها فيها وقد أصبحت قطعة فرنسية، وأن الشعب الجزائري قد فقد هويته وما يربطه بتلك الأرض، فأقامت الاحتفالات لمدة وأعدّت لذلك أفراحها وأيّ عدّة.

وكان الجواب من الشعب الجزائري: خاب ظنك يا فرنسا، وجعل الله كل أيامك أقراحاً وأتراحاً، وجاءت البشائر من شعب ظُنَ به أنه شعب خائر، يقوده ابن باديس وبشير البشائر، وأُعلن عن ميلاد مولود كانت قد حبلت به الجزائر في الضمائر والسرائر، فأصبح حقيقة ماثلة لكل ناظر، ذلك المولود هو جمعية علماء الجزائر، والتي أسموها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكان ميلاده يوم: الثلاثاء 12/18(ذو الحجة)/1349هـ الموافق لـ 1931/05/05م.

وجاء الرد كذلك مدويّا ومجلجلاً من قبل الشيخ الرئيس مخاطبا شعب الجزائر كله وخصّ نَشْأَها بالخطاب ومستبشرا به في الأرجوزة التي مطلعها:

شَعْبُ الجزَائرِ مُسْلِم ..... وإلى العُرُوبة يَنْتَسِبْ.

مَنْ قال حَادَ عن أَصْلِه.... أو قال ماتَ فقد كَذَبْ.

يا نَشْءُ أنتَ رجَاؤُنا .....وبكَ الصَّبَاحُ قد اقْتَرَبْ.

أعماله في الجمعية:

قام رحمه الله بالعديد من الأعمال الكثيرة والجليلة من غير أن تحصيها مثل هذه السطور، مع مجموعة من العلماء الجزائريين المخلصين، الذين نذروا أنفسهم لخدمة الإسلام والعروبة

والجزائر, والآمال تحدوهم في التغيير؛ وقد رأوا النتائج الأولية لسنوات البذر الأولى قد أثمرت, وعلموا أن العمل الفردي لا يجدي نفعا ولا يأتي بمَرجوٍ؛ وعلموا يقينا أن العدو يقاتل, ويهاجم في الْمَقَاتل كرجل واحد وبيد من حديد, فوحدوا صفوفهم والتفوا حول قائد واحد, وانضووا تحت راية واحدة, لما في الوحدة من نجاة وعصمة, وجعلوا من الجمعية مدارا ومن مقرها دارا.

وبدأ التكليف من أوَّل يوم في الجمعية, حيث وضع لها لائحتها الداخلية وقانونها الخاص بها, وجاءت اللائحة مسبوكة مرتبة في مائة وسبع وأربعين مادة, وأندهش مَن حضر مناقشة هذه المواد وخاصة الفئة المثقفة بغير اللغة العربية, ووافق الجميع على ما جاء من مواد اللائحة دون زيادة أو نقصان, وتمت المناقشة في ثماني جلسات من أربعة أيام.

ثم انصبَّ الجهد في محاربة عدوين متجانسين, كلاهما يتعرَّق اللحم ويمتص الدَّم, وهما الإستدمار الفرنسي(أو الطاعون كما يسميه الشيخ), والثاني إستدمار الروح والمتمثل في الطرقية الفاسدة ومشايخها, فانصبَّ الجهد على:

- تنظيم حملة جارفة على البدع والخرافات والضلال في الدين.
- الشروع العاجل في التعليم العربي للصغار.
- تجنيد المئات من تلامذتنا المتخرجين للعمل في تعليم أبناء الشعب.
- العمل على تعميم التعليم العربي للشبان على النمط الذي بدأ به ابن باديس.
- مطالبة الحكومة برفع يدها عن مساجدنا ومعاهدنا التي استولت عليها.
- مطالبة الحكومة بتسليم أوقاف الإسلام التي احتجزتها ووزعتها على معمريها.
- مطالبة الحكومة باستقلال القضاء الإسلامي في الأحوال الشخصية مبدئيا.
- مطالبة الحكومة بعدم تدخلها في تعيين الموظفين الدينيين[1].

1ـ الآثار, مرجع سابق, ج5,ص282. وحسن السماحي, مرجع سابق, ص63- 64.

وبعد عام من الجد وبذل الجهد، والذي كلّل محصوله بنتائج باهرة، قررت الجمعية انتداب أساطين العلم وتوزيعهم على المراكز العمرانية الكبرى في القطر الجزائري ومن تبعها من مقاطعاتها، بحيث استقر الرئيس بمدينة قسنطينة شرقاً، والشيخ الطيب العقبي بالجزائر الوسطى وما تبعها، والشيخ الإبراهيمي مدينة وهران غرباً.

ولأسباب دعوية وثانية إستراتيجية وثالثة أمنية ورابعة تاريخية، غيَّر الشيخ مقره من وهران إلى تلمسان سنة 1933م، وكان يلقي فيها مثل ما كان يلقي في وهران، عشرات الدروس والمحاضرات التي تصحّح العقيدة، وتوجّه السلوك، وتربط الإنسان بعاجل أمره فيبصره وهو فيه حقيق، ويعمل لأجل أمره باستعمار عاجله بالصالحات والفهم الدقيق.

وما هي إلا مدة قصيرة، سنتان، حتى عظُم أمر التعليم بتلمسان ورجع إلى سالف عصره.لما انبرى له أهله، وتجمَّع أهلها حول الشيخ كبيرهم وصغيرهم، يطلبون المزيد، فكافأهم على طلبهم ببناء مدرسة دار الحديث، ونَظَّم فيها الدروس. حيث كان يلقي في اليوم الواحد عشرة دروس بداية من صلاة الفجر إلى صلاة العشاء، مفتتحاً بالحديث وخاتما بالتفسير.

ثم يلتحق الشيخ بأحد النوادي المخصّص للسمر بعد صلاة العَتَمة، فيلقي فيه محاضرة في السيرة والتاريخ وفي ذلك يقول الشيخ رحمه الله:" فكنت القي عشرة دروس في اليوم، أبدأها بدرس في الحديث بعد صلاة الصبح، وأختمها بدرس في التفسير بين المغرب والعشاء وبعد صلاة العتمة أنصرف إلى أحد النوادي فألقي محاضرة في التاريخ الإسلامي، فألقيت في الحقبة الموالية لظهور الإسلام من العصر الجاهلي إلى مبدأ الخلافة العباسية بضع مئات من المحاضرات"[1].

---

[1] ـ الآثار، مرجع سابق، ج5،ص282. وحسن السماحي، مرجع سابق، ص65. و محمد مهداوي، مرجع سابق، ص56.

ولكم كان حجم الجهد كبير, وما كان الغرس ليُنتج أو يثمر, لو ما صاحبته مجاهدة للنفس أكبر, فأي نفسٍ هذه التي كانت بين جنبيه.

السجن والإقامة الجبرية بسجن آفلو:

ضايقت حركات وسكنات الشيخ نظام الاحتلال القائم, وطالبت الحكومة منه مطالب خدمتها مع قيام الحرب العالمية الثانية, فقابلها الشيخ بالرفض, وحق له ذلك, فما كان منها إلا استعمال المنهج القويم الذي تتبناه كسياسة- وهو منهج البطش والتنكيل-, والوسيلة المثلى التي تصل بها إلى تحقيق أهدافها – وهي وسيلة القوة-, فأصدرت في حقه قرارا بنفيه إلى سجن آفلو بالجنوب الغربي الجزائري بتاريخ: 1940/04/10م.

وقبل انقضاء أسبوعه الأول, وهو في سجنه, تأتيه فاجعة موت أحب مخلوق له على وجه الأرض, وهي فقدان رئيسه وصاحبه. فزاد الجرح اندمالاً, وما للهمِّ احتمال, وفوق أثقاله زادت أثقال, ولا يعين على ذلك إلا الصبر والاحتساب للواحد الفعَّال.

وسجَّل لنا رحمه الله تلك اللحظات التي مرَّ بها, في رسالة طويلة, يعزِّي فيها نفسه ويعزي بها أفراد الجمعية ومن ورائهم الشعب الجزائري ويعزي فيها الأمة بهذا المصاب. وقد أطال رحمه الله فيها وأجاد, عساه يجد في ذلك السلوى. ومما جاء فيها وهو يخاطب الرمس الذي حوى الجسد الطاهر بقوله:" يا قبر, ما عهدنا قبلك رمساً وارى شمساً, ولا مساحة تكال بأصابع الراحة, ثم تلتهم فلكاً دائراً وتحبس كوكبا سائرا... يا قبر, أتدْري من حويت؟ وعلى أي الجواهر احتويت؟ إنّك احتويت على أُمَّة في رُمَّة, وعلى عالَم في واحد"[1].

[1] الآثار, مرجع سابق, ج2,ص57.

رئاسته **للجمعية**:

وهو في السجن تمّ تعيينه رئيسا للجمعية بالإجماع. فقد اجتمع المجلس الإداري للجمعية في الأسبوع الأول من وفاة الرئيس رحمه الله وأبلغوه بذلك, فصار يديرها من تلك البقاع عن طريق المراسلة بواسطة رجال أمناء, حتى أُطلق سراحه.

وأثناء تواجده بالسجن وما فيه من وحدة ووحشة,كان الشيخ رحمه الله يملأ كل وقته بالكتابة, فقد ألّف العديد من التواليف هناك. فكان فيها قلمه سيالا, وخير مثال لذلك رواياته الثلاثة شعراً, ورسالة الضب ومرشد المعلمين نثرا[1], وملحمته الشعرية التي قيل أنها بلغت ستة وثلاثين ألف بيت ما وصل إلينا إلا القليل منها, وفي ذلك يقول الشيخ:" ولكن أعظم ما دونت, ملحمة رجزية نظمتها في السنين التي كنت فيها مبعدا في الصحراء الوهرانية, وهي تبلغ ستة وثلاثين ألف بيت من الرجز السلس اللزومي في كل بيت منه"[2].

ولبث في السجن ما يقارب ثلاث سنين, وحين خروجه باشر إدارة وأعمال الجمعية في العاصمة بعد رجوعه من وهران, وكان أصلب عودا وأمضى عزيمة, فقد كان كثير الترحال كصاحبه الرئيس رحمه الله, فطوّف شرقا وغرباً جنوبا وشمالا وفي أثناء ذلك كله كان قد أشرف على بناء العديد من المدارس والمساجد في كل ربوع الجزائر بمال الشعب الجزائري, حتى يزيح عنه كثيرا ممّا ورّثته فرنسا من بدع وعقائد فاسدة وينهض به لاستشراف مستقبله.

أسّس رحمه الله نحو سبعين مدرسة متفاوتة المستويات وفي كل الجهات, وكان ذلك يتم بحسب المنطقة والظروف المحيطة بها, وحاجياتها للتعليم, أما المدارس الابتدائية النظامية التابعة للجمعية فقد فاق عددها المائة والخمسين مدرسة حرة, يأوي إليها أكثر من خمسين ألف مريد, ويؤطرهم أكثر من أربعمائة أستاذ, وكل ذلك بمال الأمة.

---

[1] ـ منشورة بكتاب الآثار, مرجع سابق, ج2, ص19-119.

[2] ـ الآثار, مرجع سابق, ج3, ص280.

ولم يتوقف ولا يوما واحدا, مع تلك الأشغال الكثيرة والمهمات العظام من إلقاء الدروس والمحاضرات والوعظ والإرشاد والتوجيه للأمة, كلما حلَّ ببلدة أو قرية.

كما كان له الفضل الكبير في إعادة بعث نشاط جريدة الجمعية- البصائر-, فكان يكتب افتتاحية كل عدد منها, مع ما يردف ذلك من مقالات, والتي كان يختار مواضيعها مما يقتضيه الحال, سواء حال الشعب الجزائري أو حال الأمة العربية الإسلامية.

وضاقت به فرنسا ومن كان سائرا في فلكها ذرعاً, مما كانت تجده منه من هجومات قوية سواء كان ذلك في اجتماعاته وتجمّعاته بلسانه القوَّال, أو من خلال مقالاته وما كان يخطُّه بقلمه السيَّال. فوجدت في ذلك ذريعة لكي تطبق عليه قانونها المتحضر؟!! وعدالتها المنصفة؟!!؛ فأدخلته السجن لمدة سنة, ثم أخرجته بدعوى العفو العام.

ولم تَحُد هذه العقبات وهذه الابتلاءات من عزم الشيخ رحمه الله, بل كلَّما تعرَّض لمحنة زادته جلدا وصبرا, وزادته عزما ليمضي في سبيله الذي نذر له حياته, ولم يتوقف عن الحركة والدعوة لمبادئ الجمعية, فذاع صيته وزاد حب الشعب الجزائري له, وزادت معه كذلك مهمَّاته وواجباته فكان مَكْمن ثقة تامة, حيث أصبح الْمُصلح بين العروش والقبائل التي تنشب بينها منازعات وخصومات بسبب تحريش فرنسا لها وفيما بينها لغرس الفتنة والشقاق, ليسهل لها بعد ذلك التدخل وتطبيق ما تراه صالحاً لسياستها وخادماً لمصالحها.

وتمر الأيام والليالي ذوات العدد, والشيخ رحمه الله, لا يذوق طعم النوم, وكان ذلك منه مجهودا كبيرا, غير أن ذلك الجهد والمجهود ما ذهب أدراج الرياح, بل تكلَّل مع ما كان من جهود ومجهودات أعضاء الجمعية أن صار عدد المدارس في تزايد حتى بلغ عددها الأربعمائة مدرسة, مما أوجب على الجمعية ورئيسها في التفكير ببناء المعاهد العليا والتي كانت بمثابة الثانويات أو ملحقات الجامعات الحالية.

وتم بحمد الله ذلك, حيث أنشأ أول معهد بمدينة الرئيس الراحل, الشيخ عبد الحميد وسمي باسمه, تخليدا لذكراه واعترافا بأفضاله على الأمة, وقد هيأت له الجمعية كل ما يتطلبه من

أساتذة متخصصين وكتاب ومال ومنشآت, حتى غدا روضة فيحاء يلذ بها كل قاصد, وبلغ عدد طلبته الألف أو يزيدون.

وما هي إلا أيام حتى رُزئت الأمة العربية الإسلامية في أحد مقاتلها الكبرى, واقتطعت أولى القبلتين من خريطة الإسلام إنها فلسطين, فما كان لها زعمها لا الحجاج و لا المعتصم ولا صلاح الدين, ممن يذودون عن حياضها ليردوها إلى رِبْعة الإسلام ويذودوا عنها عَبَدة العجْل وحلفاءهم, وما كان من الشيخ والجمعية إلا لينهضوا ويستنفروا الأمة وتذكيرها بالواجب نحو فلسطين وما لتلك البقاع من قداسة وما يتطلب من واجب.

وكوّن رحمه الله مع مجموعة من عقلاء الجزائر يومها جمعية إعانة فلسطين, وباشروا أعمالهم وقامت اللجنة بالمهام والواجبات التي رسمتها وخططت لها. وانبرى الشيخ بقلمه في كتابة المقالات تلو المقالات مذكّرا تارة, ومحفزا ثانية, وكاشفا لمخططات الأعداء وحلفاءهم تارة أخرى, غير أن صيحات الشيخ رحمه الله ذهب صداها وكأنها في واد, وبقيت مقالاته التي خطّها أثراً على ورقات مكتوبة بمداد[1].

وجاءت سنة 1952م, وكان للشيخ فيها زيارته الأخيرة لفرنسا, في إطار برنامج الجمعية التي سطرته, للتعريف بقضية الجزائر وما يتعرض له شعبها من قبل السرطان الفرنسي, وكان أن صادف ذلك اجتماع منظمة الأمم المتحدة. قابل الشيخ مع الوفد المرافق له, وفود الدول العربية والإسلامية المشاركة في هذه القمة, وأقام لهم مأدبة عشاء وعرّفهم بما هو كائن بالجزائر من خلال خطبة ألقاها, فعايشت الوفود العربية والإسلامية واقع الجزائر وكأنه ماثل عيان أمامهم من خلال بلاغة خطبة الشيخ, وكان أن عرضت عليه تلك الوفود دعوة زيارة بلدانها, لعرض وتدارس قضية الجزائر وأمرها على رؤساء دولهم وملوكهم.

---

[1] ـ للاطلاع على مجموع المقالات التي كتبها الشيخ رحمه الله عن فلسطين يرجى مراجعة الأهم منها في كتابه الآثار, ج3 ص 435-463.

وعاد الشيخ إلى الجزائر والأمل يحدوه في غدٍ أفضل للجزائر وشعبها, وما وجدت الجمعية خيرا من رئيسها سفيرا للجزائر, فانتقل إلى تونس فمصر والشام والحجاز, ثم استقر أمره بمصر. وأثناء زياراته الكثيرة والمتكررة لكثير من الدول العربية والإسلامية, كان يلقي المحاضرات والخطب, ويجالس العلماء ومسؤولي تلك الدول, عارضاً أمر الجزائر معرفاً بحقيقة فرنسا وما تقوم به من إبادة للأنفس والأبدان والعمران, طالباً يد العون سواء كان مادياً أو تحسيساً معنوياً؛ مع الإلحاح والتركيز على تلك البلدان ومسؤوليها بتخصيص منح دراسية لطلبة معهد ابن باديس, وقد حقق من ذلك رحمه الله مُبْتغاه.

وانطلقت ثورة الجزائر والشيخ خارج الديار, فكان المساند لها والمعرِّف بها والداعي لمساندها بالخارج, كما كان الداعي للالتفاف حولها وبذل كل جهد ومجهود لإنجاحها مع نبذ كل خلاف وتوحيد القوة ضد عدوٍ واحد هو فرنسا ومؤسساتها الإستدمارية وحلفائها من بعدها بالداخل .

وزاد نشاط الشيخ رحمه الله للتعريف بالثورة وحقيقتها وعدالتها ومشروعيتها, وأن الشعب الجزائري ما قام بهذه الثورة إلا ليحيي جذوة الجهاد التي خبت منذ أمد, ويسترجع أرضا ظُنَّ أنها فارقت جسد الإسلام إلى الأبد, مستغلا في ذلك, كل الوسائل المتاحة في زمانه, من لقاءات وجلسات ومؤتمرات وصحف سيارة ومجلّات معروفة وحتى الإذاعة وبرنامجها الخاص للحديث عن الثورة على أمواج "صوت العرب".

وفي سنة 1954م, تم تعيين الشيخ عضوا مراسلا للمجمع اللغوي بالقاهرة, وقد قدَّم عضويته الدكتور منصور فهمي[1] ومجموعة من أعضاء المجمع, ودام كذلك إلى غاية سنة

---

[1] ـ منصور فهمي (1303- 1378هـ/ 1886- 1959م) منصور فهمي بن علي فهمي بن عبد المتعال, من آل البقلي: الدكتور مفكر مصري، من الخطباء، له علم بالفلسفة والتربية والأدب. من أعضاء المجامع العلمية العربية الثلاثة, مغربي الأصل, ولد بمصر وتعلم بالمنصورة والقاهرة وأرسل في بعثة إلى باريس وعاد بعد خمس سنوات، فدرس في جامعة القاهرة ولم يكمل فيها سنة ثم عاد إليها وتدرج إلى أن كان عميدا لكلية الآداب, ثم مديرا لدار الكتب المصرية، فمديرا

1961م, أين تَمَّ اعتماده فيه كعضوٍ عاملٍ فيه ممثّلاً للجزائر, ضمن أحد عشر عضوا جديدا من الدول العربية. وحين انعقاد الدورة الثامنة والعشرين للمجمع اللغوي, والذي كان شهر مارس 1962م, ألقى الشيخ كلمة نيابة عن الأعضاء الجدد, هزَّ بها مشاعر الحاضرين وعاد باللغة فيهم إلى سالف عهدها الأول ونبعها الصافي فأدهش الحضور.

وكان مماقيل فيه يومها, على لسان د. منصور فهمي, بعد إنهاء كلمته, بعد أن نزع الدكتور فهمي حذاءه وحمله في يده توجه قِبَلَ الحاضرين, مدوياً بصوت عالٍ:" لقد نزعتُ حذائي لكي أتقدَّم إلى المنبر الذي يقف عليه الشيخ الجليل, لأني أعتبر هذا المنبر ساحةً مقدَّسة ينبغي أن يدخلها النَّاس كما يدخلون الحَرَم أو أيَّ مسجدٍ آخر, إنّي لم أسمع و لم أرَ في حياتي مَنْ هو أفصحُ أو أبلغ من الشيخ البشير, وإني أدعو جميع العلماء والأدباء في الوطن العربي إلى أن يُلْقُوا بمقاليد اللغة والبيان"؛ ثم التفت د. منصور فهمي نحو الشيخ وقال له:" أنت مَلِكُ اللغة العربية في هذا العصر, لقد ملكت كافة نواصيها"[2].

وفاته رحمه الله:

وعاد الإمام الشيخ إلى أرض الجزائر, وقد وجدها حرة طليقة عتيقة من كل قيد, بعد أن غادرها وهي موثقة فوجدها حرة مطلقة, والتقى بالأحبة والرفاق, وكان له الفضل في

جامعة الإسكندرية إلى سنة 1946 وكان كاتب السر للمجمع اللغوي المصري 1934 إلى آخر حياته. الأعلام للزركلي, ج7,ص 302.

[1] الأعضاء الذين تمّ تعيينهم من البلاد العربية هم: الأستاذ أحمد علي عقبات (من اليمن), الأستاذ أنيس المقدسي (من لبنان), الأستاذ عبد الله كنون (من المغرب), الدكتور عمر فروخ (من لبنان), **الأستاذ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي** (من الجزائر), الأستاذ محمد بهجة الأثري (من العراق), الأستاذ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور (من تونس), الدكتور إسحاق موسى الحسيني (من فلسطين), الدكتور عبد الله الطيب (من السودان), الأستاذ على الفقيه حسن (من ليبيا), الأستاذ تيسير ظبيان (من الأردن). مجمع اللغة العربية: موجز عن تاريخه وإنجازاته. القاهرة (د.ت.ط), ج 4,ص 15.

[2] فاضل تريمش, مرجع سابق, ص35-36.

إقامة أوّل جمعة بجامع كتشاوة, الذي حوّلته فرنسا اللعينة إلى بيت عبادة للنصارى. وكان ذلك بتاريخ الثاني من نوفمبرسنة 1962م.

أنهكت الأيام والليالي بل السنوات الطوال من قوى الشيخ الشيء الكثير. وبلغ من الكبر عتيًا, مع ما لازم ذلك من أمراض كانت تنخر قواه, فضعف الجسم وذهب سَدَاه, وشحب اللون وتغيَّر مُحيَّاه, وكان في ذلك صابراً محتسباً لم يجزع و لم يهلعْ وهو الرجل المؤمن, حتى فاضت الروح الطيبة إلى باريها بعد ظهر يوم الخميس 20 مايو سنة 1965م, عن عمر يناهز ستا وسبعين سنة قضاها كلها جهدا موصولا وجهادا متواصلا, عامرة بالصالحات والطاعات, خدم فيها دين الإسلام, ولغة العروبة ووطنه الجزائر.

وخيرُ ما يُختَم به الحديث عن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي, ما كان مِسْكاً, والمسك لا يكون إلا ممّن عرفوه عن قرب وخَبَروا معدنه, وخير العارفين به رئيسه الشيخ عبد الحميد بن باديس فيقول فيه, وقد صدق فيه قوله:" عَجِبْت لشَعْب أنجب مثل محمد البشير الإبراهيمي أن يضل في دين أو يخزى في دنيا, أو يذَلَّ لاستعمار"[1]

ووصفه شاعرُ الجزائر محمد العيد آل خليفة في قصيدة مطوَّلة جاء فيها[2]:

وما هو إلا كاتب ثاقب الحجى ورائد فكر مصلح ومجدد

جرى حبره في الصحف كالبحر زاخرا بغيرته للحق يرغي ويزبد

روائعه أرض الجزائر مهدها ولكن لها في أرض عبقر مولد

فسلام عليك في الأولين, وسلام عليك في الآخرين, وسلام عليك في العلماء العاملين, وسلام عليك في الحكماء الربَّانيين, وسلام عليك إلى يوم الدين.

حرر بدمشق الشام يوم الجمعة: 29 ربيع الثاني 1430هـ

الموافق لـ: 24 أفريـــــل 2009م

---

[1] ـ الآثار, مرجع سابق, ج5,ص281.

[2] ـ الآثار, مرجع سابق, ج3,ص39.

القضايا العربية

العلاقة الجزائرية التونسية في نظر الشيخ البشير الإبراهيمي

د. عبد المجيد قدور

جامعة الأمير عبد القادر

حينما عرض علي موضوع الكتابة حول الشيخ البشير الإبراهيمي فوجئت بذلك ؛ لأن الواحد منا يستطيع أن يسبح في بركة ،ولكنه من المستحيل أن يسبح في المحيط إلا بواسطة زورق، فهكذا وجدت أمامي هذا العملاق الذي يشبه المحيط في اتساعه، والذي يتردد في الكتابة حوله ربما حتى أكبر الكتاب لدينا ،نظرا لعلمه الغزير ومواهبه المتعددة ،مع كثرة تشعب جوانب مناحي حياته وآثاره ،وهي فوق الحصر، وعملية حصر منجزاته فوق طاقة الباحث الواحد.

ولكني بعد أن وجدت أنه لابد من المساهمة ،حاولت قدر الإمكان المشاركة واخترت شظية من أعماله – حتى استطيع السيطرة على الموضوع، وحتى لا تتشعب بي السبل – وهي نافذة نرى من خلالها اهتمام العلامة البشير الإبراهيمي بالقطر الشقيق تونس، وانبهاره بتفخرها وعنوان تاريخها وباني حضارتها عبر الأجيال وقلعتها الصامدة ،ألا وهو جامع الزيتونة الأشم الخالد.

ولو كان شيخنا ممن أقام بتونس لهان الأمر ،ولكن الكل يعلم أن الإبراهيمي لم يدرس بالزيتونة، ومع ذلك كان هذا الجامع بمثابة قبلته التي لا يغفل عنها ،لأنه كان في نظره منارة العلم التي تخرج منها معظم علماء جمعية العلماء الجزائريين المسلمين ،وهم رفقاؤه وفي مقدمتهم الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس رائد النهضة العربية الإسلامية بالجزائر وباعث حياة شبابها .

ورغم أن الإبراهيمي لم يدرس يوما بالزيتونة ،فانه كان على صلة وثيقة بهذه المؤسسة العلمية وما يجري فيها من وقائع . وكان من أكثر المتعاطفين معها، والمعجبين بنشاطاتها العلمية والثقافية وعلاقاتها بالساحة السياسية الإقليمية والدولية ،فهو على اطلاع مستمر على كل ما استجد من أحداث علمية وثقافية ، وتطورات اجتماعية، ولاسيما بعد أن توطدت العلاقة بينه وبين العلامة بن باديس الذي ارتوى من معين الزيتونة ،ونال منها أرقى الشهادات العلمية.

ومع أنه لم يجرب الحياة في تونس لا نستغرب أن نجد البشير الإبراهيمي على صلة وطيدة بمشايخ الزيتونة الأجلاء وعلمائها الكبار،ومثقفيها الأفذاذ من صحافيين وكتاب، ومن أدباء وشعراء ويرجع ذلك لأن حركة الإصلاح في الجزائر انبعثت واعتمدت أساسا على خريجي هذا المعهد العتيد حتى اشتد عودها ، وازدادت تلك الحركة صعودا وانتشارا بقيام معهد ابن باديس خلال الأربعينيات من القرن العشرين، الذي أقيم من أجل أن يحقق حلم ابن باديس بعد رحيله.

وقد اعتبر هذا المعهد الصاعد في بدايته فرعا من فروع جامع الزيتونة. وبرامجه جزء من برامج هذا الأخير ، سواء في الدروس أوفي الامتحانات ، ومع كثرة المقررات الدراسية وغزارة المادة ،كثقافة ذلك العصر تماما كما في الأزهر والمدينة المنورة وغيرها من الحواضر الإسلامية ،التي كان شيخنا قد قضى ردحا من عمره بها. وأثر فيها وتأثر بها .ليعود إلى الجزائر ومعه تلك الذخيرة الثمينة ،وليصب شعلته في شباب الجزائر الذي آل على نفسه أن يخرجه من ظلام الجهالة والأمية لاسيما بعد التقائه بالشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس في مدينة الرسول الأعظم بقسنطينة.

وكان علماء الزيتونة يزورون الجزائر كل عام لإجراء الامتحانات والإشراف على الخريجين بمختلف المدن الجزائرية. تماما كما كان إخواننا العرب خلال السنوات الأولى لاستقلال الجزائر .

ومن المعرف أن الشيخ الإبراهيمي كان يتولى توجيه الطلبة المهاجرين إلى تونس ، قبل سفرهم ويزودهم بنصائحه وإرشاداته . ويهتم بجميع قضاياهم وانشغالاتهم عندما يحلون بالقطر التونسي الشقيق ، الأمر الذي جعله دائم الصلة بهم ،سواء هنا في الجزائر أوهناك في تونس. وهو بطبيعته كان يشعر أنه دائما معنيا بما يجرى في تونس من أحداث سياسية وعلمية وفكرية ،تماما كما كان يعتني بما يجري في أختها الجزائر .وقد عالج في مقالاته العديدة بجريدة البصائر الكثير من القضايا والأحداث التونسية ،ونشر الأخبار المتعلقة بهذا الجزء العزيز من المغرب العربي الكبير.

وذلك لأن تونس في نظر الإبراهيمي تمثل السند الأساسي القوي لحركة الإصلاح الجزائرية، وبالتالي لحركة جمعية العلماء التي انطلقت من شرق الجزائر، وبالذات من المدن المتاخمة للحدود التونسية كقسنطينة وتبسة ووادي مزاب وسوف وبسكرة ،أي المدن التي تضم معظم المتخرجين من الزيتونة والذين كانوا يعملون بحماس منقطع النظير من أجل نشر التعليم في المدن والأرياف .

وكانت تلك النخبة من الخرجين على صلة دائمة بالعلماء والرحالة التونسيين الذين يؤمون الجزائر ،للتحاور مع رجال الإصلاح ،وإلقاء الدروس بالمساجد ،والاطلاع على أحوال هذا القطر الشقيق والكتابة عنه والتعريف به على صفحات المجلات والصحف التونسية[1] .

[1] الثقافة ، وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر عدد 78 مايو يونيو 1985 ، ص148.

وفي مقال له بعنوان "حيا الله تونس قال الإبراهيمي :" مما يدل على مدى متانة عرى الروابط الأخوية بين القطرين الشقيقين،ومتانة العلاقات الثنائية التي وطدتها جمعية العلماء وشعبها ومدارسها،ومعلموها،والجمعيات المتفرعة منها والبصائر وأسرتها الصحافية.كما وصف الإبراهيمي الجمعية وهو يحي تونس:" كل هذا الجهاز العلمي الثقافي العتيد يتقدم بالشكر الخالص،والثناء الجم والتحيات الطيبات،إلى تونس العزيزة،مصورة في ذلك الطراز الرفيع من الزيتونة والهالة المحيطة بها ،المنورة لأرجائها من شيخها الجليل ،إلى مدرسها الفحول،إلى تلك الجموع السالمة من التلاميذ ،ومن الصحف ورجالها،ومن الأحزاب ومسيريها،كفاءة ما قاموا به وأظهروه من ضروب الحفاوة والترحيب بالأستاذ الشيخ العربي التبسي نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومدير معهد عبد الحميد بن باديس،وصاحب الآثار الجليلة في العلم والإصلاح ،والآراء السديدة في السياسة والاجتماع ،والمواقف الجريئة في تمكين الإسلام والعروبة بالقطر الجزائري" [1].

وإذا كان شيخنا هنا يشكر ويقدم عرفانه نيابة عن الشعب الجزائري، للشعب التونسي بكل فئاته ومؤسساته العلمية والثقافية ،على ترحابها وحفاوتها بممثل حركة الإصلاح في الجزائر الشيخ العربي التبسي ؛فإنه من جهة أخرى كان فخوراً جدا بهذا الأخير الذي مدحه وبين فضله وتفانيه بنشر الثقافة بالجزائر عن طريق معهد ابن باديس الذي كان يديره ويشرف على نشاطاته، كما بين كفاءته التي يتميز بها والتي كانت بعون الله وتوفيقه طفرة حولت الشعب الجزائري نصف دائرة ،من أمية متفشية ضاربة أطنابها في ربوع شعبنا ،إلى درجة عالية جدا من التفتح والانبعاث.

[1] أحمد طالب الإبراهيمي. آثار الإبراهيمي.بيروت، دار الغرب الإسلامي 1997 .ص272.

ثم يبوح الإبراهيمي معبرا عن إحساس حركة الإصلاح وعرفانها بالجميل لتونس يقول:" وجمعية العلماء وفروعها المختلفة تعد تلك الحفاوة من تونس احتفاء بالجمعية وتكريما لها،ومغالاة بقيمتها،وعرفانا لقدرها واعترفا بأعمالها.وهي تكافئها على تلك الحفاوة العلمية بتقدير منبعُه القلب ،وثناء مصدرُه اللسان، وتنويه مطلعُه جريدة –البصائر–.وهذا جهد المقل "[1].

ولعله هنا لا يخف على كل من كان له عقل وعينين، أن الإبراهيمي لم يكن يجامل بعباراته تلك،و لم يكن يحاول قضاء مصلحة وقتية، بل كان يؤمن إيمانا راسخا بأن تونس لها أفضال جليلة سامية لا تطال ،حيث عبر عن ذلك قائلا:" وتونس قبلة الجزائر العلمية ،ومآزرها الذي تأزر إليه في النوائب ،ومنارتها التي تشرف منها على الشرق وأنواره ،فلا عجب إذا حرصت جمعية العلماء على تمتين الحبال الواصلة بين الجزائر وبينها ،وعلى توضيح ما يخفى من أحوال الجار على جاره، وإزالة ما يلبس به سيء القصد وسيء الفهم على صحيح العقد حسن القصد ،ولا عجب إذا اختارت لهذه السفارة أقدر رجل على الاضطلاع بها وهو الأستاذ التبسي"[2].

ثم يضيف قائلا: "ولا عجب إذا عرفت تونس – ا لقيمة– العلمية لهذا السفير الكفء قيمة ومكانته فاحتفت به هذا الاحتفاء الذي هو ترجمة صحيحة مؤدية إلى ما تكنه تونس حقيقة للنهضة العلمية والفكرية بالقطر الجزائري من تقدير وتأييد وما تقدمه من مساعدة[3] ".

---

[1] نفس المرجع . ص 271؛ انظر أيضا البصائر .العدد 60السنة الثانية من السلسلة الثانية 20سبتمبر1948.

[2] احمد طالب الإبراهيمي . آثار الإبراهيمي ، ج2 . ص271

[3] احمد طالب الإبراهيمي .آثار الإبراهيمي . ج2 ، ص272

وهنا تظهر مقدرة الإبراهيمي على التعبير على عدة أشياء في وقت واحد وبعبارة مختصرة، فهو يبين مكانة الشيخ محمد العربي التبسي ومقدرته العلمية ،وفي الوقت نفسه يشكر التونسيين ومؤسساتهم العلمية والصحافية ، وهو مع ذلك يبين أن للجزائر رجال مصلحين عظماء قادرين على خوض معركة بناء جيل جزائري مجهز لرفع راية النضال من أجل الإنعتاق والتخلص من ذلك الستار الحديدي المضروب من طرف المستعمر على الجزائري وحده وأينما حل أو اتجه .

أنظر إلى مدى تواضع الشيخ البشير وهو يمدح رفيقه التبسي إذ يجعله في أعلى المراتب وهذا هو التواضع بأسمى معانيه،وهو في الحقيقة يريد أن يقول شيئا لا يريد البوح به ،وهو اتحاد بلاد المغرب وأهميته للبلدان الثلاث، لدرجة أن مستقبلها متوقف على هذا الاتحاد ،وهذا هو نفسه رأي التبسي الداعي للوحدة حيث قال الإبراهيمي :"والأستاذ التبسي عالم عريق النسبة في الإصلاح، بعيد الغور في التفكير ،سديد النظر في الحكم على الأشياء،عزوف الهمة عن المظاهر والسفاسف، انتهى به العلم والتجربة وأحداث الزمن إلى أن تونس والجزائر والمغرب شيء واحد، وأنها لا تفلح في الحياة ولا تنتصر في الجهاد لها إلا إذا أصبحت هذه الثلاثة شيئا واحدا ".

ودائما في إطار علاقة الإبراهيمي بالقطر التونسي ننتقل إلى أسباب رحلة محمد العربي التبسي إلى تونس،فيبين لنا أغرضها ومراميها والمرجو منها كنتائج تعود على الجزائر بالخير الكثير ، وعندما نحس أن الرحلة عادية ،بعد أن يصف نفسية التبسي وخبرته بالمشرق العربي، يفاجئك الإبراهيمي أن نتائج تلك الرحلة العلمية كانت فوق ما يتصور المرء، وأكثر من ما كان منتظرا منها.

لاحظ قول الإبراهيمي:" ثم انتهى به العمل –أي الشيخ التبسي– لهذه المقاصد العالية إلى معرفة حظ العالم من العمل ،وحظه من تبعة التقصير فيه ،لذلك كله، أصبح علما فردا في

قيادة الأمة في جميع ميادين حياتها ، ولذلك سمت همته إلى تعرف أحوال إخوانه العلماء،فكان هذا المعنى أحد بواعثه على هذه الرحلة .ولقد عاش في تونس والقاهرة طالبا ثم أقام في وطنه الجزائر عاملا مربيا 20 سنة[1] زار بعدها تونس وفيها البقية من مشايخه والكثير من أقرانه ؛ فشاهد التبدل العجيب

وشهد بالتطور المفيد .وكنا نتوسم من وراء رحلته الرجوع إلينا بفوائد تغذي حركتنا ، تحفزنا إلى التقدم فيها . وتهون علينا بعض ما نلقى في سبيلها ، فكان لنا من هذه الرحلة فوق ما نرجو[2] .

وفي رسالة بعث بها الإمام البشير الإبراهيمي إلى طلبتنا بتونس بمناسبة إحياء ذكرى وفاة رائد النهضة الجزائرية ابن باديس جاء فيها :" أحيي بتحيات الله المباركة الطيبة أبنائي المهاجرين في سبيله، لا أخص بتحيتي من ينتسبون إلى وطن ،أو تجمعهم جمعية،بل أعم من يظلهم دين ويربطهم لسان ، ويجمعهم جامع ، أولئك كلهم أبنائي ؛يستوون في حبي لهم ،وعطفي عليهم ، وآمالي فيهم،آحادهم وجموعهم" .

لله درك بإبراهيمي؟ ما أوسع صدرك يا شيخنا ؟ إنك لا تكتفي بتوجيه التحية لنطلبة الجزائريين، بل توجهها لكل عربي ينطق اللغة العربية ولكل مسلم يعتنق الإسلام يقيم بجامع الزيتونة ،ثم تعتبرهم أبناء لك دون تمييز.لا عجب في ذلك فأسرة العلم سواء خاصة من له قلب الابراهيمي.

---

[1] أحمد طالب الإبراهيمي. آثار الإبراهيمي .ج2، ص272.

[2] نفس المرجع . ص 152 ؛ أنظر أيضا :البصائر ، ع60،س2،من السلسلة الثانية،20سبتمبر 1948

ثم يدخل بنا صميم الموضوع وهو إحياء ذكرى العلامة بن باديس موجها خطابه إلى علماء الزيتونة حيّ الغائبين منهم ،لأن مغزى الذكرى هو الاعتراف لمن له الفضل بفضله، ووصل بين أفراد الأسرة العلمية بالبلدين فقال :" وأحيي بأحسن منها إخواني العلماء من حضر منهم في هذا المشهد ومن غاب عنه-أولئك الذين طبعتهم يد الرحمن على أن يكونوا ألسنة العروبة وحرسه الإسلام بهذا الشمال الإفريقي- تحية تحرك النفحات سواكنها وتثير المناسبات كوامنها ،في هذه التي حقيقتها ومغزاها إعلان الفضل من أهله ووصل لرحم علمية لو أتى عليها النسيان لأضحت مجفوة،وبر بإمام لو لم تعمر الأفئدة ذكراه والألسنة ذكره لأصبح حقه مكفورا"[1].

ثم يبين دور الزيتونيين ،وهو إعلاء شأن العربية ،ومعالجة قضايا أمة الإسلام، وحماية الدين من كل اعتداء فيضيف:"أيها العلماء الخيرة ،أيها الأبناء البررة حياكم الله وأبقاكم عوامل رفع لهذا الوطن وأحياكم،وأطال أعماركم للعربية تعلون صروحها،وتنقشون في الأنفس لا في الأوراق شروحها ولهذه الأمة تضمدون جروحها وتداوون قروحها،ولملة الحنفية تحمون حماها وترمون من رماها".

ويقول مقرا أن لا قيود حدودية أمام الإسلام والعروبة ،بل هما عاملا اتحاد وحدة ،ولا يعترفان بالوطنية الضيقة والنعرة القبلية :" إن الإسلام والعروبة — يا إخواني ويا أبنائي- إذا ذكرا ذابت القيود ،وتلاشت الحدود ،واجتمعت الأقطار على رحبها في بيت . وإن أخوة الإسلام والعروبة لا تقوم على الأقوال وإن طالت وكثرت ، وإنما تقوم على الأعمال والحقائق .ولو أتينا رشدنا لأقمنا كلمتي المسلم العربي مقام هذا النسب المعروف إلى البلدان والقبائل ،فما هذا النسب إلا ثغر ومداخل لشيطان الوطنيات الضيقة التي

[1] العبقرية (جريدة)،العدد السادس ،تلمسان الجزائر 1366هـ

ليست من ديننا ولا من ميراث سلفنا ،فتواصوا جميعا بتحقيق هذه النسبة الإسلامية العربية وتثبيت أصولها في نفوس أبناء هذه الأمة "[1].

ثم يقر شيخنا أن كل أهل العلم وطلبته سواء جزائريين أو غيرهم لهم من أفضال ابن باديس واستفادوا من منهجه الفكري السير عليه،وخير تعبير على ذلك إحياء ذكراه كل سنة باستعراض محاسنه وأعماله :" لا نكون مبالغين إذا قلنا إن لفقيدنا العزيز عبد الحميد بن باديس منة على كل من يحمل بين جانبيه روحا جديدة أو فكرة سديدة من أبناء الجزائر أينما كانوا ، لا فرق في ذلك بين طلاب العلم وبين غيرهم من طلاب الحياة في جميع فروعها ، وإن من دلائل الوفاء وشكر الصنيع في نفوس أوليك الطلاب، أن ينهجوا نهجه في التفكير وطرائق الإصلاح ،ويتعاونوا على إكمال ما بدأ بوضعه من أسس العلم والحياة ،ويشاركوا في هذه الذكريات التي تقوم كل سنة لعرض أعماله واستخراج العبر من تلك الحياة التي ليست حياة فرد ،وإنما هي حياة أجيال ،إذ كامل الوفاء لفقيدنا العزيز هو الذي عمل عمله في نفوس أبنائنا، وحدا بهذه الطائفة المهاجرة في سبيل العلم بجامعة الزيتونة المعمورة إلى إحياء هذه الذكرى في السنة بتونس.

ثم يبين قيمة الذكرى بتونس :" وإن في كون الذكرى بتونس ،وفي مشاركة الأفذاذ النوابغ من رجال العلم والأدب للطائف دقيقة ومغازي سامية وإلهامات رقيقة ،هي من آثار الروحية والوجدان والضمير ، لا من آثار المجاملة والتدريس ،فإذا جاوزنا الصلة العلمية الروحية العربية جاءت الصلة الزيتونية الوثيقة ،وإنما لصلة مرعية الأنساب ،مبرورة العهود محكمة الوثائق" .

[1] أحمد طالب الإبراهيمي .آثار الإبراهيمي ..ص 152

إن إحياء ذكرى رائد النهضة الجزائرية عبد الحميد بن باديس بتونس لها قيمة خاصة بين علماء أجلاء وإخوان وأبناء أعزاء أوفوا العهد لأخيهم بإحياء ذكراه ثم ينهي الإبراهيمي خطابه موجها التحية رغم بعد المسافة لأن علاقته بتونس متينة ودائمة وهي رأس ماله قائلا :" أيها الإخوان :أشكركم شكرا تثقل موازينه،يطرزه الحب ويزينه بركم بأخيكم وأخي الذي نفي بعهده الثقيل ،وأرجو أن تتضافر الأيدي وتتوافر الهمم وتتعاون الألسنة والأقلام على خدمة هذا الدين وتاريخه ولسانه بهذا الوطن الذي هو قطعة من ملك الإسلام وركن من حصن العروبة الأشم ".

أحيي – على بعد الديار – تونس العزيزة علي ،الحبيبة إلي،فكم لي بها من علاقات يبلى الزمان وهي جديدة ، و أعلاق تنحط القمم وهي – أبدا – عالية ،وذخائر من صداقة وأصدقاء هي مع أعمالي كل رأس مالي ،وشوقاه إلى تونس ،وشوقاه إليكم أيها الإخوان والأبناء البررة [1].

وقد عبر الإبراهيمي عن العلاقة الجزائرية التونسية في مقال بعنوان "كوارث الاستعمار" تناول فيه حادثان من الحوادث التي تسبب فيها المستعمر البغيض،وقد عبر فيه عن إحساسه الذي هو إحساس كل جزائري نحو تونس الشقيقة ،التي عانت من الاستعمار الفرنسي وقد أبدى البشير تأسفه لعدم مشاركة البصائر في أحزانها فقال:" فات البصائر بسبب عطلة المطبعة أسبوعين في آخر رمضان –أن تشارك الأمة التونسية العزيزة في إعلان الحزن على ما أصابها في العهد الأخير من كوارث الاستعمار التي تجلت في الحادثين الداميتين بجبل الجلود وبصفاقس[2].

---

[1] أحمد طالب الإبراهيمي .آثار الإمام البشير .. ؛ج2. ص153

[2] صفاقس مدينة ساحلية بالقطر التونسي الشقيق.

ثم بين وحدة المصير بين البلدين قائلا :" أما التألم والامتعاض من قتل الأبرياء المسالمين[1]، وأما الحزن والأسى لإخواننا الذين ماتوا مظلومين ،ولأطفالهم وزوجاتهم الذين بقوا بلا مال ولا عائل فإن حظنا منها لا يقل عن حظ إخواننا التونسيين ، ومحال أن يتألم عضو من جسد ولا تتألم له سائر الأعضاء ، وقد ألفت هذه المصائب المتوالية ،وهذه المظالم المتحدة المصدر، بين قلوبنا تأليفا جديدا محكم النسج،وأرهفت إحساسنا وصيرتنا كتلة من لحم مرضوض، في لجة من الدموع المرفضة ،فلا يمتاز في مصائبنا معز من معزى.

ويختم قوله : " عذرنا إلى الإخوة أننا لم نخسر في باب التعزية إلا سطورا سوداء في أوراق بيضاء تقرأ وتهجر وعوضنا الغالي عنها إحساسات مضطرمة في نفوس متألمة ".

هذه نهاية مختصرة لما جادت به قريحة الإبراهيمي في التعبير عن ما تجيش به نفسه من إحساس عميق، نحو تونس العزيزة التي هي أخت الجزائر تقاسمها أحزانها وأفراحها ، ويجمعهما مصير مشترك في إطار الاتحاد والوحدة . اللذان لا غنى عنهما ولا يكتمل البناء إلا بهما، وإن طال الزمان، وتعاقبت الأجيال. صدقت يا شيخنا طيب الله ثراك، وجزاك عنا خير الجزاء.

[1] البصائر ، العدد الخامس، السنة الأولى من السلسلة الثانية ،05 سبتمبر1947م " كوارث الاستعمار "

علاقة الشّيخ محمد البشير الإبراهيمي بعلماء المغرب
(محمد إبراهيم الكتّاني نموذجا)

أ. محمد السعيد قاصري

جامعة المسيلة

لقد فضّلتُ أن أفتتح هذا المقال بما كتبه الشيخ البشير الإبراهيمي عن شدّة حنينه وشوقه إلى الجزائر وهو في القاهرة عندما خاطبها قائلا: «لا تنسي أني كنتُ لكِ من عهد التمائم إلى عهد العمائم، ما شغلتُ عنكِ إلاّ بكِ ولا خرجتُ عنكِ إلا عائدا إليكِ، خطّت الأقدار في صحيفتي أن أفتح عيني وأنت مُوثقة، فهل في غيب الأقدار أن أغمض عيني فيك وأنت مُطلقة؟ وكتبت الأقدار علي ألاّ أملك من أرضك شبرا فهل تكتب لي أن أحُوز في ثراكِ قبرا؟»[1].

وها هي تمر 44 سنة على رحيل هذا العالم الجليل؛ لكن ذكراه ظلّت خالدة في قلوب وعقول الجزائريين، وإنه لم يملك قبرا في ربوع هذا الوطن العزيز بقدر ما ملك قلوب وعقول الملايين من الجزائريين الأوفياء، وما اختيار تسمية الدُفعة 22 المتخرجة هذه السنة من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة باسم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي إلا دليل على ذلك الوفاء والإخلاص. ونحن هنا نشكر بدورنا ونُثمّن هذا الجهد المعتبر الذي يستحق كل التقدير والاحترام، وقصد نجاح هذه المبادرة العلمية ها نحن نساهم بهذه المحاولة التي تندرج ضمن علاقة الشّيخ محمد البشير الإبراهيمي بعلماء المغرب؛

1 -مذكرات الشيخ محمد خير الدين، الجزء الثاني، المؤسسة الوطنية للكتاب بالاشتراك مع ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دون تاريخ، ص. 129.

مثل محمد العربي العلوي ومحمد بن عبد الكريم الخطابي وعلال الفاسي ومحمد إبراهيم الكتاني..الخ[1].

ونظرا لكثرة هؤلاء العلماء والفقهاء والمصلحين الذين عايشهم الإبراهيمي وتعامل معهم، وهو ما يحتاج إلى بحث علمي أكاديمي قائم بذاته، فإنه من الصعوبة بما كان الإلمام بهم في هذا المقال، وعليه فإني سأنفرد بالحديث عن العلاقة التي ربطت وجمعت بين الشّيخ محمد البشير الإبراهيمي بمحمد بن إبراهيم الكتاني العالم المغربي الجليل، الذي احتفظ لنا بذكريات طيبة جمعته بالإبراهيمي في الجزائر، ودون إطالة في الحديث فإننا سنتناول هذا المقال ضمن الخطة المنهجية الموالية:

1. التعريف بالشيخ محمد البشير الإبراهيمي وبمحمد بن إبراهيم الكتاني.
2. النقاط المحورية التي جمعت بين الإبراهيمي والكتاني في الجزائر، وموقع الإبراهيمي في ذاكرة الكتاني.
3. أثر هذه العلاقة على العلاقات الجزائرية-المغربية قبل اندلاع الثورة الجزائرية سنة 1954.

1-1-التعريف بالشّيخ محمد البشير الإبراهيمي (ت1385هـ/1965م):

ولد في 14شوال 1306هـ/ 13جوان 1889م بقرية أولاد إبراهيم بسطيف[2]. زاول تعليمه الأول بمسقط رأسه على يد والده وعمه، ثم بزاوية ابن الشريف بشلاطة

---

1 -آثار محمد البشير الإبراهيمي، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1402هـ/1981م، ص. 53.

2 -أحمد طالب، الإبراهيمي: المصدر السابق، الجزء الأول، ص. 20. ومن خلال اطلاعنا على بعض المراجع التي ترجمت لتاريخ ومكان ميلاده وقفنا على بعض الأخطاء والاختلافات على النحو الموالي: جاء في المنجد في اللغة والأعلام لكرم البستاني، الطبعة 31، ص. 2، حرف الألف أن الإبراهيمي ولد بمدينة بجاية!. وهو خطأ غايتنا التنبيه له، وورد في معجم مشاهير المغاربة لمؤلفه أبو عمران الشيخ وآخرون، ص. 22، أن الإبراهيمي ولد برأس الوادي، في حين ذهب عادل نويهض في معجم أعلام الجزائر، ص. 13، أن الإبراهيمي ولد في قصر الطير، بينما تشير بطاقة التعريف التي كان

بمنطقة القبائل. وفي سنة 1911 انتقل إلى المدينة المنورة حيث أتم دراسته العليا بها، وفي سنة 1917 انتقل إلى دمشق حيث مكث بها إلى غاية سنة 1921، ومن بين المهام التي شغلها والنشاطات التي قام بها بدمشق خلال هذه الفترة[1]:

1. عمل أستاذا للأدب العربي بالمدرسة السلطانية.
2. مناصرته للأمير فيصل بن الحسين ومبايعته زعيما للثورة العربية الكبرى على إثر إعدام السفاح جمال باشا لأحرار العرب في دمشق وبيروت سنة 1916.
3. المشاركة في تأسيس المجمع العلمي العربي سنة 1921.

وفي خلال هذه السنة عاد البشير الإبراهيمي إلى أرض الوطن حيث أصبح عضوا فعّالا في النشاط الإصلاحي الذي كان قد بدأه الإمام عبد الحميد بن باديس. ومن أهم النشاطات التي قام بها في الفترة الممتدة من سنة 1922-1952، وهو تاريخ عودته من جديد إلى المشرق العربي:

1. المساهمة إلى جانب الإمام عبد الحميد بن باديس في النشاط الإصلاحي والتربوي بالجزائر.
2. المساهمة في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 والتي احتل فيها مرتبة نائب الرئيس.
3. أسندت إليه مهمة الإشراف على نشاطات جمعية العلماء بالغرب الجزائري، فاختار تلمسان مقرا لعمله[2].

عملها البشير الإبراهيمي والمؤرخة في 1938 والتي أشار إليها نجله أحمد طالب الإبراهيمي في مذكراته، الجزء الأول، ص. 20، أن تاريخ ميلاد والده هو سنة 1891م ومكان ولادته كولومبرا.

1 -عادل، نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، الطبعة الثانية، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، 1400هـ/ 1980م، ص. 13.

2 -أحمد طالب، الإبراهيمي: مذكرات جزائري، الجزء الأول: أحلام ومحن (1932-1965)، المصدر السابق، ص. 21.

4. بناء وتشييد دار الحديث بتلمسان وتولي إدارتها بعد تدشينها رسميا سنة 1937. وللعلم أن محكمة الجنح بتلمسان تكون قد حكمت على الشيخ البشير الإبراهيمي بغرامة قدرها 16 فرنك فرنسي جراء هذه التظاهرة الشعبية التي عدتها السلطات غير مرخصة من جهاز الشرطة[1].!
5. نظرا لموقفه المعادي لفرنسا والمتمثل في رفضه القاطع لتأييدها في حربها مع ألمانيا قامت السلطات الاستعمارية بإلقاء القبض عليه في 10 أفريل 1940 ونفيه إلى مدينة أفلو التي تنتمي حاليا إلى ولاية الأغواط.
6. تولى رئاسة جمعية العلماء بعد وفاة الإمام عبد الحميد بن باديس سنة 1940 وهو في منفاه بأفلو التي مكث بها إلى غاية إطلاق سراحه في شهر جانفي 1943[2].
7. بعد مظاهرات 8 ماي 1945 التي تحولت إلى مجازر بشعة في حق الشعب الجزائري أعادت السلطات الاستعمارية إلقاء القبض عليه يوم 27 ماي 1945 بتهمة التحريض على هذه المظاهرات، وزُجَّ به في السِّجن العسكري بالجزائر العاصمة، حيث تعرض إلى مختلف وسائل التعذيب التي أورثته أمراضا مزمنة لازمته إلى آخر حياته؛ ثم نُقل إلى المستشفى العسكري في قسنطينة قبل أن يطلق سراحه في مارس 1946[3].
8. تولى ادراة جريدة البصائر الناطقة باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكتابة افتتاحيتها، كما أنشأ جريدة الشاب المسلم؛ هذا إلى جانب عمله الدءوب في ميدان الإصلاح التربوي والاجتماعي ونشاطه السياسي.

---

1. أبي علي الديلمي، المسيلي: إماطة اللثام عما نشأ في الحاضرة التلمسانية من الشكوك والأوهام والشقاق والخصام، الطبعة الأولى، المطبعة العلوية، مستغانم، الجزائر، 1358هـ/ 1939م، ص. 57.
2. أحمد طالب، الإبراهيمي: مذكرات جزائري، الجزء الأول: أحلام ومحن (1932-1965)، المصدر السابق، ص. 38.
3. المصدر نفسه، ص. 40.

9. قام بترتيب زيارتين إلى فرنسا الأولى خلال صيف 1950 والثانية خلال شهر ديسمبر 1951[1]. وسنعود للحديث عن هاتين الزيارتين والتعليق عليهما في وقت لاحق.

وفي سنة 1952 غادر أرض الوطن باتجاه المشرق العربي-القاهرة-ومكث هناك إلى غاية استرجاع الجزائر لسيادتها سنة 1962، حيث عاد إلى أرض الوطن وظل على نشاطه الدءوب رغم آلام المرض التي كان يعاني منها، وآلام السّلطة التي كان معارضا لتوجهاتها، وهذا ما نلمسه من نص بيان 16 أفريل 1964 الذي من بين ما جاء فيه: «...غير أني أشعر أمام خطورة الساعة، وفي هذا اليوم الذي يصادف الذكرى الرابعة والعشرين لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله، إنه يجب علي أن أقطع ذلك الصمت، إن وطننا يتدحرج نحو حرب أهلية طاحنة ويتخبط في أزمة روحية لا نظير لها، ويواجه مشاكل اقتصادية عسيرة الحل. ولكن المسئولين فيما يبدو لا يدركون أن شعبنا يطمح قبل كل شيء إلى الوحدة والسلام والرفاهية، وأن الأسس النظرية التي يقيمون عليها أعمالهم يجب أن تنبعث من صميم جذورنا العربية الإسلامية لا من مذاهب أجنبية»[2].

ولقد كان لهذا البيان الذي ترجمه نجله أحمد طالب الإبراهيمي إلى اللغة الفرنسية ونشرته وسائل الإعلام باللغتين العربية والفرنسية بمثابة القنبلة، ونكتفي هنا بهذه النقطة حتى لا نخرج عن سياق الموضوع، توفي رحمه الله يوم الجمعة 20 محرم 1385هـ/ 20 ماي 1965م ودفن في مقبرة سيدي محمد بالجزائر العاصمة[3].

---

1 -المصدر نفسه، ص-ص. 66-67.

2 -المصدر نفسه، ص. 186.

3 -مذكرات الشيخ محمد خير الدين، الجزء الثاني، المصدر السابق، ص. 412.

1-2- التعريف بالشيخ محمد بن إبراهيم الكتاني (ت1411هـ/1990م)[1]:

لقد جاء في مذكرات أحمد طالب الإبراهيمي بخصوص إبراهيم الكتاني ما يلي: «كان هناك زائر مرموق يأتي مرتين في السنة على الأقل وهو إبراهيم الكتاني، مبعوث حزب الاستقلال المغربي، وكان الغموض والسرية يكتنفان زيارته، ولم يكن والدي يستقبله في "دار الحديث" وإنما في البيت بعيدا عن أنظار وأعين الإدارة الفرنسية. وما أكثرها»[2]. وبناء على هذا النص الذي يعكس دون شك مكانة الكتاني وعمق علاقته مع الشيخ البشير الإبراهيمي؛ انفردنا بالحديث عنه؛ فمن هو إذن هذا الزائر المرموق؟

ولد صبيحة يوم الجمعة 10 رمضان 1325هـ/ 18 أكتوبر 1907م بمدينة فاس، نشأ في أسرة متوسطة الحالة الاجتماعية؛ تلقى تعليمه الأول في الكتاب (المسيد) والابتدائي والثانوي والنهائي بجامع القرويين[3]، وقد رفضت سلطات الحماية الفرنسية تسليمه شهادة العالمية على إثر نجاحه في الامتحان الذي تقدم له. نظرا لمواقفه الجهادية ضد الاستعمار خصوصا ما تعلق منها بمشاركته في المظاهرات العارمة ضد الظهير البربري سنة 1930[4]، ولم يحصل على تلك الشهادة إلا بعد الاستقلال سنة 1376هـ/ 1957م[5]. بدأ نضاله

---

1 -يعود الفضل في التعريف بهذا العالم الجليل إلى الدكتور حمزة الكتاني (أستاذ التعليم العالي بجامعة محمد الخامس بالرباط) الذي أفادني مشكورا بمرجع علمي -عم البريد- يتناول جوانب من حياة الكتاني، فله مني جزيل الشكر والتقدير.

2 -مذكرات جزائري، الجزء الأول: أحلام وطن (1932-1965)، المصدر السابق، ص. 27.

3 -عمي بن منتصر الكتاني، خالد بن إبراهيم الكتاني: العلامة المجاهد محمد إبراهيم بن أحمد الكتاني حياة علم وجهاد (1325-1411هـ)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1992، ص. 65.

4 -المرجع نفسه، ص. 91.

5 -"دائرة المعارف المغربية" معلمة المغرب، المجلد 20، قسم العائلة الكتانية، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، الرباط.

الوطني والسياسي بالقسم على المصحف الشريف في سبيل تحرير وطنه مع ثلة من أصدقائه-علال الفاسي ومحمد الغازي- وهو في العقد الثاني من عمره، وعليه فهو يعتبر من بين الرّواد الأوائل المؤسسين للحركة الوطنية المغربية[1]؛ ومن بين أهم التطورات الحاصلة في نضاله الوطني في كل من كتلة العمل الوطني ثم الحزب الوطني ثم حزب الاستقلال:

1. اضطهاده المستمر من طرف السلطات الاستعمارية وهذا ما تلمسه من سنوات الاعتقال المتتالية التي قضاها بالسجون الفرنسية: 1930، 1931، 1936، 1937، 1943، 1952[2].
2. المساهمة في النشاط التربوي والإصلاحي، وبناء المدارس الحرة والإشراف عليها مثل بنائه لمدرسة المنية العربية بمدينة فاس سنة 1941.
3. تم إيفاده عدة مرات نحو الجزائر من طرف كتلة العمل الوطني لتنسيق التعاون والتشاور بين الحركتين الوطنيتين الجزائرية والمغربية، وخصوصا مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وهذا ما سنتطرق له في العنصر الموالي.
4. المساهمة في تأسيس الجمعية المغربية للدفاع عن الشعب الفلسطيني سنة 1968[3].

وإلى جانب نضاله السياسي والوطني في حزب الاستقلال فإن هذا لم يمنعه من مباشرة العديد من النشاطات الثقافية والاجتماعية والإصلاحية في مغرب ما بعد الاستقلال، والتي نذكر من أهمها:

1. تعيينه محافظا لقسم المخطوطات بالخزانة العامة بالرباط سنة 1957، وفي ظل هذا المنصب يكون قد قام بخطوات جبارة في سبيل جمع المخطوطات من مختلف أنحاء العالم لإثراء هذه الخزانة؛ ومن بين الرحلات التي قام بها على سبيل المثال داخل

1 -المرجع نفسه، ص. 66.
2 -المرجع نفسه، ص. 66.
3 -المرجع نفسه، ص. 26.

المغرب وخارجه: رحلته نحو كل من الزاوية الناصرية بتامكروت. والزاوية الحمزية بجبل العياشي جنوبي ميدليت وزاوية تنغملت بضواحي بني ملال..الخ[1]. كما زار في الجزائر الخزانة الوطنية وخزانة زاوية طولقة ببسكرة، والخزانة القومية بتونس[2]، والزاوية السنوسية بجغبوب بليبيا والزاوية القادرية والمتحف العراقي ببغداد؛ هذا إلى جانب زيارته إلى المكتبات ودُور الأرشيف في كل من العربية السعودية والكويت ومدريد وميونيخ بألمانيا، وجامعات برنسطون وهارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية[3].

2. عضوا في أكاديمية المملكة المغربية.
3. إماما وواعظا بمسجد بوعقدة بفاس.
4. مدرسا بكليتي الآداب والحقوق بجامعة محمد الخامس بالرباط، هذا إلى جانب تأطيره ومناقشته للعديد من البحوث العلمية، ومشاركته في بعض الملتقيات الوطنية والدولية. ورغم هذا التوجه العلمي فإنه لم يمنعه من مواصله نشاطه في حزب الاستقلال الذي كان عضوا في لجنته المركزية ومجلسه الوطني[4].

لقد ظل محمد بن إبراهيم الكتاني على نشاطه الدءوب حتى وافته المنية فجأة بمنزله في الرباط يوم الأحد 29 جمادى الأولى 1411هـ/ 18نوفمبر 1990م، وشيّع في جنازة مهيبة إلى مثواه الأخير بروضة الشهداء بمقبرة العلو بالرباط[5].

---

1 -المرجع نفسه، ص. 101.

2 -المرجع نفسه، ص-ص. 182- 183.

3 -المرجع نفسه، ص. 102.

4 -"دورة المعارف المغربية" مجلة المغرب، المجلد، 20، المرجع السابق، قسم العائلة الكتانية، المرجع السابق.

5 -المرجع نفسه.

2-النقاط المحورية التي جمعت بين الإبراهيمي والكتاني في الجزائر، وموقع الإبراهيمي في ذاكرة الكتاني

سنحاول رصد وتتبع المحطات التاريخية التي جمعت بين الإبراهيمي والكتاني في الجزائر وفق النقاط المعلمية الموالية:

1. يعود أول لقاء جمع بين الشيخ البشير الإبراهيمي في حدود علمنا إلى سنة 1355هـ/ 1935م عندما زار محمد إبراهيم الكتاني الجزائر للمشاركة في المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين المنعقد بمدينة تلمسان كممثل لطلبة جامعة القرويين بفاس[1]. فعلى هامش الملتقى يكون قد تعرّف على الشيخ البشير الإبراهيمي الذي اصطحبه معه إلى الجزائر العاصمة حيث تعرّف حينها على الشيخ عبد الحميد بن باديس وعلى أعضاء الجمعية، ونسّق معهم روابط التعاون الإسلامي والثقافي وأسّس العمل الشعبي لمقاومة الاستعمار المشترك في البلدين الشقيقين[2].
2. زيارته للجزائر في ربيع سنة 1936 وهذا ما جاء على لسانه حول هذه الزيارة: «وفي ربيع سنة 1936 كنت ضيفا على الشيخ البشير رحمه الله بمنزله في تلمسان، وكنا نقضي الأوقات الطويلة في الأحاديث المختلفة، وكان يطرب كثيرا لأخبار ثورة التحرير الريفية التي قادها البطل عبد الكريم الخطابي رحمه الله، وعندما ذكرت له مرة ما قام به في هذه الثورة الجنود الريفيون الذي سبق لهم العمل في الجيش الإسباني قال رحمه الله: (وكذلك نحن في الجزائر نعلق أملا كبيرا على

---

1 -المرجع نفسه.

2 -علي بن منتصر الكتاني، خالد بن إبراهيم الكتاني: العلامة المجاهد محمد إبراهيم بن أحمد الكتاني حياة علم وجهاد (1325-1411هـ)، المرجع السابق، ص-ص. 92-93.

شبابنا الذين يؤدون الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي عندما يحين الوقت لحمل السلاح في وجه المستعمر المغتصب)»[1].

3. المساهمة في كتابة مقال بجريدة البصائر في شكل دعوة للمطالبة بتأسيس لجنة المطالبة بالصحافة العربية بالمغرب الأقصى[2].

4. في سنة 1937 تكون قد استدعته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى حضور حفل تدشين وافتتاح دار الحديث بتلمسان التي أسسها الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وبالمناسبة فإن جريدة البصائر الناطقة باسم الجمعية قامت بتوجيه دعوة عامة إلى حضور حفل الافتتاح المقرر يومي 27-28 سبتمبر 1837[3]. وهذا الخصوص يذكر أحمد طالب الإبراهيمي حول الكتاني: «وكان هو أيضا- أي الكتاني-من يُطلع والدي على كل ما كان ينشر بالمغرب الأقصى من نصوص قديمة ومجلات وجرائد ومؤلفات حديثة. وليس صدفة أن يكون هو الشخصية غير الجزائرية الوحيدة التي حضرت تدشين "دار الحديث"، وكأني بالوطنيين المغربيين الذين لم ينكروا يوما تأثير جمعية العلماء الجزائريين في عملهم، أرادوا بذلك تثمين هذا الحدث»[4]. كما نجده يضمّن مذكراته صورة تاريخية مميزة

---

1 -مذكرات الشيخ محمد خير الدين، الجزء الأول، المصدر السابق، ص. 407.

2 -البصائر، العدد. 39، السنة الأولى، الجمعة 30 رجب 1355هـ/ 16 أكتوبر 1936، الطبعة الأولى، طبعة خاصة بوزارة المجاهدين بالجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، بنان، 1426هـ/ 2005م، ص. 5.

3 -المصدر نفسه، العدد، 81، السنة الثانية، الجمعة 12 رجب 1356هـ/ 17 سبتمبر 1937م، ص. 2.

4 -مذكرات جزائري، الجزء الأول: أحلام ومحن (1932-1965)، المصدر السابق، ص. 28. وللعلم أن هناك صورة تذكارية تضم عدد معتبر من العلماء والفقهاء وأعضاء الجمعية، كما تبوز لنا توسط إبراهيم الكتاني لكل من الأمام عبد الحميد بن باديس والسعيد صاحبي. يراجع كل من: أحمد طالب الإبراهيمي: مذكرات جزائري، الجزء الأول: أحلام ومحن (1932-1965)، ص-ص، 16-17، محمد الطاهر فضلاء: التحريف والتزييف في كتاب حياة كفاح، الطبعة الأولى، دار البعث، قسنطينة، 1402هـ/1982م، ص. 90. مذكرات الشيخ خير الدين، الجزء الأول، ص. 183.

أُخذت لهم تخليدا لهذه المناسبة، جمعت كل من الإمام عبد الحميد بن باديس والشيخ البشير الإبراهيمي ومحمد إبراهيم الكتاني[1].

5. في سنة 1950 قام بزيارة مرة أخرى للجزائر واجتمع بالعديد من قادة الرأي والسياسة وغيرهم، وكان من بين الذين اجتمع بهم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي كان يشغل منصب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأطْلعه هو وغيره من الذين اجتمع بهم على الأوضاع في المغرب والنِّضال الذي كان يخوضه الملك محمد الخامس، وتذكر هنا بعض الكتابات المغربية أن الكتاني اقترح على الإبراهيمي القيام بترتيب زيارة إلى فرنسا للقاء الملك محمد الخامس الذي كان بصدد القيام بزيارة لفرنسا وتنسيق جهودهما ضد الاستعمار الفرنسي[2].

ولكن من خلال المقال الذي كتبه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي عن رحلته إلى فرنسا رفقة الشيخ العربي التبسي في أواخر شهر أكتوبر 1950 والتي مكثا بها حوالي 50 يوم[3]؛ لم يشر لنا لا من قريب ولا من بعيد إلى هذه الفكرة[4]. بقدر ما أشار إلى أسباب

---

1 -مذكرات جزائري، الجزء الأول: أحلام ومحن (1932-1965)، المصدر السابق، ص. 42 ينظر الملحق رقم 1.

2 -مثل ما جاء مثلا في "دائرة المعارف المغربية" معلمة المغرب، المجلد، 20، قسم العائلة الكتانية، وما جاء في كتاب معالم المغرب لعبد الوهاب بنمنصور من خلال النص الذي ساهم به في الكتاب الموسوم بـ: العلامة المجاهد محمد إبراهيم الكتاني حياة علم وجهاد (1325-1411هـ)، ص. 170. وما جاء في أطروحة الطالب عبد اللطيف القنبوي حول الكتاني والموسومة بـ"الأستاذ محمد إبراهيم الكتاني: حياته، آثاره، وجهوده في البحث والتحقيق"، تحت إشراف الدكتور علال الغازي، السنة الجامعية 1980-1981. حيث أشار في الباب الأول من أطروحته إلى هذه الفكرة، وذلك ما نلمسه من نص الكلمة التي ساهم بها في تأليف الكتاب السابق حول إبراهيم الكتاني، ص. 180..الخ.

3 -البصائر، المصدر السابق، العدد. 136، السنة الرابعة من السلسلة الثانية، الاثنين 29 ربيع الأول 1370هـ/ 8 جانفي 1951، ص. 2.

4 -فكرة الذهاب إلى فرنسا التي اقترحها عليه إبراهيم الكتاني قصد ترتيب لقاء مع الملك محمد الخامس.

هذه الرحلة التي حصرها في سببين رئيسيين هما: السبب الأول الذي يكمن في فصل الحكومة الجزائرية عن الدين الإسلامي وحرية التعليم العربي، بينما يكمن السبب الثاني في قضية المهاجرين الجزائريين نحو فرنسا بحثا عن لقمة العيش[1]. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن نجله أحمد طالب الإبراهيمي يخبرنا بأن والده يكون قد زار فرنسا للمرة الأولى خلال صيف 1950 قصد التداوي من مرض السكري، بناء على العلاج الذي وصفه له الدكتور آيت سي أحمد وهو ضرورة الاستحمام بالمياه المعدنية الحارة في مدينة فيشي، فرافقه نجله إلى فرنسا كمترجم له[2]، وبعد مرور 21 يوم من العلاج بفيشي قام الشيخ البشير الإبراهيمي بتنشيط العديد من التجمعات للمهاجرين الجزائريين في الضاحية الباريسية حثّهم من خلالها على ضرورة فتح المراكز التعليمية لتعليم أبنائهم، وخلال شهر سبتمبر 1950 قرر العودة إلى الجزائر[3]. وخلال شهر ديسمبر 1951 سافر الشيخ البشير الإبراهيمي مرة أخرى إلى باريس للقاء الوفود العربية والإسلامية المجتمعة بمناسبة انعقاد دورة للأمم المتحدة، والتي اقترح عليها ضرورة تسجيل القضية الجزائرية في جدول أعمال الجمعية العامة القادمة للأمم المتحدة[4].

ونحن هنا لا نستبعد أن يكون الشيخ البشير الإبراهيمي من بين الجزائريين الأوائل المطالبين بضرورة تسجيل القضية الجزائرية في المحفل الأممي تلبية للنداءات المتكررة من الجزائريين وغيرهم بضرورة رفع القضية الجزائرية إلى الهيئة الأممية، ومن بين الأصوات التي طالبت فيما بعد بهذه المسألة صوت عبد الحميد مهري الذي جاء فيه: «يتساءل الناس لماذا

---

1 -آثار محمد البشير الإبراهيمي، الجزء الثالث، المصدر السابق، ص-ص. 263-264. كما يمكن مراجعة جريدة البصائر في عددها 136، السنة الرابعة من السلسلة الثانية، ص. 2.

2 -لقد أورد أحمد طالب الإبراهيمي صورة تذكارية برفقة والده أثناء وجودهما بمدينة فيشي، ينظر الملحق رقم 2.

3 -مذكرات جزائري، الجزء الأول: أحلام ومحن (1932-1965)، المصدر السابق، ص-ص. 66-67.

4 -المصدر نفسه، ص. 68.

لم ترفع قضية الجزائر إلى هيئة الأمم المتحدة...فالقضية الجزائرية يجب أن تخرج إلى الميدان العالمي...ولكن الخروج بالقضية الجزائرية إلى الميدان العالمي أمر لازم لنجاحها»[1].

وأثناء زيارته الثانية إلى فرنسا ألقى الشيخ البشير الإبراهيمي كلمة على هامش مأدبة العشاء التي أقيمت للوفود المشاركة بفندق les Deux Mondes يوم 29 جانفي 1952، أشاد فيها بضرورة التعاون المشترك لمناهضة الاستعمار، وضرورة توحيد النضال المشترك بين دول المغرب العربي؛ ولقد ظل خطاب الشيخ الإبراهيمي حسب ما جاء في مذكرات نجله راسخا في الأذهان كما اجتمعت على هامش هذا اللقاء الشيء الذي سببا في دعوته لزيارة بعض البلدان العربية والإسلامية، الشيء الذي نأى به عن الجزائر ابتداء من 7مارس 1952 من أجل جولة في المشرق العربي كتب لها أن تستمر عشر سنوات بدلا من بضعة أشهر[2].

وقبل أن نعود للحديث عن علاقة الشيخ البشير الإبراهيمي بإبراهيم الكتاني أود الإشارة إلى النقطة التي أثارها الكتاني فيما يخص لقاء الإبراهيمي بالملك محمد الخامس بفرنسا، فمن غير المستبعد أن يكون البشير الإبراهيمي في زيارته الأولى لفرنسا قد التقى بالملك محمد الخامس بفرنسا أثناء زيارته لها خلال شهر أكتوبر 1950 والتي استغرقت هي الأخرى أزيد من شهر[3]، قصد طرح القضية المغربية على الحكومة الفرنسية والتي أعلن من خلالها صراحة عن مطالبته بإلغاء نظام الحماية الفرنسية والمطالبة باستقلال المغرب[4]. وهو

---

1 -عبد الحميد، مهري: ((يجب أن تخرج القضية الجزائرية إلى الميدان العالمي))، المنار، العدد. 10، السنة الثانية، الجمعة 4 صفر 1372هـ/ 24 أكتوبر 1952، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص. 1.

2 -مذكرات جزائري، الجزء الأول: أحلام ومحن (1932-1965)، المصدر السابق، ص. 68.

3 -أود الإشارة إلى نقطة جوهرية وخلافية مفادها أن زيارة الشيخ البشير الإبراهيمي وكما جاء في مقاله المنشور جريدة البصائر، العدد. 136، السنة الرابعة من السلسلة الثانية، ص. 2 تكون قد تمت في أواخر شهر أكتوبر 1950، بينما ما جاء في مذكرات نجله أحمد طالب الإبراهيمي، الجزء الأول، ص-ص. 66-67، أن زيارة والده الأولى لفرنسا تمت في صيف 1950 وانتهت بعودته للجزائر في شهر سبتمبر، أما زيارته الثانية فيؤرخ لها بشهر ديسمبر 1951!!.

4 -المنار، العدد. 2، السنة الأولى، الجمعة 13 رجب 1370هـ/ 20 أفريل 1951م، ص. 3.

ما فتح الباب على مصراعيه للمزيد من المؤامرات والدسائس الفرنسية التي انتهت بعزله عن العرش ونفيه، ولقد كان حينها لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين دور كبير في التعبير عن روح التضامن مع الشعب المغربي الشقيق من خلال جريدة البصائر الناطقة باسمها.

وبعد توجه الشيخ البشير الإبراهيمي نحو المشرق العربي يكون إبراهيم الكتاني قد احتفظ لنا في ذاكرته بصورة حسنة وعلاقات طيبة ومتينة ربطته بالبشير الإبراهيمي، وذلك في أول بعثة رسمية مغربية للحج في سنة 1957 التي ترأسها المرحوم عبد الله كنون، وحسب ما ذكره المرحوم محمد المنوني الذي كان ضمن عناصرها أنهم تعرفوا على العديد من الشخصيات كمفتي فلسطين الشيخ أمين الحسيني ومحمد بن عبد الكريم الخطابي وغيرهم، وأثناء وجودهم في دمشق كانوا على اتصال بباعث النهضة الإسلامية الشيخ محمد البشير الإبراهيمي؛ في بيت عميد علماء سوريا المرحوم محمد المكي الكتاني[1]. وأعتقد أن هذه هي آخر مرة يلتقي فيها محمد إبراهيم الكتاني بالشيخ البشير الإبراهيمي؛ ورغم ذلك فإن الإبراهيمي كان من بين انشغالات الكتاني وحضي عنده باهتمامات عدة يمكن حصرها في نقطتين رئيسيتين هما:

1. كتابة ترجمة للشيخ الإمام البشير الإبراهيمي عرّف من خلالها بالإبراهيمي الذي يعتبره أحد أصدقائه المخلصين، تخليدا للأعمال التي قام بها لصالح الإسلام والعروبة، وارتكزت هذه الترجمة على إعجابه بالإبراهيمي وعلى الدوافع التي حفزته على كتابة هذه الترجمة التي أشار اليها عبد اللطيف القنبيوي في أطروحته السالفة الذكر، ثم قدمها إلى الدكتور أحمد أمين مؤلف كتاب زعماء الإصلاح في العصر الحديث، لكننا لم نعثر على هذه الترجمة في كتابه، فهل سقطت من

1 علي بن منتصر الكتاني، خالد بن إبراهيم الكتاني: العلامة المجاهد محمد إبراهيم بن أحمد الكتاني حياة علم وجهـــاد (1325-1411هـــ)، المرجع السابق، ص-ص. 46-47.

الطبعات اللاحقة للكتاب سهوا؟ أم أن محمد البشير الإبراهيمي لم يكن من زعماء الإصلاح في نظر أحمد أمين؟؟[1].

2. زيارة محمد إبراهيم الكتاني للجزائر لحضور تأبينية الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله سنة 1965[2]، وحسب ما جاء في مذكرات الشيخ خير الدين فإن إبراهيم الكتاني يكون قد كتب رسالة إليه تحمل تعزية لعلماء الجزائر إثر وفاة الإمام محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[3]. وهي رسالة مُطوّلة تحمل في طياتها موقع البشير الإبراهيمي في ذاكرة إبراهيم الكتاني؛ ولقد فضّلت نشرها كاملة في هذا المقال ضمن الملاحق للاستفادة منها[4].

3-أثر هذه العلاقة على العلاقات الجزائرية-المغربية قبل اندلاع الثورة الجزائرية سنة 1954.

جاء في مذكرات أحمد طالب الإبراهيمي بخصوص هذه النقطة ما يلي: «وحين سيدرس المؤرخون العلاقات المغاربية في الفترة الاستعمارية سيسجّلون بكل تأكيد دور إبراهيم الكتاني كرائد للعلاقات الجزائرية المغربية، وكهمزة وصل بين الوطنيين في المغرب الأقصى والجزائر»[5]. وبناء على هذا النص فإن للكتاني دور كبير في تثمين العلاقات الجزائرية المغربية التي يمكن حصرها في ما يلي:

1. ربط الاتصال بين مناضلي وزعماء الحركة الإصلاحية والوطنية في كل من الجزائر والمغرب؛ خصوصا مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ويبدو ذلك من خلال اطّلاع الشيخ البشير الإبراهيمي بكل ما كان ينشر في المغرب من نصوص قديمة

---

1 -المرجع نفسه، ص. 189.

2 -المرجع نفسه، ص. 102.

3 -مذكرات الشيخ محمد خير الدين، الجزء الأول، المصدر السابق، ص-ص. 405-409.

4 -الاطلاع على مضمون هذه الرسالة ينظر الملحق رقم 3.

5 -مذكرات جزائري، الجزء الأول: أحلام ومحن (1932-1965)، المصدر السابق، ص. 28.

ومجلات وجرائد ومؤلفات حديثة هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه كان - - بدوره زعماء الحركة الإصلاحية في المغرب والمناضلين الوطنيين بكل ما يجري في الجزائر، وذلك من خلال الأعداد الهائلة من جريدتي البصائر والش- التي كانت تصل المغرب، ونظرا للصدى التي أحدثته جرائد جمعية العلم- المغرب قامت سلطات الحماية الفرنسية بالتضييق عليها ومنعها من د- المغرب.

2. تنسيق أواصر الأخوة والمحبة بين الشعبين الشقيقين، والعمل على توحيد - التعاون المشترك بين بلدان المغرب العربي عموما وبين الجزائر والمغرب خص- وما الدور الذي قامت به الجرائد والمجلات الجزائرية في الوقوف إلى جانب محمد الخامس أثناء نفيه إلا دليلا على ذلك التضامن، وكذلك الحال الدور قامت به الجرائد والمجلات والمنابر المغربية في التضامن مع الثورة الجزائرية إلا على التضامن المتبادل بين الجزائر والمغرب.

الملاحق

الملحق رقم 1[1].

واجب الأمة نحو تاريخها وأبطالها، بقلم إبراهيم الكتاني

«لم يكن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله شخصية عادية وإنما كان مجموعة من المواهب والعبقريات.

كان آية في علمه الواسع وأدبه الرفيع وخلقه النبيل ودينه المتين وإخلاصه وسعة أفق تفكيره وبعد نظره، وإنكاره لذاته وتفانيه في خدمة أمته وتوفيقه في أعماله وأقواله وحسن تربيته لطلبته ومريديه وللجماهير المتصلة به وتسخيره كلمه العزيز في تعليم أمته ورفع مستواها، واستغراق أوقاته في مواجهة المشاكل الوقتية، وتضحيته بحظ نفسه في القراءة والمطالعة والتأليف، ووفائه العديم النظير لأصدقائه وأحبابه ويا ما أكثرهم، ونجاحه في أن يحول الجزائر –مع أصدقائه ورفقائه وتلامذته وأعوانه من الحالة التي كانت عليها في أعقاب الحرب العالمية الأولى– إلى جزائر الثورة المباركة معجزة الإسلام الكبرى في العصر الحديث.

وإذا كان الفضل العظيم في نجاح الثورة المباركة يرجع قبل كل شيء للجندي الذي حمل السلاح وتقدم للاستشهاد مختارا راضيا، وللشعب الذي حمى ظهره وقاسمه أعباء الجهاد والتضحية الغالية، فإن المؤرخ المنصف لا يسعه تجاهل جهود الذين فكروا في هذه الثورة قبل وقوعها بأزيد من ربع قرن. فوقفوا حياتهم على الإعداد لها وتربية الأفراد والجماعات والأمة جمعاء على ما يؤهل للعبء الخطير وتحقيق المعجزة الكبرى.

لقد كان الملاحظ عن بعد لحركة الإصلاح بالجزائر أنها حركة محلية تخوض صراعا حادا بين المصلحين وأصحاب الزوايا، وربما سمع من تصريحات بعض المصلحين ما يفيد أنهم ليس لهم وراء عملهم الظاهر هدف سعيد يهدفون إليه. ولكن بعض الذين اتصلوا

---

1 –مذكرات الشيخ محمد خير الدين، الجزء الأول، ص–ص. 405–409.

مباشرة بمؤسسي الحركة وقادتها قد استطاعوا أن يعرفوا عن هدف الحركة البعيد ما لم تيسر معرفته لكثير من الناس.

كانت أول صلة مباشرة لي بالشيخ البشير الإبراهيمي رحمه الله في خريف سنة 1935 عندما حضرت مؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين بتلمسان موفدا من قبل زملائي في كتلة العمل الوطني بالمغرب، وفي حفلة الافتتاح بالبلدية خطب الشيخ رحمه الله خطابا رائعا كعادته دائما-وخطب رئيس البلدية الفرنسي منوها بفضل فرنسا على الجزائر في معرض تنديد بما ورد في خطاب رئيس المؤتمر المرحوم الحبيب ثامر التونسي بالإشارة إلى وحدة الأقطار المغربية، وكان المرحوم علال البلهوان التونسي يتولى ترجمة خطاب رئيس البلدية للعربية، ويتولى في نفس الوقت التعليق على الخطاب والتنديد بسياسة التجهيل المقصودة التي تتبعها فرنسا في الجزائر، الأمر الذي أغضب الرئيس الفرنسي ودفع الإدارة لمضايقة المؤتمر ومحاولة عرقلته فتنكر له كثير من الوصوليين والمتفرنسيين والجبناء، ولكن الشيخ رحمه الله بقي مستمرا في رعاية المؤتمر وتأييده، إلى أن أتم أعماله حسب ما كان مقرّرا.

ثم استدعاني الشيخ رحمه الله لحضور الاجتماع العام لجمعية العلماء بالعاصمة، وكان أهم ما عرفته بالعاصمة أن لجمعية العلماء قرارا سريا يقضي بمنع مقاومة الزوايا والمرابطين في بلاد القبائل التي كانت للكنسية بها نشاط تخريبي هدام منظم فيّ. وكان أبناء الزوايا والمرابطون هناك يخوضون معركة لا تتعادل فيها القوى للدفاع عن وجودهم والمحافظة على نفوذهم. وحدثني الشيخ عبد الحميد رحمه الله عن مقاومته لبرنامج (فيوليت) القاضي بمنح الجنسية الفرنسية للنخبة الجزائرية المتعلمة بالفرنسية.

وفي ربيع سنة 1936 كنت ضيفا على الشيخ البشير رحمه الله بمنزله في تلمسان، وكنا نقضي الأوقات الطويلة في الأحاديث المختلفة، وكان يطرب كثيرا لأخبار ثورة التحرير الريفية التي قادها البطل عبد الكريم الخطابي رحمه الله، وعندما ذكرت له مرة ما

قام به في هذه الثورة الجنود الريفيون الذي سبق لهم العمل في الجيش الإسباني قال لي رحمه الله: (وكذلك نحن في الجزائر نعلق أملا كبيرا على شبابنا الذين يؤدون الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي عندما يحين الوقت لحمل السلاح في وجه المستعمر المغتصب).

وفي خريف سنة 1937 كنت في تلمسان بمناسبة تدشين مدرسة دار الحديث بها، وفي عشية وصولي رافقنا المرحوم الشيخ عبد الحميد لأطلال مسجد المنصورة حيث حرر رحمه الله نداء يدعو فيه الأمة الجزائرية للصيام وملازمة المساجد بمناسبة ذكرى مرور مائة سنة على احتلال قسنطينة، ولما قرأه علينا جعل أحد تلامذته يشبط عزيمته ويحذره مغبة نشره، فغضب الشيخ رحمه الله وقال: (يا أبنائي إنكم تعلمون أني لم أطلب أي شيء لنفسي ولكني اليوم أطلب لنفسي شيئا واحدا هو أن تسمحوا لي أن أكون أول ضحية في سبيل الجزائر عندما يحين الوقت للتضحية في سبيلها ثم التفت إلي وقال لي: هنيئا لكم أنكن تجدون في المغرب السبيل للتضحية في سبيل بلادكم، أما نحن في الجزائر فإننا نتحرق إلى التضحية في سبيلها ولا نجد للتضحية سبيلا).

وفي خريف سنة 1950 عندما كنا نتأهب للاصطدام مع المستعمر في المغرب وجّهني إخواني في حزب الاستقلال المغربي للجزائر لإطلاع أصدقائي بها على خطتنا، وقد اغتنمنا هذه الفرصة لنتحدث لبعضنا عن أخبارنا وأحوالنا منذ سنة 1937 وما تعرض له كل واحد منا من اضطهاد أثناء هذه المدة، فحدثني الشيخ البشير رحمه الله عن محاولة الإدارة الفرنسية حمل جمعية العلماء على إعلان تضامنها مع فرنسا في الحرب، وامتناع الجماعة من استجابة لهذه الرغبة مما أدى إلى نفي الشيخ رحمه الله إلى آفلو كما هو معلوم، كما حدثني عن الجهود الحميدة التي بذلها لنجاح التوقيع على وثيقة الاستقلال وما أعقبها من حوادث ماي 1945 والإضطهادات الوحشية التي تعرض لها الشيخ رحمه الله وكثير من العلماء، وحدثني كثير من العلماء عما تعرضوا له أثناء الحرب من اضطهاد.

وقد حدثني الشيخ خير الدين عن التفكير في حرب العصابات في الجبال بعد أن تحققت جميع الوسائل السلمية التي اتبعتها الأمة الجزائرية لحمل فرنسا على تغيير سياستها إزاء الجزائر فلما علمت بعد ذلك بأربع سنوات وأنا معتقل (بأغبالو نكر دوس) بالجنوب الشرقي المغربي، نبأ اندلاع الثورة الجزائرية لم يكن مفاجأة كبيرة بالنسبة لي فقد خامرني شعور الفرحة بحلول الساعة الحاسمة التي طالما انتظر حلولها المخلصون، وعملوا السنين الطويلة في سبيل الوصول إليها.

وإذا كانت هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الجزائر قد دخلت في حكم التاريخ بما لها وما عليها، وإذا كان الذين ساهموا في أحداثها والذين تتبعوا هذه الأحداث عن كثب يعرفون فضل هؤلاء الرواد حق المعرفة، فإن البعيدين والأجيال الناشئة لا تكاد تعرف عن ذلك شيئا.

ثم إن التجربة الجزائرية في هذا الميدان كانت تجربة فريدة من نوعها، فمن حق الأمم الإسلامية الأخرى، والدارسين للتاريخ الحديث على العموم أن يتعرفوا إلى حقيقة هذه التجربة بأقلام الذين ساهموا بأنفسهم في أحداثها والذين عاصروها وتتبعوا هذه الأحداث عن كثب، وذلك ما يحتمه أولا الإخلاص للمبادئ المقدسة والأهداف النبيلة التي عملوا لها واستشهدوا في سبيلها، يحتمه الوفاء لهم وأداء واجبهم، ويوجبه أكثر من ذلك الوفاء لتاريخ الأمة التي أنجبتهم وكوّنتهم وحمّلتهم أمانة إعداد شخصيتها الإسلامية العربية التي جهد الاستعمار جهده لمحوها ومسخها، ووقفت إلى جانبهم تؤيدهم بكل ما تملكه من الوسائل التي تمكنهم من أداء رسالتهم التي انتدبوا أنفسهم لأدائها.

ومن المؤسف أنه قد وقع لحد الآن الإخلال بهذا الواجب الأكيد إخلالا شائنا فبقيت المكتبة العربية خالية من كتاب-فأحرى كتب-تتضمن تاريخ هذه الحقبة وما تم فيها من أعمال وما خاضه رجالها المخلصون من معارك وصراعات مختلفة متنوعة: تتضمن تراجم مفصلة لرجالاتها البارزين مثل المرحومين المشايخ: عبد الحميد بن باديس والعربي

التبسي، البشير الإبراهيمي، فتتحدث عن نشأتهم وتربيتهم وعلمهم وأخلاقهم وأعمالهم التي قاموا بها وأهدافهم التي استشهدوا في سبيلها.

هؤلاء الأبطال كانوا في شغل شاغل بأحداث كفاحهم اليومي المرير المتواصل عن التفرغ لتسجيل مذكراتهم والتأريخ لحياتهم، وما نشروه من مقالات ورسائل صغيرة أثناء هذا الكفاح كان الكثير منه منطبعا بطابع المرحلة التي نشأ فيها، ثم هو قد بقي دفين هذه الصحف المحلية التي لم يكن يتيسر الحصول عليها إلا لقليلين خارج الجزائر، ثم هي الآن لا وجود لها في المكتبات العامة في مختلف البلاد، بحيث إذا أراد الباحث الرجوع إليها لم يجد إليها سبيلا، فإذا استثنينا مجموعة (عيون البصائر) التي وقف الإمام الإبراهيمي رحمه الله لنشرها بالقاهرة، وطالما نديت الكثير من تلامذتي وأصدقائي للقيام بهذا الواجب الأكيد فلم أجد استجابة ممن نديتهم لملء هذا الفراغ وكثيرا ما كان يحول بينهم وبين ذلك عدم وجود مجموعة (الشهاب) ومجموعات الصحف الأخرى بين أيديهم، على أن هذا الأمر لا تكفي فيه المجلات والصحف على أهميتها القصوى-بل لا غنى عن مساهمة الرجال الذين عاشوا الأحداث من تسجيل ما خفي عن الناس من ملابساتها وشؤونها، ولعل إحياء ذكرى مرور سنة على وفاة الإمام الإبراهيمي رحمه الله خير مناسبة لتوجيه الدعوة لأصدقائه وزملائه وتلامذته ومحبيه ليتعاونوا جميعا- كل فيما يخصه على القيام بهذا الواجب الأكيد، الذي يعتبر الإخلال به عقوقا للأمة ولكفاحها المقدس المرير، فيضعوا مخططا علميا لهذا العمل ويوزعوه بينهم حتى إذا تم قاموا بطبعه في القاهرة وبيروت، وعملوا على نشره في سائر الأنحاء على نطاق واسع، تعريفا للعالم بمجهود جبار متواصل استمر أزيد من ربع قرن، وبشخصيات فريدة في بابها، قل أن يجود الزمان على الأمم بأمثالها، ولا تعرف المكتبة العربية عنها مع ذلك إلى القليل».

البشير الإبراهيمي ونضاله في سبيل العربية والعروبة

د.رمضان بخلف

جامعة الأمير عبد القادر

منذ أن قضت حكمة الله تعالى بأن جعل النبوة الأخيرة في بني إسماعيل، واختار اللسان العربي ليكون لسان هذه الرسالة الخاتمة، فمنذ ذلك اليوم وأعداء العروبة واللغة العربية لم تنقطع دسائسهم ومكائدهم لمحاولة النيل منهما، وقد سجل القرءان الكريم هذه الحقيقة في قوله تعالى:"أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب الحكمة وآتيناهم ملكا عظيما"[1]

كما قضت حكمة الله تعالى من جهة ثانية بأنه سينصر هذا الدين بالرجل التقي مثلما ينصره بالرجل الفاجر، وهي الحقيقة التي نبه عليها الشاعر الحكيم في قوله:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها على لسان حسود

فبقدر ما رصد خصوم العربية والعروبة من مكائد ومؤامرات للتضييق عليهما وإضعافهما، بقدر ما أوقد جذوة الحرص والذود عن حياضهما عند رجال الفكر والدعوة والإصلاح والتجديد عبر القرون.

ويأتي في مقدمة هؤلاء المصلحين الذين وقفوا أنفسهم على إحياء العروبة واللغة العربية الإمام العلامة محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

وسنتحدث عن نضالات البشير الإبراهيمي في سبيل التمكين للغة العربية والعروبة في محورين، فيكون المحور الأول لبيان جهوده في إحيائه اللغة العربية، والمحور الثاني لنشاطاته ودعوته لتمتين روابط العروبة والاعتصام بحبلها .

المحور الأول: نضالاته في سبيل إحياء اللغة العربية

لا يستطيع أي دارس منصف أن ينكر جهود الشيخ البشير الإبراهيمي وفضله على إحياء اللغة العربية والتمكين لها وبعث مجدها من جديد، ولم يكن نضاله من أجل اللغة العربية نابعا من مجرد أنها لغة القرءان والدين، أو أنها من مكونات هوية الشعب الجزائري، بل كان نضاله نابعا أيضا من تشبعه بآدابها وعلومها وخصائصها الذاتية، وقناعاته الراسخة بأن اللغة العربية في عصره قادرة على احتواء حاجات الأمة وتلبية طموحاتها العلمية والحضارية، وهذا ما فصله في إحدى محاضراته التي ألقاها تحت عنوان "العربية وفضلها على العلم والمدنية، وأثرها في الأمم غير العربية"[2] وقد تجلت نضالاته من خلال ما يأتي:

1 ــ حرصه على إحياء التعليم العربي، وتحمله المشاق والصعاب العويصة في سبيل بعثه في ربوع الجزائر أولا، وفي أرجاء العالم العربي والإسلامي ثانيا، فمنذ أن توفي الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس، وانتخب بعده رئيسا للجمعية، وهو يتقلب بين السجون المدنية أحيانا والسجن العسكري أحيان أخرى، أو الإقامة الجبرية، أو النفي والإبعاد إلى المحتشدات التي أعدها الاستعمار لرجال الجمعية[3] وأنصارها وأتباع الحركات الوطنية، واستمرت هذه المتابعات من سنة 1940م إلى سنة 1952م وهي السنة التي بدأ فيها رحلته الثانية إلى بلاد المشرق ــ وبتكليف من مكتب الجمعية ــ للتعريف بأعمال الجمعية ومنجزاتها وطموحاتها وحاجاتها[4].

بل إن من غرائب الصدف أنه يوم انتخب رئيسا للجمعية العلماء بعد وفاة الشيخ العلامة ابن باديس في شهر أفريل سنة: 1940م كان يومئذ في منفاه في صحراء وهران "بلدية آفلو" فقضى فيها ثلاث سنوات بتمامها ذاق فيها من ألوان التعذيب والتنكيل ما يفضي بأمثاله إلى الموت المحقق، ولما أطلق سراحه عاد إلى نشاطه ثانية بأقوى عزيمة مما كان عليه، فانعقد جلس إدارة الجمعية بتاريخ 05 أوت 1944م ورفعوا تقريرا إلى الحكومة يعبرون فيه عن الرفض المطلق للتضييق والمحاصرة على المساجد والتعليم العربي ومؤسسة

القضاء الشرعي. ومما جاء في هذا التقرير من توصيف لحال التعليم العربي، وما اتخذته إدارة الاستعمار من قرارات جائرة في حقه ما يأتي:

(..ومن أسوأ ما في تلك القرارات أثرا وأشده إيلاما لعواطف المسلمين عامة وللعرب خاصة، ما جاء في بعض بنود تلك القرارات من اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في بلاد عربية وهي الجزائر، وجاء دور تنفيذها على أيدي صغار الإداريين، فبالغوا وأسرفوا في التنكيل والمحاكمة، وسيق معلمو العربية إلى مجالس القضاء كما يساق المجرمون، وفرضت عليهم العقوبات المالية والبدنية من سجن وتغريب، ولا زالت بقاياهم في المنفى إلى الآن ..)[5]

(ومن الغريب أن جمعية العلماء صرحت للحكومة مرارا بأنها تقبل بكل سرور زيارة مدارسها من طرف مفتشي المعارف الرسميين، ولكن لم نر في تلك السنين الطويلة مفتشا واحدا زار مدرسة من مدارسها، وما كانت ترى إلا عون البوليس يزورها لتبليغ الأمر بالإغلاق، أو العون الشرعي يزورها لتبليغ الاستدعاء للمحاكمة.)[6]

فعلى الرغم من سياسة الاستعمار التي اتسمت بالقسوة والبطش تجاه جمعية العلماء ممثلة في شخص رئيسها البشير الإبراهيمي، فإن نشاطها ظل يتضاعف، ومنجزاتها ما فتئت تتسع في شكل المدارس والمساجد والنوادي التي تمثل منابر لتبليغ رسالة الإصلاح وفي مقدمتها، إحياء التعليم العربي في كل أطواره ومستوياته.

2 ــ ومنها كتاباته وأبحاثه وإنتاجه العلمي والأدبي، بحيث ترك من ورائه تراثا نادرا في علوم العربية يذكرنا بتراث أسلافنا في اللغة أمثال الجاحظ وابن دريد وأبي علي القالي وعبد الحميد الكاتب وغيرهم، وهو تراث ينم عن نبوغه وتضلعه في اللسان العربي وشدة شغفه به، ونذكر من مؤلفاته التي تشهد له بهذه المكانة الرفيعة:

ــ الإطراد والشذوذ في اللغة العربية.

ــ والتسمية بالمصدر.

ـــ وأسرار الضمائر العربية.

ـــ والصفات التي جاءت على وزن فعل.

ـــ ونظام العربية في ميزان كلماته.

ـــ ورسالة في ترجيح أن الأصل في الكلمات العربية ثلاثة أحرف لا إثنان.

ـــ ونشر الطي في أعمال عبد الحي.

ـــ ورسالة في مخارج الحروف وصفاتها بين العربية والعامية.

ـــ وبقايا فصيح العربية في اللهجة العامية بالجزائر، وقد تتبع فيه الابراهيمي دراسة اللهجة السائدة في موطن بني هلال بن عامر[7].

ويغلب الظن أن هذه المؤلفات جميعها قد صنفها وعمره دون الثلاثين سنة ، أي في فترة إقامته ببلاد الشام قبل سنة 1920م ولما عاد إلى الجزائر وتحمل أعباء النشاط الواسع داخل جمعية العلماء ، لم يكن له أي وقت للتأليف ، بل نهج منهج ابن باديس في الإنتاج والعطاء، فرفع شعار " شغلنا بتأليف الرجال عن تأليف الكتب" وكانت آثاره بعدئذ في الميدان، وهو الإشراف ووضع المناهج لمدارس التعليم العربي لجمعية العلماء، اللهم إلا تلك المقالات والخطب التي نشرت في البصائر وغيرها، ولما جمعت وطبعت صارت تمثل هي الأخرى تراثا نوعيا عظيم الفائدة.

3 ـــ ومنها ارتباطه بكبريات المؤسسات العلمية التي كانت تخدم اللغة العربية من منتديات ودور تعليم ومجامع علمية، ويكفيه فخرا أنه كان من المؤسسين والأعضاء الفاعلين والبارزين في مجمع اللغة العربية في كل من القاهرة وبغداد ودمشق، بل كانت هذه المجامع تتشرف وتفتخر أن يكون أمثال العلامة البشير الإبراهيمي من أعضائها.. ومما جاء في تهنئته من بعض أقرانه لما اختير عضوا لمجمع اللغة العربية المصري : (يا عالم العلماء.. مهداه إلى شيخ علماء الجزائر، سماحة السيد البشير الإبراهيمي ، بمناسبة اختياره

عضوا مراسلا للمجمع اللغوي في مصر، أشد على يدك فخورا بسلك ، وأهنئ مصر بتوفيقها إليك، وأغبط وزير معارفنا حين ضاعف الفضل باختيارك.

إن نسبة المجمع اللغوي إليك فخر له وذخر .. تشد عضده وتقوي سنده، فأنت موسوعة الموسوعات، ومعهد العلماء، وما أراني أحمل الكلمات أكثر من معانيها، بل أشعر أنني أمي حين أريد تصوير ما انطبع لكم في نفسي، فلا أجد تصويره وتعبيره.)[8]

4 ــ ومنها رحلاته وتطوافه في مختلف بلدان العالم العربي لحشد جهود الغيورين والحريصين على حماية اللسان العربي وإحيائه، ففي مذكرة بعث بها من القاهرة سنة: 1954 إلى الجامعة العربية يستحث فيها الدول الأعضاء على مساعدة الجمعية ودعمها في مجال التعليم قال :

(إن الشعب الجزائري جزء ثمين من الأمة العربية الماجدة، مازال محتفظا بخصائص العروبة كأقوى ما يكون الاحتفاظ، ومن ثم فهو رأس مال العرب يجب أن يحافظوا عليه ..فإذا تم للاستعمار الفرنسي ما يريده به من فرنسة واستعجام، فمعنى ذلك أنه ضاع على العرب والمسلمين ــ كل باعتباره الخاص ــ رأس مال عظيم..)[9]

وفي إحدى ندواته بالقاهرة في سنة 1955 طلب منه أن يلقي محاضرة ، ويكون اختيار موضوعها من عنده، فكان اختياره لموضوع "مشكلة العربية والعروبة في الجزائر" وبرر ذلك الاختيار بقوله: (لأن موضوع العروبة أو العربية في الجزائر هو الموضوع الذي قسمه الله لي، وجعلته ميدان أعمالي وأحاديثي، ومجال قلمي عشرات السنين ..)[10]

ومما جاء في تلك المحاضرة: (.. اختارت جمعية العلماء للسفارة بينها وبين الشرق العربي رئيسها محمد البشير الإبراهيمي،كاتب هذه السطور، فطاف العراق والحجاز وسوريا والأردن ومصر ولبنان، وتردد على هذه الأقطار مرات في ثلاث سنوات، ولقي ملوك العرب وحكوماتهم، ووزراء معارفهم وجميع أهل الرأي فيهم، وأدى رسالته الخاصة والعامة أكمل تأدية .

أما الرسالة العامة فهي تعريف الشرق العربي بالغرب العربي تعريفا تاريخيا شاملا، وبيان أنه قطع متجاورات متصلة الأجزاء بالشرق، وأن سكان هذا القطع يشكلون نصف العرب تقريبا، فإذا تمادت القطيعة وعدم التعاون بين شرق العرب وغربهم ـــ كما هو واقع ـــ التهمت أوربا شمال إفريقيا العربي وهضمته إلى الأبد، وضاع على العرب نصف عددهم ..

ففي سبيل أداء هذه الرسالة العامة وشرحها قضى كاتب هذه السطور ثلاث سنوات ـــ بالشرق العربي ـــ وألقى مئات الأحاديث والمحاضرات، واستصرخ واستنجد، ونصح ووعظ، وسمى الأشياء بأسمائها، وقال كلمة الحق جهيرة، وشرح وعلل وانتقد، وصاحبه توفيق الله في أداء هذه الأمانة .

وأما الرسالة الخاصة فهي استنجاد جمعية العلماء الجزائريين بالحكومات والهيئات العربية، وطلب العون المادي والمعنوي منها، حتى تستطيع الجمعية الاستمرار في عملها العظيم، وهو إنقاذ الجزائر العربية من البربرة والاستعجام، وقطع الطريق على الاستعمار الفرنسي ومقاصده السيئة التي بيتها للجزائر.)[11]

ونذكر من هذه الرسائل أيضا تلك التي بعث بها إلى رئيس مجلس الجامعة العربية ـــ الدكتور محمد فاضل الجمالي ـــ في إحدى دوراتها، ومما جاء فيها:

(أرجو من فخامتكم أن تقرءوا هذا البيان بإمعان، وأن تعرضوه على مجلس الجامعة، وأن تتولوا بيانه والدفاع عنه مشكورين.

كاتب هذا البيان إلى فخامتكم وإلى مجلس الجامعة الموقر رسول أمة عربية مسلمة في الجزائر تعد أكثر من عشرة ملايين من النفوس، وتجاهد الجهاد العنيف في سبيل عروبتها وإسلامها، وهو قائد حركة ثقافية علمية أساسها العروبة والإسلام، وهو رئيس جمعية منظمة وفقت في عقدين من السنين أشياء تعد من خوارق العادات في هذا العصر، فشيدت مائة وخمسين مدرسة ابتدائية عربيا ومعهدا ثانويا فخما كامل الأدوات ..

رسالتي التي أحملها من الأمة الجزائرية العربية إلى أخواتها العربيات في الشرق العربي هي شرح الحالة على حقيقتها، وطلب النجدة السريعة بإعانات مالية تحفظ الوجود في الجزائر .. وبإيفاد مئات من الطلبة الحاصلين على الشهادة الابتدائية العربية إلى معاهد الشرق العربي ليكملوا دراستهم.. وليرجعوا إلى أوطانهم معلمين ومجاهدين..

وبرهان كلامي يتركب من عدة مقدمات منها:

الأول: أن الشعب الجزائري مؤلف من عشرة ملايين وزيادة كلهم عرب أصلاء، وكلهم مسلمون متصلبون، والاستعمار الفرنسي عامل على مسخهم وإخراجهم من عروبتهم وإسلامهم .

الثاني: إن جامعة الدول العربية ملزمة بروح ميثاقها العام أن تحرر كل عربي على وجه الأرض بالمستطاع من وسائلها التدريجية، ولا نشك أن للشعب العربي مكانته في نفس الجامعة ..

الثالث: أن الشعب الجزائري العربي فريد في وضعه لا يقاس بشعب ولا يقاس به شعب عربي آخر.

إن جمعية العلماء عازمة إن تيسرت لها الوسائل المادية أن تشيد ألف مدرسة تستوعب مئات الآلاف من الأطفال المشردين، ويستتبع ذلك عدة معاهد ثانوية، كل هذا من الآمال التي تسعى الجمعية لتحقيقها .)[12]

وهكذا قضى الشيخ البشير الإبراهيمي — رئيس جمعية العلماء يومئذ — ثلاث سنوات كسفير للجمعية في بلاد المشرق العربي كله ، لم يترك بابا إلا طرقه ، فأبلغ وأسمع صوت جمعيته وصوت الجزائر وصوت العربية والعروبة ، ولما اندلعت ثورة التحرير الكبرى وهو في أداء هذه المهمة ضاعف من مهمته وجهده ابتداء ببيانه التاريخي الذي أذاعه من القاهرة، وذلك إيمانا منه بأن ساعة الحسم والمواجهة قد حلت، فلم يتردد في انضوائه تحت لواء الثورة والدعوة إلى نصرتها وصب الجهود كلها في نصرتها[13] .

5 ــ ومنها دفع الشبهات وكشف المؤامرات التي كانت تهدف إلى إضعاف اللغة العربية و محوها، أو محاصرتها وحرمانها من ولوج ميدان العلوم الكونية والتقنية، إذ كان من أهداف الاستعمار في العصر الحديث للوطن العربي ضرب اللغة العربية التي تمثل حصن الدين الإسلامي وذرعه الواقي، فوجه البشير الإبراهيمي كتاباته لرد هذا العدوان، وكشف مخططات الاستعمار الفرنسي وأذنابه الذين كانوا يحاولون زرع الفتنة والصراع بين اللغة العربية واللغات المحلية في الجزائر، ومما قاله في ذلك:

(اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها وبين حماتها، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواصر مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل، ممتدة مع الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الفاتحين ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتهم ..)[14]

(من قال إن البربر دخلوا الإسلام طوعا فقد لزمه القول بأنهم قبلوا العربية عفوا، لأنهما شيئان متلازمان حقيقة وواقعا لا يمكن الفصل بينهما، ومحاول الفصل بينهما كمحاول الفصل بين الفرقدين، ومن شهد بأن البربرية مازالت قائمة الذات في بعض الجهات فقد شهد للعربية بحسن الجوار، وشهد للإسلام بالعدل والإحسان ..)[15]

وفي معرض الحديث عن مكانة اللغة العربية وقدرتها على استيعاب حاجات البحث العلمي ، واستجابتها للتطورات المتسارعة ، وسبقها في هذا المجال قال:

(واللغة العربية هي التي أفضلت على علماء الإسلام بكنوزها ودقائقها وأسرارها، وأمدتهم بتلك الثروة الهائلة من المصطلحات العلمية والفنية التي تعجز أية لغة من لغات العالم عن إحضارها بدون استعانة واستعارة، فبحثوا في كل علم، وبحثوا في كل فن، وعمروا الدنيا مؤلفات ودواوين، ومن عرف كتاب أبي حنيفة الدينوري في النبات، وكتاب أبي عبيدة في الخيل، وكتاب الهمداني في تخطيط جزيرة العرب، وكتاب الجاحظ في الحيوان، وكتب الأئمة في الطب والنجوم والإبل، رأى العجب العجاب من اتساع هذه اللغة وغزارة مادتها، وعلم مقدار أفضالها على الأمة العربية)[16]

ومثلما وقف العلامة البشير الإبراهيمي نفسه على خدمة اللغة العربية والتمكين لهـا ، فإنه كان يرى ان وجود العربية مشروط بوجود العروبة ، وأن عزة العربية وقوتها في عزة العروبة وقوتها أيضا، وبذلك صرفا شطرا آخر من جهاده ونضـاله للإشـادة بالعروبـة وإحيائها، وتمتين الأواصر بين أبنائها، وهو ما نبينه في المحور الثاني.

المحور الثاني: نضالاته في سبيل إحياء العروبة

وتجلت فيما يأتي:

1 ــ اعتزازه بانتمائه العربي، وشغفه بعطاءات الحضـارة الإسـلامية وأفضـالها علـى الإنسانية، وبذلك ظل يتغـنى بهذا الحب الذي غمر جوانحه، وذلـل أمامـه الصـعاب والمتاعب التي كانت تعترضه في دفاعه عن العروبة.

ففي كلمته التي ألقاها في مجمع اللغة العربية بدمشق ارتجالا سنة 1953 قال:

(ولي من الصلاة المكتسبة بهذا المجمع أن أكـثر الأعضاء الذين هـم عمده ودعائمـه من أصدقائي الذين أعتز بهم.. و لم لا وأنا مجـنون هذه الأمة العربية، المفتـون بماضـيها وحاضرها ..

لو سألتموني أيها الإخوان ماذا أحببت من الأمة العربية، ولماذا أحببتها هذا الحب الذي بلغ درجة الافتتان، وأولها جاهلي وآخرها جاهلي، لأجبت جوابا يأكل الأجوبة كلـها، ويسكت الشقائق الهادرة، وهو أنني أحببت منها ما أحب الله منها يوم أنزل وحيه الكامل بلسانها، واختار رسوله الخاتم من أبنائها)[17]

2 ــ ومنها كتاباته وأبحاثه في سبيل الكشف عن مجد العروبة والحضارة العربيـة، ومـن أجمـل ما جاء في بعض محاضراته عن الحضارة العربية وفضلها على الأمم قوله:

(..كانت هذه حال الحضارات ــ السابقة ــ إلى أن جاء الإسلام بالحضارة الـتي لا تبيد، والمدنية المبنية على حكم الله وآداب النبوة، فكان التوحيـد أساسـها، والفضـائل

أركانها، والتشريع العادل سياجها، واللغة العربية الناصعة البيان الواسعة الأفق لسانها، وبذلك كله أصبحت مهيمنة على المدنيات كلها .

وقامت اللغة العربية ببيانها على أكمل وجه، وكانت الأمة المدخرة لتشييد هذه الحضارة التي نسميها بحق الحضارة الإسلامية هي الأمة العربية.

أيها الإخوان، لو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب، لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان، وآداب فارس والهند .

لو لم تكن اللغة العربي لغة عالمية لما وسعت علوم العالم، وما العالم إذ ذاك إلا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون.

أيها الإخوان، إن كثيرا من العلوم التي بنيت عليها الحضارة الغربية لم تصلها إلا على طريق اللغة العربية بإجماع الباحثين منا ومنهم، وإن المنصفين منهم ليعترفون للغة العربية بهذا الفضل على العلم والمدني، ويوفونها حقها من التمجيد والاحترام ..وغنهم يحمدون للذهر أن هيأ لهم مجاورة المسلمين بالأندلس وصقيلة وشمال إفريقيا وثغور الشام حتى أخذوا عنهم ما أخذوا واقتبسوا عنهم ما اقتبسوا.)[18]

3 ــ دعواته للم شمل العرب وتشجيعه لكل مبادرة تصب في هذا الاتجاه ، فبمناسبة زيارة أمير الكويت عبد الله الجابر الصباح إلى مصر سنة 1953 كتب كلمة نقتبس منها:

(التقارب بريد الاتحاد، والتزاور دليله، والتحاور بشيره، والتشاور مفتاح بابه، وكل هذا يقع في هذه الأيام بين رؤساء العرب وأولي الرأي فيهم ويتكرر، وتصحبه مبشرات مؤذنة بقرب تبلج فجر من الاتحاد، تعقبه الوحدة الشاملة التي ترهب أعداء العرب، ويقول معها صهيون عن جزيرة العرب:إن فيها قوما جبارين.)[19]

4 ــ تعليق أمله على بناء مغرب عربي موحد ومتين، فنقرأ له تحت عنوان:" اتحاد المغرب العربي الكبير" قوله :(المغرب العربي وحدة لا تتجزأ، جمعها الإسلام على تعاليمه

الروحية السامية، وجمعتها العروبة على بيانها وآدابها، وجمعها الشرق على النور الذي بعثه مع كتائب الفتح الأول، ومع اللغة التي وجهها مع قوافل بني هلال .

المغرب العربي جمعته يد الله وربطته برباط واحد هو الإسلام والعروبة، ومع الإسلام القوة، ومع العروبة الإباء والشمم، فلا تفرقه يد الشيطان، فكل من سعى للتفرقة بين أبنائه — ولو من أبنائه — فهو شيطان لا يدفع باللعن والاستعاذة كما يدفع شيطان الجن، وإنما يدفع بالطرد من الحظيرة، فإن لم يندفع فبإعدامه من الوجود.)[20]

5 — ومنها ربطه بين اللغة العربية والعروبة، فهما بالنسبة له وجهان لعملة واحدة، فلا يمكن للعربية أن تنتعش وتزدهر في غياب وحدة عربية متينة، كما لا يمكن للعروبة أن تقوى وتشتد في غياب اللسان العربي الفصيح والسليم، فالعربية والعروبة عنده ليست مجرد لسان ناطق، وحروف تكتب، وشعار يلوح في الأفق، بل هو روح وتاريخ وأخلاق وحضارة وغيرها.

وخير مثال نذكر به في هذا المقام تلك الرسالة التي بعث بها إلى مؤتمر التعريب بمدينة الرباط المغربية سنة:1961م ، ومما جاء فيها :

(أيها الإخوان، التعريب نوعان : نوع جزئي ونوع كلي، فالتعريب الجزئي هو تعريب الأسنة والأقلام وآثارهما من خطابة وكتابة، ويدخل فيه تعريب الدروس التعليمية، والثاني يشمل هذا ويشمل التخلق بأخلاق العرب، والتحلي بكل ما اشتهر عنهم من محامد وفضائل ..)[21]

وأما النوع الكلي من التعريب، هو التعريب الشامل النافع، وهو غاية الغايات لكل عامل مخلص للعروبة، فلا يتم تمامه بالعلم وحده، وغن بلغنا فيه عنان السماء، فالعلم وحده لا يفيد إذا لم تصحبه في كل خطوة تربية نفسية على شمائل العرب وهممهم وبطولتهم ووفائهم وصدقهم في القول والعمل والحال وتضحيتهم وإبائهم ..

إذا تم لنا التعريب بنوعيه الجزئي والكلي، نكون قد حصلنا على نتيجة عجز عنها من قبلنا من الدعاة المصلحين، وأدينا حق الله وحق دينه وحق العروبة على أكمل وجه، وقمنا بالأمانة والعهد كما أمر الله، ومهدنا للقومية العربية الكاملة بإزاحة العقبات من سبيلها.)[22]

(نحن معشر العرب أصبحنا في حاجة ملحة إلى التعريب في كل علائقنا بالحياة، فنحن في حاجة إلى تعريب ألسنتنا وأفكارنا وعقولنا وأذهاننا وتصوراتنا، وأكاد أقول ولباسنا ونعالنا وأساليب معاشنا، وهيئات أكلنا وشربنا وأثاث بيتنا، فقد عم حياتنا كلها المسخ والقلب، ورمانا الاستعمار بالناقرة وهي فساد الأخلاق فينا، فلم يبق من سمات العرب شيئا إلا توافه ودعاوى على الألسنة.)[23]

(ومن هذا المرتكز كانت اللغة العربية تمثل في الأمم الإسلامية عامل التكامل الاجتماعي، لأن الإسلام ينطوي على معان ثابتة، ودور اللغة العربية هو نقل هذه المعاني الثابتة كما جاء بها لإسلام إلى هذه الأمم.)[24]

وبعد هذا المشوار النضالي الطويل والمسار الجهادي العسير الذي قضاه الإبراهيمي في خدمة المبادئ التي وقف حياته عليها، لم يساوره الندم أو الحسرة على بعض ما أصابه، أو شيء مما فاته من أعراض الدنيا، بل كان يرى أن حياة الرجولة تقتضي مثل هذه التضحيات وزيادة، ولذلك كان يقول:(إن للرجولة ضريبة، وعليها مسؤولية، لأن الرجال هم القمم الشامخة، والعلامات البارزة، والأئمة الدعاة الذين يقودون الأمة إلى مواطن النصر)[25] ومن أجمل ما قال شعرا قصيدة جاء فيها:

لا نرتضي إمامنا في الصف حتى يكون أمامنا في الصف

أي أننا لا نقبل أن يؤمنا في الصلاة إلا من يقودنا في ساحة الجهاد.

وبهذه الشواهد الساطعة، والمواقف الناذرة، والتضحيات الجسيمة التي بذلها العلامة محمد البشير الإبراهيمي نعرف أن تلك الشهادة التي قدمها في حقه الإمام عبد الحميد بن

باديس كانت على قدر عطاء الرجل وجهاده ووفائه لشعبه ولأمته، فقال ابن باديس: (عجبت لشعب أنجب مثل البشير الإبراهيمي أن يضل في دين، أو يخزى في دنيا، أو يذل لاستعمار)[26]

رحمه الله تعالى رحمة واسعة، وألحقه بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

المراجع

[1] . سورة النساء الآية: 35.

[2] . خطاب ألقاه البشير الإبراهيمي في حفل حاشد أيام الاجتماع السنوي لجمعية العلماء، وكان ذلك سنة 1939، وكان الخطاب في هذا الموضوع بتكليف من رئيس الجمعية الشيخ عبد الحميد بن باديس، انظر: آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، مج1، ص 257:

[3] . انظر آثار الإبراهيمي مج5 ص: 168، وهو جزء من سيرته الذاتية تحت عنوان"موقف الاستعمار مني"

[4] . وهو مقال كتبه لمجلة المصور المصرية ـــ وبطلب منها ـــ تحت عنوان "من أنا" انظر آثار البشير الإبراهيمي، مج5 ، ص 168.

5 . الشيخ محمد خير الدين مذكرات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص: 137.

6 . المصدر نفسه: 138.

7 . محمد عباس، الإبراهيمي أديبا، مطبعة الفجر، وهران، ص:71 .

[8] . مذكرات الشيخ محمد خير الدين، ص:373.

9 . آثار البشير الإبراهيمي، مج4، ص:343.

[10] . آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، مج5 ، ص: 149

[11] . المصدر نفسه : 156.

[12] . النهضة الوطنية الجزائرية ، محمد الطاهر فضلاء ، دار البعث ،ط1984 ص: 168.

[13] . انظر نص هذا البيان التاريخي في مذكرات الشيخ محمد خير الدين، ص: 384.

[14] . البشير الإبراهيمي أديبا ، محمد عباس ، دار الفجر ، وهران ، ص:124.

[15] . المصدر نفسه :127.

[16] . آثار محمد البشير الإبراهيمي، مج 4 ، ص :260.

[17] . آثار محمد البشير الإبراهيمي، مج 4، ص: 224.

[18] . آثار محمد البشير الإبراهيمي، مج 1 ص: 260.

[19] . آثار محمد البشير الإبراهيمي، مج4 ،ص: 243.

[20] . المصدر نفسه ص: 301.

[21] . آثار محمد البشير الإبراهيمي:مج5 ،ص:263.

[22] . المصدر نفسه ، ص:266.

[23] . المصدر نفسه، ص:266.

[24] . البشير الإبراهيمي أديبا،ص:130.

[25] . عبد الله عقيل سليمان بعقيل، من أعلام الدعوة والحركة الإسلامية المعاصرة،دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة ،ط2 ، 2005، ص: 77.

[26] . المصدر نفسه، ص: 78.

الفكر الإصلاحي

مكتبة

العلامة المصلح والداعية الأديب : الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

[1308-1384هـ 1889-1965م]

د. أحمد عيساوي

جامعة باتنة

× بيئته وظروف عصره :

كان الشعب الجزائري يعيش في ظل السياسة القمعية الاستعمارية في غليان دائم ومستمر ، وقد شهد في تاريخه الحديث العديد من الحركات التمردية والثورية على الاحتلال الفرنسي ، وبالإضافة إلى تحركاته السياسية تلك ، فقد شهد الكثير من النشاطات الثقافية والأدبية والدينية والإعلامية . (1)

وقد حاول الاحتلال الفرنسي قهر الروح الوطنية الجزائرية ، ولكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا، بفضل استمساك الشعب الجزائري بدينه الإسلامي ، وثقته المطلقة بخالقه ورازقه وناصره ، وبقوة إيمانه بعدالة قضيته العربية الإسلامية ، ومما بثه المولى تبارك وتعالى في قلبه من قوة العزيمة والإرادة . بل إن الاحتلال الفرنسي ساهم بممارساته القمعية تلك في إيقاظ الروح الوطنية والدينية وتقويتها ، وبروزها كموجه للحركة الوطنية الجزائرية الاستقلالية الحديثة .

والدارس المنصف للحقبة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر سنوات 1830-1962م يتبين بتلقائية ووضوح أن الاستعمار الفرنسي في الجزائر كان حكما زجريا قاهرا، وسلبيا أيضا ، يتحمل المعمرون والساسة الفرنسيون – على قدم المساواة – مسؤولية تردي أوضاع الجزائريين ، بدءا من قرار إلحاق الجزائر بفرنسا سنة 1834م ، وإصدار قانون مجلس الشيوخ الفرنسي (سانتوس كونسيلت) سنة 1865م و(قانون الأهالي كود دولانديجان) سنة 1881م ، وإنشاء (محاكم الاضطهاد الخاصة سنة

1902م) ، والتجنيد الإجباري سنة 1912م ، الذي كان خرقا صارخا ومشينا للاتفاق المبرم سنة 1830م بين الجزائر وفرنسا . كما كان خرقا لجميع المبادىء الديمقراطية والتحررية ، التي كانت تتشدق بها فرنسا صاحبة الثورة ومبادئها العادلة .

وعليه فقد قامت هذه الوطنية الدينية الإسلامية برد فعل عنيف ضد الاحتلال الأجنبي بالرغم من حجم الإجراءات المضادة التي اتخذها الاحتلال لإضعافها حقبة ، فإنها قد ظهرت مرة أخرى في آخر القرن الماضي مستعملة تكتيكا جديدا ، وضغطا قويا ضد الاحتلال .

ولم يكن وجود الثقافة الفرنسية في الجزائر عامل إنعاش وترقية للثقافة الجزائرية الوطنية – كما يدعي بعض الناعقين من سدنة مشاريعها الاستكبارية اليوم – بمقدار ما كانت عامل قمع وقهر وتسلط واستئصال ومطاردة وتغييب للقيم الثقافية والاجتماعية والتربوية والأخلاقية والحضارية العربية الإسلامية لهذا الشعب المقهور . الذي عانى ما لم يعانيه شعب في العالم ، إلاّ ما يعانيه اليوم الشعب العربي الفلسطيني الأعزل من غطرسة الآلة الحربية الصهيونية . (2)

× وضع الجزائر الثقافي غداة القرن العشرين :

أما وضع الجزائر والشعب الجزائري الثقافي واللغوي والديني والتعليمي والتربوي والفني فقد وصفه الباحث الدكتور عثمان سعدي بقوله : ((لقد كان مخطط الاستعمار طوال وجوده بالجزائر مبنيا على إفراغ الشخصية الجزائرية من مضمونها القومي والوطني لإحلال مضمون الشخصية الفرنسية محلها ، وكان يشرف على تطبيق هذا المخطط كبار أساتذة الاستعمار الفرنسي ، وهم متخصصون في كل العلوم الإنسانية وعارفون بالدقائق الخفية للتركيب النفسي والاجتماعي للفرد الجزائري ، وكان هذا المخطط ذا حدين متوازيين متكاملين : الأول مباشر ، وتمثل في غلق جميع الفرص أمام الجزائري ، التي تمكنه من تعلم لغته الوطنية ، وهذا يطبق في المدرسة على الخصوص .. والثاني غير مباشر تمثل في

إفساد الذوق الفني الجزائري في الأغنية ، والموسيقى ، والمسرح ، والأدب . وسهر على تطبيق هذه الخطة جهاز الإعلام الفرنسي المتطور ..)) . (3)

ويضيف الدكتور عثمان سعدي مبينا مخطط الاستعمار الفرنسي مسخ وتشويه معالم الشخصية الجزائرية بقوله : ((.. وكل المجهودات التي بذلتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر حيال الفرد والمجتمع الجزائري في النواحي التربوية والتعليمية والثقافية ، إنما هدفت بالأساس للقضاء على اللغة العربية أولا المقوم الرئيس للثقافة العربية والدين الإسلامي، وإلى تحويل الفرد الجزائري من لغته وثقافته ودينه إلى لغة المستعمر وثقافته ودينه ..)) . (4)

وقد مرت في عمليتها التدجينية تلك ، بواسطة مجموعة من الإجراءات والوسائل والأساليب . محولة الفرد الجزائري بالتدريج من فرد ناقم ومقاوم ومغالب للاستعمار ، إلى فرد راض بالتعايش مع الاستعمار ، ثم إلى فرد خاضع للاستعمار ، ثم إلى فرد متميز بخاصية القابلية للاستعمار والاستذلال ، ثم إلى درجة المسلم المطلق بحتمية الاستعمار الفرنسي عليه ، وقدره المحتوم عليه وذلك عبر جملة من الأساليب والوسائل والاجراءات القهرية ، كمحاربة اللغة العربية محاربة استئصالية شديدة وتقسيمها إلى ثلاث لغات : (عامية . قديمة . حديثة) ، وذلك بغية محوها من عالم الشهود الحضاري . واعتبارها لغة أجنبية في أهلها ودارها بموجب قانون الـ 08/مارس/1938م الجائر . ومحاربة الدين الإسلامي الحنيف ورجاله ، وتشويهه بشتى أساليب التشويه والمسخ . وفرنسة كل مراحل التعليم وطبعها بالطابع الأوربي المسيحي . وتشويه تاريخ الجزائر العربي والإسلامي ، وضرب قيم الانتماء ، ومقومات الهوية العربية الإسلامية للفرد وللمجتمع الجزائري . وعدم تدريس الجزائريين تاريخهم الوطني ، وجغرافية بلادهم والعالم العربي والإسلامي ، والاستعاضة عنهما بتدريس تاريخ وجغرافية فرنسا الأم وأوربا والصليبية والوثنية اليونانية والرومانية البائدتين . (5)

بالإضافة إلى تقديم الثقافة المسيحية القوية الناهضة بديلا عن الثقافة العربية الإسلامية الضعيفة المهزومة . مع ضرب ستار حديدي عازل للجزائر عن محضنها الطبيعي وامتدادها العربي الإسلامي، وذلك بهدف عزلها حضاريا . وتضييق الخناق بالنفي والتشريد والسجن والغرامات ، وقيود التراخيص وغيرها .. على رجال الفكر والعلم من أصحاب التوجه الثقافي العربي الإسلامي الأصيل . وفرنسة كل المؤسسات الإدارية ، ووسائل الإعلام ، وجميع مجالات الفكر والأدب والفن والثقافة ، ومطاردة الثقافة العربية الإسلامية في جميع المجالات، والقضاء على مراكزها الثقافية : (جوامع ، مساجد ، مدارس ، زوايا ، كتاتيب ، رباطات ، مكتبات ، أوقاف ..) . (6)

وتعطيل العمل بالشريعة الإسلامية بين المسلمين الجزائريين ، وقهرهم بالاحتكام إلى القوانين الوضعية الفرنسية ، أو إلى العرف والعادات بالنسبة لبلاد القبائل (البربر) ، وإخضاع جميع المؤسسات الدينية إلى السلطة الاستعمارية المباشرة ، ورفض العمل بقانون فصل الدين عن الدولة .

وفتح الجزائر أمام البعثات التبشيرية المسيحية على اختلاف مذاهبها ، وتمكين تلك البعثات من كل الأسباب المادية والمعنوية والبشرية والقانونية . بهدف تكوين جيل مشوه وممسوخ من الجزائريين لا صلة له بأمته وتاريخه ولغته ودينه ومجتمعه الجزائري ، وذلك بدمجهم ضمن إطار الثقافة والقوانين الفرنسية ليصبحوا مسلمين فرنسين منصهرين يشكلون جيوب تبعية للاستعمار الفرنسي في حالة وجوده ورحيله ، وهو ما تم بالفعل بعد استقلال الجزائر الشكلي سنة 1962م . وتعطيل النوادي العربية الحرة، التي كانت تقوم بنشر اللغة العربية ، وتربية النشء على القيم العربية الإسلامية الأصيلة .

وما كاد يمضي على الجزائر والجزائريين قرن وثلث القرن من الاستعمار حتى كانت نسبة الأمية تشكل في رجاله 95 % ، وفي نسائه 98 % ، ونقص عدد المساجد والجوامع فيه إلى خمس ما كان قبل تسلط الاحتلال الفرنسي عليه سنة 1830م . (7)

وفي ظل هذه الأوضاع الثقافية المتردية ولد وعاش وتربى وتعلم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وأمثاله ، ومارسوا نشاطهم الدعوي والإصلاحي الشاق ، الذي سنحاول الكشف عنه في هذه الدراسة المتواضعة .

× أصله ونسبه ومولده :

ولد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي يوم الخميس 13/شوال/1306هـ الموافق 14/جويلية/1889م في قبيلة أولاد إبراهيم الإدريسية العلوية - التي يعود نسبها الشريف إلى الشريف إدريس بن عبد الله الحسيني العلوي - في قرية أولاد رأس الوادي من أعمال مدينة سطيف الجزائرية.(8)

× نشأته وتعلمه :

بدأ طفولته المبكرة بحفظ القرآن الكريم في بيتهم على يد جماعة من ذويه ، ولما بلغ السابعة من عمره تعهده عمه عالم القطر الجزائري الشيخ محمد المكي الإبراهيمي تربية وتعليما وتأديبا وصحبة .. فكان لا يفارقه حتى ساعات النوم، إلا حين يأمره بالنوم وفق نظام تربوي إسلامي أصيل ، إلى أن حفظ القرآن الكريم في سن تسع سنين ، بالإضافة إلى حفظ ، وفهم مفرداته وألفاظه وغريبه ، وكان يتخير له تارات الإقبال النفسي للاستيعاب وشدو ملكة الحفظ لاسيما حين يصطحبه للفسحة معه ، فحفظ على يديه متون اللغة والأدب والبلاغة والمنطق والفلسفة والفقه والأصول والعقائد والفرائض ، وهو في رأس العقد الأول من العمر . (9)

يروي الشيخ البشير الإبراهيمي عن رحلته مع عمه في طلب العلم فيقول : ((.. ولم يزل عمي رحمه الله يتدرج بي من كتاب إلى كتاب تلقينا وحفظا ومدارسة للمتون والكتب التي حفظتها حتى بلغت الحادية عشرة ، فبدأ لي في درس ألفية ابن مالك دراسة بحث وتدقيق ، وكان قبلها أقرأني كتب ابن هشام الصغيرة قراءة تفهّم وبحث ، وكان

يقرئني مع جماعة من الطلاب المنقطعين عنده لطلب العلم على العادة الجارية في وطننا إذ ذاك ، ويقرئني وحدي ، ويقرئني وأنا أماشيه في المزارع ، ويقرئني على ضوء الشمع ، وعلى قنديل الزيت ، وفي الظلمة ، حتى يغلبني النوم ، ولم يكن شيء من ذلك يرهقني ، لأن الله تعالى وهبني حافظة خارقة للعادة ، وقريحة نيرة ، وذهنا صبورا للمعاني ولو كانت بعيدة المنال ، ولما بلغت أربع عشرة سنة مرض عمي مرض الموت ، فكان لا يخليني من تلقين وإفادة وهو على فراش الموت ، بحيث ختمت الفصول الأخيرة من ألفية ابن مالك عليه ، وهو على تلك الحالة ..)) (10) .

ولما مات عمه شرع في تدريس العلوم التي درسها عليه بعد أن أجازه بتدريسها لطلبته الذين كانوا زملاء له في الحلقة وهو في منتصف العقد الثاني من عمره ، وأقبل عليه جمع غفير من الطلاب من القرى المجاورة ، حيث تكفل والده بإيوائهم وإطعامهم والاهتمام بشؤونهم كعادة عمه ، ثم انتقل - بعدها - للتدريس في القرى المجاورة لقريتهم بالقرب من مدينة سطيف في السنين الموالية ، حتى أتم العقد الثاني من عمره ، إلى أن بدأت طبول الحرب العالمية الأولى تدق ، وبدأت الإدارة الفرنسية تستعد لها باستصدار المراسيم والقوانين الاستعمارية لتجنيد الجزائريين في جيشها الاستعماري ، فهاجر البشير الإبراهيمي كغيره من الجزائريين فرارا من قانون التجنيد الإجباري الصادر في شهر فبراير 1912م ، عاملا بفتوى الشيخ العلامة (عبد الحليم بن سماية 1864-1933م) ، التي تحرم على الجزائريين التجنيد في جيش الاحتلال الفرنسي الكافر ، وفي طريق هجرته إلى المدينة المنورة أقام البشير الإبراهيمي بالقاهرة ثلاثة شهور حضر فيها دروس شيوخ الأزهر، كما حضر لدروس الدعوة والإرشاد التي كان يلقيها (الشيخ رشيد رضا ت 1936م) في دار الدعوة والإرشاد ، والتقى بأمير الشعراء (أحمد شوقي ت 1932م)، وأسمعه شيئا مما يحفظه من درر قصائده فسرّ به أيّما سرور، كما التقى بشاعر النيل (حافظ إبراهيم ت 1932م) فسرّ به أيضا . (11)

× هجرته لطلب العلم :

ومن بورسعيد بمصر ركب البحر إلى حيفا بفلسطين ليستقل القطار متجها إلى المدينة المنورة التي وصلها أواخر سنة 1911م ، وبالمدينة المنورة اجتمع بوالده الذي هاجر متعللا بأداء فريضة الحج خشية الرقابة الاستعمارية . (12)

وطفق يطوف بحلق العلم في الحرم النبوي الشريف إلى أن استقر أمره للملازمة الشيخ (العزيز الوزير التونسي ت 1920م) ، الذي أخذ عنه الموطأ دراية ، وفقه على يديه مذهب الإمام مالك رضي الله عنه ، وأعجب بعمق تحقيقه لسائر العلوم الإسلامية ، كما لازم الشيخ (حسين أحمد الفيض آبادي الهندي ت 1953م) ، الذي أخذ عنه صحيح الإمام مسلم في الحديث ، والشيخ إبراهيم الأسكوبي الذي أخذ عنه علم التفسير ، والشيخ أحمد البرزنجي ، الذي أخذ عنه علم الجرح والتعديل ، والشيخ محمد عبد الله زيدان الشنقيطي ، الذي أخذ عنه أنساب العرب وأدبهم الجاهلي والسيرة النبوية ، والشيخ عبد الباقي الأفغاني الذي أخذ على يديه علم المنطق ، كما أخذ على يد غيرهم ، وكان لا يُرى إلاّ في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت ، وفي مكتبة السلطان محمود دارسا أو مطالعا ، وفي غيرهما من مكتبات العامة والخاصة من أكابر المدينة . (13)

وبعيد وصوله إلى المدينة المنورة وفي سنة 1913م حل الشيخ عبد الحميد بن باديس القسنطيني البيت الحرام حاجا بعد تخرجه من جامع الزيتونة وتدريسه فيه سنة 1912م على عادة خريجي الزيتونة ، وأقام رفقة الشيخ البشر الإبراهيمي ثلاثة أشهر كاملة ، يتدارسون فيه وضع الجزائر العربية الإسلامية الآيلة للضياع بعد قرن من الاستعمار الفرنسي الصليبي ، الذي محا فيها كل مظاهر العروبة والإسلام .

وقد وصف الشيخ البشير لقاءاته الإصلاحية المثمرة تلك بالشيخ عبد الحميد بن باديس بقوله: ((.. كنا نؤدي فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي ، ونخرج إلى منزلي فنسمر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل حين يفتح المسجد

فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح ، ثم نفترق إلى الليلة الثانية ، إلى نهاية ثلاثة الأشهر التي أقامها الشيخ بالمدينة المنورة . كانت هذه الأسمار كلها تدبيرا للوسائل التي تنهض بها الجزائر ، ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة التي كلها صورا ذهنية تترى في مخيلتنا ، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حققها في الخارج بعد بضع عشرة سنة ، وشهد الله على أن تلك الليالي من سنة 1913م هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، التي لم تبرز للوجود إلاّ في سنة 1931م ..) (14)

وظل الشيخ البشير يسير على هذا المنوال في طلب العلم والاستزادة منه من سنة 1912م إلى سنة 1917م ، عندما قررت السلطات التركية ترحيل سكان المدينة المنورة نحو دمشق ، لما استفحل أمر ثورة الشريف حسين بالحجاز ، وعجزت الدولة العلية عن تزويد الجيش التركي وقيادته وسكان المدينة المنورة بالمؤونة ، فلبى الشيخ البشير النداء مع والده، وكان فيمن رحل من سكان المدينة المنورة باتجاه دمشق ، التي أول ما عرفها ، ولاقى فيها الشيخ هجمت البيطار . (15)

وفي دمشق اهالت عليه الرغبات لإلقاء الدروس بالجامع الأموي بمناسبة حلول شهر رمضان فألقى دروسه تحت قبة النصر الشهيرة على منهج الأقدمين بالأمالي (16) ، ولما خرج الأتراك من دمشق وقامت حكومة الاستقلال العربي دعته الحكومة الجديدة لتدريس مادة الآداب العربية ولغاتها بالمدرسة السلطانية الوحيدة في سوريا ، مشاركا للأستاذ اللغوي (عبد القادر المبارك) ، وفي السنوات الثلاث تلك تخرج على يديه العديد من أدباء وعلماء سوريا . (17)

ولما دخل الأمير فيصل بن الشريف الحسين دمشق ألح عليه للرجوع إلى المدينة المنورة ليتولى فيها إدارة المعارف ، ولكنه أبى مرارا إلى أن تسنى له طريق العودة إلى الجزائر في بداية العشرينات .

× عودته إلى الجزائر:

عاد الشيخ البشير الإبراهيمي إلى الجزائر في بداية العشرينيات من القرن الماضي ، وواصل العمل الدعوي والإرشادي والتربوي والمسجدي الذي بدأه الشيخ عبد الحميد بن باديس منذ سنة 1913م ، ومن حلقة إلى أخرى ومن درس إلى آخر ، ومن لقاء لغيره ، طيلة عشر سنوات كاملة 1920-1930م كاملة تهيأت الأرضية لتكوين نخب دعوية مؤمنة ، وبؤر قيادة وروحية فاعلة ، وقاعدة طليعية قوية وواعية .. حتى تكوّن لهم جيش من التلاميذ والدعاة ممن يحملون العقيدة الصافية ، ويؤمنون بالفكرة الإسلامية النبيلة الصادقة ، ممن لهم الاستعداد الكافي للتضحية بالنفس والنفيس لإنقاذ الوجود العربي والإسلامي الآيل للزوال في الجزائر ، وقد وصف الشيخ البشير الإبراهيمي ذاك العمل الدعوي بقوله : ((.. وفي هذه الفترة 1920-1930م كانت الصلة بيني وبين ابن باديس قوية، وكنا نتلاقى في كل أسبوعين أو كل شهر على الأكثر ، يزورني أو أزوره ، فنزن أعمالنا بالقسط ، ونزن آثارها في الشعب بالعدل ، ونبني على ذلك أمرنا ، ونضع على الورق برامجنا للمستقبل بميزان لا يختل أبدا ، وكنا نقسرأ للحوادث والمفاجآت حسابها فكانت هذه السنوات العشر كلها إرهاصات لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .. كملت لنا على هذه الحالة عشر سنوات كانت كلها إعدادا وتهيئة للحدث الأعظم ، وهو إخراج جمعية العلماء من حيز القول إلى حيز الفعل ، وأصبح لنا جيش من التلامذة يحمل فكرتنا وعقيدتنا مسلح بالخطباء والكتاب والشعراء، يلتف به مئات الآلاف من أنصار الفكرة ، وحملة العقيدة ، يجمعهم كلهم إيمان واحد ، وفكرة واحدة، وحماس متأجج ، وغضب حاد على الاستعمار .

كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعاتنا بالمدينة في تربية النشء، هي ألاّ نتوسع له في العلم، وإنما نربيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل ، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا ..)) . (18)

نشاطه الدعوي والإصلاحي:

لا يمكن الفصل واقعيا بين جوانب شخصية الشيخ البشير الإبراهيمي نظرا لاعتبارات كثيرة . ذلك أن شخصية الشيخ – رحمه الله – كانت تتحرك ضمن دوائر متداخلة ومتشابكة ومتنوعة من جهة ، وتترك في تلك الدوائر – على اختلافها – تأثيراتها المتنوعة من جهة ثانية ، ثم تتداخل جوانب شخصيته المختلفة في الدائرة الواحدة بين المربي، والمعلم، والداعية المصلح من جهة ثالثة . وبالتالي لا تنفصل شخصيته الدعوية الإصلاحية ، عن التربوية التعليمية ، عن السياسية .. عن بعضها . وعليه أمكننا تقسيم نشاط الشيخ الإبراهيمي الدعوي والإصلاحي إلى القسمين الرئيسين الآتيين :

أولا/ محور وظائفه المهنية :

والذي يتدرج وفق الإطار الزمني التالي :

1 – مرحلة ما قبل هجرته إلى المشرق العربي 1889– 1912م .

2 – مرحلة هجرته إلى المشرق العربي 1912– 1920م .

3 – مرحلة ما بعد عودته من المشرق العربي إلى الجزائر 1920–1952م .

4 – مرحلة إدارة مدرسة دار الحديث بتلمسان 1936– 1940م .

5 – مرحلة إدارته لصحيفة البصائر 1947– 1952م .

ثانيا / محور مهامه الدعوية والإصلاحية

والذي يتدرج وفق الإطار الزمني التالي :

1 – مرحلة العضوية في جماعة الرواد 1928م .

2 – مرحلة العضوية في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومجلسها الإداري 1931م.

3 – مرحلة نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931– 1940م .

4 – مرحلة رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الفعلية 1940–1952م .

5 – مرحلة الرئيس– المهاجر – لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1952–1956م.

× النشاط المهني :

كان الشيخ البشير الإبراهيمي يبيع الشحم في سوق مدينة سطيف سنوات 1920-1933م ، ليكفي نفسه وأهله مؤونة الكسب الحلال ، على عادة السلف من العلماء أصحاب المهن كالزجاج والصواف والقرافي والحصاص ، ثم انتقل للتدريس بوهران عاصمة الغرب الجزائري سنوات 1933-1936م ، فقد كلف من قبل الشيخ ابن باديس ، وبرغبة من سكان الغرب الجزائري وخاصة من سكان تلمسان لإدارة مدرسة دار الحديث والتدريس فيها ، وعن هذه الرحلة الدعوية الإصلاحية والتربوية يروي الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وقائع العمل فيها قائلا : ((.. وتوليت بنفسي تعليم الطلبة الكبار من الوافدين وأهل البلد ، فكنت ألقي عشرة دروس في اليوم ، أبدؤها بدرس في الحديث بعد صلاة الصبح ، وأختمها بدرس في التفسير بين المغرب والعشاء ، وبعد العتمة أنصرف إلى أحد النوادي فألقي محاضرة في التاريخ الإسلامي ، فألقيت في الحقبة الموالية لظهور الإسلام من العصر الجاهلي إلى مبدأ الخلافة العباسية بضع مئات من المحاضرات ، وفي فترة العطلة الصيفية أختم الدروس كلها وأخرج من يومي للجولان في الإقليم الوهراني مدينة مدينة وقرية قرية ، فألقي في كل مدينة درسا أو درسين في الوعظ والإرشاد ، وأتفقد شعبها ومدارسها ..)) . (19)

× المعلم المربي :

علّم الشيخ البشير طيلة حياته ، وعاش معلما إلى توفي - رحمه الله - ، حيث علّم في قريته ثم في القرى المجاورة ، ثم في قسنطينة قبيل تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وحتى بعد تأسيسها وإقامة معهد عبد الحميد بن باديس فيها سنة 1947م ، ثم علم في وهران بالغرب الجزائري ، ثم علّم في تلمسان حيث أدار مدرسة دار الحديث ، وقد شهد له تلامذته الذين درسوا على يديه في مدرسة الحديث بتلمسان ومنهم هذا التلميذ الوفي الذي كتب : ((.. عرفنا هذا الرجل العظيم في العقد الثالث من

حياته ، فعرفنا فيه العالم الجليل ، والمفكر العظيم ، والفيلسوف الحكيم ، والأديب المطبوع، والمحدث الفذ ، والمفسر الذي لا يجارى ، والنسابة الذي أوتي ملكة في هذا الفن لا يماثله فيه أحد ، والعروضي الذي بزّ كثيرا من أهل زمانه ، والمؤرخ الفذ والاجتماعي المطلع الخبير الذي يدرك كنه الأشياء ، ويصرفها التصريف الحسن ، والأب الرحيم ، والأخ الحليم ، والصديق الوفي ، والتقي النقي، والرجل الذي يعرف كيف يحل المشكلات العويصة ، والمحاضر الفذ ، الذي يؤثر في سامعه بفصاحته وبلاغته وقدرته على التصرف في الكلام ، والمدرس الماهر المقتدر ، الذي يعرف كيف يجعل تلاميذه يفهمون من غير عناء ولا مشقة ، والرجل الذي عرف كيف يكون خصلة البذل في سبيل الله، والصحافي الخبير الذي يعرف كيف يؤثر على قارئي مقالته)) . (20)

× محور نشاطاته الإصلاحية في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين :

كان الشيخ البشير الإبراهيمي أحد الأركان الرئيسة لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فقد سبق له مع ابن باديس التحضير لملتقى جماعة الرواد أوائل سنة 1928م ، هذا الاجتماع التمهيدي العالي المستوى ، الذي حضره الكثير من علماء القطر الجزائري ، وخططوا فيه لقيام النهضة العربية الإسلامية في الجزائر . وفي ليلة واحدة سهر الشيخ الإبراهيمي على إعداد القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي ضم مائة واثنين وأربعين مادة ، وعمل مع إخوانه العلماء على تأسيس الجمعية برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس يوم الثلاثاء 17/ذو الحجة/1349هـ الموافق لـ 05ماي/1931م ، بعد ثلاثة أيام من الاجتماعات المتواصلة والمضنية بنادي الترقي بالجزائر العاصمة ، عشية احتفال فرنسا بقرنية احتلال الجزائر ، ويومها أطلق الشيخ عبد الحميد بن باديس نداءه الشهير ، ورددد علماء الجزائر معه ، ثم الشعب الجزائري:

شعب الجزائر مسلم *** وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله *** أو قال مات فقد كذب

وفي هذه المرحلة 1931-1946م الحرجة تعمق نشاط الشيخ في مجالات العمل السياسي بالإضافة إلى اضطلاعه أيضا بالعمل الدعوي والإصلاحي والتعليمي .. ومن نشاطاته التي غطتها تقارير الإدارة الاستعمارية (S.L.N.A) نشاطاته الإصلاحية المختلفة .

وقد بدا حضوره قويا في كراسة المطالب الوطنية ، التي تقدمت بها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للحلفاء ، حيث يورد تقرير مصلحة الاتصال لشمال أفريقيا قسم الأهالي ما ملخصه : ((اجتمع العلماء بقسنطينة يوم 1944/07/07م برئاسة الشيخ العربي التبسي في غياب الإبراهيمي، الذي كان معتقلا في آفلو . رغم قرار الحظر الصادر عن الحاكم العام بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية الاستثنائية . وكان موضوع الاجتماع منصبا حول العراقيل الإدارية التي تعترض رجال الجمعية ومؤسساتها . واقترح تقديم كراسة المطالب إلى الحكومة الفرنسية حول القضايا الرئيسية التالية :

1 – المساجد وموظفوها وأوقافها .

2 – التعليم العربي ومدارسه ومعلموه .

3 – القضاء الإسلامي وتعليمه ورجاله ..)) . (21)

× جمعية العلماء المسلمين الجزائريين :

يمكن تلخيص أهم إنجازات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الواقع الجزائري بما يلي:

1 – مقاومة البدع والخرافات والأباطيل الطرقية البدعية التي كان يروج لها رجال الطرق الصوفية في الجزائر بمعونة الإدارة الاستعمارية الفرنسية .

2 – الاضطلاع بالعمل الدعوي والإرشادي في المساجد والنوادي والقاعات والأماكن العامة والخاصة .

3 – إلقاء الخطب والدروس والمحاضرات والمواعظ على الكبار والصغار .

4 – كتابة المقالات والأبحاث والدراسات والبيانات في الصحف وخاصة صحف جمعية العلماء .

5 – بناء المدارس الابتدائية وتعليم الناشئة من أبناء المسلمين الجزائريين .

6 – إرسال البعثات العلمية إلى المغرب العربي : الزيتونة والقرويين ، وإلى المشرق العربي : الأزهر وسائر الجامعات العربية الأخرى .

7 – بناء النوادي وتعميرها بسائر النشاطات الأدبية والفكرية والرياضية والموسيقية والكشفية .. بهدف النهوض بالناشئة الجزائرية .

8 – مطالبة الحكومة الفرنسية في قضايا إسلامية مهمة تمثلت في: (القضاء الإسلامي ، الدين الإسلامي وسائر مؤسساته وموظفيه ، وفصله عن الدولة الاستعمارية ، اللغة العربية وضرورة إعادة الاعتبار لها كلغة قومية ، وحرية التعليم لأبناء الجزائريين). (22)

× اعتقاله ونفيه :

ولما تكثفت وتوسعت نشاطات الشيخ الدعوية والإصلاحية أصدر رئيس وزراء فرنسا (مسيو دالادي) قرارا رئاسيا بإبعاده إلى الصحراء ليقيم في قرية آفلو القاسية ابتداءا من يوم 10/مارس/1940م لأنه خطر على الوجود الفرنسي في الجزائر ، وظل كذلك إلى شهر مارس 1943م ، وبعد سجنه بثلاثة أسابيع توفي رائد النهضة الإسلامية الجزائرية الحديثة الشيخ (عبد الحميد بن باديس 1889-1940م) يوم 14/أفريل/1940م ، وُحرم من تأبينه . (23)

ولما احتفل الجزائريون بانتصار الحلفاء يوم الثامن ماي من سنة 1945م قتلت منهم فرنسا بوحشية خمسة وأربعين ألف شهيد (24) وسجنت الشيخ البشير الإبراهيمي رفقة شيوخ الجمعية : (الشيخ العربي التبسي ت 1957) والشيخ (محمد خير الدين ت 1988) ، والشيخ (محمد الأمين العمودي ت 1957م) ، والكثير من زعماء الحركة الوطنية ، على رأسهم زعيم الحزب البيان الديمقراطي الجزائري السيد (فرحات عباس 1889-1984م) ، ولم يخرجوا من السجن إلاّ في شهر أفريل سنة 1946م (25)

× الشيخ الإبراهيمي وحوادث 08ماي1945م :

حضر الشيخ محمد خير الدين وقائع اعتقال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي والعربي التبسي وسائر القوى الوطنية الجزائرية في حوادث 08ماي1945م ورواها في مذكراته (26) بالتفصيل ، حيث قال : ((.. إنه في عصر يوم 07ماي 1945م اجتمع على الساعة الرابعة بمركز حزب البيان بالعاصمة السادة : (الإبراهيمي ، التبسي ، خير الدين عن العلماء . عباس فرحات ، أحمد بومنجل من حزب البيان . أحمد مزغنة ، حسين مقري ، حسين عسلة من حزب الشعب) ، وبعد دراسة الوضع المتدهور أصدروا بيانا شديد اللهجة ، وكلفوا عباس فرحات والحكيم سعدان بمقابلة الوالي العام في الجزائر ، وتبليغه نتائج اجتماع الجبهة ، واحتجاجها على حوادث 07ماي1945م الحاصلة في العاصمة (27) ، واستنكارهم مواقف الشرطة من المتظاهرين . وعلى الساعة الثامنة من صباح يوم 08ماي1945م ذهبا إلى الولاية العامة وطلبا الإذن لمقابلة الوالي العام وجلسا في قاعة الانتظار ليقابلا الوالي العام ، وبينما هما ينتظرانه استدعى لهما الشرطة التي ألقت عليهما القبض ، وساقتهما فورا إلى قسنطينة بطائرة عسكرية .

وكان من المقرر يوم 08ماي 1945على الساعة التاسعة صباحا أن يجتمع أعضاء الجبهة الوطنية في مقر حزب البيان الديمقراطي الجزائري بالعاصمة فحضرت وحضر الشيخ العربي التبسي في الوقت المحدد ، وتأخر الإبراهيمي لبعد مسكنه ، وفي تلك الأثناء حوصر مقر حزب البيان ، فلما وصل الشيخ الإبراهيمي عاد من حيث أتى ، ودخلت علينا قوات الشرطة العسكرية واعتقلتنا ، وفتشت المقر وأطلقت سراحنا في منتصف نهار 08ماي فذهبت أنا والشيخ العربي في الحال إلى منزل الشيخ البشير الإبراهيمي فوجدنا عنده (الأمين العمودي) (28) الكاتب العام للجمعية ، ومنهما علمنا بالحوادث الدامية التي عمت القطر الجزائري ، وبدأنا نستعرض الأحداث .

وفي فجر 09ماي1945م اعتقل الإبراهيمي وسيق إلى السجن العسكري بقسنطينة حيث يقيم كل من فرحات عباس والحكيم سعدان . وفي صباح 09ماي 1945م داهمت الشرطة المدنية المنزل الذي أقيم فيه أنا ومعي الشيخ العربي التبسي وحملونا إلى سجن الحراش بالجزائر العاصمة، وبعد قضاء شهرين بين جدرانه الرهيبة نقلنا إلى سجن وهران ، وبعد انقضاء عدة شهور نقلونا إلى معتقل(بوسوي) جنوب مدينة وهران ، ولم نخرج منه إلا في بداية أفريل 1946م .)) . (29)

* **مؤلفاته :**

ترك الشيخ البشير الإبراهيمي مجموعة من المؤلفات اللغوية والأدبية ، كما ترك لنا عددا كبيرا من المقالات المكتوبة في جريدة مجلة الشهاب 1925-1939م ، وجريدة البصائر في سلسلته الأولى 1935 -1939م ، ثم في سلسلتها الثانية التي رئس تحريرها منذ إنشائها يوم 25/ جويلية / 1947م إلى حين توقفها 16/أفريل/1956م ، وكان من الكتاب المكثرين فيها .

أما كتبه فهي :

1 - مقالات عيون البصائر .

2 - بقايا فصيح العربية في اللهجة العامية بالجزائر .

3 - النقايات والنفايات في لغة العرب .

4 - أسرار الضمائر في العربية .

5 - التسمية بالمصدر .

6 - الصفات التي جاءت على وزن فعل بفتح العين .

7 - نظام العربية في موازين كلماتها .

8 - الاطراد والشذوذ في العربية .

9 - ما أخلت به كتب الأمثال من الأمثال السائرة .

10- رسالة في ترجيح أن الأصل في بناء الكلمات العربية ثلاثة أحرف لإثنان .

11- رسالة في مخارج الحروف وصفاتها بين العربية الفصيحة والعامية .

12- رواية كاهنة أوراس .

13- حكمة مشروعية الزكاة في الإسلام .

14- شعب الإيمان .

15 - أرجوزة ملحمية .

16- سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1935م .

× في المشرق العربي:

غادر الشيخ البشير الجزائر إلى مصر يوم 07/مارس/1952م ووصلها يوم 22/مارس/1952م لربط الجزائر بالمشرق العربي ، ولغرض لفت انتباه إخوانه المشارقة إلى مصير الجزائر العربية المسلمة ، التي بدأت تعرف تخرّج جيل جديد يحمل معالم الهوية العربية والإسلامية ، ولإتاحة الفرصة لاستقبال الطلبة الجزائريين المتخرجين من معهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة والزيتونة والقرويين ، لإتمام دراستهم في المشرق ، ولجمع التبرعات لمدارس ومساجد الجمعية ، ولمحاولة إنشاء مشروع جامعة عربية إسلامية في الجزائر. (30)

وقد لخص الشيخ البشير دواعي انتقاله إلى المشرق العربي بقوله : ((.. بلغ عدد المدارس الابتدائية العربية أربعمائة وزيادة ، وبلغ عدد تلامذتها إلى اليوم الذي سافرت فيه إلى الشرق مئات الآلاف بين بنين وبنات ، وبلغ عدد معلميها ألفا وبضع مئات ، وبلغت ميزانيتها الخاصة ، وهي فرع من الميزانية العامة لجمعية العلماء مائة مليون فرنك وزيادة إلى نهاية خروجي من الجزائر سنة 1952م ، ولما بلغ عدد المتخرجين من مدارسنا بالشهادة الابتدائية عشرات الآلاف ، وجدت نفسي أمام معضلة يتعسر حلها ، وألحو

علي أن أتقدم خطوة إلى الأمام فأنشأنا معهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة 1947م لمتابعة الدراسة الإعدادية والثانوية، وكان لا بد للمتخرجين من متابعة دراستهم الجامعية ..)) (31)

× عضويته في المجمع اللغوي العربي:

عرضت على الشيخ البشير الإبراهيمي مشيخة الأزهر من قبل الرئيسين محمد نجيب وجمال عبد الناصر، ولكنه رفضها مرارا بسبب تعارضها مع أسباب وأهداف هجرته للمشرق العربي ، وبسبب تعارضها مع خدمة قضية الجزائر وتوجهها العربي الإسلامي ، ولكنه لما عرض عليه منصب العضوية في المجمع العلمي اللغوي بالقاهرة قبلها لتناسبها مع مكانته اللغوية والأدبية والعلمية .

وقد انتخبه أعضاء المجمع بالإجماع كعضو مراسل للمجمع في عام 1954م ، وقد قام بتقديم مذكرة ترشيحه عضوا مراسلا للمجمع السادة : [دكتور منصور فهمي ، ودكتور عبد الوهاب عزام ، ودكتور أحمد أمين ، والأستاذ أحمد حسن الزيات] ، وذلك اعترافا بغزارة علمه ، وسعة حفظه ، ودقة فهمه لآداب العرب ، بجميع فنونها من شعر ونثر وأمثال وأيام وأنساب وخطب وتاريخ .. (32)

وقد استمر عضوا مراسلا حتى عام 1961م ، حيث تم تعيينه عضوا كامل العضوية في مجمع اللغة العربية ممثلا للجزائر بالمجمع المذكور ضمن أحد عشر عضوا عينوا من مختلف الأقطار العربية في مجمع اللغة العربية في ذلك العام -1961م - ، وقد ناب عن الأعضاء الجدد في الكلمة التي ألقاها في جلسة افتتاح الدورة الثامنة والعشرين من نفس العام للمجمع، وقد قابله أعضاء المجمع بالترحيب الكبير، وصفقوا له طويلا عندما قام يلقي كلمة باسم هؤلاء الأعضاء . (33)

× صداقته الحميمة بالشيخ العربي التبسي:

كان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي على علاقة قوية وصادقة بسائر رجال الجمعية عموما وبصديق عمره وأخيه في العمل الإسلامي الشيخ العربي التبسي بشكل

خاص ، جعلت منهما روحا واحدة ، فلا يترك فرصة تمر إلاّ وكتب مطريا ومادحا مواقفه الرائدة في خدمة الجزائر ، ومما كتب في عبقريته وتفانيه قوله : ((.. والأستاذ التبسي كما شهد الاختبار وصدقت التجربة مدير بارع ، ومرب كامل خرّجته الكليتان الزيتونية ، والأزهر في العلم . وخرّجه القرآن والسيرة النبوية في التدين الصحيح ، والأخلاق المتينة . وأعانه ذكاؤه وألمعيته على فهم النفوس ، وأعانته عفته على التزام الصدق والتصلب في الحق ، وإن أغضب جميع الناس ، وألزمته وطنيته الصادقة بالذوبان في الأمة ، والانقطاع لخدمتها بأنفع الأعمال ، وأعانه بيانه ويقينه على نصر الحق بالحجة الناهضة ، ومقارعة الاستعمار في جميع مظاهره. فجاءتنا هذه العوامل مجتمعة منه برجل يملأ جوامع الدين ، ومجامع العلم، ومحافل الأدب ، ومجالس الجمعيات ، ونوادي السياسة ، ومكاتب الإدارات، ومعاهد التربية..))(34).

ولما أصيب الشيخ البشير الإبراهيمي بمرضه سنة 1949م وأقعده مرضه أياما ، استغل فرصة قعوده وكتب سلسلة مقالاته الشهيرة فصل الدين عن الدولة (35) ، ولما قرأها الشيخ العربي التبسي قال : ((وددت والله ما أصابته شوكة ، وعندي لو طال عليه المرض لأنتج لنا مثل هذه الدرر..))(36)

1 – محبة وأخوة إسلامية خالدة :

أحب الشيخ البشير الإبراهيمي أخاه الشيخ العربي حبا عظيما ، وكان يحترمه احتراما كبيرا ، ويهابه هو وسائر علماء الجمعية وغيرها ، وكذلك مدرسي وإداريي المعهد الباديسي (37) ، وقد كتب فيه هذه الشهادة الصادقة التي تشيد بكفاءة الإدارية فقال : ((.. وكأن الأخ العربي التبسي عاهد الله أن يلقاه مقبلا غير مدبر في ميدان الجهاد العلمي ، فهو مع اضطراب صحته ، ومع اضطلاع الأخ خير الدين بما حمل من شؤون المعهد يتعهد المعهد بنفسه ، ويشارك برأيه في كل شأن نجد ، وفي كل حادث يلم .

ومازالت تومض على المعهد طوال السنة إشراقات من آرائه الصائبة ، وتتوالى عليه إمدادات من توجيهاته السديدة ، عجل الله له الشفاء ، وأسبغ عليه أردية الصحة والعافية، وأقر به عين القلم، والإصلاح، وشد به أزر إخوانه الذين لا يستغنون عن رأيه وعلمه..)) (38)

2 – لحترام والعتراف بالفضل :

يروي الشيخ البشير الإبراهيمي قصة رحلته إلى المشرق العربي والإسلامي ، وما آل إليه أمره وفكره وانشغاله بمستقبل مسيرة الحركة الإصلاحية بالجزائر بعد رحيله مبديا اطمئنانه على حسن سيرها وانتظام أمرها ، بفضل تولي الشيخ العربي لأمرها ، ويعتذر له ويدعو له الله تصديه وتضحيته لتحمل عبء الجمعية ، والعمل الإصلاحي في الجزائر ، حيث كتب : ((.. كنت أجلس مع أولادي – في مصر من طلاب وبعثات الجمعية – الساعات الطوال وكأنني لست منهم ، وليسوا مني ، وكأنني بينهم أصم لا يسمع ولا يعي ، لأنني إذ ذاك أفكر في مقالة للبصائر أنفض عليها سواد ليلي لتكون مع الصباح في المطبعة ، أو في سفرة تثبت جواز الطفرة ، أو في حفلات حفلات تزاحمت أوقاتها وما من حضوري في جميعهن بد ، أو في مشاكل المعلمين والجمعيات ، وهي صرف السوق ، وملء الوسوق ، و...

فالآن أسرح وأمرح ، وأتقي الهموم عن كاهلي وأطرح ، فقد ألقيت تلك الأثقال على من لا يؤوده حملها ، لفضل علمه ووفور عقله ، وحدة ذكائه ، وشدة حزمه ، وهو الأخ الأستاذ التبسي. وإن جزاءه علي أن أمده بعدد من الأدعية الصالحة في مجالي الإجابة من صلواتي وخلواتي أن يعينه الله على تلك الأعمال ، التي بلوتها مختبرا ، واضطلعت بها مصطبرا فوجدتها لا تقوم إلا على اثنين : زكانة الرجال في ركانة الجبال ؛ وكلتا الخلتين لجمعهما أخونا الأستاذ التبسي .

وهذا تصوير غريب لحالتي في المشهد والمغيب ، أرجو أن يقع – على بعد الدار – لإخواني هناك وفي مقدمتهم أخي الأستاذ التبسي فيعينهم جده على الجد ، وتدفع عنهم

دعابته سأم العمل المتشابه ، وضجر النفوس المرهقة ، ومن دعابته أنني تخففت من الأعمال ولا والله ما تخففت ، وإنما انتقلت من تعب مملوء لاتحاد لونه إلى تعب متجدد الألـــوان ، وفي تجدد الألوان مجال لتجدد النشاط، وباعث على إقبال النفس، وتفتحها للاستئناف..))(39)

× في إدارة المعهد الباديسي:

تجيء فكرة تأسيس معهد تعليمي متوسط يضمن للطلاب المسلمين الجزائـــريين الفقراء من خريجي مدارس جمعية العلماء الإبتدائية الحرة المنتشرة عبر القطر كضرورة ملحة على رجال الجمعية ، لاسيما بعد أن كثر أعداد الخريجين ممن يحملون الشهادة الابتدائيـــة من مدارس الجمعية وقلة القادرين منهم على الالتحـــاق بالدراسة بالخـــارج في جـــامع الزيتونة أو القرويين أو الأزهر . وقد ذكر ذلك الشيخ البشير الإبراهيمي ذلك في معرض استرجاع فكرة تأسيس المعهد الباديسي في ذكراه الثانية ، حيث كان أمر تأسيسه محصورا بينه وبين الشيخ العربي ، وقد كتب فقال : ((.. إذ كان تكوين المعهـــد مـــن أساســـه أعجوبة من أعاجيب الفجاءة، وكان أمره دائرا بين اثنين : كاتب هذه الـــسطور بحكـــم منصبه في جمعية العلماء ومنزلته في الأمة والأستاذ التبسي بحكم مقامه العلمي ومكانتـــه في الشعب ، وقيمته العلمية عند إخوانه العلماء .. ومازلنا نعد من توفيق الله للمعهد ومـــن آيات عنايته به إسناد إدارته إلى الأستاذ التبسي ، فليطمئن المتسائلون والمـــشفقون علـــى المعهد ، فإن المشرفين عليه غير غافلين عن هذه النقطة ، وإن الإدارة ساعية في وضع كـــل شيء على الأساس الصحيح حتى يعمر المعهد بالكفاءات ، ولا يضيع حق ذي حق فيه ، والعاملون فيه من خيرة رجالات العلم والدعوة والإصلاح في الجزائر ..)) . (40)

وقد أشار الشيخ الإبراهيمي إلى مكانة المعهـــد العلميـــة وإلى طاقمـــه الإداري والعلمي التي تسيير وتراقب سير الدروس في المعهد الباديسي ، فقال : ((.. أمـــا بعـــض الواجب الذي عقدت العزم على تنفيذه في هذه السنة فهو البدء بقـــسنطينة أولا، وقـــد اشترت الجمعية دارا كبيرة من دور آل الشيخ ابن الفقون لتتخذها مركزا لإدارة التعليم ،

وتتخذ من بعض حجراتها مساكن للطلبة المعوزين ، وأسندت الإشراف على التعليم والدروس العالية للأستاذ النفاع الشيخ العربي التبسي ، وعينت للتدريس مشايخ أكفاء ممتازين بماضيهم وعملهم وتحصيلهم ، وهم المشايخ : (السعيد الزموشي وأحمد حماني وعبد القادر الياجوري وعبد المجيد حيرش والعباس بن الشيخ الحسين وأحمد حسين ونعيم النعيمي) (41) ، وقد التزمت الجمعية أن يكون هذا التعليم متناسقا مع القسم الابتدائي بجامع الزيتونة في سنواته والكثير من كتبه ، وفي أسلوبه ، وفي امتحانه، حتى كأن معهد قسنطينة فرع من فروع جامع الزيتونة ..)) . (42)

× ثناؤه على الشيخ التبسي في إدارة المعهد الباديسي :

وقد شهد الشيخ البشير الإبراهيمي بنموذجية ومرجعيته الشيخ العربي التبسي الدينية والتربوية في الأمة الجزائرية ، إذ كتب فقال : ((.. قام المعهد في سنتيه الأوليين على الأخ الأستاذ الشيخ العربي التبسي فيما يرجع إلى الإدارة والتسيير ، وهما الوصفان المقومان لروح المعهد وما سواهما الجسد ، فطوى مراحل كثيرة من التقدم في مرحلتين .

والأستاذ العربي التبسي كما يعرفه الناس مثل شرود في صحة العلم وثبات العمل وفي الإخلاص والجد والصرامة ، ومتانة الخلق وقرطسة الغرض ، وفي الانقطاع لخدمة هذه الأمة التي قل خادموها ، وكثر هادموها ، فلما ألح عليه المرض ، وتواترت العلل ، وأضناه الجهد تترى الإشفاق عليه والإشفاق على المعهد في صدور إخوانه ، وتجاريا إلى غاية ، فكان الإشفاق عليه أغلب والنظر في تخفيف العناء عنه أصوب ، فقام مقامه الأخ الأستاذ محمد خير الدين في إدارة المعهد وتسيير هذه السنة الثالثة نائبا عنه ، عاملا باسمه ، راجعا إليه في الكليات ..)) . (43)

وفي معرض ذكر فضائل الشيخ العربي التبسي على المعهد الباديسي ، كتب فقال: ((.. والمعهد تجمعه ثلاث كلمات : مكان . وإدارة . وتعليم . أما المكان فهو دار منسوبة لأسرة عريقة في المجد هي أسرة (ابن الشيخ الفقون) (44) المشهورة برجالها

الأعلام . وقد اشتريت الدار منها بأموال الأمة ، وحولت إلى معهد للدراسة . أما الإدارة في رأيي – ومازالت أصعب من المال ، لأن الصورة الكاملة التي يتصورها ذهني للإدارة الرشيدة الحازمة اللائقة بهذا المعهد العظيم نادرة عندنا، ونحن قوم نقرأ لكل شيء حسابه ، ولا نقدم لجلائل الأعمال إلا الأكفاء من الرجال .

وقد كنت مدخرا لإدارة المعهد كفؤها الممتاز ، وجذيلها المحكك الأستاذ العربي التبسي . الذي كانت تمنعه موانع قاهرة من تولي الإدارة ، ومن الانتقال من بلده إلى بلدة قسنطينة ، وكنت أقدر تلك الموانع وأزنها بميزانها الصحيح ، وأراها بمثل العين التي يراها ، فكيف العمل ؟ العمل هو جعل تلك العوامل كلها عاملا واحدا ، وتفتيته حتى يصير ذرات ، أرضينا سكان تبسة الكرام ، الذين كانوا يعدون انتقال الأستاذ التبسي عنهم كبيرة يرتكبها متن يتسبب فيها . وإقناعهم بأن الشيخ العربي رجل أمة كاملة لا بلدة واحدة ، ورجل الأعمال العظيمة ، لا الأعمال الصغيرة فاقتنعوا، وأمنا لهم مشاريعهم العلمية والدينية بإيجاد من يخلف الأستاذ فيها فرضوا مخلصين ، وقد كنت قبل ذلك كله أتلطف في الحيلة على أخي الشيخ العربي لما أعتقده من إخلاصه الكامل في خدمة أمته، ومن تقديره لجهود أخيه هذا ، ذلك أنه لما هول علي قضية المال الذي يتطلبه المعهد في شرائه وتعميره ، وهونت عليه القضية ، وهولت عليه شأن الإدارة إذا لم يقبلها هو، فلم يجد بدا من تهوينها علي ، إخلاصا منه ، ومقاسمة للعبء مع أخيه ..)) . (45)

× السياسي المحنك :

جاهد الشيخ من أجل الجزائر جهادا مريرا ، وسافر من أجلها إلى باكستان والهند وأندونيسيا وبنغلادش والعراق سوريا وسائر بلاد الشرق الإسلامي، وخص بزيارة فريدة المملكة العربية السعودية، قابل في شتاء سنة 1954م المغفور له الملك (سعود بن عبد العزيز ت 1964م) عاهل المملكة العربية السعودية بالرياض ، وانفرد بحدثه طوال ساعتين عن

الجزائر وتاريخها وعروبتها ودورها في التاريخ الإسلامي ، وقضيتها المصيرية مع فرنسا الاستعمارية ، وقد ذكر الشيخ فخامة الملك بمقولة وزير خارجية فرنسا عندما سأله أحد الصحفيين عن فكرة التفاوض مع ثوار الجزائر فقال له : [بأنهم لن يدعو الهلال ينتصر على الصليب] ، كما ذكّر جلالته بواجبات الدولة السعودية حامية الحرمين الشريفين لنصرة المجاهدين الجزائريين الذين يتحملون وحدهم مقارعة الاستعمار ، وكيف اندفعوا يدكون معاقل الصليبية والاستعمار في الجزائر ، وختم حواره مع الملك بقوله : (إن كل ما أصاب الجزائريين سببه أنهم مسلمون) ، ولما انتهت المقابلة خرج مسرعا من قصر الملك ولجأ إلى غرفة متواضعة في حي متواضع من أحياء الرياض وارتمى على سريره من المرض ونادى أحد مرافقيه ليحضر له طبيبا . (46)

× البيان التاريخي:

عقب الاستقلال تبنت الحكومة الجزائرية السياسة الاشتراكية الشيوعية . وسارت في ركب الاشتراكية الأممية ، وغدت الجزائر مرتعا خصبا لمنظري من تيار الأممية الرابعة الفاشلين ، ولغلاة التروتسكيين ، وعاثوا يخلطون على قادة الثورة وحكام البلاد توليفاتهم الثورية ونظرياتهم التهديمية . فلم يهضم الشيخ البشير الإبراهيمي ومعه سائر رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والكثير من قادة ومجاهدي الثورة هذا الانحراف الخطير عن مبادىء وقيم الشعب الجزائري العربي الإسلامي ، وعن روح بيان أول نوفمبر 1954م ، الذي يعلن صراحة لتأسيس دولة جزائرية عربية إسلامية حرة ، تتمتع بالنظام الديمقراطي في إطار المبادىء الإسلامية النبيلة . (47)

وببراعة السياسي المحنك يغتنم الشيخ البشير الإبراهيمي وسائر رجال الجمعية من ورائه والكثير من قادة الثورة فرصة إحياء الذكرى الرابعة والعشرين لوفاة العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس شهر أفريل سنة 1964م ليصدر البيان التاريخي ، الذي ينبه فيه إلى الانحراف الخطير الذي آلت إليه الجزائر ، والذي سيودي بها إلى الخراب ، ويخرجها عن

مسارها العربي الإسلامي ، الذي ضحى من أجله الشعب الجزائري ، وهذا نص البيان :

((بسم الله الرحمن الرحيم . كتب الله لي أن أعيش حتى استقلال الجزائر ، ويومئذ كنت سأستطيع أن أواجه المنية مرتاح الضمير ، إذ تراءى لي أني سلمت مشعل الجهاد في سبيل الدفاع عن الإسلام الحق ، والنهوض باللغة ، ذلك الجهاد الذي كنت أعيش من أجله إلى الذين أخذوا زمام الحكم في الوطن ، ولذلك قررت أن ألتزم الصمت .

غير أني أشعر أمام خطورة الساعة ، وفي هذا اليوم الذي يصادف الذكرى الرابعة والعشرين لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس – رحمه الله – أنه يجب علي أن أقطع ذلك الصمت ، إن وطننا يتدحرج نحو حرب أهلية طاحنة ، ويتخبط في أزمة روحية لا نظير لها. ويواجه مشاكل اقتصادية عسيرة الحل . ولكن المسؤولين – فيما يبدو – لا يدركون أن شعبنا يطمح قبل كل شيء إلى الوحدة والسلام والرفاهية ، وأن الأسس النظرية التي يقيمون عليها أعمالهم يجب أن تنبعث من صميم جذورنا العربية الإسلامية لا من مذاهب أجنبية .

لقد آن للمسؤولين أن يضربوا المثل في النزاهة ، وألا يقيموا وزنا إلا للتضحية والكفاءة ، وأن تكون المصلحة العامة هي أساس الاعتبار عندهم . وقد آن أن يرجع لكلمة الأخوة – التي ابتذلت – معناها الحق ، وأن نعود إلى الشورى التي حرص عليها النبي صلى الله عليه وسلم . وقد آن أن يحتشد أبناء الجزائر كي يشيدوا جميعا مدنية تسودها العدالة والحرية، مدنية تقوم على تقوى من الله ورضوان الجزائر في 16/أفريل/1964م محمد البشير الإبراهيمي)) . (48)

* **وفاته :**

توفي الشيخ البشير الإبراهيمي يوم 20/ماي/1965م الموافق لـ 19/محرم/1385هـ بالجزائر العاصمة بعد مرض عضال ، وبعد أن ألزمته حكومة الاستقلال البقاء تحت الإقامة الجبرية في منزله ، بسبب مواقفه من مشروع دستور الجزائر

[illegible] وموقفه من الميثاق الوطني 1964م الذي يحدد سياسة ومنهج الجزائر في خط [illegible] الأممية . (49)

وهكذا يلتحق الشيخ البشير الإبراهيمي بالرفيق الأعلى ، ونفسه متألمة على [illegible] الجزائر ، ومتحسرة على الضلال والتيه الذي أعمى أبصار حكام الجزائر ليتنكبوا عن طريق الإسلام والعروبة ، الذي ضحت من أجله قوافل الشهداء بدءا من الصحابي الجليل عقبة بن نافع وصحابة رسول الله **صلى الله عليه وسلم** إلى آخر شهيد روى [illegible] الطاهرة أرض العروبة والإسلام في الجزائر ، وفي سائر بلاد التوحيد ، سالكا درب [illegible] من الصحابة والتابعين ومن سار على هديهم ويهداهم إلى يوم الدين أولئك الذين **[صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا]** (50) . **والله أعلى وأعلم**

مسرح الإحالات

(1) [illegible] القاسم سعد الله ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ج 1 ، ص 56 ، [illegible] قنان ، قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث ، منشورات متحف الجهاد، الجزائر، الطبعة الأولى ، 1988م ، ص 181 و 182.

(2) سعد الله ، أبحاث وآراء ، ج 1 ، ص 56 .. 58 .

(3) [illegible] سعدي (دكتور)، عروبة الجزائر عبر التاريخ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، 1981م ، ص 93.

(4) [illegible] نفسه ، ص 93 و 94 .

(5) [illegible] رابح ، التعليم القومي والشخصية الوطنية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، الطبعة الأولى ، 1986م ، ص 107 و 108 .

(6) [illegible] نفسه ، ص 94 ... 96 ، 196، 115... 119 ، 311 ... 318 .

(7) [illegible] رابح ، التعليم القومي ، ص 95 .

(8) محمد البشير الإبراهيمي ، أنا ، موجز السيرة الذاتية الخاصة به ، قدمها تعريفا به إلى رئاسة المجمع اللغوي العربي بالقاهرة بمناسبة تعيينه عضوا فيه ، ص 1 ، بتصرف .

(9) المصدر نفسه ، ص 2 ، بتصرف .

* حفظ على يديه ألفية وكافية ابن مالك ، وألفية ابن معطي الجزائري ، وألفية الحافظ العراقي في السير والأثر ، وحفظ جمع الجوامع في الأصول ، وتلخيص المفتاح للقاضي القزويني ، ورقم الحلل في نظم الدول للسان الدين بن الخطيب، وديوان عبد الله بن خميس التلمساني ، ومعظم رسائل بلغاء الأندلس مثل : ابن الشهيد ، وابن أبي الخصال ، وأبي المطرف ، وابن الخطيب ، وديوان المتنبي ، وديوان الحماسة ورسائل سهل بن هارون وبديع الزمان الهمذاني، وكتاب الفصيح لثعلب، والألفاظ الكتابة للهمذاني، وإصلاح المنطق ليعقوب السكيت ..

(10) المصدر نفسه ، ص 3 ، بتصرف .

(11) البشير الإبراهيمي ، أنا ، ص 4 ، بتصرف .

(12) المصدر نفسه ، ص 4 ، بتصرف .

(13) المصدر نفسه ، ص 4 ، بتصرف .

(14) البشير الإبراهيمي ، أنا ، ص 5 ، بتصرف .

(15) المصدر نفسه ، ص 5 ، بتصرف .

(16) طريقة الأمالي العربية الإسلامية الشهيرة : وهي أن يملي حديثا من حفظه بالإسناد إلى أصوله الأولى ، ثم يملي تفسيره بما يوافق روح العصر وأحداثه .

(17) منهم الدكتور جميل صليبا ، والدكتور أديب الروماني ، والدكتور المحايري ، والدكتور عدنان الأتاسي ..

(18) محمد البشير الإبراهيمي ، أنا ، موجز السيرة الذاتية ، ص 8 ، بتصرف .

(19) البشير الإبراهيمي ، أنا ، ص 9 ، بتصرف .

(20) الإمام الإبراهيمي ومدرسة دار الحديث ، أعلام الجزائر ، مصدر سابق ، ص 117 و 118 .

(21) انظر : محمد البشير الإبراهيمي ، الجلسة التمهيدية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، مجلة الشهاب ، الجزء 6 ، المجلد 7، قسنطينة غرة صفر 1350هـ الموافق لـ جوان 1931م ، ص 341 . وتقرير مصالح الأمن والاستخبارات الفرنسية ، وتقارير مصلحة الأهالي ، وتقارير المكتب الثالث الناحية التاسعة عشر من أرشيف الإدارة الاستعمارية بأرشيف ولاية قسنطينة . وكراسة مطالب جمعية العلماء المقدمة للجنرال كاترو الحاكم العام العسكري سنوات الحرب العالمية الثانية .

(22) كراسة المطالب التي تقدمت بها جمعية العلماء إلى الإدارة الاستعمارية يوم 05/أوت/1944م .

(23) تقرير مصالح الأمن والاستخبارات الفرنسية ، وتقارير مصلحة الأهالي ، وتقارير المكتب الثالث الناحية التاسعة عشر من أرشيف الإدارة الاستعمارية بأرشيف ولاية قسنطينة .

(24) [illegible] الإحصاءات الأمريكية والبريطانية متقاربتين بينما لم تسجل أبدا وكتبين عددا من الجزائريين الذين خرجوا للمظاهرات واستشهدوا فيها . والإحصاءات الفرنسية تعدها بتسعة آلاف قتيل جزائري ، أما الجزائريين فلم تكن لديهم إحصاءات لتعذر ذلك واقعيا .

(25) تقرير مصالح الأمن والاستخبارات الفرنسية ، وتقارير مصلحة الأهالي ، وتقارير المكتب الثالث الناحية التاسعة عشر من أرشيف الإدارة الاستعمارية بأرشيف ولاية قسنطينة .

(26) أحمد خير الدين ، المذكرات ، ج 2 ، ص 19 و 20 و 21 ، بتصرف . و محمد علي دبوز ، أعلام الإصلاح ، ج 2 ، 46 و 47 ، بتصرف .

(27) القاهرة تطالب باطلاق سراح الزعيم مصالي الحاج ، قتل فيها جزائري وجرح فيها آخرون .

(1) الحرية والمساواة المطلقة لكل سكانها دونما أي تمييز جنسي أو ديني .

(2) إنهاء الملكية الإقطاعية بواسطة إصلاح زراعي كبير ، وحق البروليتاريا الفلاحي في الرفاهية والراحة .

(3) الاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية مثل اللغة الفرنسية .

(4) التعليم المجاني والإجباري للأطفال من الجنسين .

(5) حرية العبادة لجميع السكان ، وتعميم تطبيق مبدأ فصل الدين عن الدولة لجميع الأديان .

(6) المشاركة الفورية والفعلية للمسلمين الجزائريين في حكومة بلادهم .

(7) إطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين من جميع الأحزاب .

وقد لقي موافقة الجميع على البيان : (الأعيان ، المنتخبين ، حزب الشعب ، جمعية العلماء) . ثم اجتمع المندوبون الجزائريون المسلمون في 26ماي1943م وقدموا نصا إضافيا للبيان أكثر تفصيلا ، وأوضح مطالب .

(1) مزيد من التفاصيل والتوضيحات حول البيان المعدل انظر : جريدة الوطن ، السنة الثانية ، عدد 11 ، 15 مارس/1949م الموافق 15/جمادى أولى/1368 هـ ، ص 3 . وجريدة الوطن ، السنة الثانية ، عدد 13 ، 30 مارس/1949م الموافق 02/رجب/1368 هـ ، ص 3 . ويحي بوعزيز ، الاتجاه اليميني في الحركة الوطنية ، ص 74 ... بتصرف . وعباس فرحات ، ليل الاستعمار ، ص 168 ...

(28) أحمد خير الدين ، المذكرات ، ج 1 ، ص 19 و 20 و 21 ، بتصرف .

(29) أحمد الأمين العمودي : 1890-1957م : محام ، وكاتب ، وصحفي ، من أشهر رجال الحركة الإصلاحية ، له قلم رقيق تطغى عليه نغمة حزن ويأس من الحياة . ولد سنة 1890 ببلدة وادي سوف ، وبكتابها تعلم مبادئ العربية والإسلام على يد عمه الشيخ عبد الرحمن العمودي الذي كان أحد قادة حزب الشعب الجزائري ببلدة الوادي ، ثم بالمدرسة الفرنسية تعلم اللغة الفرنسية ، وانتقل بعدها إلى مدينة قسنطينة والتحق بالمدرسة الفرنسية الإسلامية ، ثم تخرج منها واشتغل كاتب عدل ، ثم مساعد ترجمان شرعي ، ثم وكيلا شرعيا ، ثم رئيس جمعية الوكلاء الشرعيين بالجزائر العاصمة ، فأمين مال جمعية العلماء من 1931 إلى غاية 1936م ، ثم هو رئيس جمعية شباب المؤتمر الإسلامي

الجزائري، التي أسسها جماعة من الشبان لتحافظ على مبادئ المؤتمر، ومنهم كذلك الشيخ الفضيل الورتلاني. كتب لكثير من المقالات باللغتين ، وأسس العديد من الصحف . استشهد يوم 10اكتوبر1957م .

نظر : محمد الأخضر عبد القادر السائحي ، محمد الأمين العمودي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، الطبعة الأولى، 1988م ، ص 16 و 17 و 18 و 19 ، بتصرف

(30) البشير الإبراهيمي : رحلتي إلى الأقطار الإسلامية ، جريدة البصائر ، السلسلة الثانية ، السنة الخامسة ، عدد 197 ، يوم الإثنين 28/جويلية /1952م الموافق لـ 29/شوال/1371هـ ، ص 1 .

(31) البشير الإبراهيمي ، أنا ، ص 13 ، بتصرف .

(32) يذكر الأستاذ موسى الأحمدي نويوات أنه لما مر بمصر في طريقه إلى الديار المقدسة سنة 1953م حضر إحدى الندوات للشيخ البشير ، ولما انتهى الشيخ من إلقاء كلمته قام الفيلسوف الكبير الدكتور منصور فهمي وهو (أستاذ طه حسين ، وزكي مبارك، وأدباء كثيرين) ، ونزع حذاءه معتذرا أن هذا المنبر الذي يقف فيه الشيخ ساحة مقدسة ينبغي أن يدخلها الناس كما يدخلون الحرم ، وقال : بأنه لم يسمع أو ير في حياته من هو أفصح وأبلغ من الشيخ البشير، ودعا جميع العلماء والأدباء في الوطن العربي إلى أن يلقوا إليه بمقاليد اللغة والبيان ثم توجه إلى الشيخ قائلا : [أنت ملك العربية لهذا العصر] ، ملكت نواصيها ونواصينا ، ثم انثنى المربي الكبير الأستاذ كامل الكيلاني فأعلن المبايعة . وموسى الأحمدي نويوات ، أعلام الجزائر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الطبعة 1 ، 1967م ، ص 92 .

(33) جريدة البصائر ، السلسلة الثانية ، السنة السادسة ، عدد 262 ، 12/مارس/1954م . وتركي رابح (دكتور)، محمد البشير الإبراهيمي في المشرق العربي ، مجلة الثقافة الجزائرية ، عدد87 ، السنة 15 ، شعبان رمضان 1405هـ ، ماي جوان 1985م ، ص 235 .

(34) الإبراهيمي ، معهد عبد الحميد بن باديس ، جريدة البصائر ، عدد 44 ، 21/جوان/1948م ، ص 2 .

(35) جريدة البصائر ، عدد 90 ، ص 3 .

(36) الإبراهيمي، معهد عبد الحميد بن باديس، جريدة البصائر، عدد 44 ،21/جوان/1948م، ص 2

(37) ومما يروى عن مهابة الشيخ العربي أنه كان يقضي وقت القيلولة في المعهد الباديسي فوق سدة خشبية قديمة ذات صرير ، وكان يجتمع تحتها شيوخ المعهد يتسامرون بعد عناء يوم من العمل التربوي الشاق ، وقبل أن يبدأ الشيخ البشير في مزاحه – وكان صاحب نكتة شرعية صادقة – مع الشيوخ يطلب من أحدهم هل سمع صرير خشب السدة ، فإن سمعوها علموا بوجود الشيخ، وإن لم يسمعوها علموا بعدم وجوده ، وصادف في يوم أن أخطئوا في تقدير وجود الشيخ في السدة ، لأنهم لم يسمعوا صرير خشبها واسترسلوا في المزاح وإذا بالشيخ – رحمه الله – يقول بصوت عال :(إبراهيم ، يا إبراهيم مازال لم يحن بعد وقت المزاح فإن الطريق طويل وشاق وليل الاستعمار لا يقضى عليه بالنكتة

والمزاح) ، فما كان من الشيخ البشير إلا أن قال له : (يا شيخ : اعذرنا فلم نعلم بوجودك ، ولا يوجد معنا أحد غير الشيوخ) . فقال له : (يا إبراهيم نحن لن ندرك زمنا المزاح و لربما لو عملنا أدركه أبناؤنا أو أحفادنا) .

* حوار مع الشيخ العربي عثماني التبسي . بتبسة شهر أفريل 1997م . طالب بمعهد عبد الحميد بن باديس سنوات 1948 - 1954م . نقلا عن الشيخ عبد المجيد حيرش ، ونعيم النعيمي .

(38) الإبراهيمي ، معهد عبد الحميد بن باديس ، جريدة البصائر ، عدد 44 ، 21/جوان/1948م ، ص 2 . والبشير الإبراهيمي ، المعهد الباديسي ، جريدة البصائر ، سل 2 ، السنة 3 ، عدد 131 ، الاثنين 07/ديسمبر/1950م الموافق 24/جمادى1370/2هـ ، ص 1 .

(39) محمد البشير الإبراهيمي ، رحلتي إلى الأقطار الإسلامية ، جريدة البصائر ، سل 2 . السنة 5 ، عدد 197 . الإثنين 28/جويلية /1952م الموافق 29/شوال/1371هـ ، ص 1 .

(40) محمد البشير الإبراهيمي ، المعهد والمدارس ، جريدة البصائر ، السلسلة 2 ، السنة 3 ، عدد 92، الإثنين24/ ذوالحجة/ 1368هـ الموافق 17/أكتوبر/1949م ، ص 1 ، بتصرف .

(41) نعيم النعيمي : 1909-1973م : ولد بواحات أولاد جلال بصحراء بسكرة سنة 1919م، تعلم في زاوية الشيخ المختار الرحمانية بأولاد جلال ببسكرة ومكث في زاويتها متعلما (1919-1923) ، ثم رحل إلى الزيتونة ، ومنها ساح في البلاد العربية وخاصة الشام التي تضلع فيها في أخذ علوم الشرع ، انتسب إلى جمعية العلماء وظل معلما في مدارسها ، ثم تعرض للقمع الفرنسي ، شارك في الثورة وصار من قادتها السياسيين ، ثم سفيرا لها بالمشرق العربي ، ثم مديرا للشؤون الدينية بقسنطينة. شارك في العديد من الملتقيات . توفي بمدينة قسنطينة بعد مرض عضال أقعده عن مزاولة نشاطه يوم 1973/07/17م الموافق 16/ جمادى1393/1هـ . انظر : بلقاسم بن نعيم النعيمي ، الشيخ نعيم النعيمي ، مجلة الأصالة ، السنة 3 ، عدد 16 ، شعبان ورمضان 1393هـ أكتوبر ونوفمبر 1973م ، ص 39 .. 49 ، بتصرف .

(42) محمد البشير الإبراهيمي ، إحياء التعليم المسجدي بمدينة قسنطينة ، جريدة البصائر ، سل 2 ، السنة 1 ، عدد 7 ، الجمعة 04/ذوالقعدة/1366هـ الموافق 19/سبتمبر/1947م ، ص 2 .

(43) محمد البشير الإبراهيمي ، المعهد الباديسي في سنته الثالثة ، جريدة البصائر ، سل 2 ، السنة 3 ، عدد 131 ، الإثنين 30/ذوالحجة/1369هـ الموافق 18/سبتمبر/1950م ، ص 1 .

(44) الفكون : ت 602هـ / 1205م هو أبوعلي الحسن بن علي بن عمر القسنطيني الشهير بابن الفكون . شاعر المغرب الأوسط في زمانه ، من أهل قسنطينة ، رحل إلى المغرب الأقصى، ومدح خليفة بني عبد المؤمن ، كما مدح ملوك بجاية ، والملك الناصر لما دخل قسنطينة سنة 602 هـ ترك ديوانا شعريا وكتابا في الرحلة وصف فيه رحلته من قسنطينة إلى مراكش ذكر فيها أسماء المدن التي مر بها. انظر : عادل نويهض . معجم أعلام الجزائر ، ص 253 .. 255 .

(45) جريدة البصائر ، سل 1 ، السنة 1 ، عدد 2 ، الجمعة 15/شوال/1354هـ الموافق 1936/01/10م ، ص 2 . وجريدة البصائر ، سل 2 ، السنة 2 ، عدد 90 ، الإثنين 10/ذوالحجة/1368هـ الموافق 1949/10/03م ، ص 13 . والبشر الإبراهيمي، معهد عبد الحميد بن باديس ماله و ما عليه ، البصائر ، سل 2 ، السنة 2 ، الإثنين 20/رمضان/ 1367هـ الموافق 26/جويلية/1948م ، ص 4 . ولمزيد من التوسع عن معهد عبد الحميد بن باديس : 1947-1956م/ 1367-1377هـ انظر : الإبراهيمي. المعهد والمدارس ، جريدة البصائر ، السلسلة الثانية ، السنة الثالثة ، عدد 92 ، الإثنين 24/ذوالحجة/ 1368هـ الموافق 17/أكتوبر/1949م ، ص 1 ، بتصرف . والإبراهيمي ، إحياء التعليم المسجدي بمدينة قسنطينة ، جريدة البصائر ، السلسلة الثانية ، السنة الأولى ، عدد 7 ، الجمعة 04/ذوالقعدة/1366 هـ الموافق 19/سبتمبر/1947هـ ، ص 2. وعبد الكريم أبو الصفصاف ، معهد عبد الحميد بن باديس نشأته تطوره أهدافه ، جريدة النصر الجزائرية ، عدد 6718 ، السنة 22 ، الإثنين 25/أفريل/1994م ، ص 17 ، بتصرف .

(46) عمر الحكيم ، رجل فقدناه البشير الإبراهيمي علم من أعلام العرب في القرن العشرين ، مجلة حضارة الإسلام، سوريا ، عدد 2 ، السلسلة السادسة ، ربيع الثاني 1385هـ ، أوت 1965م ، نقلا عن أعلام الجزائر ، ص 142 .. 145 ، بتصرف .

(47) انظر بيان الثورة الجزائرية الأول الصادر ليلة الفاتح من نوفمبر 1954م .

(48) محمد الطاهر فضلاء ، أعلام الجزائر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، دار البعث ، قسنطينة ، الطبعة الأولى ، 1967م ، ص 15 .

(49) المرجع السابق ، ص 20 .

(50) سورة الأحزاب ، آية 33 . وأحمد حمان ي ، الصراع بين السنة والبدعة ، دار البعث ، قسنطينة.

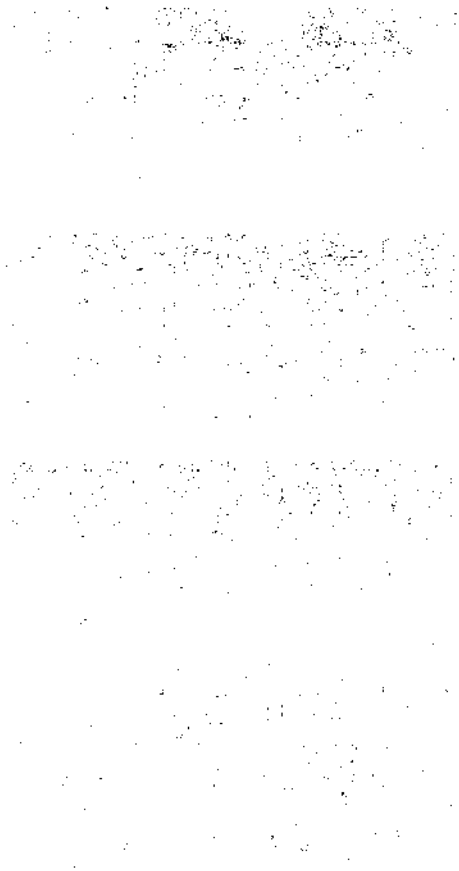

معالم الفكر الإصلاحي عند الشيخ البشير الإبراهيمي

أ . أكرم بلعمري

جامعة الأمير عبد القادر

لا يخفى على الدارس لتاريخ الجزائر ما عانته من ويلات همجية الاستيطان الفرنسي، وسعيه لطمس سمات الهوية الجزائرية عبر قرن وثلث من الزمن، استخدم لذلك شتى أنواع الوسائل بغية الوصول إلى المسخ المنشود.

...لكن، قيض الله عز وجل من أبناء الجزائر من يحمل على عاتقه جهد التصدي لهذا التشويه، وكان من بين الذين عرفهم تاريخ الجزائر ناشطين للحفاظ على معالم الهوية الجزائرية العربية الإسلامية الأصيلة، ساعين لدحض كل ما كان يحيكه الاحتلال وأعوانه للقضاء على الشخصية الجزائرية.

... إنه الشيخ الإمام البشير الإبراهيمي.

عُرف على أنـــه أحد رواد الإصلاح في الجزائر، مؤسسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين رفقة صاحب دربه الشيخ الرئيس عبد الحميد بن باديس، اجتمعا ذات يوم بعيدا عن أرض الجزائر المغتصبة، لكن كان ذلك من أجل الجزائر، سعيا لتوحيد الجهود وعملا على مقاومة مخططات فرنسا، بمختلف ما أُتيح من وسائل لذلك.

فإن كان يعسر على الباحث في الفكر الإصلاحي لشيوخ وعلماء الجمعية أن يفصل معالم فكرهم عن المبادئ الإصلاحية العامة للجمعية، لكن يمكن الحديث عن الرؤية الإصلاحية التي كان يتبناها الشيخ الإمام البشير الإبراهيمي في ظل نشاطه ضمن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من خلال ما كان يكتبه في مختلف جرائدها، ومن خلال المراسلات التي كانت تقوم بينه وبين من عرفهم، سواء داخل الجزائر أو خارجها في سعيه لتدويل قضية الجزائر، مثلما عُرف عضوا في الجمعية، عُرف مناضلا في حزب تحرير الجزائر

بالقاهرة، سعيا منه في المساهمة من أجل أن تسترد الجزائر عافيتها، فكان نعم الرجل، مصلحا، ومدرسا، وإماما، وسياسيا.

البشير الإبراهيمي... الرجل المصلح.

ثلاث كليات كانت تسري سريان الدم في العروق في شخصية الإمام البشير الإبراهيمي، وما يفتأ يتكلم عنها في مختلف كتاباته: الإسلام دينا، والعربية لغة، والجزائر وطنا، فكان لا يلبث يدعو إلى هذه الكليات التي لا ينبغي أن تنفصل عن كل جزائري، آمن بقضية بلده، وسعى لفكها من أسر الاستعمار، وكان شعاره في ذلك " كن مسلما كما يريد منك القرآن وكفى..."[1]، فغير مطلوب منك غير هذا، تتحلى بما أمر به القرآن، وجسده النبي ﷺ في حياته، فصدق قول الله فيه ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم﴾.[2]

والدعوة الإصلاحية التي تبناها البشير الإبراهيمي ترتكز على علم بحال الجزائريين، وآمالهم وآلامهم، وتطلعاتهم نحو صباح جديد، تشرق فيه شمس الحرية عليهم، وكان هذا لب مبدأ جمعية العلماء المسلمين، وفي ذلك يقول الإبراهيمي:"... مبدأ جمعية العلماء يرمي إلى غاية جليلة فالمبدأ هو العلم والغاية هي تحرير الشعب الجزائري: والتحرير في نظرها قسمان: تحرير العقول والأرواح وتحرير الأبدان والأوطان والأول أصل الثاني، فإذا لم تتحرر العقول والأرواح من الأوهام في الدين وفي الدنيا، كان تحرير الأبدان من العبودية، والأوطان من الاحتلال متعذرا أو متعسرا، حتى إذا تم منه شيء اليوم، ضاع غدا لأنـــه بناء على غير أساس، والمتوهم ليس له أمل، فلا يُرجى منه عمل، لذلك بدأت جمعية العلماء من أول يوم نشأتها بتحرير العقول و الأرواح، تمهيدا للتحرير النهائي...".[3] فسارت الجمعية على مبدئها حتى وصلت إلى نتائج عظيمة عظم ابن باديس والإبراهيمي ومن نحا نحوهما وتبع دربهما في إصلاح ما انحرم من قيم في المجتمع الجزائري.

---

[1] - آثار البشير الإبراهيمي: جمع أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م، 216/1.

[2] - القلم: الآية 4.

[3] - نفسه: 344/4.

وعَرفوا أن تمسك الجزائريين بالإسلام هو سبيل وحدتهم، ونهج تخلصهم من ليل الاستعمار الحالك، وما ذلك إلا لأن الأولين السابقين عرفوا قيمة الإسلام، فابتغوا العزة فيه، وسادوا الأمم سنينا وقرونا، فسـ" ...لو صدقت نسبة المسلمين إلى الإسلام، وأُشربوا في قلوبهم معانيه السامية ومثله العليا، واتخذوا من كتابه ميزانا و لسانه العربي ترجمانا، واتجهوا إلى هذا الكتاب الخالد بأذهان نقية من أوضار[1] المصطلحات، وعقول صافية لم تعلق بها أكدار الفلسفات، لسعدوا به كما أراد الله، ولأسعدوا به البشر كما أمر الله، ولأصبح كل مسلم بالخير والصلاح سفيرا، ولكان المسلمون في أرض الله أعز نفرا وأكثر نفيرا، ولكان التقاء المسلم بالمسلم كالتقاء السالب بالموجب في صناعة الكهرباء ينتج النور والحرارة والقوة".[2]

ويمكن إجمال معالم الفكر الإصلاحي للشيخ البشير الإبراهيمي فيما يلي:

1- الدعوة للتمسك بكتاب الله:

كانت أول دعوة يدعوا إليها الإبراهيمي، لأنـــه أيقن تمام اليقين منزلة القرآن، وعظمته. لأنه نبراس العقول، وهاديها إلى المجد في دنياها، وإلى الفلاح في أخراها، فلما علم الإبراهيمي هذه المنزلة، وأدرك أن بالقرآن سعادة الأمة، وأن شقاءها وهوانها في غيره، فكيف" ... يشقى المسلمون وعندهم القرآن الذي أسعد سلفهم؟ أم كيف يتفرقون ويضلون وعندهم الكتاب الذي جمع أولهم على التقوى؟ فلو أنهم اتبعوا القرآن لما سخر منهم الزمان وأنزلهم منزلة الضعة والهوان، ولكن الأولين آمنوا فأمنوا، واتبعوا فارتفعوا، ونحن فقد آمنا إيمانا معلولا، واتبعنا إتباعا مدخولا وكلٌ يجني عواقب ما زرع....

أما أن المسلمين الأولين سعدوا بالقرآن و اتباع الرسول فهذا ما لا مراء فيه، وهو الحقيقة العارية التي جلاها التاريخ على الناس من جميع الأجناس، وزكاها بشاهدين من آثار العلم ونتائج العقل فإن احتمل أن يجهل هذه الحقيقة جاهل فهم سواد المسلمين قبل غيرهم، وإن

---

[1] - الوضر: الدّرن والدسم، لسان العرب:284/5.

[2] - الآثار:60/4.

وقف باحث عند الظواهر السطحية وقال سعدوا بالاتحاد مثلا قلنا له: وما الذي وحدهم بعد ذلك التفرق الشنيع غير القرآن؟ أو قال قوم استيقظت فيهم عواطف الخير ونوازع الشرف حين ماتت في الأمم فسادوها وقادوها. قلنا له: نعم. ولكن ما الذي أيقظ فيهم تلك العواطف وتلك النوازع وما هم إلا ناس من الناس. بل قد كانوا قبل القرآن أضل الناس".[1]

فالإمام البشير رحمه الله يؤكد على أن التمسك بالقرآن والسير على نور هديه هو الضمان للسعادة بنوعيها، وإن كل بُعْدٍ عنه، أو قصور في فهمه، أو فتور في العمل به، هي القاصمة التي لا تبقي ولا تذر من هذه الأمة، وهي في حاجة إليه أكبر من أي وقت مضى، فالسابقون أخذوا جزاءهم لما عاشوا بالقرآن، أما نحن فإننا لا زلنا نتخبط في تيه وبعد عن الرشاد، فالحق الذي لا محيد عنه هو العودة إلى نبع الصفاء، ونور الضياء.

ويبين الإمام حق القرآن علينا فيقول:"... يجب أن نتخذ الآيات المنبهة عليه فواتح في المدارسة وأن تتجاوب أصداؤها في جوانب نفوسنا حتى لا ندخل حرمه إلا بعد أن نكون عرفنا حقه، إنـــه لم يمض على المسلمين في تاريخهم الطويل عصرهم فيه أبعد أن تكون عن القرآن منهم في هذا العصر و لم يمض على الدعاة إلى الحق وقت عظمت فيه العهدة واستغلظ الميثاق مثل هذا الوقت ، وأنـــه لا مخرج لهم من هذه العهدة ولا تحلل من هذا الميثاق إلا بالدعوة إلى القرآن، فلا عجب ونحن نشعر بثقل هذه الأمانة من أن ترتفع أصواتنا بالدعوة إليه، وإنما العجب الذي لا عجب بعده أن نسكت أو نقصر، وإن من أحكم الوسائل لجذب الأمة إلى القرآن وصف القرآن وتشويق الناس إلى الإقبال عليه وتدبره وفهمه".[2]

---

[1] – الآثار: 88/1.

[2] – الآثار: 227/1.

ثم يدعو الدعاة إلى الدعوة إلى القرآن بمثل ما دعا القرآن نفسُه، لأن أفضل منهج للدعوة إلى القرآن هو المنهج القرآني ذاته، فيقول:" ...وليسْلك الدعاة سبيلهم إلى نفوس الناس بهذه الأوصاف- عدد أوصافا قبل هذا الكلام- الرائعة من هذه الآيات الجامعة فإن ذلك أدعى للتأثير والتأثر وأبلغ في باب التشويق من كل تبويب في الكلام وتحبير وتزويق".[1]

وكثيرا ما تحدث الشيخ الإبراهيمي عن سبب انحسار و انهيار حضارة المسلمين لما ابتعدت عن القرآن، وابتغت المناهج البعيدة عن نهجه فحصل ما حصل من تكالب الأمم عليها:" إن الآفة الكبرى التي قضت على الحضارات وجعلت عاليها سافلها هي التفرق بين بناتها والمستحفظين عليها، وقد كان للمسلمين من بين الأمم القديمة والحديثة معتصم باذخ لو اعتصموا به لوقاهم من التفرق فوقى حضارتهم من الانهيار، وهو القرآن ودينه الإسلام نعمة خصوا بها دون الأمم.

كانت تعصف بهم من عواطف التفرق وتثور فيهم من طبائع الملك وغرائز المنافسة فيه، ما أقله كاف في تدمير الممالك وتتبيـــر الحضارات فيرجعون إلى القرآن ويعتصمون بالإسلام، فيجدون فيهما الوزر الواقي، إلى أن داخلتهم الأعراق المدسوسة، ومازجتهم الجراثيم الغريبة وابتلوا بلقاح سوء، مما أفسد من قبلهم وكان من تأثير ذلك أنهم انتقلوا من التفرق الذي يعصم منه الدين إلى التفرق في الدين نفسه، وفي القرآن نفسه، ثم زهدوا في الدّين فلم تبق إلا الصور العملية بلا روح وزهدوا في القرآن إلا الألفاظ المتلـــوة بلا نذير، حتى كانت عاقبة أمرها خسرا وذاقت بما صدت عن سبيل الله".[2]

ثم بين لماذا حقق أسلافنا الخلافة على وجه البسيطة حينما عاشوا بالقرآن للقرآن، فقال:" ... إن أسلافنا قاموا بما شرط عليهم القرآن في قوله: **﴿الذّين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾**[3] فتحقق معهم وعد الله

---

[1] - الآثار: 229/1.

[2] - الآثار: 230/1.

[3] الحج: الآية 41.

في القرآن:﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصّالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمنا**﴾[1]، فكانوا خلفاء الأرض يقيمون فيها الحق والعدل وينشرون فيها الخير والرحمة، ويُطهرونها من الشرك والوثنية ويحققون حكمة الله بإقامة سننه الكونية والشرعية، لا يراهم الله إلا حيث يرضيه أن يراهم، لأن مما أفادهم القرآن استجلاء العبر من قوله تعالى:﴿ **ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون**﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿**هو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم**﴾[3]، وقوله تعالى:﴿ **أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم**﴾.[4]

وكان هؤلاء السلف يعلمون لماذا أنزل القرآن؟؟ ويعلمون أنّــه كتاب الدهر ودستور الحياة وحجة الله الباقية إلى قيام الساعة، وأنّــه واف كل الوفاء بإسعاد البشر في الحياتين وإن عدم فهمه وعدم العمل به وعدم تحكيمه، كل ذلك تعطيل له ففهموه أولا، وحكموه في أهوائهم ونزعاتهم فاستأصل باطلها ولطف من نزواتها، ورجعوا إليه في فهم الحقائق الغامضة في الحياة والدقائق المشكلة في الكون والأخلاق التي يجب أن يتعايش بها الناس، فرجعوا إلى معصوم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه". [5]

ويضيف في موضع آخر: " تدبُر القرآن وإتباعُه هما فرق ما بين أول الأمة وآخرها، وإنه لفرق هائل. فعدم التدبر أفقدنا العلم، وعدم الإتباع أفقدنا العمل، وإنّنا لا ننتعش من هذه الكبوة إلا بالرجوع إلى فهم القرآن وإتباعه ولا نفلح حتى نؤمن ونعمل الصالحات:

---

[1] – النور: الآية 55.

[2] – يونس: الآية 14.

[3] – الأنعام: 165.

[4] – الأعراف: الآية 100.

[5] الآثار: 231/1

﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾[1].

وتتعالى نظرة البشير إلى القرآن وتسمو، وتمفوا به نفسه وترنو، لأنه"... إصلاح شامل لنقائص البشرية الموروثة، بل اجتثاث لتلك النقائص من أصولها وبناء للحياة السعيدة التي لا يظلم فيها البشر ولا يهضم له حق على أساس من الحب والعدل والإحسان، والقرآن هو الدستور السماوي الذي لا نقص فيه ولا خلل: فالعقائد فيه صافية، والعبادات خالصة، والأحكام عادلة، والآداب قويمة، والأخلاق مستقيمة، والروح لا يهضم لها فيه حق، والجسم لا يضيع له مطلب هذا هو القرآن الذي صلح عليه أول هذه الأمة وهو الذي لا يصلح آخرها إلا عليه...فإذا كانت الأمة شاعرة بسوء حالها، جادة في إصلاحه، فما عليها إلا أن تعود إلى كتاب ربها فتحكمه في نفسها، وتحكم به، وتسير على ضوئه وتعمل بمبادئه وأحكامه، والله يؤيدها ويأخذ بناصرها وهو على كل شيء قدير".[2]

فهذه دعوة الشيخ البشير الإبراهيمي إلى القرآن، وإلى التمسك به، وفهمه كما فهمه السلف، والعمل به كما عملوا، وتحكيمه في النفوس كما حكموا، وجعل المشارب والأهواء إليه تابعة، كما فعلوا، فلو فعلنا ذلك لكنا به أعزة في أنفسنا وأئمة لغيرنا.

2- الدعوة للتمسك بسنة النبي ﷺ:

الدعوة إلى القرآن لا تنفصل عنها دعوة من الإبراهيمي للتمسك بسنة المصطفى ﷺ، لأنها المحجة التي ترك عليها هذه الأمة، لا تزيغ ولا تضل إن هي عضّت عليها بالنواجذ، وهي أكبر بيان على حبـــه ﷺ، وليس بالتفنن في ابتداع طقوس توحي للسامع أو الناظر، شدة التعلق به ﷺ، ويشدد شيخنا النكير على الذين يتفننون في البدع ليلة مولده وبين أن:" .. الحب الصحيح لمحمد ﷺ فهو الذي يدع عن البدع، ويحمله على الاقتداء

---

[1] - الأعراف: الآية 157. الآثار: 232/1.

[2] - الآثار: 95/4.

الصحيح، كما كان السلف يحبونه، فيحيون سنته، ويذودون عن شريعته ودينه، من غير أن يقيموا له الموالد وينفقوا فيها الأموال الطائلة التي تفتقر المصالح العامة إلى القليل منها فلا تجده".[1]

وبين أن الطريقة الصحيحة للتعبير عن حبه ﷺ قائلا:" ...ونحن نحتفل بالمولد على طريقة غير تلك الطريقة، وبأسلوب غير ذلك الأسلوب، فنجلي فيه السيرة النبوية. والأخلاق المحمدية، ونكشف عما فيها من السر، ومالها من الأثر في إصلاحها إذا اتبعناها، وفي هلاكنا إذا أعرضنا عنها، ففي احتفالاتنا تجديد للصلة بنبينا في الجهات التي هو بها نبينا ونحن فيها أمته".[2]

ويعتبر الشيخ البشير الإبراهيمي أن التمسك بسنة محمد ﷺ عمل بالقرآن، لأن محمدا ﷺ كان قرآنا يمشي بين الناس، فمن شـــدَّ على سنّة المصطفى ﷺ ودعا إليها إنّما هو داع للقرآن، عامل بما جاء فيه، فيقول:" أيها الإخوان: إنّ نبيّنا منا لقريب لو جعلنا الصلة بيننا وبينه حبل الله القرآن، فقد تركه فينا ليكون النور الممتد بيننا وبينه، وقد كان خُلقه القرآن يرضى لرضاه ويغضب لغضبه، ويقف عند حدوده ويصنع أفعاله وتُروكه من أوامره ونواهيه، وينحت من معدنه تلك الآداب التي ربى بها نفسه وراض عليها أصحابه، ثم تركها كلمة باقية فينا وحجة بالغة لنا أو علينا، وقد شرفنا ﷺ تشريفا يبقى على الدهر، وشهد لنا شهادة نتيه بها على الغابرين إذ قال لأصحابه: " أنتم أصحابي، وإخواني الذين يأتون من بعدي".[3]

ففي كلامه دعوة للتأسي به ﷺ والإقتداء بسنته والعمل بها، والدعوة إليها، لأنها المرجع الإلهي المعصوم، التي بها تحيى النفوس من سباتها، والذلة التي ضربت عليها من شدة جهلها، بدستورها في هذه الحياة.

---

[1] - الآثار: 341/2.

[2] - الآثار: 341/2.

[3] - ابن ماجة: سنن، كتاب الزهد، باب ذكر الحوض، رقم: 4296.

كما أن الإقتداء به ﷺ لا يعني المغالاة في وصفه، ولئن كان هذا من حبه ﷺ، لكن دون إغفال ما تصفو به النفس من كريم خلقه، وصفاء سريرته، وفي هذا يقول:"... ألستم ترون أن أكثر المؤلفين في السير يصرفون اهتمامهم إلى الجهات التي لا محل فيها للاقتداء الذي يزكي النفس – أكثر مما يصرفونه إلى الجهات التي تزكي النفس وتطبعها على الخلال النبوية، يهتمون بالمواطن السطحية البشرية مثل كيفية لبسه وأكله وشربه ونومه وملابسة أهله، ويغفلون المكامن الروحية الملكية مثل تعلقه بالله ومراقبته له وتأديته الأمانة الشاقة وصبره وشجاعته وتربيته لأصحابه، وتدريبهم على جهاد أنفسهم حتى تكمل، وعلى السمع والطاعة للحق وفي الحق، وعلى التعاون والتناصح والتحابب والتآخي والاتحاد..."[1].

فإذا حققت الأمة التمسك والتأسي بسيرته وسنته ﷺ، فهي قد خطت الخطوة الثانية بعد العض على القرآن نحو تحقيق الشهود الحضاري لها بين سائر الأمم.

3– الاقتداء بسير العلماء والصالحين:

ليس أفضل بعد اتباع الرسول الأمين من اتباع العلماء الصالحين الربانيين، الذين عاشوا بهذا الدّين وله، فكانوا النور الذي يسطع في ظلام الجهل، والبعد عن الهدي الإلهي، فكانوا بحق يجددون أمر هذه الأمة، كلما بدت بوادر خُفوت نورها الذي جعله الله عز وجل النبراس لغيرها من الأمم، تهتدي بهدي القرآن، وبهدي نبيها الأعظم ﷺ.

فأيقن الشيخ البشير الإبراهيمي ذلك فدعا الأمة المسلمة عموما، والأمة الجزائرية خصوصا، للاقتداء بسير الصالحين والعلماء، للخروج مما تعانيه من استعباد وضياع بلاد، وهلاك مال، وتشرد ولدان، فخطب قائلا:"... إنّ من البر لأنفسنا أن نذكر مع كل مشارقة عظماءنا ومصلحينا الذّين كان لهم أثر مشرق في تاريخنا، وأن نحيي ذكرياتهم

[1] – الآثار: 145/4.

لنحيا بها، ونأخذ العبر منها، ونجعلها دليلنا إذا أظلمت علينا السبل، وقدوتنا إذا أوعزنا الإمام القائد...."[1].

لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، في دنياهم، وعملوا لأخراهم بتعمير أولاهم، فقال فيهم البشير:"... لقد صدق أولئك العلماء ما عاهدوا الله عليه، وفهموا الجهاد الواسع فجاهدوا في جميع ميادينه، فوضع الله القبول في كلامهم عند الخاصة والعامة، وإن القبول جزاء من الله على الإخلاص يعجّله لعباده المخلصين، وهو السرّ الإلهي في نفع العالم والانتفاع به، وهو السائق الذي يدعّ النفوس المدبرة عن الحق إلى الإقبال عليه، ونفوذ الرأي وقبول الكلام من العالم الديني الذي لا يملك إلا السلاح الروحي...."[2].

فوضع بهذا أساسا آخر ينضاف إلى الأسس السابقة في طريق الإصلاح الذي انتهجه الشيخ البشير الإبراهيمي ليعبر عن عمق وأصالة الانتماء إلى هذه الأمة.

4- التمسك باللسان العربي:

يولي الشيخ البشير الإبراهيمي اللغة العربية اهتماما منقطع النظير، فقد عرف رحمه الله بشدة حبه للغة العربية، فبان ذلك في عمق الكتابة التي يكتبها، وأصالة الخطاب الذي يلقيه، ولما أيقن أن اللغة هي أساس الهوية، وعنصر الانتماء لهذه الأمة، وأن فوات اللغة موت للأمة، قال: " إن هذه الأمة تعتقد وتموت على اعتقادها أن لغتها جزء من كيانها السياسي والديني وشرط في بقائها، وقد التقى على الكفاح في سبيلها الدين والسياسة، فلم يختلف لهما فيه رأي، ولم يفترق لهما قصد..."[3].

ويرى الشيخ البشير الإبراهيمي أن لغة الأمة هي ترجمان أفكارها وخزانة أسرارها، و أن الأمة الجزائرية ترى في اللغة العربية زيادة على ذلك القدر المشترك، أنها حافظة دينها، ومصححة عقائدها، ومدونة أحكامها، وأنها صلة بينها وبين ربها، فهي لذلك عليها يد

---

[1] - الآثار: 194/1.

[2] - الآثار: 112/4.

[3] - عيون البصائر: 313.

الضنانة، وما تود أن تبدل بها لغات الدنيا، وإن زخرت بالآداب وغاصت بالمعارف، وسهلت سبل الحياة وكشفت عن مكنونات العلم فإن أخذت بشيء من تلك اللغات فذلك وسيلة إلى الكمال، في أسباب الحياة الدنيا، أما الكمال الروحاني والتمام الإنساني، فإنها لا تنشده ولا تجده إلا في لغتها التي تكوَّن منها تسلسلها الفكري والعقلي، وهي لغة العرب.[1]

ولا تعتبر اللغة العربية في رأي الإبراهيمي لغة جامدة غير قادرة على استيعاب ما وصلت إليه مختلف الحضارات، فهو يرى فيها قالبا يتسع لأكثر من ذلك، كيف لا؟ وهي من حوت تاريخ وحضارة الإنسانية يوم كانت اللغات الأخرى في حالة جمود ونسيان، ويؤكد ذلك بقوله:" ...وقد كانت هذه اللغة ترجمانا صادقا لكثير من الحضارات المتعاقبة التي شادها العرب بجزيرتهم، وفي أوضاع هذه اللغة إلى الآن من آثار تلك الحضارات بقايا وعليها من رونقها سمات، وفي هذه اللغة من المزايا التي يعز نظيرها في لغات البشر الاتساع في التعبير عن الوجدانيات، والوجدان أساس الحضارات والعلوم كلها".[2] ويضيف في السياق نفسه:" أيها الإخوان: لو لم يكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متسعة الآفاق غنية بالمفردات والتراكيب، لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند، ولَألزمَتْهم الحاجة إلى تلك العلوم تعليم تلك اللغات، ولو فعلوا لأصبحوا عربا بعقول فارسية وأدمغة يونانية، ولو وقع ذلك لتغير مجرى التاريخ الإسلامي برمته... لو لم تكن اللغة العربية لغة عالمية لما وسعت علوم العالم، وما العالم إذ ذاك إلا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون".[3]

وما هذا الفضل الذي تحوزه اللغة العربية إلا أنها نقلت يوما العلوم التي بنيت عليها الحضارة الغربية بإجماع الباحثين منا ومنهم، وإن المنصفين منهم ليعترفون للغة العربية بهذا

---

[1] - عيون البصائر: 310.

[2] - الآثار: 374/1.

[3] - الآثار: 376/1.

الفضل على العلم والمدنية ويوفوها حقها من التمجيد والاحترام، ويعترفون لعلماء الإسلام بأنهم أساتذتهم في هذه العلوم.

ولما حاول الفرنسي إحلال البربرية مكان اللغة العربية وذلك تفريقا للأمة الجزائرية وسعيا منه لدس الشقاق بين أبناء الوطن الواحد، دافع الإبراهيمي على ترسيخ عروبة الجزائر ماضيا وحاضرا، في الكثير من المحافل أينما حل، وحيثما ارتحل فيقول:" اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها، وبين حماتها ، وأنصارها،وهي ممتدة الجذور مع الماضي، مشتدة الأواخي مع الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل... ".[1]

وحيث أن اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية، ومن ثم فهي لغة المسلمين الدينية الرسمية، ولهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان- كما يرى الشيخ البشير الإبراهيمي[2]- كل منهما يقتضي وجوب تعلمها، فكيف إذا اجتمعا:

- حق من حيث أنها لغة دين الأمة، بحكم أن الأمة مسلمة.
- وحق أنها لغة جنسها، بحكم أن الأمة عربية الجنس، ففي المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معا.

5- العمل على وحدة الأمة:

وحدة الأمة الجزائرية واجتماعها على كلمة حق واحدة، هي سبيل التحرر من كل ما قد يأسرها من جهل أو استعمار، فنادى البشير في الشعب الجزائري أن اتحدوا تسلموا من كل نكير، كتب تحت عنوان "وحدة الدين واللسان"، قائلا:" الأمة الجزائرية هي قطعة من المجموعة الإسلامية العظمى من جهة الدين، وهي ثلة من المجموعة العربية من حيث اللغة التي هي لسان ذلك الدين.

---

[1] - عيون البصائر: ص 221.

[2] - عيون: ص 24.

والأمم الإسلامية على اختلاف أجناسها ولغاتها ما برحت تفاخر أمم الأرض بذلك الدين وهذا اللسان، وإن كان بعضها ضعيف الحظ فيهما أو في أحدهما.

تفاخر بالإسلام لأنـــه في حقيقته الأصلية مجمع للفضائل الإنسانية، وتفاخر باللسان العربي لأنـــه ترجمان هذا الدين وكتابه المبين، وهو بعد ذلك مستودع الحكم ولسان الشعور والخيال.

فالأمم الإسلامية بهذا الدين وبهذا اللسان، وحدة متماسكة الأجزاء يأبى لها الله أن تتفرق وإن كثرت فيها دواعي التفرق، ويأبى لها دينها – وهو دين التوحيد- إلا أن تكون موحدة، وتأبى لها الفضائل الإسلامية إلا أن تكون مظهرا للفضيلة في هذا العالم الإنساني، فإذا كان في تلك الأمم من يضار الفضيلة أو يخونها في اسمها فما ذلك من الإسلام في شيء، وإنما هو انحراف مزاج سببه سوء فهم، أو غلبة وهم، أو دعوى طباع أو هو تقليد واتباع..."[1]

ويرجع سبب تفرق الأمة إلى العصبية التي نشأت بين أفراد الجزائريين، مهما اختلفت أشكالها وأنواعها، إن للجنس أو القبيلة أو الأصول، أو المذهب، فحذر منها، لأن ما تجره على وحدة الأمة من ويلات في وقت ضئيل قد تعجز عن لم شمله السنون، فيقول:" ...ثم عاد المسلمين من ذكرى تلك المحنات عيد وطاف بهم طائف من العصبية التي محاها الإسلام لأول ظهوره، وإن العصبية لأصل البلاء كله، فنشأت فيهم العصبية إلى الجنس وإن لم يعمر من التاريخ صفحة، والعصبية إلى الرأي وإن لم يتعلق به من السداد نفحة، والعصبية للآباء وإن لم يكن لهم في الصالحات أثر، والتعصب للأشياخ حتى فيما زاغ فيه الفكر وعثر.

[1] - الآثار: 105/1.

هذه العصبيات. صارت الأمة الواحدة أمما وصارت السبيل الواحدة سبلاً إذ نشأت عن العصبيات آثارها اللازمة لها فساءت الحال وتراخت حبال الأخوة الإسلامية. وضعف أثر الوازع الديني في النفوس...".[1]

فخلاصة وحدة الدين ووحدة اللسان، ووحدة القبلة، هي عوامل الإتحاد بيننا، كمسلمين أولا، وكعرب ثانيا، وكجزائريين ثالثا، وذاك هو شعار جمعية العلماء.

6- العمل على نشر العلم:

آمن الشيخ البشير الإبراهيمي إيمانا راسخا بأن العلم هو السبيل لتخليص الجزائر مما تعاني منه من استضعاف وتبعية وهوان، فراح يدعو في كل مناسبة ومن كل منبر يعتليه إلى الجد في تحصيل العلم، لأننا أعطينا المثل في الجهل والتخلف، في حين رسخت الأمم الأخرى أقدامها فيه، فتحكمت في مقاليد الأمور، وساستنا بجهلنا وبعلمها.

ويؤكد الإبراهيمي على أن العلم لازم من لوازم التحضر والرقي، فيقول:" وأما اللازم الثالث وهو العلم بمعناه العام، فالحقيقة الواقعة أننا لا زلنا فيه في مؤخرة الأمم، وغاية ما نبني عليه الأساس في هذا الباب هو هذا الشعور الذي نشاهده في جميع طبقاتنا وأوساطنا بلزوم العلم، وهذه الرغبة المتأججة في صدور الناشئين منا للعلم".[2]

لأن العلم أساس حياة الأمم، إن قامت عليه تحيا، وإن تخلت عنه طواها النسيان، كما بادت أمم لم يحفظ لها التاريخ اسما ولا رسما، فيقول:" إن الأمم الحية في وقتنا هذا ما حييت إلا بالعلم الاختباري التطبيقي وأساس هذا العلم وإن علا القراءة والكتابة".[3]

فبما أن حياة الأمم بالعلم، فإن أعلنتها حربا شعواء لا نهاية لها على الأمية وأعداء العلم، الذين يتقوتون بجهل الجاهلين،و أشباه المتعلمين، فكان يدعو كل من له القدرة

---

[1] - الآثار: 108/1.

[2] - الآثار: 10/1.

[3] - الآثار 142/1.

على المساهمة في نشر العلم والإتيان على الأمية للعمل سويا بغية تعليم الناس ما ينفعهم، وعاب على الذين يفرطون في هذا الواجب الوقتي، في حين بلغت نسبة القضاء على الأمية لدى الأمم الأخرى نتائج يذهل عنها القاعدون، وفي ذلك يقول: " ... فأين نسبتنا من هؤلاء؟ وأين مساعينا من مساعيهم؟ وأين خطباؤنا؟ لم لا يحملون على الأمية حملة شعواء؟ ولم لا يعطونها من الاهتمام ما أعطوه لقرن الثور وفضائل الشهور.؟ وأين شعراؤنا؟ لم لا يشاركون في حملة منظمة ويدعون إليها بقصائدهم المثيرة المحركة؟ وأين علماؤنا الذين برأهم الله من داء الأمية؟ لماذا لا يسعون في تطبيب غيرهم منها؟ أم هم يريدون أن تبقى الأمة أمية ليبقوا سادات ومشائخ، فإن كان هذا مرادهم فأنبئوهم عني أنـــه ليس من الشرف السيادة على طغام والرعاية على أغنام، وأين أغنياؤنا؟ يخرجون الأموال ويشيدون المدارس ويقفون في مكافحة هذا الداء الفتاك موقف الأبطال".[1]

والسبيل للقضاء على الأمية والجهل كما يرى الإبراهيمي هو تشييد المدارس، وتعميرها بطلاب العلم، ليحصل لهم وبهم النفع لهذه الأمة، فـــ" ...حياة الأمم في هذا العصر بالمدارس، وما في هذا شك، إلا في قلوب ران عليها الجهل، وغان عليها الفساد، ونفوس ختم عليها الضلال، وضرب على مشاعرها المسخ، الحياة بالعلم، والمدرسة منبع العلم، ومشرع العرفان، وطريق الهداية إلى الحياة الشريفة، فمن طلب هذا النوع من الحياة، من غير طريق العلم زل، ومن التمس الهداية إليه من غيرها ضل، وحياة الأمم التي نراها ونعايشها شاهد صدق على ذلك...".[2]

---

[1] - الآثار: 1/ 143.

[2] - عيون: 283.

7- بث الأخلاق الفاضلة:

إن حصل التمسك بالقرآن والاعتضاد بالسنة، وحب العربية، والالتفاف بالوحدة، والعصمة من الجهل بالعلم، لا بد من التزين بالأخلاق، فهي دعوة ما فتئ الشيخ الناصح لأمته يدعوها إلى التحلي بها، لأنها من شيم هذا الدّين، وميز أفراده عن الأمم الأخرى، وفي الوقت الذي كادت أن تصبح الأخلاق غريبة بين أهلها.

ويعتبر الإبراهيمي الأخلاق لازما لابد منه، يقول:" وأما اللازم الثاني وهو الأخلاق فنحن أحوج ما نكون إليه في هذا الزمان الذي كثرت فيه المبادئ العاملة على هدم الأخلاق الخيرية، وكثرت فيه الأذواق المتطرفة التي تستمرئ الرذيلة على الفضيلة.

وإذا كان عقلاء الأمم التي أرقى منا بكثير تشكو فساد الأخلاق في أممها فمن نحن وأين نكون؟

فالواجب على اجتماعنا الذي ننشد تكوينه أن يبذل مجهودات قوية لرفع درجة الأخلاق عندنا، ومن فكري الخاص أن هذه الناحية من أمراضنا هي أيسر معالجة من جميع النواحي إذا أحسنا تسيير الجهود الفردية في التربية المنزلية، لأن لنا أساسا نبني عليه ولا يعسر إحياؤه وهو الأخلاق الإسلامية المتوارثة في الجملة، والتي نجد معظمها في القرآن في أوضح بيان، ثم الأخلاق العربية المأخوذة من آدابهم التي هي أنفس ما خلفوه لنا من التراث.

فإذا تمكنا بالتدريج من قمع هذه الجراثيم الأخلاقية التي أفسدت مجتمعنا وتكوين أفق أخلاقي صالح نكون قد جنينا من اجتماعنا شيئا هو ثمرة الثمرات وفائدة الفوائد".[1]

ولا بد أن الذين توكل لهم- كما يرى الإبراهيمي- مهمة إحياء الأخلاق الإسلامية والأخلاق العربية، هم علماء الدين، ...فهم محل الرجاء في إصلاح أحوال المسلمين إذا صلحوا، وهم أنفذ أثرا في هدايتهم وإرجاعهم إلى هدي محمد وأصحابه، وإلى التخلق بأخلاقهم المتينة التي سعد المسلمون بالتخلق بها قديما، وشقوا بالتخلي عنها حديثا، حتى

[1] - الآثار: 10/1.

وصلوا إلى هذه الدركة التي لا يحمدون عليها ولا يحسدون، وما دخل عليهم الشر إلا من هذه الثُغر الأخلاقية التي فتحها التحلل من القيود، ووسعها الاسترسال في شهوات العقول والجوارح.[1]

فلابد من الرجوع إلى الأخلاق والدعوة إليها، سلوكا لا أقوالا تتلى على المنابر، لتحيا الأمة، فتتخلص من قيود الاستغلال، ويشع نور الإسلام والعلم بين جنباتها.

وتلكم هي أهم معالم الدعوة الإصلاحية التي قادها الشيخ البشير الإبراهيمي في كنف جمعية العلماء المسلمين، مناضلا بلسانه وقلمه و جهده، لتحيا الجزائر كما تمناها.

[1] - الآثار: 4/60.

شروط النهضة عند الشيخ البشير الإبراهيمي

د. البشير قلاتي

جامعة الأمير عبد القادر

تمهيد:

الأمة التي تحمل علماءها أمة تُفعل آليات تخلفها بتنمية عوامل الانحطاط في جسمها الاجتماعي، والأمة التي يُساء فيها إلى علمائها أمة محكوم عليها بالضياع بأن تهوي على أم رأسها من مكان سحيق ،،،،،

ونحن نلج أعتاب العشرية الثانية من القرن الواحد والعشرين محتوم علينا مواجهة تحديات قاهرة جديدة تُلزمنا التسلح بالفكر الحي الجديد الذي يستلهم من الأفكار الفاعلة لكبار المصلحين من العلماء ؛ إذا عرفنا أن التغيير الاجتماعي لا تصنعه إلا الأفكار الحية ولا يوجه حركيته إلا المفكرون المخلصون من المثقفين و العلماء،،،

ولعل من أهم علماء الجزائر الأفذاذ الذين قادوا حركة الإصلاح الاجتماعي الشاملة الشيخ العلامة المصلح الشيخ البشير الإبراهيمي_ رحمه الله تعالى_ الذي كرس حياته للعلم طالبا وناشرا، وللأمة والجزائر خادما ، مصلحا،،،الرجل الذي جمع البيان الساحر بالحجة الدامغة بالدعابة المستظرفة،،وسخر كل طاقاته لخدمة قضايا دينه وبلده....[1]

وكان الشيخ البشير فعلا مصلح أمة وموقظ شعب؛ كتب الله عليه- أي الشعب الجزائري- حمل أثقال مثل الجبال من الجهل والخرافية والتخلف حتى كاد أن يتماهى مع التخلف فتصبح حياته حياة هذا التخلف فيه،،،،،

لقد كان الإبراهيمي كالشعلة التي بثت في الجزائر ثورتها الثقافية، كما يقول المفكر المسلم (رجاء غارودي) ،تلك الثورة التي مكنت الشعب من الاستقلال بعد مائة وثلاثين

---

[1] _محمد فاضل الجمالي، " الشيخ البشير الابراهيمي، ورسالته التربوية" ،مجلة الثقافة،الجزائر: وزارة الثقافة والسياحة ،س 5،ع 87، ماي / جويلية1985 ، ص 131. 132

سنة من الاستلاب الحضاري الشامل....[1] ولعل هذا ما جعل رجل مثل المستشرق الفرنسي (ماسنيون) يعتبره كما يذكر (جورج صليبا) من ألد أعدائه !!...[2].

ـ إصلاح التربية أصل التغيير وأساس الإصلاح:

انطلاقا من مفهوم الآية الكريمة:" إن الله لا يغير ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم"(الرعد/11)،، أدرك علماء جمعية العلماء المسلمين أن تغيير الأوضاع -وهو غاية العمل الإصلاحي - لا يتحقق قطعا إلا إذا حدث التغيير في البنية الذاتية للمجتمع الجزائري ؛ بأن يعمل كل فرد جزائري ـ رجل كان أو امرأة ـ على تغيير ما بنفسه أولا بالتخلص من مجموع القيم السلبية : من تواكل، استسلام ، ضعف الهمة،ضعف الإرادة، جهل.. حينذاك يُصبح مؤهلا للتخلص من ربقة الاستعمار ،ويحقق فاعليته في التاريخ،،،،، وهذا اتخذت الإصلاحية في الجزائر الآية شعارا لها,,,"وتبنتها أساسا لكل تفكير حتى أُشرب الشعب في قلبه نزعة التغيير فأصبحت أحاديثه تتخذ منها شرعة ومنهاجا ...."[3]

ولم يكن هذا المنهج في التغيير إلا نتاج تأمل عميق؛ سواء في أصول البنية الثقافية والمعرفية للمجتمع الجزائري أو لواقع الحال في تلك الظروف العصيبة من مرحلة الهوان التاريخي ، حتى نجد الشيخ يقول مؤكدا على نقطة البداية :"من أراد أن يخدم هذه الأمة فليقرأها كما يقرأ الكتاب، وليدرسها كما يدرس الحقائق العلمية. فإذا استقام له ذلك، استقام له العمل وأمن الخطأ فيه، وضمن النجاح والتمام له. فإن تصدى لأي عمل يمس الأمة من غير درس لاتجاهها ولا معرفة بدرجة استعدادها كان حظه الفشل."[4]

---

[1] ـ رجاء غارودي، "الإبراهيمي: العالم المجدد "،مجلة الثقافة، م، س، ص141. 142

[2] ـ الدكتور :جميل صليبا، أستاذ الفلسفة المشهور ، من تلامذة الشيخ البشير الإبراهيمي المرموقين (أثناء تدريسه بدمشق)، كتب عنه في مذكراته معترفا بفضله الكبير عليه وكان دائما يردد مفتخرا به:" إنه المعلم في كل مواقف حياته"،أنظر: جميل صليبا ، " ماسنيون قال لي: " هذا الرجل من ألد أعدائي."...، عن مجلة الثقافة، م، س، ص 57

[3] ـ مالك بن نبي ، شروط النهضة.ترجمة عبد الصبور شاهين ،ط1 ،دمشق: دار الفكر،1986 ، ص25.

[4] ـ محمد البشير الإبراهيمي ، جريدة البصائر 2 - 1948.م،

وهذا التغيير لا يتأتى إلا بوسيلة التربية والتعليم؛ التربية بمعنى التوجيه السلوكي والخلقي بزرع القيم وغرس العادات الايجابية التي تدفع للحركة والنهوض وإتقان العمل، ومن ثم الجهاد ضد الاستعمار، وهو ما لا يتم إلا بإصلاح التعليم وفق منهج سديد للتوجيه والتثقيف على أساس فكر حي صحيح يستمد من مرجعية الشعب الحضارية لحمة بنائه،،،،وهو ما يقوم أولا على تنقيه الأذهان وتطهير العقول من رواسب الفكر الخرافي الذي كانت تنشره أوكار التخلف للطرقية البائدة بتشجيع فاعل لمراصد الاستعمار .[1]

وقد حلل وعلل رائد النهضة الشيخ عبد الحميد بن باديس- رحمه الله –(وهما يصدران من مشكاة واحدة) أساس التغيير بقوله:" لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤه ، فإنما العلماء من الأمة بمثابة القلب ؛ إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ، وصلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام وعملهم به،وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم،فإذا كان علماؤهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل فكذلك المسلمون ،،،فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم....ولن يصلح العلماء إلا إذا صلُح تعليمهم ، فالتعليم هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته : لنفسه ولغيره؛ فإذا أردنا أن نُصلح العلماء فلنصلح التعليم، التعليم الذي يكون به المسلم عالما من علماء الإسلام يأخذ الناس عنه دينهم **ويقتدون به فيه**"[2].....

فالقضية منطقية تماما ،ويذكر المعلم القدوة يربط المنهج التعليمي بالتربية والتوجيه السلوكي ،،،وليس مجرد تعليم كلمات وحروف وتلقين معارف مجردة.....بل جاء التأكيد من الشيخ البشير الإبراهيمي على أن : **"التربية قبل التعليم..."** ؛ لأنها الأساس الذي يُبنى عليه. ولا مستقبل لأمة تفصل بينهما أو تقدم العلم المجرد وتهتم بنشر المعارف

2_ رجاء غارودي، نفسه، ص144، أنظر أيضا : مالك بن نبي ، شروط النهضة ، م.س،ص24، 25

[2]_ ابن باديس، آثار الشيخ عبد الحميد بن باديس، ج4:ط1، الجزائر: وزارة الشؤون الدينية ، دار البعث، 1406/1985م، ص 74

الدقيقة وتُهمل بالمقابل التوجيه الخلقي وزرع القيم على أساس من مرجعية الأمة ودينها وثقافتها الأصيلة،،،،وقد أجاد حافظ إبراهيم في قوله :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وهذا ما أدركه الشيخ إدراكا تاما وجعله أساس النهضة، ففي خطاب له في اليوم الثاني للاجتماع العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين(مساء الثلاثاء 4 ربيع الأول 1351هـ) قالها صريحة فصيحة:

((إن جمعيتكم هذه أُسست لغايتين شريفتين: هما إحياء مجد الدين الإسلامي وإحياء مجد اللغة العربية. فأما إحياء مجد الدين الإسلامي، فبإقامته كما أمر الله أن يُقام، بتصحيح أركانه الأربعة : العقيدة والعبادة والمعاملة والخلق،،فكلكم يعلم أن هذه الأركان قد أصبحت مختلة ، وأن اختلالها أوقعنا فيما ترون من مصائب وبلايا وآفات ....واختلت الأخلاق وفي اختلالها البلاء المبين ؛ إن الأخلاق في دينكم هي شُعب الإيمان . فلا يختل خلق إلا وتضيع من الإيمان شُعبة ، وقد أجمع حكماء الأمم على هذه الحقيقة التي قررها الإسلام بدلائله وأصوله : وهي أن الأمم لا تقوم ولا تحفظ وجودها إلا برسوخ الأخلاق الفاضلة في نفوس أفرادها.

وهذا نرى الإسلام يأخذ في شروطه على أبنائه أن يتآمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر، ويُبدي في هذا المعنى ويُعيد ،ويضرب الأمثال ويبين الآثار ، ويلفت النفوس إلى الاعتبار بمن مضوا وإلى سنن الله الخالية فيهم ..)).[1]

وكان هذا الموقف يدل على أن وعي الشيخ كان كبيرا بمدى خطورة الخطط الاستعمارية في إفراغ عقول الشباب وقلوبهم من كل القيم والأخلاق ، والعمل على إلهائهم بما يجذب نفوسهم الى شهواتها حتى يصنعوا الخواء فيهم ، فلا يهتم يومئذ إلا بتلبية شهوات الفروج

---

[1]- أحمد طالب الإبراهيمي،آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،،بيروت: دار الغرب الإسلامي، ج1: ط1، 1997م، ص 133..136.

والبطون، فتضيع همته في التوافه ، فيصبح الواحد منهم ورجولة جسمه تحتج على طفولة أفعاله كما يقول الأديب البارع مصطفى صادق الرافعي- رحمه الله - ،،،،،وهو حال كثير من شبابنا في هذا العصر الذي نعيش فيه ؛ مما ينبيك أن خللا رهيبا طال أخلاقنا وزعزع قيمنا في هذه النفوس المغتربة عن دينها وثقافتها، فترى عديد شبابنا ممسوخين خلقا ودينا وشكلا ،،،،

وهو ما كان شيخنا المصلح ينافح جاهدا - واصلا الليل بالنهار- لمحاربته ،حتى يتحقق أمله المعقود في نواصي الشباب الذين هم عماد الأمة،،،ممن تخيلهم في مقالته المشهورة التي يخاطب فيها الشباب الجزائري:" **يا شباب الجزائر: هكذا كونوا أو لا تكونوا**....."

كان الشيخ البشير يعتبر : (الأخلاق) عمدة في أي مشروع نهضوي،،،،في ذكرياته، يروي عنه تلميذه (تركي رابح) أن الشيخ كان كلما اجتمع بالطلبة الجزائريين بمركز الجمعية بالقاهرة كان يقول لهم:"إنكم لن تستطيعوا أن تنفعوا وطنكم وأمتكم إلا إذا ملكتم سلاحين هامين ، بدونهما لن تفلحوا في الحياة، ولن يستفيد منكم وطنكم شيئا هاما :

1_ الأخلاق القويمة المتينة.

2-العلم القوي النافع. "...

وكان شديد التأكيد على الأخلاق يحثهم على التحلي بها من أعماق وجدانه، كثير التحذير من السطحية والتفاهة، مؤكدا على عمق الفكر وعرض ما يتلقوه على محك العقل والنقد، ويذكر قوله البليغ(الجدير بأن يكون شعارا ويُكتب بماء الذهب):((..**المدرسة هي جنة الدنيا، والسجن نارها ،،، الأمة التي لا تبني المدارس تبني لها السجون،والأمة التي لا تصنع لها الحياة ، يُصنع لها الموت، والأمة التي لا تعمل لنفسها ما ينفعها ويُسعدها ، يعمل لها غيرها ما يضُرها ويُشقيها..والأمة التي لا تغضب للعز الذاهب ترضى بالذل الجالب ،والأمة التي تتخذ الخلاف مركبا يُغرقها في اللجة،والأمة التي لا تكرم شبابها بالعلم والتثقيف مُضيعة لرأس مالها ، والأمة التي لا**

تجعل الأخلاق ملاكها تتعجل هلاكها،والأمة التي تلد لغيرها أمة تلد العبيد لا أمة تلد الأحرار والصناديد، والأمة التي تعتمد في حياتها على غيرها طفيلية على موائد الحياة حقيقة بالقهر والنهر وقصم الظهر.....)).[1]

ولم يكن الشيخ البشير ممن يكتفون بالتنظير دون مبادرات عمل- كما يفعل الكثير منا اليوم-، يذكر (محمد الغسيري، من رجال الجمعية) أن الشيخ بادر بوضعه للجمعية برنامجا للتعليم يأخذ بيد المعلم يسير به خطوة خطوة إلى الغاية ، فكأنه مُلقن وراء المعلم يملي عليه الكلام ويرشده إلى كيفية العمل ؛ لذلك آثر جماعة من قدماء المعلمين تسميته:"مرشد المعلمين" .[2]..

_ أهداف التربية عند الشيخ البشير الإبراهيمي:

كان الشيخ البشير الإبراهيمي مرشدا بأتم معنى الكلمة ،وعلى عاتق المرشد تقع مسؤولية النهوض بجيل الشباب ورسم مستقبل أمة،،وهو ما يقتضي وضع إستراتيجية للنهضة تحدد معها أولا الأهداف ،على أساس مرجعية العقيدة الصحيحة وتعاليم الدين الحنيف،،،

- تكوين علماء صالحين: أولى الأهداف تكوين نخبة من العلماء تحمل هم الأمة وتتصدى للتغيير والإصلاح،يتكامل فيها العلم والأخلاق،،،حيث أن العلماء من الأمة بمثابة القلب من الجسد ولا يصلح الجسد والقلب فاسد،،،وهو المضغة التي إذا صلُحت صلُح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله.....كما جاء في الحديث،،،

ويمكننا تصور فكرة البشير على ضوء منهج مالك بن نبي -رحمه *الله* - في تقرير الأفكار على شكل معادلات، حيث:

علم صحيح + خلق رفيع = نهضة

---

[1]- تركي رابح،البشير الإبراهيمي في المشرق العربي، مجلة الثقافة: م، س، ص232 ،233

[2]- الإبراهيمي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، م، س، ج3،ص155

فالإبراهيمي يزاوج ويكامل بين العلم والسلوك وهو أساس البنية الثقافية للمجتمع الناهض،،،يقول:

((فالمثقفون في الأمم الحية هم خيارها وسادتها وقادتها وحراس عزها ومجدها.تقوم الأمة نحوهم بواجب الاعتبار والتقدير. وما عامة الأمم من أول التاريخ تابعة لعلمائها وأهل الرأي والبصيرة فيها ، تحتاج إليهم في أيام الأمن وفي أيام الخوف. تحتاج إليهم في أيام الأمن لينهجوا لها سبل السعادة في الحياة، ويُغذوها من علمهم وآرائهم بما يحملها على الاستقامة والاعتدال.وتحتاج إليهم في أيام الخوف ليحلوا المشكلات المعقدة ويخرجوها من المضائق محفوظة الشرف والمصلحة.))"[1]

– تحقيق حرية الفرد:

العقيدة الصحيحة في الإسلام تقوم على جوهر مفهوم التوحيد، لا إله إلا الله بمفهومها العميق ، أي عدم قبول التابعية والعبودية إلا لله، وهو ما يقتضي من الفرد أن يشعر بأن العزة لله وحده، وأن الاستعمار بكافة أشكاله طارئ عارض بسبب خلل ذاتي مكن له في جسم الأمة ومقدراتها،،،

وتعمل التربية على إذكاء هذا الشعور في نفس الفرد لدفعه للثورة والتغيير ،،،الثورة أولا على قابليته للعبودية بتخلصه من أفكار السلبية والتواكل والقدرية العمياء التي تدفعه للاستسلام،،،ثم الثورة و ضد بؤر الظلام للطرقية ربيبة الاستعمار، ثم الثورة ضد الاستعمار بجميع أشكاله ومختلف أعوانه،،،،،

وفعلا بنت الجمعية منهجها التربوي على أساس هذا الهدف الاستراتيجي الذي تحقق جزء منه، من خلال ثورة أول نوفمبر الكبرى عام 1945م....

ـ النهضة والتقدم الحضاري: لا يكفي الاستقلال السياسي وحده إذا لم يُتوج بتقدم ونهضة ورقي، وأصل النهضة السمو الخلقي النابع من الذات الثقافية،،،وهذا ما يتفق عليه

[1] – الإبراهيمي، م.س، ج1، ص352

معظم من درسوا الحضارات من الشرق أو الغرب،كما يؤكد عليه المفكر الجزائري مالك بن نبي –رحمه الله– في مجمل كتبه التي عالج فيها مشكلات الحضارة،،،،ولهذا نرى الشيخ البشير يخاطب الطلبة: **" لا يضركم ضعف حظكم من العلم إذا وفُر حظكم من الأخلاق الفاضلة ،فإن أمتكم في حاجة إلى الأخلاق والفضائل، إن حاجتها إلى الفضائل أشد وأكد من حاجتها إلى العلم؛ لأنها ما سقطت هذه السقطة الشنيعة من نقص في العلم ، ولكن من نقص في الأخلاق"**[1]

وهذا يعتبر الشيخ البشير أن:" غاية الغايات من التربية هي توحيد النشء الجديد في أفكاره ومشاربه، وضبط نوازعه المضطربة وتصحيح نظرته للحياة،....ينظر إلى الحياة ،كما هي، نظرة واحدة ويسعى في طلبها بإرادة متحدة ويعمل لمصلحة الدين والوطن بقوة واحدة..."[2]

فالتربية هدفها بناء الإنسان وليس تكديس أشياء، وهو ما لا يتم إلا بمنهج للتربية الصحيحة النابعة من ثقافة الأمة وقيمها الدينية،،،وإذا نجحت التربية في بناء الإنسان الصالح والمواطن الغيور على مصلحة وطنه، حينئذ يكون الحصول على الأشياء سهلا ميسورا،،،ولنا في التاريخ عبرة ....[3]

وبعد أن ذكرنا بإيجاز شديد- يكاد يكون مُخلا- معالم شروط النهضة عند الشيخ البشير الإبراهيمي-رحمه الله – ونحن نتأمل فيها : لا نشك للحظة حصافة ما بثه من أفكار و صدق ما رسمه للنهضة، ونخال أن أفكاره ومنهجه الإصلاحي والتصحيحي ما زال صالحا لأمراض الأمة المتشابهة ، حيث مازلنا- في هذا العصر- نعاني أزمات الحضارة التي نوه إليها الشيخ الجليل،،وسعى لإصلاحها،وحري بنا أن ندرسها ونعود إليها فهما

---

[1] – الإبراهيمي، عيون البصائر، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،1971، ص296

[2] – نفسه، ص49

[3] – مثل نموج اليابان كثيرا يُذكر في هذا الإطار.....

وتطبيقا،،، ولا يزال صوت البشير يدوي في كل نادي وزاوية أن: ثوروا على أوضاعكم وغيروا ما بأنفسكم ليُغير اللهُ ما بكم،،،يا شباب الجزائر ألم أقل لكم:" **هكذا كونوا أو لا تكونوا**.." ....وعلينا أن نحذر كل الحذر من أن يصدق فينا قول المعري:

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شادي

وشبيه صوت النعي إذا قيـــــــس بصوت البشير في كل نادي.

المرأة في الفكر الإصلاحي الإبراهيمي

أ. زكية عتول غرابة

جامعة الأمير عبد القادر

تعتبر قضية المرأة من المسائل التي شغلت حيزا كبيرا من تفكير الإنسان عبر فترات التاريخ ، ربما لم تحظ به غيرها من القضايا ، ذلك أن قضية المرأة ليست عارضة زمنية ، و إنما هي دائمة مستمرة ذات وقع وواقع اجتماعي يومي لا يمكن انحساره في مستقبل قريب) [1].

و إذا ما نحن أردنا نقف على المحطات الأولى التي دعت إلى النهوض بالمرأة في العصر الحديث، و العالم العربي الإسلامي على الخصوص وجدنا أن أولى النداءات التي قد صدرت عن رفاعة رافع الطهطاوي ت1873م ، الذي دعا إلى تعليم المرأة و النهوض بها على شاكلة المرأة الأوروبية ، ثم جاء بعده قاسم أمين ت1908م من خلال كتابيه تحرير المرأة (1889م) و المرأة الجديدة(1901م) ، (فقد آمن هذا الأخير بأن تحرير المرأة هو تحرير المجتمع و إصلاحه من هيمنة الغيبيات و سيطرة الدراويش)[2] .

و لئن كانت هذه النداءات قد نبعت في المشرق العربي و وجدت لها آذانا صاغية. واستطاعت المرأة هناك أن تحقق بعض المكاسب كالتعليم و الخروج إلى العمل، و المشاركة في النشاطات الاجتماعية ، على الرغم مما شاب هذه المكاسب من تقليد للغرب وانفتاح على عاداته في السلوك و الملبس ، (فإن هذه الأصوات لم تجد لها صدى في المجتمع الجزائري بسبب سيطرة الروح الدينية والتربية والبيئة ، هذه البيئة التي كانت تحد من انطلاق الشباب أيضا، وكانت النظرة المحافظة للمرأة بالإضافة إلى تأثير الدين هي الخوف من أن ترتمي في أحضان الحضارة الغربية فتتخلى عن قيمها و عاداتها و تقاليدها وأخلاقها الإسلامية)[3] .

غير أنه ما إن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها حتى بدأت نتائجها تبرز على جميع الأصعدة ، و (لم تكن الجزائر بمعزل عن ذلك فقد كانت الزوابع الخارجية التي أخذت تهب على الجزائر من المشرق وتونس وتيارات أخرى داخلية تدفقت مع الشباب المتخرج من المدارس) [4] من وراء الدعوة إلى تحرير المرأة و خروجها .

ومما لا شك فيه أن رجال الإصلاح في الجزائر قد حملوا لواء تكوين الفرد الجزائري وإصلاحه بما في ذلك المرأة باعتبارها محورا أساسيا في عملية البناء ، و تصدوا لكل الأفكار التي تمس بكرامتها ، و تحط من قيمتها واستطاعوا أن يحققوا في هذا السبيل مكاسب مقبولة ، وعد ذلك تحديا صارخا لمخططات الاستعمار .

وهذه القناعة بضرورة الاعتناء بالمرأة ، و تكوينها تكوينا يؤهلها للمشاركة في الحفاظ على الذات الجزائرية كانت أحد اهتمامات الإبراهيمي ، ففي معرض حديثه عن المرأة ومكانتها باعتبارها أحد اللبنات الأساسية في الأسرة و المجتمع يؤكد الإبراهيمي في كتاباته أن المهمة الأولى للمرأة بحم تكوينها الفسيولوجي هي تنشئة الطفل ، فهي المؤتمنة على القيام بشؤونه و عنها يكتسب قيمه وأخلاقه الإسلامية ، وعنها يتشرب الحب والحنان إلى أن يصير عضوا صالحا في مجتمعه محبا لوطنه ، إنها على حد قوله تعد **(مغرسا للنسل ، و غارسة للخصائص فيه و متعهدة له بالسقي و الإصلاح ح)** [5].

والواقع أن هذه الرؤية التي ينطلق منها الإبراهيمي إنما هي امتداد لرؤى العديد من المصلحين الجزائريين أمثال عبد الحميد بن باديس وأبو اليقظان والشيخ بيوض وغيرهم ، والتي تؤكد أسبقية هذه الوظيفة الموكلة إلى المرأة على ما سواها من الوظائف . فالمرأة من هذه الزاوية هي صمام الأمان الذي يحمي الأسرة من الضياع والتفكك.

إن وحدة التصور هذه تؤكد على أن المكانة التي منحها الإسلام للمرأة ، مكانة ثابتة وواضحة تستمد ثباتها ووضوحها من رسم الإسلام الدقيق لنحدود الوظيفية لهذا الجنس، ولنا في حديث الرسول ص ما يؤكد هذه الحقيقة *كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته

...والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته* [6]

وأما عن دورها في المجتمع فإن الإبراهيمي يؤمن إيمانا راسخا بدور المرأة الفعال في عملية التغيير وإصلاح مفاسد المجتمع و انحرافاته ، و الدفع بعملية التغيير نحو واقع أفضل ومستقبل مشرق، ومن ثم فإن تحقيق متطلبات الإصلاح وأهدافه في اعتقاد الرجل لا يمكن أن تتم بجهود الرجل وحده، وإنما بتكاثف جهود الطرفين الرجل والمرأة على حد سواء ، ولا يتأتى إلا بالاهتمام بها تربية و تعليما يقول الإبراهيمي(**فالأمة كالطائر لا تطير إلا بجناحين هما الرجل و المرأة، فالأمة التي تخص الذكر بالتعليم تريد إن تطير بجناح واحد فهي واقعة لا محالة)** [7] بل سائرة إلى طريق مسدود بدون منازع طالما نظرت إلى المرأة نظرة دونية لا تعي قيمتها في المجتمع و فعاليتها في تبصير الأمة .

إن قيام المرأة بالمسؤولية الملقاة على عاتقها سواء داخل مؤسسة الأسرة أو على مستوى المجتمع الذي تنتمي إليه لا يمكن أن تبرز ثمارها ما لم تعد المرأة إعدادا يجعلها في مستوى الطموح المنشود، ولا يكون ذلك في نظر الإبراهيمي إلا إذا أحيطت بكل ما تستحقه من تربية وعناية، وفي هذا الإطار جاء اهتمام الإبراهيمي بالمرأة داعيا إلى تعليمها ورفع حجاب الجهل عنها، وقد كتب رادا على أولئك الذين يرون في تعليمها مفسدة فقال (والسبب في **هذه الحالة نزعة قديمة خاطئة راجت بين المسلمين و هي أن تعليم البنت مفسدة لها ويلوك أصحاب هذه النزعة آثارا مقطوعة الأسانيد مخالفة لمقاصد الشريعة العامة و تربية محمد ص العملية لنسائه و نساء المسلمين العالمات ثم يؤيدون تلك الآثار الضعيفة الإسناد بأقوال الشعراء الذين يستمدون شعورهم من شريعة العواطف المتباينة لا من شريعة الله الجامعة،ومتى كان الشعراء مصدر فتوى في الدين)** [8].

وفي هذا السياق يشير الإبراهيمي إلى الجهود التي بذلتها جمعية العلماء المسلمين في سبيل تعليم المرأة رغم العراقيل التي أحاطت بالجمعية سواء من طرف الجامدين أو من يسمون المحافظين أو من طرف الإدارة الاستعمارية، وقد بلغ عدد الفتيات اللاتي انضممن إلى مدارس الجمعية ما يقارب 13 ألف فتاة جزائرية[9] .

ويؤكد الإبراهيمي أن من بين الإفرازات التي نتجت عن إبقاء المرأة جاهلة دون تعليم ، عزوف كثير من شباب الجزائر عن الزواج منها و لجوء بعضهم إلى الارتباط بالأجنبية ، حيث اعتبر هؤلاء أن الزواج من أمية جاهلة يعد نقيصة لهم ، وقد رأى الإبراهيمي أن اللوم لا يقع على هؤلاء بل إن ما أفرز هذه الظواهر الغريبة عن مجتمعنا هو ترك المرأة جاهلة لا تفقه من أمرها شيئا (**وقد يزيغ بعضهم الشباب الزيغة الكبرى فيتزوج بأجنبية ينفق عليها ما ينشئ ابنة عمه خلقا جديدا متعلما مهذبا منظما .... لا نلومهم و إنما نلوم أنفسنا إذ لم نأخذ للأمر عدته ، و لم نحتط لعواقبه البعيدة ، فنعلم البنت تعليما إسلاميا قويا بروحه ، قائما بفضيلته واسعا بمعانيه ترغم به هذا الشباب الأخرق على الرجوع إلى أصله ، و لا يغل الحديد إلا الحديد**)[10] .

وإذ كان الإبراهيمي يؤمن بأن المجتمع إنما يرتقي بالاعتناء بالمرأة تربية و تعليما ، فإنه في ذات الوقت يرفض رفضا قاطعا تعليمها تعليم أجنبيا يقطعها عن مقوماتها وأصالتها العربية الإسلامية، والواقع أن للرجل مبرراته و قناعاته ذلك أن البدء بتعلم اللغة الفرنسية وهي لغة ليست من روحها ولا من تقاليدها ، (**و اللغة الأجنبية إن حسنت فإنما تحسن بعد اللغة المتصلة بالروح و التاريخ و المقومات الأصيلة فهي بالنسبة للجزائرية ريح ، أما رأس المال فهو اللغة العربية**)[11] .

(وقد لاحظنا تلك النداءات الداعية في بداية الثلاثينيات تشتد وتعرض تلك الاتجاهات الفكرية التي أخذت تدفع بالفتاة إلى المدارس الفرنسية من وجوب تعليم المرأة بها أسوة

بالأوروبيات فتصبح النظريات الداعية إلى وجوب التعليم العربي الإسلامي للمرأة هدف قوميا وطنيا هو المحافظة على مقومات الشخصية الذاتية كرد فعل لدعوة بعض المتفرنسين بوجوب تثقيفها ثقافة فرنسية غربية)[12] .

ويتضح من هذا أن الإبراهيمي لا يعترض على تعلم اللغة الأجنبية، وإنما يبدو اعتراضه في أن تلقن المرأة الجزائرية التعليم الأجنبي على حساب اللغة العربية الأم، والتي تعد أحد مكونات البناء الوطني و مقوماته و التي يجب أن تترسخ لدى كل جزائري مؤمن بالثوابت الوطنية.

وفي سياق الدفاع عن المرأة وردا على أولئك الذين رفعوا لواء تحرير المرأة، واتخذوا من قضيتها ذريعة للنيل من الإسلام والتشكيك فيه، كتب الإبراهيمي موضحا أن الإسلام قد حرر المرأة و أعطاها من الحقوق ما يناسب قواها العقلية، و تركيبها الجسمي، وسوى بينها وبين بنتا وزوجا وأما، وسارت الأديان والحضارات الأصيلة على هذا النهج الذي خطه الإسلام لها إلى أن جاء المحدثون وخرجوا بها بالمرأة عن هذا النهج القويم يقول الإبراهيمي في ذلك:(**جاءت الحضارة القائمة فأرخت للمرأة العنان فزاغت الحرية المفرطة عن الاعتدال فتعدت طورها الطبيعي فأصبحت مشكلة يعسر حلها لا إنسان يعسر إقناعه**[13] **وحسب هؤلاء أنهم ظلموا أنفسهم قبل أن يظلموا المرأة وأنهم هدموها فهدمتهم في غير قصد في أبناهم وأفسدوا كونها فحرموا عونها**)[13] .

هذه جملة الآراء التي أوردها الإبراهيمي حول المرأة في موقعها من مشروعه الإصلاحي وهي أراء تنطلق من فكر وسطي يعي بدءا قيمتها في منظومة الإصلاح والتغيير ويدعو إلى النهوض بها عن مسارها الطبيعي و يخرجها عن وظيفتها التي لأجلها وجدت.

الهوامش

1-فهمي جدعان ، أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث ، دن ، بيروت ، دط ، 1941م ، ص453 .

2-قاسم امين ، تحرير المراة ، موقم للنشر ، دم ن ، 1988م ، ص (د).

3-عبد الله الركيبي ، القصة الجزائرية القصيرة ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس ، ط3 ، 1977م ، ص 30

4-محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية ،مج1 ، الشركة الوطنية للنشر، دط ، الجزائر ، ص244.

5-- البشير الإبراهيمي ، آثار البشير الإبراهيمي ، ج4 ،دار الغرب الإسلامي، ط1 ، الجزائر ،ص50

6- أخرجه البخاري ، كتاب الجمعة ، باب الجمعة في القرى و المدن عن ابن عمر . أنظر صحيح البخاري ، ج2 ، مصطفى البابي و أولاده ، مصر ، دط ، 1980م ، ص6 .

7-البشير الإبراهيمي ، آثار البشير الإبراهيمي ،ج4 ، ص170

8-نفس المصدرو الجزء ، ص264.

9-نفس المصدرو الجزء، ص170

10- البشير الإبراهيمي ، أثار البشير الإبراهيمي ، ج3 ، دار الغرب الإسلامي، ط1 ، الجزائر، ص294

11-البشير الإبراهيمي ، آثار البشير الإبراهيمي ، ج4 ، ص264 .

12-محمد ناصر ، المقالة الصحفية الجزائرية ، مج1 ، ص241

13- البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ج2 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، دط ، دت ، ص127 .

14-البشير الإبراهيمي ، آثار البشير الإبراهيمي ، ج4 ، ص361 .

معالم المشروع النهضوي الإبراهيمي

أ . بوقدح باديسي وحيدة

جامعة الأمير عبد القادر

مقدمة:

تبدو محاولة الكتابة عن شخصية بوزن الإمام محمد البشير الإبراهيمي كمجازفة علمية، نظرا لتعدد مواهبه، و سعة إطلاعه و علمه، و قوة شخصيته، و ذيوع صيته مشرقا ومغربا، بالإضافة إلى طول جهاده ، وامتداد تأثيره على مساحات مكانية وزمانية شاسعة.

إنها مساحات امتدت على مدى أربعة عقود من العمل الفكري و الاجتماعي والسياسي امتدت من مكة و المدينة شرقا ، إلى تلمسان و الأغواط غربا ، مرورا بدمشق والقاهرة وتونس وسطيف، ارتحل الإمام الإبراهيمي طالبا محصلا ثم أستاذا معلما. ثم مجاهدا مصلحا ، ناشرا أنواره أينما حل ، تاركا آثاره أينما ارتحل.

رحلة جهاد متواصل بدأت سنة 1920 بعد عودة الإمام إلى أرض الوطن. و في مخيلته فكرة حركة تحي الإسلام و العربية في الجزائر، و نهضة تنشر العلم و تحارب الخرافة. وتعصف بالاستعمار.

و لم تنته هذه الرحلة إلا سنة 1964، حين ترجل الفارس واضعا قلمه. وقد وصلت الرحلة إلى منتهاها ، و بلغت النهضة مداها، و اندحر الاستعمار عن الديار ، وبدت الجزائر- التي من أجل نهضتها كان جهاد الشيخ- بين نقطة البداية (1920) ، ونقطة النهاية (1964) مختلفة كل الاختلاف ، عزيزة تمام العزة.

إننا سنتتبع –من خلال هذه الدراسة – سيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي مفصلة من مولده عام 1989 إلى غاية وفاته عام 1964، فذلك عمل هو من اختصاص المؤرخين و الباحثين في تاريخ البلدان، من خلال سير أعلامها و عظمائها، ثم إنه عمل يتطلب بحوثا و مؤلفات ، و لا يمكن إيجازه في دراسة مقتضبة ، إنما سنعمد من خلال هذه الدراسة إلى الإطلاع على سيرة الإبراهيمي و قراءة آثاره قراءة فاحصة متأنية، حتى نتمكن من تبيين معالم المشروع النهضوي الذي بدأ الإبراهيمي يفكر فيه أثناء رحلته الأولى إلى المشرق ما بين سنتي 1911–1920 بعد اطلاعه على أفكار الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا . ومعايشته المباشرة للنهضة التي عرفها المشرق العربي على يد هؤلاء الرواد، هذا المشروع النهضوي الذي حدد معالمه الإمام الإبراهيمي –نظريا– عام 1929، وبدأ بأولى خطواته العملية عندما استقر بسطيف وأنشأ بها مدرسة ومسجدا بعد رحلته الأولى إلى المشرق.

إن هذه الخطوات الأولى النظرية والعملية لإرساء النهضة الوطنية الشاملة في الجزائر تدفعنا للتساؤل عن ماهية هذا المشروع النهضوي في فكر الإمام الإبراهيمي وعن شروطه وأهدافه، وعن أعمدته ومجالاته ووسائله.

وللإجابة عن هذا التساؤل وجب علينا الرجوع إلى كتابات الإمام الإبراهيمي الواردة في الشهاب والبصائر على الخصوص، حتى نأخذ الجواب من آراءه النظرية وممارسته العملية التي خطها قلمه ما بين عامي 1929–1964.

مفهوم المشروع النهضوي الإبراهيمي

يتقي مفهوم النهضة عند البشير الإبراهيمي مع مفاهيم مقاربة ، ومصطلحات مترادفة كالوعي واليقظة ، فنجد مثلا: " ...الوعي ، اليقظة ، النهضة منسوبة إلى الإسلام أو مضافة إلى المسلمين ، والكلمة الأولى منهن حديثة الاستعمال في المعنى الاصطلاحي

المراد منها وإن كانت عريقة النسبة في معناها الوضعي ، والوعي في معناه إدراك بعد جهل، واليقظة في قصدهم تنبيه بعد غفلة، والنهضة معناها حركة بعد ركود"[1].

والمعنى الحقيق للنهضة على حد قول الإبراهيمي هو: "تجديد و إصلاح ، ولا يكون التجديد إلا شيء تقادم، و لا يكون الإصلاح إلا لشيء فسد، فالتجديد والإصلاح وصفان عارضان ، والشيء في ذاته هو هو"[2].

والنهضة عند الإبراهيمي هي عمل يجمع بين فقه الواقع، وفقه الأحكام ويصحبها حزم لا هوينا فيه ويتبعها حزم و يسوقها إقدام لا إحجام فيه إلى غاية لا اشتباه فيها[3]

أما المشروع النهضوي الإبراهيمي فيمكننا الوقوف على مفهومه من خلال المقالة التي بين فيها طبيعة عمل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين –وهو رئيسها- حيث قال:" من الغلط أن يقال أن جمعية العلماء جمعية دينية ، يجب أن ينحصر عملها في الإصلاح الديني بمعناه الذي عرفه الناس ، و من فروع هذا الغلط ما رماها به بعض مرضى العقول، و صرعى الجهل، أنها خرجت عن مدارها حين زجت نفسها في بعض شؤون الحياة غير الدين، والحقيقة أن الجمعية تعمل من أول يوم من تكوينها للإصلاح الديني ، والإصلاح الاجتماعي، وكل ذلك يسع الإسلام ، وكل ذلك يسعه مدلولها وموضوعها، وقانونها، فالإسلام دين واجتماع"[4].

---

[1]. محمد البشير الإبراهيمي : آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ،جمع وتقديم :أحمد طالب الإبراهيمي، ج4 . دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط1 ، 1997 ، ص:219.

[2]. المصدر نفسه ، ص:218.

[3]. المصدر نفسه، ج4، ص:219.

[4]. المصدر نفسه، ج1، ص:282،283.

حدد الإبراهيمي معالم مشروعه النهضوي عام 1929*. ثم أدرجه في القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي حرره سنة 1931، وهو العام الذي تأسست فيه الجمعية، ثم في نص أساسي صدر به مؤتمر جمعية العلماء سنة 1935**.

وقد طبق الإبراهيمي مشروعه النهضوي في حياته، و ذلك بتلقين العلم و الدين والأخلاق كمدرس ، ثم كزعيم حركة دينية و ثقافية عظيمة إلى غاية وفاته رحمة الله عليه.

شروط النهضة عند الإمام الإبراهيمي

لقد حدد الإمام الإبراهيمي الشروط التي يجب توفرها في أي مشروع نهضوي إذا أريد له النجاح، وتحقيق الغاية و يمكن تفصيلها في النقاط الآتية:

1. **الرجوع إلى كتاب الله و سنة نبيه:** كونهما المصدرين الأساسيين للفكر الإسلامي، ولأي نهضة إسلامية، فقد دعى الإبراهيمي و حث على الالتزام بالقرآن في مقالات كثيرة، وتحدث عن ضرورة الاستمساك به والرجوع إليه في مناسبات عديدة "والقرآن القرآن! تعاهدوه بالحفظ و أحيوه بالتلاوة، وربوا ألسنتكم على الاستشهاد به في اللغة والقواعد، وعلى الاعتماد عليه في الاعتبار بسنن الله في الكون"[1].

و قد تعامل الإمام مع السنة على أنها شرح و بيان للقرآن، فالعلاقة بينهما علاقة مصدر منشئ للأحكام و المعارف و التصورات بمصدر مبلغ و مبين له فقال: "... على أنها بيان لكتاب الله توالفه و لا تخالفه، و شرح عملي لدين الله يؤيده و لا يعانده ،

---

*. لمزيد من التفصيل أنظر: مقالة التعاون الاجتماعي في الجزء الأول من آثار الإمام الإبراهيمي

**. لمزيد من التفصيل أنظر: مقالة مقدمة سجل مؤتمر جمعية العلماء في الجزء الأول من آثار الإمام الإبراهيمي، ص: 155. و مقالة: فلسفة جمعية العلماء في الجزء نفسه، ص: 158.

[1]. محمد البشير الإبراهيمي : عيون البصائر ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط1 ، 1997، ص: 204.

وطريق إلى سعادة الدارين لا يضل سالكه، و لا يفلح تاركه ، و سلم موصل إلى الحياة العزيزة الكاملة...".

2. **فتح باب الاجتهاد و التجديد:** و قد شعر الإبراهيمي بواجبه في هذا المجال. فكانت له فتاوى و آراء في المسائل المستحدثة بناها على أصول الاجتهاد المعروفة في علم أصول الفقه ، و قد نوه بجهود الأولين و ثمنها و اعترف لهم بقدرهم على استجماع أدوات الاجتهاد فقال: "نحن أول من يقدر قدر تلك الأنظار الصائبة و المدار كالراقية ، ويقيمها دليلا على اتساع التشريع الإسلامي لمصالح الناس و صلاحيته لجميع الأزمنة، وينكر على من سد هذا الباب على الأمة فزهدها في استجماع وسائله"[1].

3. **معرفة اللغة العربية و الإحاطة بقواعدها و فنونها :** و قد تحقق هذا الشرط في شخصية الشيخ الإبراهيمي حيث شهدت مجامع اللغة العربية في مصر و سوريا و العراق للإمام الإبراهيمي بقوة اطلاعه على اللغة العربية و إحاطته الواسعة بآدابها و فنونها وتعمقه الكبير في قواعدها و بلاغتها و إلمامه القوي بأسرارها و فهمه العميق لمعانيها ودلالاتها.

وفي هذا الإطار تندرج شهادة د. عبد الحليم عويس التي جاء فيها: "... وهو واحد من هذا النسق البليغ الذي عرفته العربية في عصرنا الحديث في عدد من أعلام الفكر الإسلامي الذين وقفوا في وجه الحملة التغريبية ، ويقف في القمة منهم أمراء البيان الثلاثة: مصطفى صادق الرافعي ، و شكيب أرسلان ، و البشير الإبراهيمي"[2] .

وقد كانت جريدة البصائر ساحة معركة حقيقية للدفاع عن اللغة العربية والدعوة على الاهتمام بها من طرف أبنائها، وإن من أهم صور هذا الدفاع المستميت عن اللغة

---

[1]. آثار الإبراهيمي. ج2. ص:320.

[2]. عبد الحليم عويس : الشيخ البشير الإبراهيمي ، وجهوده في الإصلاح الديني في الجزائر، مجلة الثقافة. س 15. ع 87، الجزائر 1985، ص:358.

العربية هي جعل التعليم في كل المستويات والمدارس التابعة لجمعية العلماء تعليما عربيا

أ- **معرفة الواقع و فهمه:** إن فقه الواقع والإطلاع على أحوال الناس شرط لازم عند الإبراهيمي لمن أراد أن يخدم الأمة حيث قال:" من أراد أن يخدم هذه الأمة فليقرأها كما يقرأ الكتاب، وليدرسها كما يدرس الحقائق العلمية، فإذا استقام له ذلك استقام له العمل وأمن الخطأ فيه، وضمن النجاح و التمام له، فإن تصدى لأي عمل يمس الأمة من غير درس لاتجاهها و لا معرفة بدرجة استعدادها كان حظه الفشل..."[1].

ب- **العمل الجماعي المنظم و ضرورة إشراك الجماهير في أية نهضة إذا أريد لها النجاح:** حيث أن العمل الجماعي قاعدة أساسية و شرط ضروري في أية نهضة تستهدف إحداث الانقلاب في نظام المجتمع.

ويبرز هذا الشرط الهام في تحقيق النهضة من خلال العمل الذي كان يقوم به الإبراهيمي مع ثلاثة من العلماء العاملين الذين احتضنتهم جمعية العلماء المسلمين، وجمعت جهودهم و قسمت تحركاتهم على مدة ثلاثة عقود.

وقد أكد الإبراهيمي على أهمية العمل الجماعي من خلال محاضرته عن فوائد التعاون الاجتماعي التي ألقاها بنادي الترقي بالعاصمة عام 1929

ج- **التزام التدرج و المرحلية:** و هو شرط هام لتحقق النهضة أهدافها ، و تصل إلى غاياتها، ذلك أن الاستعجال في تسوية الأوضاع الشاذة التي يعاني منها المجتمع و العمل الانقلابي السريع الذي لا يراعي سنة التدرج و لا يحترم مراحل العمل النهضوي المتتابعة يؤدي إلى الخيبة ، و يقود إلى الخسران.

---

[1] انظر مجموعة المقالات التي تناولت التعليم العربي في عيون البصائر ، ص: 217 إلى 248.

[1] الإبراهيمي، عيون البصائر، ص:209.

وإننا لنجد هذا الشرط واضحا أيما وضوح في سيرة الإمام الإبراهيمي و في خطبه و أعماله المختلفة، التي تسعى من خلالها لتحقيق النهضة الشاملة في المجتمع الجزائري حيث أنه بعد عودته من المشرق سعى لتأسيس جمعية الإخاء العلمي مع رفيقه الإمام عبد الحميد ابن باديس، غير أن الظروف لم تكن مناسبة لوجود هذا الشكل التنظيمي ، فبقيت الفكرة تختمر إلى غاية عام 1931 حيث يقول: "كملت لنا على هذه الحالة عشرة سنوات كانت كلها إعدادا و تهيئة للحدث الأعظم وهو إخراج جمعية العلماء من حيز القول إلى حيز الفعل"[1].

وقد عمل الإبراهيمي وفق سنة التدرج في تربية النشء وإعداده لمعركة التحرير الكبرى ، وإصلاح المجتمع ببعث مقوماته التي عمل الاستعمار على طمسها.

أهداف المشروع النهضوي الإبراهيمي

إن من أهم الأسباب التي ساعدت على قيام المشروع النهضوي الشامل الذي تولى قيادته و العمل لأجله الإمام البشير الإبراهيمي أن وضح منذ البداية أهداف مشروعه وغاياته بشكل مباشر لا يلفه الغموض و لا يكتنفه التردد، و يمكننا تلخيص هذه الأهداف والغايات في النقاط الآتية:

1. تحرير الوطن و إحياء الأمة: لقد أثرت الظروف التي عاشتها الجزائر في نفسية الإمام الإبراهيمي ، لأنه كان يشاهد بأم عينه ما يعانيه الشعب الجزائري من بؤس و ذل و حرمان ، ففكر في إيجاد طريقة يقاوم من خلاله الاستعمار ، و يفضح مخططاته، وفي ذات الوقت ينبه الرأي العام المحلي (الشعب الجزائري) إلى خطورة الاستعمار، ويهيئ الشعب ، و ينفخ فيه الروح الإيمانية التي تدفعه إلى الثورة على الظلم.

---

[1] . عيون البصائر، ص:212.

لذلك كانت الفكرة التي جعلها منطلق مشروعه النهضوي هي أن مقاومة الاستعمار التي هي غاية كل نشاط وطني ، تتم على مراحل تأتي في مقدمته تعبئة الإنسان.

إن الهدف الأساسي الذي رسمه الإبراهيمي ووضعه نصب عينيه هو إيجاد الأمة السليبة الحقوق ، و خدمتها و الدفاع عن مقومات سيادتها جنسا و دينا و لغة و تاريخا وأرضا "إيجاد الأمة ، ولا توجد الأمة إلا بتثبيت مقوماتها من جنس ولغة ودين وتقاليد صحيحة ، وعادات صالحة، وفضائل جنسية أصيلة ، وبتصحيح عقيدتها ، وإتمامها بالحياة ، وبتربيتها على الاعتداد بنفسها ، و الاعتزاز بقوتها المعنوية، و المغالاة بقيمتها وبميزاتها ، وبالإمعان في ذلك كله حتى يكون لها عقيدة راسخة تناضل عنها و تستميت في سبيلها، وترى أن وجود تلك المقومات شرط لوجودها، و متى تلاقحت ولدت وطنا"[1].

2. تجديد الدين و إحياؤه: لقد وضح الإبراهيمي هذا الهدف في أسمى عبارة وأوضح طريقة وأبين معنى من خلال توضيح أهداف جمعية العلماء، فقال: "يا حضرة الاستعمار إن جمعية العلماء تعمل للإسلام بإصلاح عقائده، و تفهيم حقائقه، وإحياء آدابه وتاريخه، وتطالبك بتسليم مساجده و أوقافه إلى أهلها، وتطالبك باستقلال قضائه، وتسمي عدوانك على الإسلام ولسانه ومعابده وقضائه، عدوانا بصريح اللفظ[2].

3. إحياء اللغة العربية وتثبيت عروبة الجزائر: يركز الإمام كثيرا في محاضراته وكتاباته على العروبة واللغة العربية، لأن فرنسا عملت طيلة وجودها بالجزائر على تحقير العروبة و تقليل شأنها في أعين الجزائريين لسلخهم منها و إبعادهم عنها، لذلك جعل الإبراهيمي منذ إحياء هذه اللغة وتثبيت أركانها في الجزائر هدف من أسمى الأهداف التي تسعى النهضة الشاملة لتحقيقها.

---

[1]. عيون البصائر، ص:64.

[2]. المرجع نفسه، ص:62.

وإن هذه اللغة لا تزال في ليل مظلم مما تلقاه من حرب أعدائها، وجفاء أبنائها، وأن ميدان العراك بينها و بين الحوادث لم يزل فسيحا، فاستعدوا للذود عن حياضها، والنضح عن حقيقتها ، وستكون العاقبة لها إن استعددتم لهذا الدفاع الجديد...[1].

4. التصدي لحملات التبشير و الإلحاد و الإدماج: هذه الأمراض الثلاثة التي ابتليت بها الأمة الجزائرية بسبب الاستعمار الذي عمل على محو هويتها الحضارية بصدها عن دينها، و إلحاقها بغير جنسها.

وقد اعتبر الإبراهيمي، احتلال فرنسا للجزائر "حلقة من الصليبية الأولى" [2] بين موقف الجمعية من الإلحاد والتبشير والإدماج، ووضح فلسفتها في محاربة هذه الأدواء الثلاثة، و جعل ذلك هدفا من أهدافها[3].

5. التقريب بين الاتجاهات الوطنية و الأحزاب السياسية: ويبدو ذلك من خلال سعي الإبراهيمي مرات عديدة في جمع الأحزاب و الشخصيات الوطنية في هيئة موحدة تتفق على مجموعة من المبادئ والأهداف فنجد ذلك مثلا في سعيه لإنشاء هيئة أحباب البيان، ثم دعوته لتوحيد الأحزاب الجزائرية من أجل تشكيل الهيئة العليا لإعانة فلسطين في أكتوبر عام 1948 **، كما أن كتابات الإبراهيمي و محاضراته لا تكاد تخلو من الحديث عن الوحدة بين الجزائريين خاصة، و العرب و المسلمين عامة من جهة، و نبذ الفرقة و الوقوف ضد كل ما يفرق أبناء الأمة الواحدة من جهة أخرى.

أعمدة المشروع النهضوي الإبراهيمي

في عام 1929 ألقى الإمام الإبراهيمي محاضرة بنادي الترقي بالعاصمة، نشرت بعد ذلك في مجلة الشهاب، حدد فيها معالم مشروعه النهضوي في إطار النسق الإسلامي

---

[1]. آثار الإبراهيمي، ج2، ص:39.

**. لمزيد من التفصيل أنظر الجزء الثاني من الآثار مقالة: كيف تشكلت الهيئة العليا لإعانة فلسطين ، ص: 267 و ما بعدها.

والذي يقوم على أعمدة أربعة هي من ألزم اللوازم لقيام نهضة منظمة في حياتنا القومية وهذه الأعمدة الأربعة هي : الدين و الأخلاق و العلم و المال.

أما الدين: فهو دين فطرة ، و لا يرجع في أحكامه إلا إلى النص القطعي من كتاب محكم أو سنة قوليه أو عملية متواترة ، و أن كل ما ألصق بالدين من المحدثات فهو بدعة يجب اعتبارها ليست من الدين و إن تراءت في صورة ما يقتضيه الدين...[1].

و أما العلم : و هو أحد الدعائم الهامة لإنجاز المشروع النهضوي، سواء كان هذا العلم متعلقا بأمور الدين ، أي العلم الشرعي، أو بأمور الدنيا و هو مجموع العلوم العصرية الضرورية لتقدم الأمة و نهوضها.

و قد اعتبر الإبراهيمي "احتياج الحي إلى العلم في هذا الزمن أصبح قرين احتياجه إلى الطعام..."[2].

أما الأخلاق: فهي لازم أحوج ما تكون إليه في هذا الزمان الذي كثرت فيه المبادئ العامة على هدم الأخلاق الخيرية، و كثرت فيه الأذواق المتطرفة التي تستمرئ الرذيلة على الفضيلة.

و قد بين الإبراهيمي مصدر الأخلاق التي يجب أن يقوم المشروع النهضوي على أساسها فقال :" و لنا أساس نبني عليه، و لا يعسر جد العسر إحياؤه هو إما الأخلاق الإسلامية المتوارثة، و التي نجد معظمها في القرآن في أوضح عبارة و أوضح بيان، ثم الأخلاق العربية المأخوذة من آدابهم التي هي أنفس ما خلفوه لنا من التراث[3].

و أما المال: فهو العصب النابض الذي يمد المشروع النهضوي بالحياة، وقد جعله الإبراهيمي أحد الأسس و الدعائم الهامة التي لا تقوم نهضة الأمة إلا به و لم يكتف ببيان

---

[1]. الآثار ، ج1، ص:51، مقال "التعاون الإجتماعي".

[2]. المرجع نفسه، ص:54.

[3]. المصدر نفسه، ص:52،53.

أهميته فإنها مما لا يخفى على عاقل، ومما لا يحتاج إلى كثير بيان، بل فصل في كيفية تحصيله و إنفاقه، فوضع الخطوط الأساسية لقيام اقتصاد قوي يمد النهضة بما تحتاجه و يكفل لها الاستمرار، "... نحن في هذا المقام نتحمل واجبين: واجب الاحتفاظ بما هو موجود، وواجب الاستثمار الموجود حتى ينمو، و إذا أردنا القيام بالواجبين فلا بد لنا من اعتبار الأصول المرعية في كل من الاحتفاظ و الاستثمار، و كلنا يعتقد أن الثروات التي نمت بين أيدينا إنما نمت بعد إطراح أساليب التنمية العتيقة و استعمال الأساليب الجديدة[1].

مجالات المشروع النهضوي ووسائله

رأينا في الفقرات السابقة كيف أن الإمام الإبراهيمي قد حدد معالم مشروع نهضوي شامل يقيم الجزائريين عثرتها، و ينبهها من غفوتها، حتى تلحق بركب الأمم الحية القوية، المنتجة ، وإن تلك المعالم التي وضعت شروط النهضة الدقيقة ، ورسمت أهدافها السامية، و حددت أعمدتها و أسسها المتينة، لم تترك مجالا من مجالات الحياة إلا اهتمت به، و عملت على بعثه و إحيائه، حتى بدا المشروع النهضوي في نهاية المطاف مشروعا شاملا متكاملا.

و من المؤكد أن الوصول بهذا المشروع إلى الشمول و الكمال قد احتاج مجموعة من الوسائل التي لا بد من الاستعانة بها لتحقيق أهداف النهضة و غاياتها، و إن إطلالة على الوسائل و الأساليب التي استخدمها الإبراهيمي في مختلف المجالات التي شملها مشروعه النهضوي تبين لنا بوضوح ثراءها و تنوعها و تكاملها ، بحيث شملت معظم القطاعات الحيوية في المجتمع و كانت موجهة لخدمة جميع الفئات الشعبية، إلى جانب انسجامها و تجاوبها مع الواقع و البيئة الجزائرية، و استغلالها الأمثل لمستحدثات الحضارة

[1]. المصدر نفسه، ص:54.

الغربية، كل ذلك في إطار المبدأ الثابت الذي يحدد مشروعية هذه الوسائل التي نشير إليها باختصار في الفقرات الآتية:

– **التربية و التعليم:** يعتبر هذا الميدان من أهم الميادين التي خاض فيها الإمام الإبراهيمي كفاحه المرير ضد الاستعمار الفرنسي الذي عمل على مدى عقود من الزمن على تجهيل الشعب الجزائري، و ضد الطرفية المنحرفة التي ساهمت في نشر الخرافة و الشعوذة، و في هذا المجال نجد الإمام يعتمد على مجموعة من الوسائل و الأساليب نلخصها في الآتي:

1. بناء المدارس: يعتقد الإمام الإبراهيمي أن التعليم نوع من الجهاد و يرى المدارس ميادين جهاد، و يعتبر المعلمين مجاهدين مستحقين لأجر الجهاد، لأن التعليم هو عدو الاستعمار الألد.

و قد رأى أن المدرسة العربية هي الملجأ الوحيد الذي يمكن أن يحمي الطفل الجزائري من الجهل و من محاولات الاستعمار المتكررة لطمس شخصيته و نلمس من خلال كتابات الإبراهيمي دعوة ملحة لبناء المدارس و الإكثار منها، و الإلحاح على المعلمين في وضع البرامج المناسبة و القيام بمهمة التربية و التعليم أحسن قيام.

و قد نتج عن هذه الدعوة المتكررة ، و الحملة التوعوية المستمرة حركة شعبية واسعة النطاق عملت على بناء المدارس و تجهيزها رغم كل ما كان الشعب الجزائري يعانيه من فقر و مسغبة، ففي عام 1943 وحده بنيت 73 مدرسة. و قد قال عنه الإبراهيمي إنه موسم حمى فائرة، أعراضها تأسيس المدارس، و هذيانها الحديث عن المدارس*.

وفي عام 1948 بلغ عدد المدارس العربية الحرة 130 مدرسة، والى غاية عام 1954 قامت النهضة المباركة بقيادة الإبراهيمي ببناء حوالي 400 مدرسة[18].

---

*. لمزيد من التفصيل أنظر مجموعة المقالات حرية التعليم العربي في عيون البصائر. ص: 201 و ما بعدها.

ويلاحظ في هذا المجال التوسع في تعليم البنت الجزائرية في مجتمع كان يعتبر تعليم البنات إحدى الكبر، وقد جادل الإبراهيمي جدلا كبيرا عن حقها في التعليم، بل عن واجبه عليها.

- تأسيس معهد الإمام عبد الحميد بن باديس بمدينة قسنطينة ، وهو أول معهد للتعليم الثانوي أسس عام 1948 على يد الإبراهيمي، وقام بربطه بجامع الزيتونة ، بهدف إيجاد علاقة ثقافية علمية بين المؤسسات العلمية العربية ، وتمكين حاملي شهادة المعهد من الالتحاق بالمؤسسات التعليمية العليا في المشرق العربي .

- **تكوين لجنة التعليم العليا:** قرر الإبراهيمي مع إخوانه قادة الجمعية إنشاء لجنة خاصة بالتعليم ، فأنشئت في 13 سبتمبر 1948 ، وكانت بمثابة وزارة تربية شعبية وعهد إليها بوضع البرامج ، وتقرير كتب الدراسة، وإصدار اللوائح التنظيمية وتعيين المعلمين ، ووضع الدرجات لهم ، وأختار المفتشين ، وتنظيم ملتقيات تربوية وندوات بيداغوجية لمناقشة قضايا التعليم وتحسينه، ورفع مستواه ، كل ذلك انطلاقا من إيمان الإبراهيمي أنه "إذ اختلفت الأصول والمناهج في أمة كانت كلها فاسدة لأن الصالح كالحق لايتعدد ولا يختلف"(1).

- **الصحافة** : لقد آمن الإبراهيمي بان الصحافة العربية الحرة في الجزائر وسيلة هامة من وسائل تحقيق أهداف النهضة الشاملة نظرا للدور الخطير الذي تقوم به في محاربة الخرافات والبدع والمعتقدات البالية ، ونشر الثقافة الإسلامية الأصيلة ، إلى جانب قدرتها على الانتشار والوصول إلى مناطق بعيدة وفئات مختلفة ، ويبدوا اهتمام الإبراهيمي بالصحافة من خلال المقالات التي كان ينشرها في الجرائد كالشهاب والسنة والبصائر الأولى وغيرها وكان يعبر فيها عن مبادئ المشروع النهضوي، ويساهم في إرساء قواعده والتعريف به. وإن أهم دور قام به الإبراهيمي في هذا المجال هو إعادة إصدار جريدة البصائر عام 1947، وقد كان يعتبر صوتها صوت الجزائر ، وكذلك كان حريصا أشد الحرص على

أن يكون هذا الصوت يعبر أصدق تعبير عن حقيقة الجزائر المسلمة الدين، العربية اللسان، المجاهدة لاسترجاع كيانها السياسي، العاملة لاستئناف دورها الحضاري[1] ، و قد عرفها الإبراهيمي بقوله: " إحدى الألسنة الأربعة الصامتة لجمعية العلماء، تلك الألسنة التي كانت تفيض بالحكمة الإلهية المستمدة من كلام الله و كلام رسوله و التي كانت ترمي بالشرر على المبطلين و المعطلين، و كانت كلما أغمد الظلم لسانا منها سل الحق لسانا لا يسلم و لا ينبو"[2].

– **المؤتمرات الأدبية و اللقاءات العلمية:** و قد كان الإمام الإبراهيمي ة فيه فارس المنابر ، و لولاه لما ذكر للجزائر في هذه الميادين اسم، مثل : المؤتمر الثالث للأدباء العرب و مؤتمر التعريب بالرباط، و ندوة الأصفياء ، و أهم ملمح من ملامح المشروع النهضوي الإبراهيمي الذي برز في هذه المؤتمرات هو الدفاع عن اللغة العربية و التحذير من الآثار السيئة و العواقب الوخيمة التي تصيب المجتمع العربي من مخلفات الاستعمار الفكرية واللغوية ، و في هذا الصدد يقول في كلمة ألقاها بمؤتمر التعريب بالرباط: "... و هيهات أن يتحرر شعب و لسانه مستعبد للغة أجنبية أو يتحرر شعب متنكر للسانه. فإستقلال العرب لا يتم تمامه إلا بتعريب ألسنتهم و أفكارهم و همهم و ذممهم إلى آخر ما للعرب من صفات و أخلاق..."[3].

– **النوادي العلمية و الجمعيات المدنية:** أنشأ الإبراهيمي عن طريق الجمعية التي كان رئيسا لها في مدة قصيرة عشرات النوادي في المدن و القرى، و دعى إليها الشباب فاستجابوا و أقبلوا عليها لأنها أقرب إلى أمزجتهم، و من خلال هذه النوادي كانت تقام المحاضرات التي تهذب أخلاق الشباب، و قد علق الإبراهيمي آمالا كبيرة على هذه

---

[1]. مقدمة الجزء 2، من آثار الإبراهيمي، ص:27.

[2]. عيون البصائر ، ص: 16.

[3]. آثار الإبراهيمي، ج 5، "إلى مؤتمر التعريب بالرباط"، ص: 263.

النوادي لما لها من أثر فعال على المشروع النهضوي الكبير الذي حمل أمانة القيام به على عاتقه، حتى ضاق الاستعمار ذرعا بهذه الثورة الفكرية التي أحدثتها في الشيوخ و الكهول دروس الوعظ و الإرشاد في المساجد، و أشعلتها في الشبان ، محاضرات النوادي، و لم يطق على هذه الحالة ، فأصدر الحاكم العام أمرا بمنع رجال جمعية النوادي، و لم يطق هذه الحالة ، فأصدر الحاكم العام أمرا بمنع رجال جمعية العلماء من إلقاء الدروس في المساجد، و بعد مدة أصدر أمرا آخر بحرمان النوادي من بعض الامتيازات.[1]

أما بالنسبة لإنشاء الجمعيات المدنية فيمكننا القول بأن هذا الأمر يعكس مدى ذكاء الإبراهيمي و فطنته إلى الدور الذي يلعبه المجتمع المدني و التنظيمات الجماهيرية الذي لا يقل عن دوران الأحزاب و المؤسسات السياسية ، و قد انطلق الإبراهيمي في دعوته إلى العمل و التنسيق مع الجمعيات و المنظمات من موقع الإيمان بدورها و فعاليتها، و الاستفادة من الطبيعة القانونية للقيام بأي نشاط محظور إداريا " و جمعيات بلغت المئات مقسمة على العلم و الإحسان و الأدب و الرياضة، تبث في الأمة النظام و الإدارة و آداب الاجتماع، و ديمقراطية الانتخاب، و تعلمها كيف تناقش ، و كيف تصوغ الرأي، و كيف تدافع عنه، و كيف تنقضه بالحجة ، و كيف تزن الأفكار ، و كيف تحاسب العاملين ، و تدربها على التدرج من الإدارات الصغرى إلى الإدارات الكبرى، لأن الأمة التي لا تحسن إدارة جمعية صغيرة ، لا تحسن بالطبع إدارة مجلس ، فضلا عن إدارة حكومة ، و لا كالجمعيات تدريب ، و نماذج تجريب"[2].

– **المساجد:** يحتل المسجد في الإسلام مكانة خاصة ، باعتباره مركزا روحيا بالدرجة الأولى ، كما أنه ارتبط بالتعليم منذ أسس النبي صلى الله عليه وسلم أول مسجد في المدينة

---

[1]. آثار الإبراهيمي، ج 4، ص:243.

[2]. الآثار، ج1، ص: 145.

المنورة ، و قد كان الإبراهيمي يؤمن بالأهمية القصوى للمساجد في تحقيق النهضة الشاملة.

"و المسجد هو مرجع المسلم و منقلبه ، فهو الذي يغذي الإسلام في نفسه بما يتردد عليه خمس مرات في اليوم و الليلة، و بما يسمعه من قرآن و خطب و دروس، و هو الذي يكون بما يصبغه به من ألوان ثابتة، و بما ينفض عليه من روحانية قوية و بما يغشى في جوانبه من فضائل أصيلة ، و بما يغرسه فيه من آمال شريفة و بما يطبعه عليه من أخلاق قويمة".[1]

خاتمة

لقد خاض الإمام الإبراهيمي جهادا متواصلا على المستوى الاجتماعي و السياسي و الفكري فالتقى بالعامة و الخاصة من الناس في المدن و الأرياف و القرى، ناهيك عن مظاهر الفساد ملقيا دروس العلم في المساجد و النوادي ، و في كل مكان جامع ينور العقول و يرفع الجهل ، بتصحيح المفاهيم و محاربة البدع و الخرافات .

وقد بذل جهودا مضنية و سلك أساليب متنوعة أخذت منه كل أوقاته و أوهنت منه كل قواه. و قد كان بمقدوره أن يعيش في دنياه منعما و هو الذي آتاه الله المعرفة والعلم .وكان في مقدوره أن يستقر في أي مدينة من مدن المشرق التي طاف بها طالبا للعلم، وداعيا للثورة، ومعرفا بالجزائر وشعبها ومحنتها، ولكنه فضل العودة إلى الجزائر ليحيي مواتها، ويبعثها من مرقدها، ويزرع فيها بذور نهضة شاملة تحررها من ربقة الاستعمار، وتسمو بها إلى العلياء ،رغم معرفته بما كان ينتظره من معاناة وما سيلاقيه من أذى مادي ومعنوي على يد الاستعمار الغاشم وأعوانه المغرورين الذين لايترددون في البطش بمن يقف

[1] عيون البصائر ، ص:159.

في طريق مخططاتهم الإدماجية التنصيرية، وخاصة أذا كان الواقف من نوع الإبراهيمي ووزنه وقيمته.

إن معالم المشروع النهضوي الإبراهيمي تحتاج إلي مزيد من البيان والتوضيح ، وإننا اليوم لفي حاجة ماسة إلي دراسة مثل هذا المشروع النهضوي الذي كانت إحدى أهم ثمراته إحياء أمة ظن المستعمرون سنة1930 أنها ماتت إلي الأبد ، وأن مقوماتها قد ولت بلا رجعة ، فإذا بالإبراهيمي يقف في الشعب شامخا هاتفا " أن الجزائر ليست فرنسية ، و لن تكون فرنسية كلمة قالها أولنا ، و يقولها آخرنا ، و مات عليها سلفنا ، و سيلقى الله عليها خلفنا". فرحم الله الإمام الإبراهيمي و رضى عنه و أرضاه.

المراجع

1- عبد الحليم عويس : الشيخ البشير الإبراهيمي ، وجهوده في الإصلاح الديني في الجزائر، مجلة الثقافة، س 15، ع 87، الجزائر 1985

2-محمد البشير الإبراهيمي : آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ،جمع وتقديم :أحمد طالب الإبراهيمي، ج4 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت .

3-محمد البشير الإبراهيمي : عيون البصائر ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط1 ، 1997

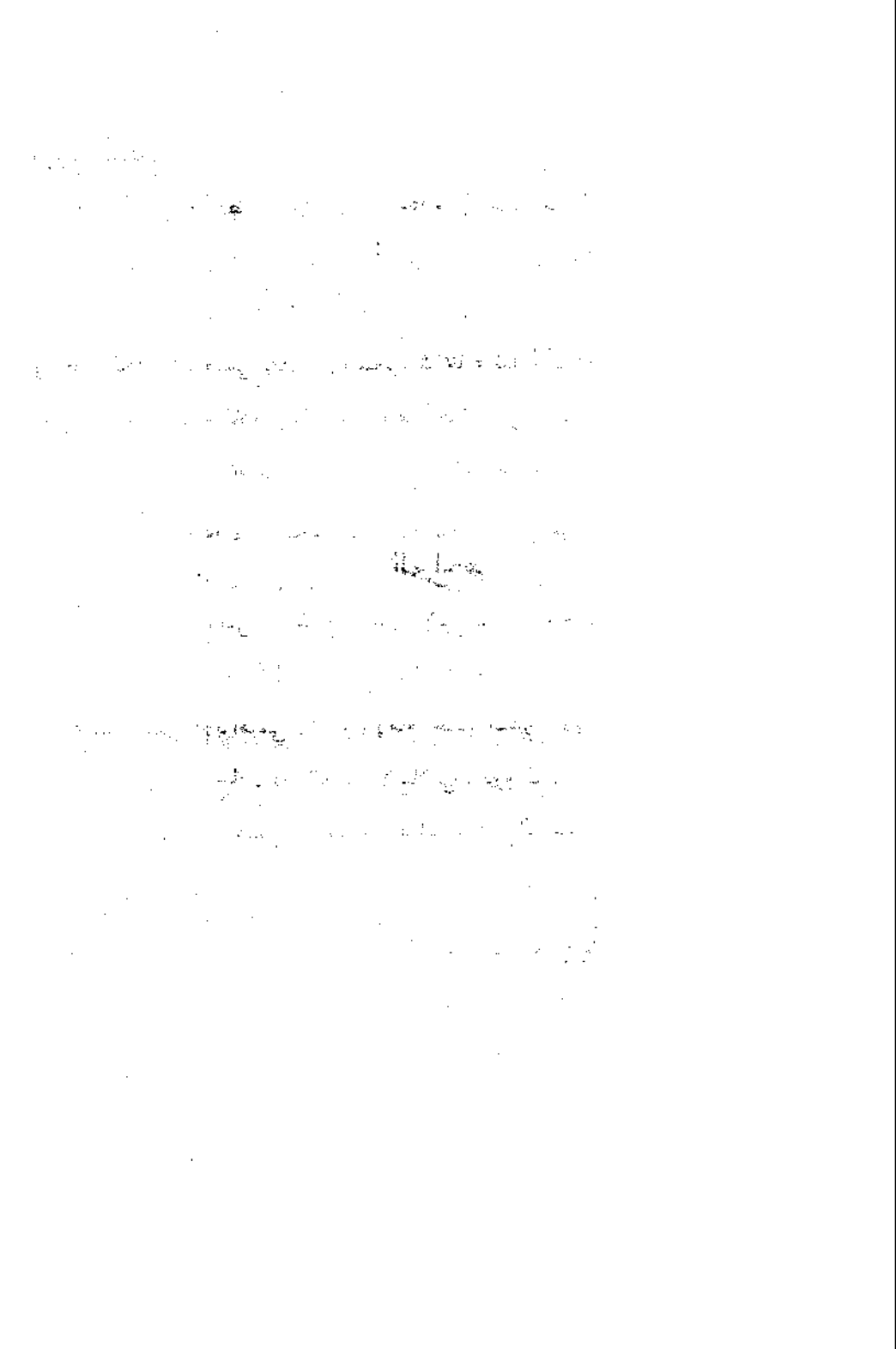

الفكر الفقهي

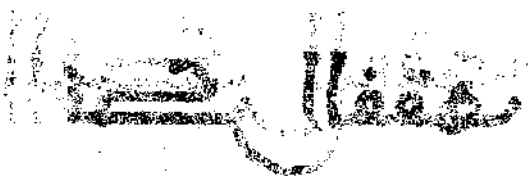

لمحات من الفكر الفقهي
عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي

أ.د. مسعود فلوسي

جامعة الحاج لخضر – باتنة

شخصية علمية متكاملة:

شخصية الإمام محمد البشير الإبراهيمي شخصية علمية متكاملة، فهو رجل دعوة وإصلاح وتعليم وتربية، والنهوض بهذه الأعمال كلها يتطلب من صاحبه الإحاطة بثقافة واسعة، تشتمل الاطلاع على العلوم التي لابد منها لمثل هذه الأعمال، والاطلاع على تاريخها وتطورها والتقلبات التي مرت بها. كما تشتمل على المشاركة في هذه العلوم بنظرات جديدة دقيقة يتجها الاهتمام النظري والممارسة العملية.

وقد وجدنا الإبراهيمي رحمه الله على اطلاع واسع بالثقافة الإسلامية بعلومها المختلفة، من عقيدة وتفسير وحديث وفقه وأصول ولغة وغيرها، مع عناية خاصة بتطور هذه العلوم ومراحلها عبر التاريخ الإسلامي، ونظرات ناقدة دقيقة إلى ما اعترى هذا التطور من نقص وجمود.

وتبدو ثقافة الإبراهيمي الواسعة واطلاعه الدقيق على علوم الشريعة الإسلامية ومشاركاته فيها، من خلال استقراء مجموع ما كتبه من مقالات وما ألقاه من دروس ومحاضرات، حيث تتبين لنا هذه الثقافة وهذا الاطلاع. صحيح أن الإبراهيمي لم يؤلف في الفقه ولا في غيره من علوم الشريعة الإسلامية الأخرى تآليف مستقلة، إلا أن اهتمام الرجل بإصلاح حال الأمة وتطلعه إلى تغيير حالها وتبديل وضعها إلى الأفضل، أملى عليه الاهتمام بكثير من القضايا العلمية ذات الصلة بواقع الأمة، ومعالجتها معالجة فقهية، مع توظيف بقية العلوم الشرعية توظيفا فاعلا عند تناول كل قضية من قضايا الواقع الإسلامي التي عايشها وعمل على علاجها.

ولعل هذا هو سر ذلك الترابط الدقيق الذي نلاحظه بين جوانب الشخصية العلمية للإبراهيمي، حيث تبدو هذه الجوانب متلاحمة تلاحما وثيقا، ولا يمكن الفصل بينها إلا على سبيل الدراسة النظرية. وما ذلك إلا لأن الإبراهيمي كان رجل إصلاح يعيش واقعه ويتفاعل مع قضايا عصره وأمته، ولم يكن رجل دراسات نظرية تبدأ من المكتب الذي تكتب عليه وتنتهي عنده ولا يكون لها في الواقع أي تأثير. لذلك فنحن، حين نتناول فقه الإبراهيمي هنا، فإنما على أساس من الدراسة النظرية التي لا يمكن اعتبارها دراسة مستقلة مبتوتة الصلة بدراسة بقية جوانب الشخصية العلمية الإبراهيمية.

حقيقة الفقه وصورة الفقيه:

قد يتبادر إلى الذهن ـــ لأول وهلة ـــ أن الفقه الذي نعنيه في شخصية الإمام الإبراهيمي هو تلك المعلومات الجامدة المبتوتة الصلة بالحياة والواقع، والتي نقف عليها في الكتب القديمة التي كتبت لعصور غير عصورنا وعالجت مشكلات غير مشكلاتنا، أو حتى بعض الكتب الحديثة التي اكتفت بترديد ما كتبه السابقون ونقل آراء الفقهاء القدامى كما هي دون أن تضيف إليها جديدا، ودون أن تتناول بالعلاج المشكلات الجديدة التي أفرزها التطور المعاصر وتركت آثارها العميقة في حياتنا وعلاقاتنا الإنسانية.

كما قد يتبادر إلى الذهن كذلك، أن الفقيه هو ذلك الرجل الذي يشتغل بالفقه الجزئي، ويعنى بإفتاء الناس من خلال الرجوع إلى ما كتبه السابقون دون أن يحمل نفسه على دراسة ما يعرض عليه من مشكلات دراسة عملية واقعية، ودون أن يتجشم عناء تحقيق المسائل المعروضة في ضوء نصوص الشريعة الإسلامية ومقاصدها الكلية، وإنما يكتفي إذا ما عرضت أمامه مشكلة بأن يفتح أي كتاب من كتب الفقه القديمة ليأتي منه بالحل الجاهز الذي قد يزيد المسألة تعقيدا ولا يسعف السائل بأي حل أو علاج.

إن الفقه عند الإبراهيمي، ليس مجرد ذكر آراء الفقهاء وأدلتهم ووجوه دلالة تلك الأدلة على تلك الآراء ثم الانتهاء إلى مناقشة الآراء وأدلتها والترجيح بينها في قالب نظري

بحت، دون نتيجة عملية واضحة.. الفقه عند الإبراهيمي ليس هو تلك الدراسة النظرية البحتة البعيدة عن الواقع ومشكلاته، وإنما هو الفقه الذي يعايش واقع الإنسان ويعالج قضاياه، ويتتبع ما تفرزه الحياة الصاخبة من مشكلات وتعقيدات، فيتناولها بالدرس الدقيق المحيط بعناصرها المختلفة وملابساتها المتنوعة، ثم يتبعها بالعلاج الصالح لها والكفيل بإنهائها والقضاء على آثارها وامتداداتها.

والفقيه الحق هو ذلك العالم الواعي النبيه الذي يضع نفسه أمام هموم الأمة ومشكلاتها موضع الطبيب الذي يحسن تشخيص الأمراض ويحسن وصف الدواء الناجع لها، وقد يصف لمريضين يعانيان مرضا واحدا دوائين مختلفين، لأن طبيعة الشخصين مختلفة، أو لأن أسباب المرض وتداعياته ليست واحدة.

ولقد حقق الإبراهيمي رحمه الله صورة الفقيه الحق في نفسه وفي حياته العملية وفي عمله الإصلاحي في واقع المجتمع الجزائري. والرجوع إلى آثاره المنشورة يوقفنا على هذه الحقيقة، فالرجل لم يشغل نفسه بتناول القضايا الفقهية الجزئية في صورتها المعهودة المكررة، المبتوتة الصلة بالواقع والحياة، وإنما تناول عددا من القضايا الفقهية، وعالجها معالجة إنسانية واجتماعية وواقعية في ضوء نصوص الشريعة الإسلامية ومقاصدها وقواعدها، وانتهى إلى الإدلاء بنظرات دقيقة ونتائج ذات آثار عملية كفيلة بحل تلك المشكلات واجتثاثها من جذورها. ولنأخذ كمثال على ذلك مشكلة الزواج في المجتمع الجزائري في الأربعينيات، فقد عالجها الإبراهيمي في مقالاته معالجة الفقيه الناقد البصير المحيط بمقاصد التشريع وأسرار الأحكام، والعارف بملابسات الواقع وظروفه، والمطلع على طبائع الناس وتباين أنظارهم وتفكيرهم، حيث لاحظ الإبراهيمي أن هذه المشكلة من أعضل المشكلات وأعمقها أثرا في حياة الأمة وأبعدها تأثيرا في تكوينها، فقد كان كثير من الشباب في تلك المرحلة من تاريخ الجزائر يُعرضون عن الزواج إلى أن يبلغ الواحد منهم سن الثلاثين فما فوق، ويترتب على ذلك انتشار العنوسة وبقاء الكثير من الشابات

دون زواج، وهو ما ينشأ تبعا له فساد في الأخلاق وانتهاك للأعراض وإهدار للأموال، مما ينذر الأمة وبقاءها بالخطر الماحق والشر الوبيل.

ولا يكتفي الإبراهيمي ببيان الحكم الشرعي في القضية دون تحليلها من الناحية العملية، وإنما يذهب إلى التحليل الواقعي القائم على الاستقراء والدرس العملي، حيث يرجع المشكلة في أهم أسبابها إلى تحكيم العادات والتقاليد في هذه المسالة الخطيرة، حيث إن "الزوج لا ينظر من الزوجة إلى دينها وحسبها وجمالها، وإنما ينظر إلى شيء واحد.. إلى مالها، فلتكن من خضراء الدِّمَن، ولتكن دميمة الخِلقَة، كل ذلك لا يضيرها عند الزوج الطامع إذا كان لها مال. وولي الزوجة لا ينظر من خاطب بنته إلى أصله ودينه وأخلاقه، وإنما ينظر إلى شيء واحد.. إلى ماله وما يقدمه من المهر الغالي والحُليِّ النفيس. وبعد هذا لا نعجب إذا رأينا كل زواج يبتدئ بهذا الاعتبار، ينتهي بالطلاق والعداوة والخصام بعد أشهر وأيام".

ويكشف الإبراهيمي عن حِكم الإسلام ومقاصده في هذا الباب، ويؤكد أن "مقاصد الإسلام في هذه السُّنَّة أعلى من كل ما يعمله الناس، فهو يرمي بما شرع إلى بناء البيوت على المحبة والتعاون على تربية النسل وتعليمه وتقوية الأمة به".

ولذلك يقرر أن الرجوع إلى أحكام الإسلام في هذا الباب بالوقوف عند حدود الله وتيسير ما عسرته العوائد من أمور الزواج، هو الكفيل بالقضاء على كل المشكلات الناشئة عن تأخير سن الزواج وتعسير أسبابه، ويقول مخاطبا الآباء والأولياء موصيا ومحذرا: "أيها الآباء، يسِّروا ولا تعسِّروا، وقدِّروا لهذه الحالة عواقبَها، وارجعوا إلى سماحة الدين ويُسره، وإلى بساطة الفطرة ولينها، إن لبناتكم مُزاحمات في السوق على أبنائكم، وإن معهن من الإغراء والفتون ما يضمن لهن الغلبة في الميدان، فحذار أن يغلب ضعفُهن

قوتكم... إنكم لا تغالبون الطبيعة البشرية إلا غلبتكم، ولا تُشادون سُنن الله إلا قهرتكم، وإن الدواء في أيديكم، فيسروا ولا تعسروا"[1].

وقد كتب الإمام الإبراهيمي مقالا ضافيا بعنوان: "الصداق وهل له حد؟"، أكد فيه أن الإسلام وإن لم يحدد في الصداق حدا أعلى ولا حدا أدنى، إلا أنه قد ندب الناس إلى التيسير في الزواج والمهر، حتى تتيسر إقامة هذه السنة الفطرية على جميع الناس. والمغالاة في المهور تفضي إلى مفاسد عظيمة، وهي كساد البنات وإعراض الشباب عن الزواج، واندفاعهم في رذائل يُعين عليها الشيطان والواقع المنحرف. ولذلك، فعلى "المسلمين أن يذللوا هذه العقبات الواقعة في طريق زواج بناتهم وأبنائهم، وأن يقتلوا هذه العوائد الفاسدة المفسدة، وأن ييسروا ولا يعسروا، وأن يعتبروا في الزواج حسن الأخلاق لا وفرة الصداق، وفي الزوجة الدين المتين لا الجهاز الثمين"[2].

نقد الإبراهيمي للممارسة الفقهية القديمة:

الفقه عند الإبراهيمي، إذن، هو الإدراك الدقيق لمشكلات الواقع الإنساني وأسبابها وملابساتها، والقدرة على معالجتها معالجة حاسمة بهدي الإسلام وأحكامه. لذلك وجدنا الإبراهيمي ينعى على فقهائنا القدامى إغراقهم في الدراسة النظرية وبعدهم عن الواقع وعن تناول مشكلاته العملية، حيث لاحظ أن أكثر مؤلفات علمائنا القدامى رحمهم الله ورضي عنهم، التي خلفوها لنا في الفقه، كتبوها وهم في أبراجهم العاجية في ديارهم وخلواتهم بعيدين عن الناس والحياة، ولم يُبْنَ الكثيرُ منها على مراعاة الأحوال العامة ولا على مراعاة طبائع الناس وتباين بيئاتهم، وقد يبنون الأحكام على ما تقتضيه أنظارهم الخاصة، ويولدون من كلام من قبلهم اقتضاءات ووجوها من التأويل، بعيدين عما يمور به الواقع من مشكلات وعما يعانيه الناس من صعوبات، فإذا خرجوا إلى السوق وجدوا اليد المصرِّفة

---

[1] ــ انظر: آثار الإبراهيمي، ج: 3 (عيون البصائر)، ص: 327.

[2] ــ آثار الإبراهيمي، ج: 3 (عيون البصائر)، ص: 293 ــ 296.

لأزمّة الأمة غير يدهم، والقانون الذي تُساس به الأمة تابعا لأهواء الأمراء لا لما سطروه هم وأتعبوا أنفسهم في تدوينه، ووجدوا سيف الاستبداد يأمر وينهى، ووجدوا أنفسهم مع العامة مسيَّرين بتلك اليد وبتلك الأهواء وبذلك السيف[1].

ويلاحظ الإبراهيمي أن أكثر التفرق الناشئ في الأمة مرده إلى جمود الفقهاء، وعنادهم المقصود، والتمحلات الفقهية التي شغلوا أنفسهم بها في ترف فكري، ولا ترجع إلى مستند صحيح من نص، ولا إلى برهان صريح من علم[2]. "وقد طغت شرور العصبية للمذاهب الفقهية في جميع الأقطار الإسلامية وكان لها أسوأ الأثر في تفريق كلمة المسلمين، وإن في وجه التاريخ الإسلامي منها لَنُدُوبا.. أما آثارها في العلوم الإسلامية، فإنها لم تمدها إلا بنوع سخيف من الجدل المُكابر لا يسمن ولا يُغني من جوع"[3].

الفقه الصحيح هو الفقه القائم على الاستدلال:

إن الفقه الصحيح في نظر الإبراهيمي هو الفقه الذي يعالج مشكلات الناس وهمومهم في ضوء الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح من علماء الأمة وفقهائها الأفذاذ، وهذا الفقه لا يمكن أن يصل إليه إنسانٌ قاصرٌ جامدٌ عند أنظار الفقهاء وآرائهم، غيرُ قادر على تجاوزها إلى التعامل المباشر مع مصادر الإسلام ومرجعيته الأصيلة. يقول الإبراهيمي في هذا الصدد: "إن في الفقه فقهاً لا تصل إليه المدارك القاصرة، وهو لباب الدين، وروح القرآن، وعُصارة سنة محمد صلى الله عليه وسلم، وهو تفسير أعماله وأقواله وأحواله ومآخذه ومتاركه، وهو الذي ورثه عنه أصحابه وأتباعهم إلى يوم الدين، وهو الذي يَسْعَد المسلمون بفهمه وتطبيقه والعمل به، وهو الذي يجلب لهم عِزَّ الدنيا والآخرة"[4].

---

[1] ـ انظر: آثار الإبراهيمي، ج: 1، ص: 151.

[2] ـ انظر: المصدر نفسه في الموضع ذاته.

[3] ـ آثار الإبراهيمي، ج: 1، ص: 166.

[4] ـ انظر: آثار الإبراهيمي، ج: 2، ص: 162.

إن الأساس الصحيح للفقه هو الاستدلال، أي الرجوع إلى الدليل في كل مسألة تعرض وفي كل مشكلة تقع، حتى ولو عرضت على الفقيه المشكلة نفسها أكثر من مرة، وما ذلك إلا لأن لكل مسالة كيانها المستقل وأسبابها الفريدة وملابساتها الواقعية الخاصة بها التي لا تشترك معها فيها غيرُها من المسائل حتى وإن كانت لهما نفس الصورة.

فالفقيه ينبغي عليه أن يتناول كل مسألة تعرض أمامه بالدراسة النفسية والاجتماعية الشاملة، ثم يعرض هذه المسألة على الأدلة الشرعية، ويستخرج الحل لها في ضوء ذلك كله. ولا يسمح لنفسه بالإدلاء بالحل ذاته لمسألة أخرى تعرض أمامه وتكون صورتها نفس صورة المسألة السابقة، بل لابد عليه أن يفردها هي الأخرى بدراسة شاملة ثم يعرضها بخصائصها على الأدلة الشرعية.

ولا يمكن للفقيه أن يتناول المسائل بهذه الصورة إلا إذا تحرر من قيود الكتب القديمة، ولم يسمح لنفسه بالوقوع أسيرا لأقوال الفقهاء القدامى وفتاويهم التي هي حلول لمشكلات غير المشكلات التي تواجهه، وعلاج لقضايا غير القضايا التي تعرض أمامه. بل إن الكتب المتأخرة منها إنما هي كلام نظري صرف لا علاقة له بواقع الحياة وأدلة التشريع ومقاصده.

أما إذا اعتبر الفقيه أن أقوال القدامى هي الحلول الناجعة لكل المشكلات في كل زمان ومكان، فإنه حينئذ سيقع لا محالة تحت تأثير هذه الأقوال وسيكتفي بترديدها أمام كل مشكلة تعرض أمامه، وبذلك يفقد قدرته على التفكير المستقل ويقع أسيرا لمبدأ التسليم لكل قول يُنسب إلى فقيه من فقهاء المذهب الذي يدين نفسه باتباعه.

وقد لاحظ الإبراهيمي أن سيادة مبدأ التسليم هذا في عصور متتالية من تاريخنا الإسلامي، كان من نتائجه الضارة أن سيطر ذلك على عقول المعلمين والمتعلمين، وكان من آثاره الارتخاءُ في الملكات العلمية وعدمُ اكتساب القدرة على النظر الفقهي السليم،

والفتورُ المستحكم الذي استحال إلى انحطاط وتدنٍّ في العلم. فأساس الفقه الصحيح هو العمل بالدليل والدعوة إلى الدليل، والمطالبة بالدليل، والحكم بالدليل[1].

الفقه الصحيح يقوم كذلك على الوعي بمقاصد التشريع:

وكما أن الفقه إنما يجب أن يقوم أساسا على الاستدلال، ينبغي أن يقوم كذلك على البصيرة الدقيقة العميقة بمقاصد التشريع، ومعالجة مشكلات الواقع في ضوء تلك المقاصد. فالفقيه الذي يريد استنباط الأحكام ويعالج بها مشكلات الواقع، دون أن يتوفر على اطلاع كاف على مقاصد التشريع، من شأن فتاويه أن لا تكون قويمة ومتكاملة، لأن من الممكن أن يفتي ولا يراعي المقاصد، فقد يفتي بما يتعارض مع مصلحة السائل المستفتي أو يتناقض مع مقصد عام من مقاصد التشريع، أو يفتي بمقتضى تقديم مصلحة خاصة على مصلحة عامة، أو مصلحة جزئية على مصلحة كلية. وفي كل هذه الحالات يكون قد أضر من حيث أراد أن يصلح، وأدخل في الدين ما ليس من أحكامه.

فلا يكفي أن يستدل الفقيه بالنص من القرآن أو السنة، دون تحقيق مناط المسألة المعروضة أمامه، وإنما لابد أن ينضم إلى هذا الاستدلال مراعاة مقاصد الشارع من تشريع الأحكام ومدى تحققها من خلال الحل الذي تُعالَجُ به كل مشكلة من المشكلات التي تعرض أمام الفقيه، ذلك أن النصوص تتضمن حلولا للمشكلات في صورها المجردة، أما الصور المجسدة في الواقع فلا بد من تحقيق مدى دخولها تحت مقتضيات تلك النصوص، ومقصد الشارع من تشريع الحكم لا يمكن أن يتحقق في أي مسألة إلا إذا ثبت للفقيه بعد الدراسة الشاملة المستقصية أن المشكلة المعروضة تدخل فعلا تحت مقتضى النص المستدَلّ به، أما إذا ثبت أن للمشكلة ملابسات تجعل تطبيق النص عليها لا يحقق المقصد الشرعي، فهذا دليل أكيد على أن المشكلة لا تدخل تحت مقتضى النص، حتى وإن ظهر أنها تدخل

[1] ـ انظر: آثار الإبراهيمي، ج: 1، ص: 147 ـ 148.

تحت مقتضاه بادي الرأي، وإنما لابد من البحث لها عن دليل آخر تثبت الدراسة العلمية والعملية أنها تدخل تحت مقتضاه.

ولا يمكن للفقيه أن يعالج المسائل بهذا النظر الدقيق، ويحسن التعامل معها تعاملا فقهيا صحيحا إلا إذا كان على اطلاع دقيق على مقاصد التشريع ومتمكنا من القدرة على مراعاتها عند تطبيق الأحكام على الوقائع.

ولقد كان الإبراهيمي رحمه الله على اطلاع واسع في هذا المجال، فقد فقه مقاصد التشريع فقها عميقا، واستطاع أن يوظفها في علاج المشكلات التي واجهته في عمله الإصلاحي في واقع المجتمع الجزائري.

فنحن حين نرجع إلى آثاره المنشورة، نقف ـــ في عدة مقالات منها ـــ على نظرات مقاصدية عميقة، ونلاحظ التوظيف الدقيق لهذه النظرات في علاج مشكلات الواقع والحياة. وقد أحصيت ـــ في استقراء سريع ـــ ما لا يقل عن عشرين مقالة تتضمن نظرات دقيقة في مقاصد التشريع وأسراره وأثر الإحاطة بها في قدرة الفقيه على معالجة المشكلات، وأكتفي هنا بإيراد مثالين يكشفان لنا عما نحن بصدده.

أما المثال الأول، فهو كلام للإبراهيمي يكشف عن إدراكه لمقاصد التشريع وفقهه العميق لأسرار الأحكام، حيث يقول: "للتشريع الإسلامي في كل قضية عامة تدعو حاجةُ الناس إليها وتدخل صميمَ حياتهم، مقاصدُ بعيدةُ المدى، شديدةُ المواقع، واضحة الآثار في المجتمع الإسلامي، وعلى هذه المقاصد بُنيت الأحكام الفرعية، والذي يغفل عن هذه المقاصد لا يسلم من الخطأ في النظر إلى الجزئيات، ولا يضمن الإصابة في ترجيح دليل على دليل عند التعارض. وباعتبار هذه المقاصد العامة في التشريع الإسلامي، كانت الشريعة الإسلامية نظاما اجتماعيا كاملا كافلا لمصالح الجمهور ضابطا لها، صالحا لكل زمان ولكل مكان ولكل جنس"[1].

---

[1] ـــ آثار الإبراهيمي، ج: 4، ص: 364.

والإبراهيمي لا يدرك هذه المقاصد في عمومها فحسب، بل يدركها وهي مبثوثة في جزئيات الأحكام وأنظمة التشريع المتنوعة، ويكشف عنها في مقالاته بأسلوب رائق جميل وتعبير بليغ، من ذلك مثلا ما حدث به عن مقاصد الإسلام من تشريع العبادات، إذ يقول: "في كل فريضة من فرائض الإسلام امتحانٌ لإيمان المسلم، ولعقله، وإرادته، ودعْ عنك الأركان الخمسة، فالامتحانُ فيها واضح المعنى بيِّنُ الأثر، وجاوزْها إلى أمهات الفضائل التي هي واجبات تكميلية، لا يكمل إيمانُ المؤمن إلا بها، كالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصدق في القول والعمل، والصبر في مواطنه، والشجاعة في ميدانها، والبذل في سُبُله، فكل واحدة، أوفي كل واحدة منها امتحان تكميلي للإيمان، تعلو فيه قيم، وتهبط قيم. وفي التوحيد امتحانٌ لليقين، واليقين أساسُ السعادة. وفي الصلاة امتحانٌ للإرادة، والإرادةُ أصل النجاح. وفي الحج امتحانٌ للهمم بالسير في الأرض، وهو منبعُ العلم. وفي الصوم امتحانٌ للصبر، والصبرُ رائد النصر"[1].

ويقول في موضع آخر: "الإسلام عقائد وعبادات وأحكام وآداب، وكل هذه الأجزاء رامية إلى غرض واحد، وهو إصلاح نفس الفرد الذي هو أصل لإصلاح النفسية الاجتماعية.

فعقائد الإسلام مبنية على التوحيد، والتوحيد أقرب لإدراك العقل الإنساني من التعدد، وأدعى لاطمئنانه وارتكازه وتسليمه، والعقل إذا اطمأن من هذه الجهة انصرف إلى أداء وظيفته مجموعا غير مشتت.. والعبادات غذاء وتنمية لذلك التوحيد وعون على تزكية النفس وتصفيتها من الكدورات الحيوانية.

والأحكام ــ ومنها الحدود ــ ضمان للحقوق، وحسم للشرور، وزجر للثاني أن يتبع الأول. ومن تأمل القواعد التي بنيت عليها أحكام المعاملات في الإسلام علم ما

---

[1] ـ آثار الإبراهيمي، ج: 4، ص: 475 ــ 476.

علمناه، وهي: لا ضرر ولا ضرار، الضرورات تبيح المحظورات، ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها، درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، الحدود زواجر وجوابر، القصاص حياة.

والآداب تزرع المحبة بين الناس، وترقق العواطف، فتقوي عاطفة الخير والتسامح والإيثار والكرم والشجاعة والصبر، وتضعف عاطفة الشر والتشدُّد والأثَرَة والبُخل والجُبن والجَزَع"[1].

وأما المثال الثاني فيكشف لنا عن توظيف الإبراهيمي لفقه المقاصد في علاج مشكلات الواقع الذي كان يعيش فيه. فلقد كان من أهم المشكلات التي عالجها الإبراهيمي، وهو رئيسٌ لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مشكلةُ اختلاف المسلمين في الصوم والعيد، وما أفرزته هذه المشكلة من تفرق وتشتت وإحن وأحقاد بين أفراد المسلمين وفئاتهم. حيث رأى الإبراهيمي أن هذا الاختلاف بين المسلمين مَرَدُّه إلى أن بعضَهم لا يأخذ برؤية بعض، وهذا يحمل في طياته قدحَ بعضهم في أمانة البعض الآخر وشهادته بلا حُجة ولا بينة. وهذا الاختلاف لا يتوقف عند العلماء وإنما يمتد إلى العامة الذين يتناولونه بعقولهم الضيقة فلا يثير فيهم إلا التشنيع والتعصب والعداوة.

وقد نتج عن ذلك أن أضاع المسلمون ـــ بهذا الخلاف ـــ كل ما في الأعياد من جلال روحي ومعان دينية واجتماعية، وأصبحت الأعياد تمر عليهم وكأنها مآتم، إذ قد يلتقي الأخوان أو الصديقان أو الجاران وأحدُهُما مفطر والآخرُ صائم، فلا تستعلنُ البشاشةُ في الوجهين ولا تنطلق التهنئةُ من اللسانين، ولا يُشعُّ الأنس من أسارير الجبهتين. وإنما ينقدح في النفسين أن كلا منهما مخالف للآخر فهو خصمُه، وهو عدوه.

ويؤكد الإبراهيمي أن هذا الخلاف الفاشي بين المسلمين في وحدة الصوم والعيدين هو التفرق في الدين الذي حذر منه القرآن حين قال: ((إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا

---

[1] ـــ آثار الإبراهيمي، ج: 4، ص: 68.

لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ))[1]، وقال: ((أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ))[2]. وهذا التفرق هو الذي يُجدد الأحقاد ويَنْكؤ الجِرَاحَ ويثير الفتن النائمة، ولا مبرر له من اجتهاد أو خلاف مذهبي، أو اختلاف مَطالع، فكل هذه الاعتبارات لا وزن لها في باب العلم ولا مَحَلَّ لها في حقيقة الدين. وما دام الإسلامُ دينَ الاتحاد والوفاق بكل عقائده وعباداته، وآدابُه ترمي إلى الوفاق وتُربِّي على الوِفاق وتدعو إلى الوفاق، وبما أن قصد الشارع من التشريع جمعُ كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم وتجميع قواهم وإلغاء أسباب الشقاق والخلاف بينهم، فإن عليهم أن يوحدوا شعائرهم ويؤدوها في وقت واحد دون تفاوُت ولا تبايُن، والسبيل إلى ذلك قبولُ الأقطار الإسلامية كلها شهادة أيِّ قطر إسلامي بالرؤية، والاعتمادُ في تعميم الخبر بالإذاعات الرسمية ووسائل الإعلام المختلفة التي أتاحها التطور التكنولوجي الحديث.

وبذلك تجتمعُ كلمةُ المسلمين وتصبحُ شعيرةُ الصوم وفرحةُ العيد ومعانيهما الروحية السامية قاسما مشتركا بين جميع المسلمين فتزيد في وحدة صفوفهم وترابط قلوبهم وتلاقي مشاعرهم وأرواحهم، وتلك من أهم مقاصد التشريع وأعظم غاياته"[3].

خطورة جهل المفتي بمقاصد التشريع:

إن جهل المتصدي للفقه والمشتغل بإفتاء الناس بمقاصد الشريعة، سيكون له ـــ لا محالة ـــ أثره السلبي والسيئ على الفقه نفسه، إذ يفقد حياته وحركيته ويتحول إلى رسوم وأشكال وأقوال مجردة لا روح فيها ولا حياة.

وفي هذا الإطار، يُرْجِعُ الإبراهيمي جهلَ المسلمين بدينهم إلى جفاف الفقه وعدمِ قدرته على مسايرة الأحداث وعلاج المشكلات في ضوء المقاصد والحكم التشريعية، فيقول: "جَهِلَ المسلمون حقائقَ دينهم، وجهلوا الحِكَمَ المنطوية تحت أحكامه، ومن

---

[1] ـــ سورة الأنعام، الآية: 159.

[2] ـــ سورة الشورى، من الآية: 13.

[3] ـــ آثار الإبراهيمي، ج: 4، ص: 81 ـــ 82.

أسباب ذلك جفافُ الفقه عند الفقهاء لأخذهم إياه من كتب تعلم الأحكام ولا تُبَيِّنُ الحِكَم، فأثَّر ذلك في نفوس المتفقهة ـــ وهم مرجعُ العامة في سياسة الإفتاء ـــ آثارا سيئة، منها اعتبارُ تلك الأحكام تعبدية تُحفظ ألفاظها ولا يتحرك الفكر في التماس عِللها وطلب حِكَمِها وتَعَرُّف مقاصد الإسلام منها وتصفُّح وجوه المصلحة والمفسدة فيها".

و"لو أن فقهاءنا أخذوا الفقه من القرآن، ومن السنة القولية والفعلية، ومن عمل السلف، أو من كتب العلماء المستقلين المستدلين التي تقرن المسائل بادلتها، وتبين حكمة الشارع منها، لكان فقهُهُم أكملَ، وآثارُه الحسنة في نفوسهم أظهرَ، ولكانت سلطتُهُم على المستفتين من العامة أعمَقَ وأنفَذَ، ويدُهم في تربيتهم وترويضهم على الاستقامة في الدين أعلى"[1].

وهنا يحذر الإبراهيمي من أخذ الفقه من كتب الفتوى المجردة التي انتشرت في قرون انحطاط الحضارة الإسلامية وتراجع الفكر الإسلامي، لأنها كتب لا تحتوي على الفقه الصحيح الحيِّ المتحرك الذي يعالج مشكلات الناس وشؤون الحياة، والتفريعاتُ التي امتلأت بها هذه الكتب لا ينطبق الكثير منها على مصالح الناس، لأنها لم تُبن على رعاية تلك المصالح التي هي أساس حكمة التشريع[2].

ولا يكتفي الإبراهيمي بالكلام النظري في بيان خطر جهل الفقيه بمقاصد الشريعة وعدم توظيفه لها في علاج مشكلات الناس، بل يضرب لذلك مثلا عمليا بمشكلة الطلاق وكيف ساهم الجهل بمقاصد التشريع في استفحالها وعموم تأثيرها على حياة المسلمين. وفي ذلك يقول الإبراهيمي:

"إن من يأخذ فقه الطلاق من آية: ((الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإحْسَانٍ))[3] وما بعدها من الآيات الآمرة بالوقوف عند حدود الله الناهية عن تعديها، أو

---

(1) ـــ انظر: آثار الإبراهيمي، ج: 3، ص: 298.

(2) ـــ انظر: آثار الإبراهيمي، ج: 1، ص: 151.

(3) ـــ سورة البقرة، من الآية: 229.

من آية: ((وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ))[1]، أو من آية الحَكَمَيْن ووعد الله بالتوفيق عند الإصلاح، وبالإغناء من واسع فضله عند التفرق، أو من تخيير النبيِّ أزواجه بين حالين: أحدهما التمتيع والسراح الجميل.. من أخذ فقه الطلاق من هذا المنبع العذب يعلم أنَّ حِكَمٍ مبثوثة تحت كل كلمة وكل جملة. ومن تفقه هذا الفقه ونَشَرَه في الناس يَبْعُدُ جدا أن يتلاعب بتلك العُقدة الإلهية التي عقدها الله بين الزوجين، فيضعها في موضعها المعروف بين المسلمين الآن...

هذا الجمود في الفقه والفقهاء، وذلك الخلاف الواصل بين طرفي الإباحة والحظر في المسألة الواحدة، هما اللذان سهلا على المسلمين تعدي حدود الله في الطلاق، وأفضيا بهم إلى هذه الفوضى الفاشية في البيوت، وإلى ارتفاع الثقة بين الأزواج والزوجات. وزاد الطينَ بلة وضعٌ مُنحرفٌ لمكان الزوجة من زوجها، حتى أصبح متخلخلا متزلزلا لا استقرار له، وما جاء هذا التخلخل إلا من سوء فهم من الرجل، انبنى عليه سوء تصرف منه في الحق الذي خوله الشارع، وهو أنه يملك العصمة. وما جاء سوء الفهم إلا من سوء التفهيم من الفقيه، فالفقيه لا يعرف إلا أن العصمة بيد الزوج، لأنه لا يجد في كتب الفقه إلا هذا، وهو حق في أصل الشريعة، ولكن الإسلام لا يعطي هذه الحقوق أو هذه الامتيازات إلا للمسلم الصحيح الإسلام، القويِّ الإيمان. فهو يَكِلُ إليه عهدا ويَستحْفِظُه على أمانة، اعتمادا على رُشده، وثقةً بإيمانه، أما إعطاءُ هذه الامتيازات إلى الجاهلين المنحللين من قيود الإسلام فهو لا يَقِلُّ شناعة وسوءَ أثرٍ عن إعطاء السلاح للمجانين"[2].

شمول الفقه الصحيح للحياة كلها:

وكما أن الفقه الصحيح هو الذي يقوم على الاستدلال من نصوص الكتاب والسنة وهدْيِ السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ويتأطر بمراعاة مقاصد التشريع وأسراره،

---

[1] ــ سورة البقرة، من الآية: 236.

[2] ــ آثار الإبراهيمي، ج: 3، ص: 298 ــ 299.

فإنه كذلك فقهُ الحياة بصفة عامة، ليس فقها قاصرا عند حدود العلاقة بين العبد وربه فحسب، وإنما يمتد ليُغطي حياة الإنسان وعلاقاته كلها: مع نفسه، ومع ربه، ومع أهله، ومع البيئة التي يعيش فيها، ومع أمته، ومع الإنسانية جمعاء، بل حتى مع الحيوان والجماد ومكونات الوجود المحيط به.

وقد وجدنا الإبراهيمي في توجيهاته لفقهاء الجمعية ووُعَّاظِها يؤكد عليهم "أن لا يقتصروا على المسائل الدينية فقط، بل يتناولون المسائل الدنيوية التي يَعْمُرُ بها الوطن وتسعد بها الأمة والحكومة، مثل التحريض على العمل، والتنفير من البطالة والكسل، ومثل تحبيب الفلاحة والتجارة والقراءة، ومثل الأخوة والاتحاد والتعاون على الحق، ومثل إصلاح العائلة التي هي أساس الأمة، ومثل تحسين العلاقة بين الغني والفقير، ومثل الطاعة للحكومة في المعروف"[1].

السبيل لعودة الفقه إلى مكانته في توجيه الحياة:

تُرى؛ ما السبيل إلى عودة الفقه إلى تأطير حياة المسلمين؟ وما هي الوسيلة التي بإمكانها أن تُعيد للفقه نظارَتَه وحياته وروحَه وحركِيَّته وقدرته على مواكبة مشكلات الناس وتطور حياتهم بالعلاج المستمر والدواء الشافي لكل مشكلة؟.

يرى الإبراهيمي أن السبيل إلى عودة الفقه إلى الحياة هو تنشئةُ جيل جديد من الفقهاء على أساس من التفقيه الصحيح القائم على التدريب على النظر والاستدلال، وفق منهج علمي سليم قائم على بناء الملكة الفقهية وتربية الفكر على الاستقلال والاستدلال.

فلقد كان لغياب الاستقلال في التفكير والقدرة على الاستدلال الإنشائي في كل مسألة، أثرُه الكبير في سيادة العصبية لآراء الفقهاء السابقين وأقوالهم، ولذلك فإنه في نظر الإبراهيمي "لا عَاصِمَ من شُرور هذه العصبية إلا صرفُ الناشئة إلى تعليم فقهي يستند

---

[1] ــ آثار الإبراهيمي، ج: 4، ص: 73.

على الاستقلال في الاستدلال، وإعدادُها لبلوغ مراتب الكمال، وعدمُ التحجير عليها في استخدام مواهبها إلى أقصى حد"[1].

ولتحقيق هذا الغرض يؤكد الإبراهيمي أنه لابد من تربية الناشئة تربية جديدة، وتعليمها على أساس من منهج جديد في التعليم والتفقيه يقوم على "الاقتصارِ على لبابِ العلم والرمْيِ إلى أغراضِه السديدة، واطّراحِ القشور وما لا محصول له من المباحث، وإيثارِ العلم المفهوم على العلم المحفوظ"[2].

والتعليم المُفيد هو الذي يقوم على أن يُختارَ للمتعلم المتفقه "من الكتب ما هو أقربُ إلى الإفادة وأعونُ على تحصيل الملكة العلمية، وتجنب الكتب المعقدة التي لا تفتق ذهنا ولا تبعث في نفس الدارس نشاطا"[3].

ولا بأس أن نختم دراستنا هذه، بوصية وجهها الإبراهيمي إلى المعلمين بوجه عام يبينُ لهم فيها المنهج السليم الذي ينبغي اتباعه في تعليم التلاميذ وتربية ملكاتهم العقلية، وهي — في نظري — وصية ينبغي أن يُلزم بحفظها وتنفيذها كلُّ من يتصدى لتعليم الناس أحكامَ دينهم أو تجيبهم عن تساؤلاتهم الفقهية مبينا أحكام الشرع فيها. قال الإبراهيمي وهو يتحدث عن كيفية تعليم الناشئة:

"ربوهم على بناء الأمور على أسبابها، والنتائج على مقدماتها علما وعملا، واعلموا أن العلم يبدأ مرحلته الأولى من هذه البسائط التي تقع عليها حواسكم في الحياة كل لحظة فتحتقرونها ولا تلقون لها بالا، مع أن مجموعها هو العلم إذا وجد ذهنا مُحَلِّلا، وهو الحياة إذا وجدت عملا مفصلا.

بينوا لهم الحقائق، واقرنوا لهم الأشباه بالأشباه، واجمعوا النظائر إلى النظائر، وبينوا لهم العلل والأسباب، حتى تنبُت في نفوسهم ملكة التعليل، فإن الغفلة عن الأسباب هي

---

(1) — آثار الإبراهيمي، ج: 1، ص: 166.

(2) — آثار الإبراهيمي، ج: 1، ص: 152.

(3) — آثار الإبراهيمي، ج: 1، ص: 193.

إحدى المُهلكات لأمتكم، وهي التي جرَّت لها هذه الحيرةَ المستولية على شواعرها، وهذا التردُّدَ الضاربَ على عزائمها، وهذا الالتباسَ بين المتضادات في نظرها.

امزجوا لهم العلم بالحياة، والحياة بالعلم، يأتِ التركيبُ بعجيبة، ولا تعمُرُوا أوقاتهم كلها بالقواعد، فإن العكوف على القواعد هو الذي صير علماءنا مثل (القواعد)، وإنما القواعدُ أساسٌ، وإذا أنفقت الأعمار في القواعد فمتى يتم البناء؟"[1].

وبعد، فهذه لمحات موجزة من فقه الإبراهيمي العميق ونظراته الدقيقة في إطار الممارسة الفقهية، لا أدعي أنها وافية أو محيطة، وإنما هي مجرد لمحات يكفيها شرفا أن تثير الالتفات إلى الموضوع وتنبه إلى أهمية دراسته بصورة أوسع[2].

---

[1] ــ آثار الإبراهيمي، ج: 3، ص: 272.

[2] ــ من الأمانة العلمية أن أشير إلى أن هناك دراستين سابقتين منشورتين، لزميلين عزيزين، تناولتا فقه الإبراهيمي، ولكن بطريقة مختلفة عن هذه التي انتهجتها في هذه الدراسة، وقد تعمدت عدم قراءتهما حتى لا يكون لهما تأثير في هذه الدراسة. وأحيل القارئ عليهما ليقارن، إن شاء أن يقارن. والدراستان هما:

أ ــ الاجتهاد في نظر الشيخ البشير الإبراهيمي، للدكتور عبد اللطيف عبادة، مجلة الثقافة ــ الجزائر، السنة الخامس عشرة، العدد: 46، شعبان/ رمضان 1405 هـ ــ مايو/ يونيو 1985 م، ص ــ ص: 293 -321.

ب ــ المرجعية الفقهية في تراث الإبراهيمي، للدكتور محمد عيسى، مجلة الموافقات، المعهد الوطني العالي لأصول الدين ــ الجزائر، العدد الرابع، السنة الرابعة، محرم 1416 هـ ــ جوان 1995م، ص ــ ص: 635 -692.

نظرات فقهية للشيخ العلامة
محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله

أ.د. كمال لدرع

جامعة الأمير عبد القادر

توطئة

الشيخ البشير الإبراهيمي من علماء الإصلاح في العصر الحديث، تميز بفكر ثاقب، وتكوين عميق، سعة الاطلاع، وبلاغة في الأسلوب، ، وتبحر في علوم الشريعة. عاش في عصر ساد فيه الجمود والتقليد؛ تجلى ذلك في طرق تدريس العلوم الشرعية التي تعتمد في أغلبها على تحفيظ المتون، وقصور مناهج استنباط الأحكام الفقهية التي تقتصر على كتب الشروح والحواشي، وعدم ربط المسائل الفقهية بأدلتها الشرعية، كل ذلك جعله يثور على تلك الأوضاع، ويحدد مجالات الخلل في تلك الجوانب، وينبذ التعصب والتقليد، ويقترح البدائل الإصلاحية. وقد مكّنه تكوينه الشرعي العميق من مناقشة الكثير من المسائل الفقهية والأصولية. كما كان على اتصال بعلماء وفقهاء عصره، كمحمد الطاهر بن عاشور ومحمد رشيد رضا و الشيخ بهجت البيطار وغيرهم.

وكثير ما تحدث المثقفون عن مكانته الأدبية واللغوية، وأسلوبه المتين، وفصاحته البليغة، لكن هذه الورقة كشف لجانب آخر من شخصيته العلمية والإصلاحية، وهي مكانته الفقهية والأصولية[1]، وإسهامه في المجال الفقهي ضمن ما تميز به الرجل من نظرات إصلاحية متميزة.

---

[1] – كتب الدكتور عبد اللطيف عبادة مقالا قيما في مجلة الثقافة، التي كانت تصدرها وزارة الثقافة والسياحة الجزائرية في عددها:87، السنة الخامسة، شعبان–رمضان، 1405هـ/مايو–يونيو 1985م، بعنوان: "الاجتهاد في نظر الإبراهيمي".

المسيرة العلمية للشيخ الإبراهيمي[1]

نشأ الإبراهيمي في بيت علم ودين، وقد اهتمت به أسرته منذ صغره بتعليمه وتربيته، حيث أدخله أبوه أحد كتاب القرية ليحفظ القرآن الكريم وعمره لما يتجاوز السنة الثالثة، ثم تولى تربيته ورعايته عمه الشيخ المكي[2] المعروف بعلمه وورعه، كما حفظ بعض متون اللغة العربية والنحو والفقه. ونظرا لتفوقه في الدراسة وجديته في التحصيل، أجازه عمه بتدريس العلوم التي أخذها عنه، وهو في الرابعة عشرة من عمره، وبعد وفاة عمه — وهو في تلك السن — خلفه في تدريس الطلبة الوافدين من المناطق المجاورة. وبعد أن مارس التعليم مدة، شعر بضرورة استكمال تكوينه العلمي، فسافر إلى زاوية سيدي علي بن شريف بجبال القبائل، ليدرس على الشيخ الطيب بن مبارك اليعلاوي الزواوي، وهناك ازداد نبوغا وتفوقا في العلوم الشرعية والعربية، ثم تولى التدريس بزاوية سيدي الحواس بجنوب مدينة سطيف مدة ست سنوات، اكتسب من خلالها خبرة في التدريس. وكان والده قد هاجر إلى المدينة المنورة سنة 1908م، ثم التحق به الإبراهيمي سنة 1911م، مارا بتونس وليبيا، ثم مصر التي مكث فيها ثلاثة أشهر، وتأثر برجال الإصلاح فيها، وكانت مقصدا للعلماء وطلاب العلم، وكان الإبراهيمي في فترة إقامته بمصر يقضي يومه متنقلا بين المجالس العلمية والأدبية للاستفادة من العلماء والأدباء، حتى شهد له بعض العلماء بالنبوغ في العلوم الشرعية والأدبية. ثم واصل سيره إلى المدينة المنورة حيث التقى بأبيه الذي كان قد سبقه إليها بنحو أربعة أعوام.

---

[1] – انظر ترجمته في الزركلي: خير الدين، الأعـلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط7 سنة 1986م، ج:7، ص:54 – ومقال للإبراهيمي تحت عنوان "أنا" بمجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، سنة 1966م، ج:21، ص:135 وما بعدها.

[2] – توفي سنة 1903م.

واصل الإبراهيمي تعليمه في "المدينة". وكان لشدة حبه للعلم، لا يكتفي بما يسمه من دروس شيوخه في حلقاتهم، بل كان يعتمد على نفسه في الدراسة، ومطالعة الكتب، يتردد على المكتبات والمخطوطات في شتى الفنون والعلوم. وكان في فترة إقامته يجمع بين تلقي العلم، وبين إعطاء الدروس في العلوم التي أحس أنه لا يحتاج فيها إلى مزيد، كالنحو والصرف والعقائد والأدب.

ثم انتقل الشيخ إلى دمشق، حيث التقى بعلمائها، ثم ألح إليه بعضهم بإلقاء دروس في بعض المساجد، منها المسجد الأموي، فألقى دروسا في الوعظ والإرشاد، والتفسير والحديث. كما درّس بالمدرسة السلطانية؛ فكان يملي العلم من حفظه، مع حسن التفسير والشرح، وحسن الإلقاء، مما جذب الناس إليه، وأثار اهتمام العلماء له.

التكوين الفقهي والعلمي للإبراهيمي:

أخذ الإبراهيمي العلم عن شيوخ كثيرين، كان لهم الأثر في تكوينه العلمي والفقهي والأدبي من داخل الوطن وخارجه. فقد درس بداية على يد عمه المكي (توفي سنة 1903م) الذي لازمه طويلا، فحفّظه متون اللغة والأدب والفقه والأصول، كألفية ابن مالك، وألفية ابن معطي الجزائري، وجمع الجوامع في الأصول، وتلخيص المفتاح للقزويني، وكتاب إصلاح المنطق ليعقوب السكيت، وحفظ الكثير من أشعار فحول العرب، كديوان المتنبي، وديوان الحماسة، ورسائل بلغاء العرب، وغير ذلك من مصادر اللغة العربية والأدب العربي، والشريعة الإسلامية. ويكون عمه هو أول من غرس في نفسه حب العلم، وحضور مجالسه. كما مكنته رحلته إلى مصر من الاتصال ببعض شيوخ الأزهر، فأخذ عنهم ما تيسر له من العلم، رغم فترة الإقامة التي كانت قصيرة. ومن العلماء الذين أخذ عنهم هناك: الشيخ سليم البشري[1]، وهو من فقهاء المالكية تولى مشيخة الأزهر

---

[1] – هو الشيخ سليم البشري المالكي المولود في محلة «بشر» من محافظة «البحيرة» عام 1832 ميلادي الموافق لعام 1248 هجري. درس الشيخ سليم في أعرق جامعة إسلامية سنية ألا وهي جامع الأزهر الشريف وقد ترقى في المراتب

مرتين، توفي سنة 1917م، والشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية[1] الذي توفي سنة 1935م، حضر له دروسا في شرح البخاري، والشيخ يوسف الدجوي من علماء الأزهر وفقهاء المالكية[2]، حضر له دروسا في البلاغة وغيرها، كما استمع إلى دروس الشيخين: عبد الغني محمود والسمالوطي في المسجد الحسيني، وحضر مجالس الشيخ سعيد الموحي[3]

العلمية والروحية حتى نال تلك المنزلة الرفيعة وهي تولي مشيخة الأزهر لفترتين متعاقبتين كانت الأولى سنة 1900 م الموافق لعام 1320 هجري، والثانية استمرت من سنة 1909 ميلادي حتى سنة وفاته 1916 ميلادي الموافق 1335 هجري. تميزت فترة توليه لمشيخة الأزهر بالحزم وحسن الإدارة حيث تم في عهده تطبيق نظام امتحان الراغبين في التدريس بالأزهر.له مؤلفات، منها: حاشية تحفة الطلاب لشرح رسالة الآداب. وحاشية على رسالة الشيخ علي في التوحيد. والاستئناس في بيان الأعلام وأسماء الأجناس اعتمد في التدريس بالأزهر. انظر (الزركلي، الأعلام، ج:3، ص:119).

[1] – الشيخ شمس الدين محمد بخيت بن حسين المطيعي المصري الحنفي المذهب .ولد ببلدة المطيعة التابعة لمديرية أسيوط بمصر في 10 المحرم سنة 1271هـ–1854م ، ونشأ بها، التحق بالأزهر، وتلقى العلوم الشرعية والعربية على كبار الشيوخ في عصره. كالشيخ محمد عليش، وعبد الرحمن الشربيني، وأحمد الرفاعي، وأحمد منة الله، والسقا، ومحمد الخضري المصري، وحسن الطويل، ومحمد البهوتي، وعبد الرحمن البحراوي، ومحمد الفضالي الجرواني، وغيرهم .وأخذ العلوم الفلسفية عن السيد جمال الدين القاسمي. ونال شهادة العالمية من الدرجة الأولى سنة 1297هـ، واشتغل بالتدريس في الأزهر، وفي سنة 1311هـ عُين قاضيًا في الإسكندرية، ثم في المنيا، ثم في بورسعيد، ثم في السويس، ثم في الفيوم، ثم في أسيوط .وفي سنة 1315هـ عُيّن عضوًا في محكمة مصر الشرعية، ثم رئيسًا للمجلس، ثم مفتيًا للديار المصرية سنة 1914م، وأحيل إلى المعاش سنة 1921م، وأقام في بيته يفتي كما لو كان في دار الإفتاء .وكان من المشتغلين بالحركة الوطنية، ولما جاءت لجنة "ملنر" إلى مصر ذهب اللورد ملنر لزيارته في منزله .وكان من أشد المعارضين للشيخ محمد عبده .توفي في 21 من شهر رجب سنة 1354هـ–1935م في القاهرة .من مؤلفاته: إرشاد الأمة إلى أحكام أهل الذمة، وحسن البيان في دفع ما ورد من الشبه على القرآن، والقول الجامع في الطلاق البدعي والمتتابع، و القول المفيد في علم التوحيد، والبدر الساطع على جمع الجوامع، في أصول الفقه. (الزركلي، الأعلام، ج:6، ص:50).

[2] – ستأتي ترجمته.

[3] – الشيخ سعيد الموحي: من علماء الأزهر كان له بيت كبير بالدراسة يستضيف كل القادمين إليه من وجه بحري، ويقال إن له وقفا كبيرا بالمدينة المنورة، تم فكه حاليا.

بجامع الفاكهاني في رواية الموطأ، كما حضر بعد ذلك عدة دروس في دار الدعوة والإرشاد التي أسسها الشيخ رشيد رضا، وزار الشاعرين أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم.

ولما انتقل إلى المدينة المنورة أخذ عن بعض الشيوخ هناك، واختار منهم أفضلهم علما، فانقطع للدراسة عليهم. واتصل بعالمين كبيرين كان لهما أثر كبير في توجيهه وتكوين فكره، وهما: الشيخ "عبد العزيز الوزير التونسي"، لازمه في دروس الفقه، وقد درس عليه الفقه المالكي وأخذ عنه "موطأ مالك" رواية ودراية، وكذلك شرح سيرة ابن هشام. والشيخ "حسين أحمد الفيض أبادي الهندي"، الذي لازمه في دروسه لصحيح مسلم.

ويقول عن هذين الشيخين:(وأشهد أني لم أر مثل الشيخين في فصاحة التعبير ودقة الملاحظة، والغوص عن المعاني، واستنارة الفكر، والتوضيح للغوامض، والتقريب للمعاني القصية...)[1].

كما أخذ علم التفسير عن الشيخ الجليل إبراهيم الأسكوبي الذي توفي سنة 1913م[2]. وكان ممن يشار إليهم في هذا العلم. وأخذ الجرح والتعديل، وأسماء الرجال في علم الحديث عن الشيخ أحمد البرزنجي الشهرزوري الذي توفي سنة 1919م بدمشق[3]، وكان من أعلام المحدثين.

---

[1] – محمد مهداوي: البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، دار الفكر، دمشق، ط1، سنة 1988م، ص:44 نقلا عن مجلة مجمع اللغة بالقاهرة، ج:21، ص:138.

[2] – إبراهيم الاسكوبي (1264 - 1331 هـ - 1848 - 1913 م)، هو إبراهيم بن حسن بن حسين بن رجب الاسكوبي المدني، شاعر رائد من المدينة–الحجاز. فاضل وله نظم كثير، ولد وتوفي بالمدينة. قام برحلات كثيرة إلى اليمن ونجد ومصر والشام والهند وتركية ، وطالت إقامته بمكة فكان جليس أميرها الشريف عون الرفيق، وأحد شعرائه . انظر (الزركلي، الأعلام، ج:1، ص:35).

[3] – احمد البرزنجي:(000–1337هـ - 000–1919م): احمد بن إسماعيل بن زين العابدين بن محمد بن زين الدين بن جعفر بن حسن بن عبد الكريم البرزنجي، الحسيني، الموسوي،المدني، شهاب الدين: أديب ، مؤرخ عارف بالرجال، من أعيان المدينة المنورة، من أسرة كبيرة أصلها من شهرزور(بجبال الأكراد) ترفع نسبها إلى الحسين السبط . ولد في المدينة المنورة ، وتعلم بها وبمصر. وكان من مدرسي الحرم بالمدينة، وتولى إفتاء الشافعية فيها. وانتخب نائب

وأخذ أنساب العرب، والأدب الجاهلي والسيرة النبوية عن الشيخ محمد بن عبد الله زيدان الشنقيطي[1] الذي كان أعجوبة زمانه في حفظ اللغة العربية وأنساب العرب، كما قال عنه الإبراهيمي.

وأخذ عن غيرهم من الشيوخ العلماء بالمدينة المنورة، وكان أثناء تعلمه لا يفتأ يناظر بعض العلماء، ويناقشهم في آرائهم، كما كان يرفض أن يجاز من قبل شيوخه لمجرد الإعجاب ببعض دروسه التي كان يلقيها بالحرم النبوي.

ولقد كان لكل هؤلاء الشيوخ أثرهم الواضح في تكوين شخصية الإبراهيمي العلمية والفقهية والأدبية.

عنها في مجلس النواب العثماني باسطمبول. واستقر في دمشق أيام الحرب العالمية الأولى، وتوفي بها . له رسائل لطيفة، منها " المناقب الصديقة ــ ط" ، و" مناقب عمر بن الخطاب ــ ط " ، و" والنظم البديع في مناقب أهل البقيع ــ خ" في الرباط (945ك)، و" النصيحة الحامة لملوك الإسلام والعامة ــ ط" ، و " فتكة البراض ، بالتركز على المعترض على القاضي عياض ــ ط " وهو رد على محمد الشنقيطي، و " وإصابة الدواهي في أعراب الأهي ــ ط "، و " جواهر الإكليل ــ ط" في الخديوي إسماعيل، و" مقاصد الطالب في مناقب علي بن أبي طالب". انظر ترجمته في معجم الشيوخ: 106/1-111، قال الزركلي: كانت وفاة صاحب الترجمة "بالمدينة" سنة 1332هـ /1914م، ثم علق مؤلفه على ذلك بخطه- أنه توفي بدمشق عام 1337هـ ودفن بالصالحية. انظر (الزركلي، الأعلام، ج:1، ص:99 - معجم المطبوعات: 547. الأعلام: 99/1-100، إيضاح المكنون:654/2، فهرست الخديوية:180/2، فهرس التيمورية:2/، 156،163،224معجم المؤلفين: 164/1-165)

[1] ... محمد عبد الله بن زيدان بن غالي ولد مختار قال عالم موريتاني متبحر في العلوم العقلية والنقلية وقد اشتهر باللغة وعلم أصول الفقه، ورحل إلى الحج فمر بالمغرب ومصر ووصل إلى الحجاز وله بها أثر محمود. بعد أن استولى المستعمر الفرنسي على قطر شنقيط هاجر محمد عبد الله رحمه الله تعالى إلى المغرب واحتفل به ملكها آنذاك وأكرمه و أنزله دارا و أجرى عليه مرتبا وبعد فترة رحل إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج و المجاور بالمدينة المنورة ومكة المكرمة وظل هناك حتى سقطت دولة الأشراف فانتقل إلى سودان الخرطوم وبعد إستيلاء الإنجليز على السودان انتقل إلى مصر وظل يدرس بالجامع الأزهر إلى حين وفاته سنة 1352 هـ الموافق 1933م. لم يصل من آثاره إلينا إلا القليل ومنه رسالة ألفها في حكم مال من لم يهاجر من المسلمين من بلاده بعد استلاء النصارى عليها وهذه الرسالة رغم صغر حجمها تدل على أن محمد عبد الله بلغ الغاية التي لا غاية وراءها في معرفة جميع العلوم الشرعية والعقلية. وله مقطوعات شعرية ضاع أكثرها.

ويلاحظ من خلال الشيوخ الذين أخذ عنهم الإبراهيمي بداية من صغره، أنه تلقى تكوينا فقهيا وأصوليا متينا على أيدي كبار العلماء في عصره. فأخذ الفقه والأصول عن أئمته في عصره، حيث كانت البداية بعمه المكي الذي حفّظه متون الفقه والأصول. وأخذ الفقه المالكي عن الشيخ سليم البشري، وهو من فقهاء المالكية تولى مشيخة الأزهر مرتين، توفي سنة 1917م، والشيخ يوسف الدجوي من علماء الأزهر وفقهاء المالكية[1]، وأخذ الموطأ عن الشيخ سعيد الموجي بجامع الفاكهاني بالقاهرة، والشيخ محمد العزيز الوزير التونسي بالمدينة المنورة، لازمه في دروس الفقه[2]، كما أخذ عنه أيضا الموطأ رواية ودراية، وكذلك شرح سيرة ابن هشام[3].

وبما أن علمي الفقه والأصول ليسا منعزلين عن العلوم الأخرى، بل هما يتكاملان بها، فقد استكمل تكوينه العلمي بأخذ الحديث وعلومه عن الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية[4] الذي توفي سنة 1935م، حضر له دروسا في شرح البخاري. وأخذ عن الشيخ

---

[1] – يوسف بن أحمد نصر الدجوي(1287 – 1365 هـ = 1870 – 1946 م)، ولد في قرية دجوى بمحافظة القليوبية سنة1870م. وقد كف بصره صغير ودخل الأزهر، ونال شهادة العالمية ثم عمل بالتدريس بالأزهر وكان لعلمه العميق وفهمه الناضج وأسلوبه البليغ أثر عميق في اجتذاب الطلاب إلى الدراسة والالتفاف حوله وقد اختير عضوا في هيئة كبار علماء الأزهر الشريف. وله كتابات غزيرة وواضحة في شتى الأمور الإسلامية وأهم كتاباته رسائل السلام وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية وطبعت المشيخة الأزهرية منه عشرة آلاف نسخة. وقد نشر عنه كتاب مقالات وفتاوى بعد مماته. توفي الشيخ العلامة يوسف الدجوي عام 1948م، عن عمر يناهز 78 عاماً. انظر : الزركلي، الأعلام، ج:8، ص:216.

[2] – يقول عنه الإبراهيمي:(فأنا لم أتخرج في جامع الزيتونة، ولم أقرأ فيه حرفا، ولكني تخرجت بالمدينة المنورة على أضوا كواكب الزيتونة في وقته ولا أحابي: الشيخ محمد العزيز الوزير التونسي رحمه الله، فكانت لي بسببه صلة بالزيتونة مرعية المثنات، آمنة الانبيات). آثار البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، سنة 1997م، ج:1، ص:226.

[3] – محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه: دار الفكر، دمشق، ط1، سنة 1988م، ص:44.

[4] – سبقت ترجمته.

حسين أحمد الفيض أبادي الهندي بالمدينة المنورة، الذي لازمه في دروسه لصحيح مسلم[1]. وأخذ الجرح والتعديل، وأسماء الرجال في علم الحديث عن الشيخ أحمد البرزنجي الشهرزوري الذي توفي سنة 1919م بدمشق[2]، وكان من أعلام المحدثين. وأخذ علم التفسير عن الشيخ الجليل إبراهيم الأسكوبي الذي توفي سنة 1913م[3]، وكل هؤلاء كانوا ممن يُشار إليه في مجال اختصاصه.

إن هذا التكوين المتين للشيخ الإبراهيمي، وتلقيه العلم عن شيوخ كثيرين، ذوي العلوم المتنوعة، جعل منه عالما متميزا، دقيق الفهم لأسرار الكتاب والسنة، محيطا بأقوال الفقهاء وعلماء الشريعة، واسع الاطلاع على آراء المفسرين والمحدثين، سديد الرأي في الموازنة بين الآراء والترجيح بينها، عالما بأصول الدين وأحكام الشريعة، إضافة إلى علمه باللغة والأدب وحضارة الإسلام[4].

دعوة الإبراهيمي إلى ضرورة رجوع الفقيه إلى الكتاب والسنة:

يرى الشيخ البشير أنه يجب على الفقيه أن يأخذ أحكام الدين أولا من منابعه الأصلية، وهي الكتاب والسنة، وأن يفهمهما فهما سليما، وأن يجمع بينهما في الفهم لأن السنة شارحة للقرآن ومبينة لمعانيه، مع الاستئناس بفهم السلف لهما، حيث يقول:**(وفهم القرآن يتوقف ــ بعد القريحة الصافية والذهن النير ــ على التعمق في أسرار البيان العربي، والتفقه لروح السنة المحمدية المبينة لمقاصد القرآن، الشارحة لأغراضه بالقول والعمل،**

---

[1] – مجلة مجمع اللغة بالقاهرة، ج:21، ص:138 – محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص:44.

[2] – سبقت ترجمته.

[3] – سبقت ترجمته.

[4] – محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه، ص:45.

والاطلاع الواسع على فهوم علماء القرون الثلاثة الفاضلة، ثم على التأمل في سنن الله في الكائنات ودراسة ما تنتجه العلوم الاختبارية من كشف لتلك السنن وعجائبها)[1].

ثم بعد الفهم لهما يدعو الفقيه إلى أن يستمد فروع الأحكام الفقهية من نصوص الكتاب والسنة، ومن عمل الصحابة والتابعين، ومن الكتب الفقهية المعتمدة التي تدلل على المسائل الفقهية، وفي ذلك يقول:(**ولو أن فقهاءنا أخذوا الفقه من القرآن، والسنة القولية والفعلية، ومن عمل السلف، أو من كتب العلماء المستقلين المستدلين التي تقرن المسائل بأدلتها، و تبين حكمة الشارع منها، لكان فقههم أكمل، وآثاره الحسنة في نفوسهم أظهر، و لكانت سلطتهم على المستفتي من العامة أمتن و أنفذ، و يدهم في تربيتهم و ترويضهم على الاستقامة في الدين أعلى)**[2]. ويتبين من كلامه أنه يدعو إلى ضرورة ربط المسائل الفقهية بأدلتها الشرعية، لأن الذي شاع في عصر التقليد هو الاعتماد على كتب الفقهاء، وتخريج المسائل على أقوالهم دون ربط ذلك بأدلتها الشرعية، وهو ملاحظ في كثير من كتب الفقه التي تعرض الفروع الفقهية عرية عن أدلتها، كما في كتب الفقه المالكي المتأخرة، وصار الفقه فقط عبارة عن حاشية لأقوال الأئمة، وشروح للمتون، وحواشي ومختصرات، مما أدى ذلك إلى ضياع حكمة التشريع من كل حكم شرعي، وصار الفقه عبارة عن مسائل مجردة.

والإبراهيمي يعيب على مقلدي المذاهب الفقهية الذين يتعصبون لقواعدهم وأقوال أئمتهم فيحول ذلك دون فهم سليم للقرآن، ويصور ذلك فيقول:(**ومقلدة المذاهب يفسرون القرآن بقواعد مذاهبهم ويحكمونها فيه، فإذا خالف نصُّه قاعدة من قواعدهم ردوه بالتأويل إليها. وهذا شر ما أصيب به هذا العلم بل نوع من التعطيل، وباب من**

---

[1] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:2، ص:250.

[2] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:3، ص:298.

التحريف والتبديل، لأنه في حقيقة أمره وضع كلام الله في الدرجة الثانية من كلام المخلوق، وفي منزلة الفرع من أصله يرد إليه إذا خالفه، وأعظم بها زلة، وإن هذه الزلة هي الغالبة من صنيع المفتين والمتعصبين لها يتباعدون عن القرآن ما شاء لهم الهوى، فإذا تناولوه فبهذه النظرة الخاطئة)[1].

ويضرب الشيخ لذلك أمثلة، منها مسألة مقدار الصداق ومسألة الطلاق، فبالنسبة لمسألة مقدار الصداق فيقول :(**وليس للصداق في أصل الشريعة ونصوصها القطعية، وتطبيقاتها العملية، حد منصوص يوقف عنده لا في القلة و لا في الكثرة، و إنما هو موكول إلى أحوالهم في العسرة و اليسرة، و طبقاتهم في الغنى و الفقر، و لو كان له حد منصوص في القلة لما اختلف الأئمة في حده الأدنى**[2]، **فقال مالك ثلاثة دراهم أو ربع دينار**[3]، **وقال أبو حنيفة عشرة دراهم**[4]، **و قال غيرهما خمسة**[5]، **و لما اختلفت مداركهم**[6] **في المقيس عليه ما هو؟ أهو ما يجب فيه القطع في السرقة؟ أم ما تجب فيه الزكاة في رأي بعض أئمة المالكية؟ وإن كان القياس في الرأيين واهيا لخفاء أو بعد العلة الجامعة بين**

---

[1] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:2، ص:250و251.

[2] – ذهب علماء الشافعية والحنابلة إلى أنه لا حد لأقل المهر. انظر:(الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف. المهذب في فقه الإمام الشافعي، دار الفكر، ج:2، ص:55 – ابن قدامة، موفق الدين أبو محمد عبد الله: المغني ومعه الشرح الكبير لشمس الدين بن قدامة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج:6، ص:680 – البهوتي: منصور بن يونس بن إدريس: كشاف القناع عن متن الإقناع، مكتبة النصر الحديثة، الرياض، السعودية، ج:5، ص:142.).

[3] – ابن جزي: محمد بن أحمد، قوانين الأحكام الشرعية ومسائل الفروع الفقهية، دار العلم للملايين، بيروت، ط سنة 1979م، ص:226.

[4] – الكاساني: علاء الدين أبو بكر بن مسعود، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، سنة 1402هـ/1982م، ج:2، ص:275.

[5] – قال به بعض الفقهاء كابن قتيبة وابن فارس والبيضاوي. انظر (نيل الأوطار176/6).

[6] – يدل هذا على اطلاعه رحمه الله الواسع بأقوال الفقهاء في مسائل فروع الفقه.

المقيس و بين المقيس عليه)[1]. وفي مسألة الطلاق، يقول:(إن من يأخذ فقه الطلاق من آية : " الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ" [2]، و مما بعدها من الآيات الآمرة بالوقوف عند حدود الله الناهية عن تعديها، أو من آية " وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ"[3]، أو من آية الحكمين[4]، ووعد الله بالتوفيق عند الإصلاح، و بالإغناء من واسع فضله عند التفرق[5]، أو من آية تخيير النبي أزواجه بين حالين: أحدهما التمتيع و السراح الجميل[6]؛ من أخذ فقهَ الطلاق من هذا المنبع العذب يعلم أي حِكم مبثوثة تحت كل كلمة و كل جملة، ومن تفقه هذا الفقه و نشره في الناس يبعد جدا أن يتلاعب بتلك العقدة الإلهية التي عقدها الله بين الزوجين[7]، فيضعها في موضعها المعروف بين المسلمين اليوم)[8].

ففي مسألة الطلاق هذه التي عرضها الإبراهيمي يبين لنا من خلالها مضار الجمود الفقهي الذي يؤدي إلى تخريب الأسر، وهذا الجمود نفسه هو الذي أدى بالجهال و الفجار إلى التلاعب بتلك بالزواج، وتخريب الأسر، وتشريد الأولاد، فأصبحت عرضة لفتاوى خاطئة، أو لأيمان في السوق وفي المقهى و في الخلافات في الشؤون الجليلة أو الحقيرة، و في

---

[1] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:3، ص:325.

[2] – البقرة، الآية:229.

[3] – البقرة، الآية:236.

[4] – وهي قوله تعالى:(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا). النساء:35.

[5] – يشير إلى قوله تعالى:(وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا)، النساء، الآية:130.

[6] – وهي قوله تعالى:(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً، وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا)، الأحزاب، الآية:28،29.

[7] – قال تعالى:(وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا). النساء، الآية:21.

[8] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:3، ص:298.

الجدال والنزاعات السياسية، فتطلق الزوجات بهذه الأيمان والالتزامات العابثة دون علمها، وهي آمنة في بيتها سعيدة بزوجها[1]، ثم يقول الإبراهيمي مبينا الزواج والطلاق في المجتمع:(**هذا الجمود في الفقه و الفقهاء و ذلك الخلاف الواصل بين طرفي الإباحة والحظر في المسألة الواحدة، هما اللذان سهلا على المسلمين تعدي حدود الله في الطلاق، و أفضيا بهم إلى هذه الفوضى الفاشية في البيوت، وإلى ارتفاع الثقة بين الأزواج والزوجات، و زاد الطين بلة وَضْعُ منحرف لمكان الزوجة من زوجها، حتى أصبح متخلخلا متزلزلا، لا استقرار له، و ما جاء هذا التخلخل إلا من سوء فهم من الرجل، انبنى عليه سوء تصرف منه في الحق الذي خوّله الشارع، وهو أنه يملك العصمة، وما جاء سوء الفهم إلا من سوء التفهيم من الفقيه، فالفقيه لا يعرف إلا أن العصمة بيد الزوج، لأنه لا يجد في كتب الفقه إلا هذا، و هو حق في أصل الشريعة، ولكن الإسلام لا يعطي هذه الحقوق أو هذه الامتيازات إلا للمسلم الصحيح الإسلام، القوي الإيمان. فهو يكل إليه عهدا ويستحفظه على أمانة، اعتمادا على رشده، و ثقة بإيمانه، أما إعطاء هذه الامتيازات إلى الجاهلين المتحللين من قيود الإسلام فهو لا يقلّ شناعة و سوء أثر عن إعطاء السلاح للمجانين**)[2].

فالفقه الحقيقي إذن الذي على الفقيه أن يبلغه للناس، ويمنع به مثل هاته التصرفات الخاطئة، والتلاعب بأحكام الدين، هو جوهر الدين الذي ينبغي أن يستمده من روح القرآن والسنة، كما عليه أن يرجع إلى عمل السلف وفقههم لهما، وكتب العلماء المستدلين التي تقرن المسائل بأدلتها وبحكمة الشارع منها، وهذا هو الفقه الحي الذي يقول عنه:(**هو لباب الدين و روح القرآن وعصارة سنة محمد صلى الله عليه و سلم و هو**

---

[1] - آثار البشير الإبراهيمي، ج:3، ص:298،299.

[2] - آثار البشير الإبراهيمي، ج:3، ص:298،299.

تفسير أعماله وأقواله و أحواله ومآخذه ومتاركه، وهو الذي ورثه عند أصحابه وأتباعهم إلى يوم الدين، و هو الذي يسعد المسلمون بفهمه و تطبيقه و العمل به، وهو الذي يجلب لهم عز الدين و الآخرة، وهو الذي نريد أن نحييه في هذه الأمة فتحيا به)[1].

إن القرآن و السنة هما المصدران الأساسيان للشريعة الإسلامية، لذلك فإن الإبراهيمي يركّز على ضرورة العودة إليهما، لأنه بهما تصون الأمةُ دينَها، وتحفظ تماسكَها، وتبتعد عن الخلافات التي تفرق ولا تجمع، وهو ما كان عليه العلماء من سلف هذه الأمة الذين يقول عنهم الإبراهيمي:(**وكانوا يصدرون في أعمالهم و أحكامهم عن الكتاب و السنة، فيصدرون عن الدليل الذي لا يضل، و يستندون إلى الحجة التي لا تدحض، وكانت الأمة ترجع إليهم فترجع إلى وحدة متماسكة في الدين لا تتفرق بها السبل، ولا تتشعب الآراء، إلى أن فتنتهم المذاهب والخلافات الجدلية في أصول الدين وفروعه، وغطت عليهم العصبيات المذهبية وجه الحق" فانقلب حال العلماء و انقلب معه حال الأمة)**[2].

ثم يركّز الإبراهيمي على السنة باعتبارها شارحة للقرآن، ومبينة لمعانيه، فالسنة عنده ليست فقط بكثرة الرواية، والحصول على الإجازات، بل السنة هو فهم ما ورد فيها، والعمل بأحكامها[3]، وهو ما قصده بقوله: (**إن من قبلَنا تنبّهوا إلى دولة الرواية قد دالت بضبط الأصول وشهرتها فأصبح من قبلنا يعنون بالأحاديث الأولى من الأمهات**

---

[1] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:2، ص:203.

[2] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:2، ص:342.

[3] – عبد اللطيف عبادة، الاجتهاد في نظر الإبراهيمي، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، العدد:87، السنة الخامسة، شعبان–رمضان، 1405هـ/مايو–يونيو 1985م، ص:305.

وصاروا يكتفون بسماعها أو قراءتها في الإجازات، وما اكتفاء القدماء بالمناولة والوجادة إلا من هذا الباب)[1].

و يسخر من الذين يجْرون فقط وراء الرواية التي صارت شغلَ الكثير من طلبة العلم في عصره، حيث يقول عن بعضهم:(**عبد الحي**[2]**، محدث بمعنى آخر، فهو "راوية" بكل ما لهذه الكلمة من معنى. تتصل أسانيده بالجن و الحن و رتن الهندي**[3]**، و بكل من هب و دب، و فيه و فيه من صفات المحدثين أنه جاب الآفاق، و لقي الرجال واستوعب ما عندهم من الإجازات بالروايات، ثم غلبت عليه نزعة التجديد فأتى من صفات المحدثين (بالتخفيف) بكل عجيبة، فهو محدّث محدِث في آن واحد، و همّه و همّ أمثاله من مجانين الرواية حفظ الأسانيد، وتحصيل الإجازات، و مكاتبة علماء الهند والسند للإستجازة، وأن يرحل أحدهم فليلقى رجلا من أهل الرواية في مثل فواق الحالب، فيقول له: أجزتك بكل مروياتي و مؤلفاتي إلى آخر (الكليشي)**[4]**، فإذا عجز عن الرحلة كتب مستجيزا فيأتيه الحديث بل علوم الدين و الدنيا كلها في بطاقة... أهذا هو العلم؟ لا و الله، و إنما هو شيء اسمه جنون الرواية)**[5]. فالعلم الحقيقي كما يفهمه الإبراهيمي هو:(**ما فهم و هضم، لا ما روي و طوي)**[6]**، وقال:(على أن التوسعة في الرواية أفضى بنا**

---

[1] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:3، ص:546.

[2] – في مقال يتحدث فيه عن بعض ضلالات وانحرافات عبد الحي الكتاني، نشر في العدد 33 من جريدة البصائر، 26 أفريل سنة 1948م.

[3] – رتن الهندي شيخ دجال ظهر على رأس المائة السادسة للهجرة، وادعى أنه صحابي، وأنه يروي عن النبي مباشرة. وقد أنكر أمره جمهور أعلام المحدثين كالحافظ الذهبي، والحافظ ابن حجر، وقالا عنه دجّال كذاب.

[4] – كلمة فرنسية (cliché) معناها الشريط.

[5] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:3، ص:545.

[6] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:3، ص:545.

إلى الزهد في الدراية) ثم يتحدث عن بعض المحدثين في الحرم فيقول:(إنك لو قفت على حلق المحدثين بهذا الحر... لسمعت رواية وسردا، لا دراية ودرسا)[1].

هكذا يريد الإبراهيمي من العلماء والفقهاء أن يبحثوا عن لب الشريعة في القرآن والسنة، وأخذ الفقه منهما، مع الاستفادة بالطبع مما توصل إليه اجتهاد فقهاء هذه الأمة الراسخين في العلم، حيث يقول:**(لو أن فقهاءنا أخذوا الفقه من القرآن والسنة القولية والفعلية ومن عمل السلف ومن كتب العلماء المستقلين المستدلين التي تقرن المسائل بأدلتها وتبين حكمة الشارع منها لكان فقههم أكمل، وآثاره الحسنة في نفوسهم أظهر. ولكانت سلطتهم على المستفتين العامة أمتن وأنفذ، ويدهم في تربيتهم وترويضهم على الاستقامة في الدين أعلى)**[2].

الفقيه المؤهل للنظر في أحكام الدين عند الإبراهيمي:

نبه الإبراهيمي إلى دور الفقيه في تجديد الفقه، والوصول بنظره واجتهاده إلى لب الدين. وإسعاف الناس بما يحتاجونه لتصحيح عقيدتهم وعبادتهم، ويزودهم من دينهم بما يمكنهم من التفاعل مع حركة الحياة ومجالاتها المختلفة، ولا يقف عند ما هو منصوص عليه في كتب الفقه، أو أن يردد ما هو مسطور في الكتب، لأن ذلك ضلال في الدين، وجهل بمقاصده السمحة.

فهو رحمه الله تعالى يدعو إلى تأهيل الفقيه تأهيلا يمكنه من الاجتهاد، واستنباط الأحكام، ومسايرة التطور الطبيعي للحياة، فالفقيه ليس فقط من حفظ المتون، وعرف مسائل الفقه. فلا بد له من معرفة مقاصد التشريع، والاجتهاد وفق تلك المقاصد، فيحيي بفقهه الأمة، ويخرجها من سباتها، ويهتم بقضاياها، ولا يغرقها في الفروع والجزئيات التي هي محل

---

[1] – آثار البشير الإبراهيمي. ج:3، ص:546.

[2] – آثار البشير الإبراهيمي. ج:3، ص:298.

خلاف بين أهل العلم، أو يلهيها بالمجادلات العقيمة، على حساب الأصول والقواعد العامة، وكليات الشريعة ومقاصدها السمحة، إضافة إلى ما ينبغي أن يتسم به الفقيه من التزام بالدين، والبعد عن الشبهات.

فالفقيه عند الإبراهيمي ومن قام مقامه من المحدثين والمفسرين هو:(**سلفي العقيدة وقّاف عند حدود الكتاب والسنة، يرى ما سواهما من وساوس الشيطان، وأن يكون مستقلا في الاستدلال لما يُؤخذ ولما يُترك من مسائل الدين. وقد تعالت همم المحدثين تقليد الأئمة المجتهدين، فكيف بالمبتدعة الدجالين، وعرفوا بالوقوف عند الآثار والعمل بها، لا يعْدونها إلى قول غير المعصوم إلا في الاجتهاديات المحضة التي لا نص فيها**)[1]. ويقول عنه أيضا:(**فالعالم بمفهومه الديني في الإسلام، قائد ميدانه النفوس، وسلاحه الكتاب والسنة، وتفسيرهما العملي من فعل النبي صلى الله عليه وسلم وفعل أصحابه، وعونه الأكبر على الانتصار في هذا الميدان أن ينسى نفسه ويذوب في المعاني السامية التي جاء بها الإسلام، وأن يطرح حظوظها وشهواتها من الاعتبار، وأن يكون حظه من ميراث النبوة أن يزكي ويعلم وأن يقول الحق بلسانه ويحققه بجوارحه، وأن ينصره إذا خذله الناس، وأن يجاهد في سبيله بكل ما آتاه الله من قوة**)[2].

بهذه المؤهلات يرتقي الفقيه وغيره من علماء الشريعة إلى مرتبة القيادة الروحية والدينية، ويصير له سلطان في النفوس، وتثق فيه أمتُه، وتتبع علمَه، وتفزع إليه عند الخلاف والنزاع، وعن هؤلاء العلماء كان يقول:(**و ما كانت كلمة أولئك العلماء نافذة ذلك النفوذ الخارق للعادة إلا لأنهم نسوا أنفسهم و ذكروا الله، وآثروا ما عنده، من منازل الكرامة على ما عند الأمراء من الرتب والألقاب، وما عند الأغنياء من المال والمتاع،**

---

[1] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:3، ص:544– وانظر عبد اللطيف عبادة، الاجتهاد في نظر الإبراهيمي. ص:310.

[2] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:4، ص:109.

و تجردوا من الرغبة التي تذل الرقاب، ومن الرهبة التي تكم الأفواه، فإذا قالوا قال الله، و إذا قال الله بطل كل قول و كل قائل)[1].

لكن هؤلاء العلماء إذا ركنوا إلى الدنيا، وتنافسوا في حطامها هانوا وسادت أحوال العامة في دينها و دنياها، وعن هؤلاء كان يقول:**(فقد أصبح علماء الدين تابعين لا متبوعين. وهانوا على أنفسهم فهانوا على الله و على الناس، و تركوا سياسة العامة بالدين، لمن يسوسها بالدنيا، فلا بدين تمسّكت و لا بدنيا ظفرت)**[2].

ثم يبين الإبراهيمي أن من أسباب انحطاط الأمة هو خروج قيادتها من أيدي العلماء، وصار يعبث بها الحكام الضالون والجهلة من الناس، فيقول:**(إن خروج قيادة الأمة الإسلامية من أيدي العلماء هو أكبر الأسباب فيما وصلت إليه من انحطاط، وهو أمر قديم العهد، ونحن نعلم علم القطع أن علماءنا في القرون الوسطى كانوا وليس بأيديهم من أمر الأمة شيء، وأهم جهات الاتصال بينهم وبين الأمة وهي التدريس والإمامة والفتوى والقضاء)**[3].

ضرورة أن يعيش الفقيه عصره ويفقه زمانه:

وإذا كان الإبراهيمي قد ثار على الجمود والتقليد، ودعا إلى التجديد في الفقه، وإحياء الاجتهاد في الأمة، فكثير من المفتين يفتي فتاوى لا صلة لها بواقع الناس، ولا يتوخى فيها جلب مصلحة لهم، أو درء مفسدة عنهم، وإنما غرضه ذكر ما هو مسطور في كتب الفقه فقط، فيقول عن بعض هؤلاء:**(فهو يفتي في الطلاق ولا يبحث عن أسباب الطلاق الفاشية، ويفتي في الأيمان ولا ينهى الناس عن الحلف ولا عن الحنث فيه بعد انعقاده، ويحرم الخمر والميسر ولا يبيّن للناس مضارّهما ولا يزجرهم عن تعاطيهما. وبالجملة فهو**

---

[1] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:3، ص:500.

[2] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:3، ص:500.

[3] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:1، ص:151.

رجل انقطعت الصلة بينه وبين أهل زمنه، فإن قدرت له ملابسة الناس جمع جماعة قليلة يقرئهم درسا خاصا لا علاقة له بحالهم)[1].

لكن الفقهاء الذين يريدهم الإبراهيمي هم الذين يكونون متحررين من ربقة التقليد، المتمكنين من علوم الشريعة، والمدركين لمقاصدها، لكن ذلك يتوقف على معرفتهم بعصرهم، وإدراكهم لواقعهم، يستشعرون هموم أمتهم، ويعيشون آلامها وآمالها، **(يقولون كلمة في السلم فتكون هادية إلى الصلاح، وفي الحرب فتكون قائدة إلى النصر لأن كلمة في لسان العالم الرباني هي الميزان العادل، وهي الحبل الواصل، لأواخر الأشياء بأوائلها، وهي التي توجه الناس إلى وجهة واحدة هي قبلة الحق، وهي التي تقودهم إلى ميدان التضحية و الاستشهاد، وهي التي تمحو الترهات الطائشة، وتثبت البصائر باليقين و هي التي تحدد علاقتهم بالله فلا يجاهدون في سبيله وهم منحرفون عن سبيله)**[2].

فالفقيه عليه أن ينظر في المستجدات، ويجتهد في القضايا التي لم يرد فيها نص، والبحث عن حكم الشرع في كل مسألة تطرأ في الحياة، وهو ما دعا إليه رحمه الله بقوله:**(أما المذاهب الفقهية فحدوثها ضروري وطبيعي مادامت السنة لم تجمع، وبعد جمعها لم تكن وافية بالتنصيص على الوقائع الجزئية، ومتونها وأسانيدها بعد خاضعة للتزكية والتجريح لأنها لم تنقل بطريق التواتر، ومادامت مدارك المجتهدين الذين هم المرجع في هذا الباب متفاوتة بالقوة والضعف في الاستنباط ووجوه القياس التي تناط بها الأحكام لا تنضبط، و قد استحدث العمران أنواعا جديدة من المعاملات الدنيوية لا عهد للإسلام الفطري بها، وصورا شتى من المعايش، ووجوه الكسب لم تكن معروفة، فمن**

---

[1] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:1، ص:150.

[2] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:2، ص:568.

سماحة التشريع الإسلامي و مرونته أن نتناول هذه المستحدثات الجديدة بأنظار جديدة و تستنبط من أصوله أحكام بفروعها و كل هذا لا حرج فيه و ليس داخلا فيما نشكوه بل نحن أول من يقدر قدر تلك الأنظار الصائبة والمدارك الراقية وبقيمها دليلا على اتساع التشريع الإسلامي لمصالح الناس وصلاحيته لجميع الأزمنة و ينكر على من سد هذا الباب على الأمة فزهدها في استجماع وسائله، و نحن أول من يقدر أولئك الأئمة العظام الذين هم مفاخر الإسلام)[1].

وقوله هذا ينبه إلى واقعية التشريع الإسلامي ومرونته، لأنه يتناول المستحدثات الجديدة بأنظار جديدة، و تُستنبط من أصوله أحكام لفروع كثيرة.

وبهذه المنحى الفقهي الاجتهادي يتجسد مبدأ صلاحية الإسلام لكل زمان و مكان، وتستوعب أحكامه المستحدثة بأنظار جديدة، تجعل المسلمين يعيشون عصرهم، دون أن يخلوا بأصول الإسلام وقواعده العامة.

الإبراهيمي وفقه المقاصد:

يقول الإبراهيمي:(**إن في الفقه فقها لا تصل إليه المدارك القاصرة، وهو لب الدين، وروح القرآن، وعصارة سنة محمد صلى الله عليه و سلم، وهو تفسير أعماله وأقواله وأحواله ومآخذه ومتاركه، وهو الذي ورثه عن أصحابه، وأتباعهم إلى يوم الدين، وهو الذي يسعد المسلمون بفهمه وتطبيقه والعمل به وهو الذي يجلب لهم عز الدنيا والآخرة، وهو الذي نريد أن نحييه في هذه الأمة فتحيا به وتصحح به عقائدها، وتقوم به فهومها، فتصح به عباداتها وأعمالها، فإن العبادات هي أثر العقائد، كما أن الأعمال**

[1] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:1، ص:95.

هي أثر الإرادات، وما يبنى منها على الصحيح يكون صحيحا وما يبنى على الفاسد يكون فاسدا)[1].

فهذا القول من الشيخ يفيد بأنه رحمه الله كان على علم بمقاصد الشريعة الإسلامية، مطلع على أسرارها، فهو من الذين أدركوا عمق الشريعة وجوهرها، وانتبهوا إلى مصالحها ومقاصدها السامية، ولم يقف عند ظواهر نصوصها، ويجمد على منطوقها، فهذا التفسير المقاصدي لنصوص الشرع هو الذي كان عليه سلف هذه الأمة: وهو الكفيل بتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة. ثم يقول رحمه الله مبينا مقاصد الإسلام:(**وللتشريع الإسلامي في كل قضية عامة تدعو حاجة الناس إليها، وتدخل صميم حياتهم، مقاصد بعيدة المدى، شديدة المواقع، واضحة الآثار في المجتمع الإسلامي، وعلى هذه المقاصد بنيت الأحكام الفرعية، والذي يغفل عن هذه المقاصد لا يسلم من الخطإ في النظر إلى الجزئيات، ولا يضمن الإصابة في ترجيح دليل على دليل عند التعارض. وباعتبار هذه المقاصد العامة في التشريع الإسلامي كانت الشريعة الإسلامية نظاما اجتماعيا كاملا لمصالح الجمهور ضابطا لها، صالحا لكل زمان ولكل مكان ولكل جنس**)[2]، ويقول أيضا:(**ذلك أن الإسلام جاء بجلب المصالح ودرء المفاسد، فإذا وجدت قضية عامة يتجاذبها الصلاح والفساد ـــ وهما ضدان ـــ فهنا تأتي حكمة الإسلام وبعد نظره ودقته في الترجيح**)[3].

هذا الفقه العميق للدين كما نبه الشيخ هو الذي سعى وسعت الجمعية من خلال برامجها وأعمالها الإصلاحية لتحييه في الأمة الجزائرية من جديد، حتى يكون المسلم على بصيرة بدينه، وحتى يحقق الدين غاياته السامية في حياة الناس.

---

1 - آثار البشير الإبراهيمي، ج:2، ص:203.

2 - آثار البشير الإبراهيمي، ج:4، ص:364.

3 - آثار البشير الإبراهيمي، ج:4، ص:364.

إن الشيخ الإبراهيمي يرجع جهلَ الناس بحقائق دينهم ومقاصده السامية إلى بعدهم عن استلهام معانيه وحكمه وأحكامه من منابعه الأصيلة، وعدم إدراك وجود المصالح التي جاء الدين لجلبها للناس، وأنواع المفاسد التي أراد الدين دفعها عنهم، فيقول:(**جهل المسلمون حقائق دينهم، وجهلوا الحكم المنطوية تحت أحكامه، ومن أسباب ذلك جفاف الفقه عند الفقهاء لأخذهم إياه من كتب تُعلم الأحكام ولا تُبين الحِكم، فأثر ذلك في نفوس المتفقهة ــ وهم مرجع العامة في سياسة الإفتاء ــ آثارا سيئة، منها اعتبار تلك الأحكام تعبدية تُحفظ ألفاظها، ولا يتحرك الفكرُ في التماس عللها، وطلب حكمها وتعرف مقاصد الإسلام منها وتصفح وجوه المصلحة والمفسدة فيها**)[1].

فهذا الفقه الذي يرتبط بنصوص القرآن والسنة، وتُدرك فيه أبعاده المقاصدية هو الفقه الحي الذي يجلب للمسلمين سعادة الدنيا وفلاح الآخرة، ويضمن لهم العلو والمجد في جميع المجالات؛ وما تخلف المسلمون إلا لأنهم تقاعسوا عن التفقه في الدين فقها حقيقيا، و تقوقعوا داخل طقوس جامدة، و قوالب جاهزة، و دينهم يحثهم على التدبر و التفقه والتبصر[2]، قال تعالى:" **قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**"[3].

فالإبراهيمي يريد من الفقيه أن يكون ذا استقلال فكري يمكنه من استنباط واستخراج حكم التشريع ومقاصده السمحة، وأن يتفاعل مع الحياة الواسعة الرحبة وفق تلك المقاصد، وأن يكون ذا بصر وبصيرة، فيقول رحمه الله:(**لكل عبادة في الإسلام حكمة أو حكم يظهر بعضها بالنص عليه أو بأدنى عمل عقلي، و يخفى بعضها إلا على المتأملين المتعمقين في التفكير والتدبر والموفقين في الاستجلاء والاستنباط**)[4].

---

[1] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:3، ص:298.

[2] – عبد اللطيف عبادة، الاجتهاد في نظر الإبراهيمي، ص:296و297.

[3] – يونس، الآية:101.

[4] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:2، ص:574.

دور الفقيه في حسن استثمار الأصول الاجتهادية:

فالشيخ البشير الإبراهيمي بحكم تكوينه الفقهي الأصولي مطلع على أدلة التشريع، وقواعد الاستنباط، فهو يدرك أهمية علم أصول الفقه، ودوره في التعامل مع النصوص الشرعية، وفي استنباط الأحكام فيما لم يثبت فيه نص شرعي. لذلك فهو يدعو الفقيه إلى حسن توظيف هذه القواعد الأصولية لمواجهة المستجدات الفقهية، التي لم يرد بخصوصها تشريع في القرآن أو السنة، ويلفت انتباه العلماء إلى أهمية إعمال المصالح المرسلة في العملية الاجتهادية.

فعلى الفقيه أن يعرف المصلحة التي قصدها الشارع، وأن يربط الحكم بعلله الشرعية. بل عليه أن يجعل المصلحة الشرعية معيارا للاستدلال خاصة في الأحكام التي لم يرد فيها نص من الشارع الحكيم.

وهذا ليس بدعا من الشيخ الإبراهيمي، بل هو منهج سار عليه سلف هذه الأمة من العلماء والمجتهدين. فالصحابة جمعوا القرآن في مصحف واحد، ولم يستندوا في ذلك إلى غير مراعاة مصلحة حفظ الدين، وعمر قتل الجماعة بالواحد حفظا لمصلحة النفس، ولم يقسم سواد العراق بناء على المراعاة المصلحة العامة للأمة. والإمام مالك وهو من أئمة مدرسة الأثر حكّم المصلحة المرسلة في كثير من اجتهاداته، وجعلها أصلا مستقلا في أصوله الاجتهادية، لذلك فالإبراهيمي ينبه إلى أهمي المصلحة من خلال بعض المسائل التي اجتهد فيها عمر وفق المصلحة بقوله: **(فتسليم عمر للمرأة[1] يدل على أن لا حد للأكثر،**

---

[1] – في قضية الصداق: حيث أورد أبو داود والترمذي والنسائي وصححه الترمذي وابن ماجه عن أبي العجفاء أن عمر قال:"لا تغلوا في صداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى في الآخرة كان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما أصدق قط امرأة من نسائه ولا بناته فوق اثنتي عشر أوقية ـــ أي من الفضة ـــ فمن زاد على أربعمائة شيئا جعلت الزيادة في بيت المال، فقالت له امرأة من قريش بعد نزوله من على المنبر: ليس ذلك إليك يا عمر، فقال: ولم ؟ قالت: لأن الله يقول:(وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا). فقال عمر: امرأة أصابت ورجل أخطأ). وفي رواية أبي يعلى أنه قال: (اللهم غفرا، كل الناس أفقه من عمر، ثم رجع فركب المنبر

وهو الحق، وهو الواقع و نهيه عن المغالاة سداد ونظر بالمصلحة، وتأديب للمغالين[1]. وعمر خليفة مصلح حريص على حمل الأمة على القصد في كل شيء، وعلى عدم الاندفاع في التطور، وقد فاضت الأموال في عهده من الفيوء والمغانم؛ والمال المفاجيء عامل من عوامل سرعة التطور ومجاوزة حدود القصد، ومن نظر في وصاياه لعتبة بن غزوان[2] في تخطيط البصرة، شهد ببعد نظره في بناء الأمة على أساس متين، ومن تأمل نهيه عن المغالاة في الصداق، وعزمه على إلزام المطلق ثلاثا في اللفظ، علم حرصه على أخلاق الأمة أن يدركها التحلل والانهيار، وأنه لا يعزم بتلك العزائم إلا حين يرى الناس تتايعوا[3] في أمر كانت لهم فيه أناة، كما قال هو في قضية الثلاث[1]، و لله در عمر)[2].

فقال: أيها الناس إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربعمائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب)، وانظر الهيثمي: نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مكتبة القدسي، القاهرة، ج:4، ص:283 – الشوكاني: محمد بن علي بن محمد، نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، سنة 1415هـ /1995م، ج:6، ص:177.

[1] يستحب تيسير الزواج، وتخفيف الصداق وعدم المغالاة في المهور، وقد أخرج الإمام أحمد عن عائشة أن الرسول صلى الله عليه وسلم:"إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤونة"، وفي إسناده الحرث بن شبل وهو ضعيف(نيل الأوطار178/6)، وأخرج أبو داود الحاكم وصححه عن عقبة بن عامر قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"خير الصداق أيسره". (نيل الأوطار178/6).

[2] – عتبة بن غزوان بن ياسر السلمي سابع سبعة سبقوا إلى الإسلام، وبسطوا أيديهم مبايعين رسول الله ، كان راميا حاذقاً ، وفارساً مغواراً . قدم المدينة مهاجراً وله من العمر أربعون سنة ، وشهد بدراً أبلى فيها بلاء حسناً بسهامه ، وكان رجلاً طويلاً مشرف القامة ، وقد فتح الأبلة بعد أن هزم جيش الفرس الذي كان بها ، وأختط البصرة بأمر عمر بن الخطاب ، وأمر محجن بن الأدرع فاختط مسجدها ، ثم ذهب إلى مكة فلما رجع في معدن بني سُليم وهو المعروف اليوم بمهد الذهب أدركه الموت فتوفي سنة 17هـ . وهكذا كان عتبة بن غزوان رجل حرب ،ورجل سلم ، ورجل اقتصاد وعمران في آن واحد . وكان خطيباً مفوهاً. انظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط9، سنة 1413هـ، ج:1، ص:304.

[3] التتابع بالياء المثناة معناه السقوط وعدم التماسك.

فالإبراهيمي يؤكد على ضرورة الالتفات إلى المصلحة في النظر الفقهي حتى لا يكون عقيما من حيث نتائجه، وهو أمر قرره علماء الشريعة الإسلامية حيث أكدوا على أنها جاءت لتحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد[3]، ولم يقل أحد من المسلمين بأنها جاءت بخلاف ذلك، يقول عزالدين بن عبد السلام: (**كل ما أمر به الشرع ففيه مصلحة الدارين أو إحداهما، وكل ما نهى عنه ففيه مفسدة فيهما أو في إحداهما**)[4]، ويقول في موضع آخر: (**والشريعة كلها مصالح إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح**)[5]. والفقه الإسلامي باعتباره اجتهادات الفقهاء في فهم الشريعة واستنباط الأحكام من نصوصها فهو في جملته أساسه المصلحة، لأن الفقيه في فتاويه واستنباطاته الفقهية يتوخى المصلحة التي تعود على المكلفين.

والمعلوم أن الحكم الذي يستنبطه الفقيه إما أن يأخذه من النص نفسه، وهو الاستدلال بالنص، كدلالة قوله تعالى: (**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ**)[6]، على وجوب الصلاة، وإما أن يأخذ الحكم من معقول نص واحد، وهو القياس، كأخذ تحريم النبيذ وعقوبة شاربه من معقول

---

[1] – يشير إلى حديث أخرجه الإمام مسلم عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ الطَّلَاقُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ وَسَنَتَيْنِ مِنْ خِلَافَةِ عُمَرَ طَلَاقُ الثَّلَاثِ وَاحِدَةً فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِنَّ النَّاسَ قَدْ اسْتَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ قَدْ كَانَتْ لَهُمْ فِيهِ أَنَاةٌ فَلَوْ أَمْضَيْنَاهُ عَلَيْهِمْ فَأَمْضَاهُ عَلَيْهِمْ. (صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب الطلاق الثلاث، رقم:2689).

[2] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:3، ص:325.

[3] – يقول ابن القيم:(إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل. فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم أتم دلالة وأصدقها) ابن قيم الجوزية، أعلام الموقعين عن رب العالمين، ج3، ص:03.

[4] – عزالدين بن عبد السلام ، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ج:1، ص:08.

[5] – ابن عبد السلام ، قواعد الأحكام، ج : 1 ، ص :11.

[6] – البقرة، الآية: 274

قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[1]. وإما أن يأخذ الحكم من معقول جملة نصوص، حيث تفيد بمجموعها معنى واحد، كالحكم بجمع القرآن في مصحف واحد، وتضمين الصناع، فإن هذا الحكم مستفاد من نصوص كثيرة أفادت في الأول تقديم مصلحة الدين، وفي الثاني تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة عند التعارض، وهو استدلال بالمصلحة المرسلة.

وكما هو معلوم أن النصوص الشرعية لم تستوف أحكام الحوادث كلها، التي توجد وتحدد بفعل تطور الحياة، ولم تنزل فيها نصوص خاصة، وهي تتطلب بيان أحكامها التفصيلية عن طريق الاجتهاد، فكانت المصلحة المرسلة ضرورية للفقيه تمكنه من إعطاء حكم لكل نازلة أو حادثة لم يشهد لها الشارع لا بالاعتبار ولا بالإلغاء، يقول الإمام الشهرستاني: (**نعلم قطعا ويقينا أن الحوادث والوقائع في العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعد، ونعلم قطعا أيضا أنه لم يرد في كل حادثة نص، ولا يتصور ذلك أيضا، والنصوص إذا كانت متناهية والوقائع غير متناهية، وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى، علم قطعا أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد**)[2]، والإمام محمد الطاهر بن عاشور يؤكد على أن إعطاء حكم لفعل أو حادث حدث للناس فيما لا نص فيه على أساس مراعاة المصالح هو (**الكفيل بدوام أحكام الشريعة الإسلامية للعصور والأجيال التي أتت بعد عصر الشارع والتي تأتي إلى انقضاء الدنيا، وفي هذا النحو أثبت مالك رحمه الله حجية المصالح المرسلة، وفيه أيضا مراعاة الكليات الضرورية، وألحقوا بها الحاجية والتحسينية، وسموا الجميع بالمناسب**، وهو

---

[1] - المائدة، آية: 92

[2] - الشهرستاني . الملل والنحل، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط سنة 1400هـ/1980م، ج:1، ص:199.

مقرر في مسالك العلة من علم أصول الفقه. وفي هذا النحو هرع أهل الرأي إلى إعمال الرأي والاستحسان)[1].

ضروري الفقيه في رأي الإبراهيمي أن يلتفت إلى المصلحة، التي تمثل منفذا له إذا انعدم النص لديه و لم يكن ثمة إجماع ولا نظير يقاس عليه، وهذا الالتفات منه يجعل فقهه واسعا رحبا يتصدى لكل النوازل والقضايا الجديدة، كما تجعله فقها واقعيا يمد الناس بحلول عصية، ويجسد بالفعل صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان.

هذا النظر المصلحي من الشيخ الإبراهيمي يدل على أن الرجل مطلع على أسرار التشريع، عارفا بمناهج الاستنباط، القائمة على والتأصيل والتعليل والتفريع، واستخراج علل الأحكام، وقياس الأشباه بالنظائر، ومراعاة المصالح ليكون التشريع الإسلامي صالحا لكل زمان مكان، فيقول رحمه الله :**(إن أصحاب المذاهب لم يفرضوا على الأمة التقليد بل نصحوا و بينوا و بذلوا الجهد في الإبلاغ وحكموا الدليل ما وجدوا إلى ذلك السبيل، وأتوا بالغرائب في باب الاستنباط والتعليل والتفريغ والتأصيل، وهم في باب استخراج علل الأحكام وبناء ما فاقوا به المتشرعين من جميع الأمم)**[2].

دعوة الإبراهيمي إلى الاجتهاد ونبذ التقليد:

إن الإبراهيمي يدعو كل مجتهد سواء أكان فقيها أو محدثا أو مفسرا أن يبدع في اجتهاده، وأن لا يقلد غيره، وأن يواكب عصره في تطوره وهمومه، وينبه إلى الدور الذي ينبغي أن يطبع به الفقيه مستدلا بتطور العلم في الغرب، بإبداع علمائه، أما في العالم الإسلامي فقد ساد التخلف لضعف الإبداع عند علماء المسلمين، فيقول:(**إن العالم في أوربا لا يعد عالما إلا إذا زاد في العلم شيئا، أو كشف من خفيه شيئا، أو جلا من غامضه شيئا، ولا**

---

[1] – ابن عاشور: محمد الطاهر، مقاصد الشريعة الإسلامية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، والشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط سنة 1985م، ص:15و16.

[2] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:1، ص:95و96.

عجب فالعلم عندهم ياقوتة منجم وعندنا لفظة في معجم، والأولى تستخرج بالبحث والإلحاح والثانية تستخرج بمعرفة الاصطلاح، والأولى حظ المجتهد العامل والثانية حظ المقلد" هذه هي الحال التي آل إليها المسلمون بعدما دالت دولة الاجتهاد عندهم فأصبحوا سجناء اللفظية والتقليد والخمول والجمود وكانوا في ماضيهم المزدهر يجتهدون وينقبون ويبحثون ويستدلون ويبتكرون وقد انتقلت هذه الخصال إلى الغرب الذي أصبح شغله الشاغل البحث والإلحاح فيه ويجتهد ويعمل ولا يعد عالما إلا من ابتكر وأبدع و زاد في العلم شيئا وكشف من خفيه شيئا وأوجد من غامضه شيئا، وعلى هذا لا يعود لنا عزنا الحضاري إلا إذا عاد الاجتهاد في جميع المجالات وأزهر)[1].

فالإبراهيمي ينكر على العلماء تقليدهم لغيرهم، وترداد أقوال الأئمة السابقين، ويحثهم على تحكيم الدليل، والاستقلالية في الاستدلال، وأن يجتهدوا كما اجتهد العلماء من قبلهم، لأن التقليد والتعصب للمذاهب والاقتصار على أقوال أئمتها كل ذلك جنى على العقل الإسلامي، وعطّل عطاءه وإنتاجه، فيقول: **(ولو لم ينحسر تيار الفهوم الإسلامية للقرآن بما وقف في سبيله من توزع المذاهب والعصبيات المذهبية لانتهى بها الأمر إلى كشف أسرار الطبيعة ومكنونات الكون، ولسبق العقل الإسلامي إلى اكتشاف هذه العجائب العلمية التي هي مفاخر هذا العصر)**[2].

كما ينكر أيضا على المفسرين ركودهم و تقليدهم فيقول:**(و كان جمود (يقصد التفسير) و كان ركود، و ضرب التقليد بجرانه فقضى على ذكاء الأذكياء و فهم الفهماء إلى أن أذن الله للعقل الإسلامي أن ينفلت من عقال التقليد و يستقل في الفهم)**[3].

---

[1] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:2، ص:646.

[2] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:2، ص:250.

[3] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:2، ص:251.

ويشير الإبراهيمي بطريق غير مباشر أنه هو وعلماء الجمعية يتبنون الدعوة إلى الاجتهاد، وإصلاح مناهجه، ونبذ التقليد والجمود على المنقولات، فيقول:(**فالغرة اللامعة في جبين هذه النهضة العلمية هي اقتران العلم بدليله، فأصبح علماؤنا يعلمون بالدليل ويدعون إلى الدليل ويطالبون بالدليل و يحكمون الدليل ولو في أنفسهم**)[1].

ثم يبين أن دعوتهم الإصلاحية صادفت عنادا ورفضا من قبل بعض الجامدين الذين يخيفهم الاجتهاد، وهو نفس ما صادفته الحركة الإصلاحية في المشرق، فيقول:(**و لقد هالت هذه النزعة القوية – نزعة الاستدلال– أسراء المألوف وأحلاف الجمود فأكبروها ووسموها بأنها دعوى اجتهاد ودعوة إليه واتخذوا منها غَميزَة يَزنُون بها رجال الجمعية وذريعة لصرف الأغرار من الطلبة عنها، وتحريك العامة عليها بما يهولون عليهم من أمر الاجتهاد و يعظمون من حرماته**)[2].

ثم يرد عليهم فيقول: (**وما بالهم – عافاهم الله – لا يفرقون بين الاستدلال والاجتهاد ولو أنصفوا لعلموا أننا دعاة النظر لا دعاة اجتهاد، ندعو إلى العلم التطبيقي العملي ونأخذ به أنفسنا قبل كل أحد، وأن تطبيق الجزئيات على الكليات ليس من الاجتهاد في شيء، وإنما هو روح العلم ولا علم بدونه**)[3]، ثم يمضي في الرد عليهم فيقول: (**ثم ما لهم – سامحهم الله ــ يجمعون بين المتناقضات فيحجرون الاجتهاد على الأحياء والأموات إلا على طائفة معينة كانت في زمن معين، وقد مضت ومضى زمانها وجف القلم بأقوالها، ويبنون على هذا أنه لم يبق من سبيل في تعلم الدين إلا التقليد، قلنا ولمن؟ قالوا لأولئك المجتهدين، قلنا: سلمنا فهلمّ بنا إلى كتبهم وآرائهم المتصلة الأسانيد**

---

[1] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:1، ص:148.

[2] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:1، ص:148.

[3] آثار البشير الإبراهيمي، ج:1، ص:148

إليهم، ولكنهم يتناقضون فيقلدون حتى في أدق دقائق العبادات العملية التي لا تؤخذ إلا من نص صريح: من آية محكمة أو حديث صحيح – المهدي الوزّاني وابن الحاج – حتى فيما لا نسبة فيه للإمام و لا عزو لأحد من أهل التخريج)[1].

هكذا يخوض الإبراهيمي نضاله الإصلاحي من أجل إعادة فتح باب الاجتهاد، ومن أجل تحكيم الدليل، والاستقلال في التفكير، ويخوض نضاله مع بقية علماء الجمعية وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه ضد الجامدين والمقلدين[2]، وعن هؤلاء الجامدين يقول: **(علماء يقرؤون ويحفظون وينقلون ولكنهم لا يفقهون، هذا العديد المتشابه الذي كأنه نسخ من طبعة واحدة من كتاب لا يقع التحريف في واحدة منها إلا وقع في جميعها، ولا يزيد واحد منهم في العدد إلا كما يزيد كتاب في المكتبة، لا كما يزيد فارس في كتيبة)**[3]، ويقول عنهم أيضا:**(أصبحوا كأدوات التصدير التي يسبقها حرف الجر فيدخل عليها ويعمل فيها)**[4].

و يرى الإبراهيمي أن التقليد هو نقيض الفقه والتبحر في العلم، وهو يعود بالوبال على الأمة. كما يؤدي التقليد بالإضافة إلى ما تقدم إلى جفاف الفقه لأنه عبارة عن عزوف الفكر عن التماس علل الأحكام وطلب حكمها، ومعرفة مقاصد الإسلام منها، كما أنه يؤدي إلى جمود الفقه والفقهاء و إلى تعدي حدود الله.

فالتقليد عقبة أمام تقدم المجتمع، والنهوض بالأمة، فالسير في طريق التحضر والتطور، إنما يبنى بالاجتهاد لا بالخمول والتقليد، يقول الإبراهيمي: **(هذا الجمود في الفقه والفقهاء، وذلك الخلاف الواصل بين طرفي الإباحة والحظر في المسألة الواحدة، هما اللذان سهلا**

---

[1] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:1، ص:148

[2] – عبد اللطيف عبادة، الاجتهاد في نظر الإبراهيمي، ص:313.

[3] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:2، ص:647.

[4] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:2، ص:647.

على المسلمين تعدي حدود الله في الطلاق، وأفضيا إلى هذه الفوضى الفاشية في البيوت، وإلى ارتفاع الثقة بين الأزواج والزوجات)[1].

إن ثورة الإبراهيمي على التقليد والجمود والتعصب المذموم للمذاهب والخمول الفكري تتجلى في أكثر من مكان من آثاره، ويحز في نفسه كثيرا أن يشاهد هذا الجمود يعم المسلمين وكتبهم الفقهية، ويصور الإبراهيمي الدرجة التي وصل إليها الفقهاء المسلمون من الجمود والجفاف من خلال فهمهم لبعض المسائل الفقهية، فيقول: **(أنا لم أسمع مدة دراستي للفقه في بعض تلك الكتب إلا كلمتين تثيران في النفس شيئا من الإحساس الحي، وتنبهان على خيال من الحكمة، و تثبان في المشاعر بصيصا من النور، إحداهما في باب النكاح وهي قولهم: "النكاح مبني على المكارمة" والثانية في باب الطلاق وهي تناقلهم الأثر: "أبغض الحلال إلى الله الطلاق"**[2]**)**[3].

إن الإبراهيمي الذي عرف التقدم العلمي الذي كان عليه الغرب، رأى أنه من الضروري أن تنتهج الأمة طريق العلم، لأن الدين الإسلامي هو دين العقل و التفكير، و ينصح المثقف الجزائري أن يسلكوا طريق الاستقلال الفكري في الحكم على الأشياء، وطريق التفكير المنطقي في الاستدلال لا طريق التخريف، كما يرى الإبراهيمي أن طريق النجاة والخلاص لهذه الأمة هو طريق الابتكار والاجتهاد و العمل والإبداع[4].

---

[1] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:3، ص:298،299.

[2] – أخرجه أبو داود عن ابن عمر في كتاب الطلاق، باب في كراهية الطلاق، رقم الحديث:2178، ج:2، ص:255 – وأخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن عمر، في كتاب الطلاق، باب حدثنا سويد بن سعيد، رقم الحديث:2018، ج:1، ص:650.

[3] – آثار البشير الإبراهيمي، ج:3، ص:298.

[4] – عبد اللطيف عبادة: الاجتهاد في نظر الإبراهيمي، ص:310 وما بعدها.

الخاتمة:

هذه شذرات من نظرات إصلاحية للإمام العلامة محمد البشير الإبراهيمي في مجال الفقه والأصول، وهي بعض من مشروعه الإصلاحي الشامل. وهي تنبئ عن قيمة ومكانة الرجل ورسوخ قدمه في علوم الشريعة. فلقد كان رحمه الله موسوعة علمية متنقدة، متين التكوين، ثاقب البصر، مستقل التفكير. له تكوين فقهي وأصولي لا يقل عن تكوينه اللغوي والأدبي. ولو سنحت له الظروف، وتفرغ للتأليف لوضع أسفارا في مجال الفقه والأصول وغيرهما من فنون علوم الشريعة الإسلامية. ويظهر أن الرجل كان منشغلا بالإصلاح، ومناهضة الاستعمار، والقيام بشؤون جمعية العلماء المسلمين، والإشراف على مجالاتها وجرائدها، والتنقل عبر المدن والبلدان لنصرة القضية الجزائرية، فأخذ ذلك منه كل وقته؛ فجزاه الله تعالى عن الإسلام والجزائر والأمة الإسلامية خير الجزاء.

قضايا التعليم واللغة

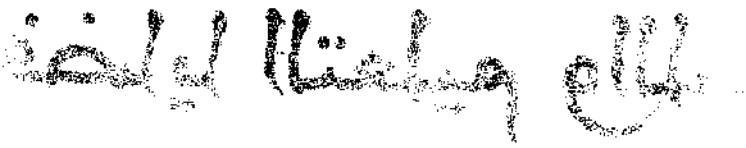

موقف الإبراهيمي من التعليم الاستعماري الفرنسي بالجزائر

أ . مرزاق بيبي

جامعة الجزائر

كان الاستعمار الفرنسي يرى في تعليم الجزائريين السلاح الأنسب لإكساب ودهم وإخماد نار المقاومة التي كانت تندلع عبر التراب الوطني وهذا ما نلمسه في قول الدوق دومال Dauk dumal وهو الوالي العام للجزائر سنة 1847-1848 حين قال: (بناء مدرسة أحسن وأفضل من فيلق عسكري لإقرار الأمن) ومن أجل ذلك قام الاحتلال بإنشاء وفتح العديد من المدارس العربية الفرنسية لتحل محل مدارس التعليم العربي الحر ، الذي كان ينهض بعبئه الشعب الجزائري في تمويله ، وتنظيمه وتسييره. (ولم يكن هناك شيء أعذب موردا ولا أمرأ مشربا ، ولا أهنأ مطعما واشد إغراء ولا أحلى مذاقا ، ولا أود إلى الإدارة الاستعمارية في الجزائر من أن تعمد إلى هذا التعليم العربي فتعيث فيه فسادا سفيهة ظالمة وحقودا باغية وسلطانه عابثه) (عبد المالك مرتاض،1984، ص 45) فقامت بتضيق الخناق على التعليم العربي الحر ورجاله من خلال وضع شروط تعجيزية لمن يرغب في فتح مدرسة تعليمية عربية حرة كما فرضت حضرا على تدريس اللغة العربية إلا بإذن مسبق تمنحه الإدارة الاستعمارية ، وفي مقابل كل هذا كانت المدارس العربية الفرنسية تتمتع بدعم وتشجيع كبير من أجل تحقيق مهمتها المتمثلة في إزالة فتيل الكراهية والعداوة لدى الجزائريين للفرنسيين والدعوة إلى أن الاحتلال هو رسالة حضارية تهدف لإزالة الأمية والجهل المتفشيين بين الجزائريين ، غير أن الحقيقية والواقع كان عكس ذلك إذ لم يشمل هذا التعليم كل الجزائريين لاعتقاد الاستعمار أن تعليم الجزائري وتثقيفه أخطر من الأمي ، فحرمت بذلك أغلب الجزائريين من التعليم و لم يطبق التعليم الإجباري إلا في بلديات منطقة القبائل (واكتفت بإحداث مدارس إسلامية رسمية لتخريج عدد قليل من المعلمين تحتاجه إدارتها ومؤسساتها كالمكاتب العربية والوظائف الدينية والقضائية والتعليمية)(عبد القادر حوش 1999 ،ص 49)

غير أنها سرعان ما أغلقت هذه المدارس لفشلها في تحقيق سياسة الإدماج وهكذا يتضح أن التعليم الذي تبنته سلطات الاحتلال هو تعليم استعماري احتلالي عنصري.

يهدف إلى إبعاد الجزائري عن دينه ، ولغته ووطنه وتاريخه لتسهيل بسط نفوذه وسيطرته دون أي مقاومة ودون أن يلجأ إلى الخيار العسكري وعلى هذا فقد عرفت الجزائر في العهد الاستعماري نوعين من الاستعمار الأول كان ممثلا في الاستعمار العسكري المادي الذي اعتمد على أحدث أنواع السلاح العسكري لتنفيذ سياسة الأرض المحروقة.

وتمثل النوع الثاني في الاستعمار الثقافي التعليمي الذي عملت فرنسا من خلاله بكل الوسائل التي أتيحت لها للقضاء على مقومات الشخصية الجزائرية ، وإذابتها في المجتمع الأوروبي وإبعادها عن انتمائها الإسلامي العربي وأمام خطورة هذه السياسة التعليمية كان لزاما على الجزائريين عامة والنخبة منه خاصة أن ينهضوا لإفشال هذه السياسية ووقف تمديداتها على حاضر ومستقبل الجزائر.

وكان في طليعة هذه النخبة الإمام والشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي كان الفارس المقدام والقائد الشجاع في حربه ضد المشروع الفرنسي ، وذلك بفضل المشروع التعليمي الرائد الذي قدمه لمدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إيمانا منه أن السياسة التعليمية الاستعمارية لا تحارب ولا تواجه إلا بسياسة تعليمية مناقضة لها، فقرر فتح كثير من المدارس من أجل مواجهة المخطط التعليمي الاستعماري الهادف إلى التنصير والفرنسة والإدماج يقول الإبراهيمي :

(فصممت الجمعية على تشييد مدارس فخمة بمال الأمة لتحيي سنة البذل في سبيل العلم ... فتبارزوا في البذل وتنافسوا في بناء المدارس وقابلت الجمعية هذا الاتجاه بما يكمله من برامج وكتب ومدرسيين ... وللجمعية الآن بل للأمة الجزائرية ، أكثر من مائة وخمسين مدرسة ابتدائية حرة رغم الاستعمار الفرنسي ، يتردد عليها أكثر من خمسين ألف تلميذ من أبناء الأمة الجزائرية ، بنين وبنات يدرسون مبادئ لغتهم وآدابها وأصول دينهم

وتاريخ قومهم على برنامج يجمع بين ضروريات العلم وإيجابيات التربية الإسلامية القومية الوطنية الصحيحة وقد تخرج منها في هذه المدة عشرات الآلاف يحملون علما قليلا ومعه فكر صحيح وعقيدة سليمة .... كل هذه المعاني مما يبعث القوة ويرغم الاستعمار الذي لا يحترم إلا القوة ، ثم شيدت الجمعية معهدا ثانويا كخطوة أولى للتعليم الثانوي أنفقت عليه ستين ألف جنيه مصري ، وعمرته بألف تلميذ وعشرين أستاذا) (الإبراهيمي 1997 ، ص 108)

كانت رسالة هذه المدارس تتمثل في العمل من أجل المحافظة على مقومات الشخصية الوطنية ـــ وإفشال في مقابل ذلك السياسة التعليمية الفرنسية التي كانت تهدف إلى تحريف وتشويه الشخصية الجزائرية دينا ولغة ، وحضارة كهدف أساسي لتحقيق حلم فرنسا بأن تصبح الجزائر فرنسية ولقد كشف الإمام الإبراهيمي وفضح أهداف السياسة الاستعمارية لفرنسا قائلا :

(أن الاستعمار جاء إلى هذا الوطن بثلاثة أشياء ليمحو بها ثلاثة أشياء جاء باللاتينية ليغمر بها العروبة وجاء باللغة الفرنسية ليقضي بها على اللغة العربية وجاء بالمسيحية لينسخ بها الاستلام) . (الإبراهيمي 1963 ،ص 185)

ويقول في موضع آخر مبرزا مخططات وأغراض الاستعمار والوسائل التي اعتمدها من أجل تحقيق طموحاته: (جاء الاستعمار الدنس الجزائر يحمل : السيف و الصليب ذلك للتمكن وهذا للتمكين، فملك الأرض واستعبد الرقاب ،وفرض الجزي ، وسخر العقول والأبدان، ولو وقف عند حدود الدنيويات لقلنا تلك هي طبيعة الاستعمار الجائع تدفعه الشهوات إلى اللذات ... ولكنه كان استعمارا دينيا مسيحيا عاريا، وقف للإسلام بالمرصاد من أول يوم ،وانتهك حرماته من أول يوم، فابتز أمواله الموقوفة بالقهر ، وتصرف في معابده بالتحويل والهدم ... وتدخل في شعائره بالتضييق والتشديد. كل ذلك بروح مسيحية رومانية تشع بالحقد وتفور بالانتقام) (الإبراهيمي 1963 ،ص 55)

وعلى هذا يمكن القول بأن الأسس التي اعتمدها الاستعمار الفرنسي لتجسيد سياسته التعليمية في الجزائر تقوم على ثلاثة أسس هي الفرنسة والتنصير والإدماج ولقد كان للإمام الإبراهيمي مواقف جد صريحة وجريئة تجاه هذه الأسس .

أ - الفـــرنسة : الفرنسة معناها استبدال الثقافة العربية بالثقافة الفرنسية وان تحل هذه الأخيرة محل الثقافة العربية في المجتمع الجزائري لغرض تعويد وتدريب الجزائري على نسيان لغته ، وثقافته واعتناقه للثقافة الفرنسية وبهذا يتحقق للمستعمر هدفه مع مرور الزمن ويصبح المجتمع الجزائري مجتمع فرنسي ويقطع كل صلة تربطه بماضيه وبهذا ينجح المستعمر في إخماد كل مقاومة ضده ، وكسب ود الجزائريين بل يتحول الجزائري إلى مسالم ومدافع عن الاستعمار نفسه.

(إن محاولة فرض الفرنسة على الجزائريين من طرف الاحتلال هي التي تفسر لنا تلك الحرب الضارية التي شنها الاستعمار الفرنسي على اللغة و الثقافة العربية طوال 132 سنة وهي فترة وجوده في الجزائر). (تركي رابح 1975 ،ص 104)

وعلى هذا فلا غرابة أن نجد العلامة الإمام الإبراهيمي ينهض لمواجهة هذا الخطر الذي كان يهدد مستقبل اللغة العربية في الجزائر فلقد جاهد من اجل اللغة العربية في الجزائر حق الجهاد وتحدى كل المخططات الهادفة للقضاء عليها من المجتمع الجزائري وكان دائما يبرز متانة وأصالة وجودها في الجزائر ، فقد كتب مقالا 1948 بعنوان " اللغة العربية في الجزائر عقيلة حرة ليس لها ضرة " جاء فيه:

(اللغة العربية في الجزائر ليست غريبة ولا دخيلة ، بل هي في دارها، وبين حماتها وأنصارها وهي ممتدة الجذور مع الماضي مشيدة الأواخي مع الحاضر طويلة الأفنان في المستقبل لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ، ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتهم ، فلما اقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد ، وضرب بجرانه فيه أقامت معه العربية لا تريم ولا تبرح ، ما دام الإسلام مقيما لا يتزحزح ، ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في

النفوس ، وتنساغ في الألسنة واللهوات ، وتنساب بين الشفاه والأفواه ، يزيدها طيبا وعذوبة أن القرآن بها يتلى وأن الصلوات بها تبدأ وتختم ، فما مضى عليها جيل أو جيلان حتى اتسعت دائرتها وخالطت الحواس والشواعر، وجاوزت إلا بانه عن الدين إلى الإبانة عن الدنيا ، فأصبحت لغة دين ودنيا معا).

(الإبراهيمي ، الآثار ، الجزء الثالث 1997 ، ص 206)

إن المتتبع لجهاد الإمام الإبراهيمي من أجل إحياء اللغة العربية وإنتشارها وازدهارها ، ومواجهة خطر الفرنسة علي المجتمع الجزائري يجد نفسه أمام مشروع تعليمي ضخم أعده الإمام الإبراهيمي في إطار عمل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، لتأصيل العربية في المجتمع الجزائري ومواجهة تهديدات الفرنسة.

كان هذا المشروع الذي نشره الإمام الإبراهيمي في شكل سلسلة من المقالات حول التعليم العربي الحر يعبر بشكل دقيق عن حالة الصراع العنيف بين جمعية العلماء والإدارة الاستعمارية حول مسألة التعليم العربي الحر يقول الإمام الإبراهيمي:

(كل الوسائل التي تتذرع بها حكومة الجزائر لمقاومة التعليم العربي هي : إما قوانين أصدرها مجلس الأمة في فرنسا في أوقات مختلفة ولأسباب متنوعة ، وإما قرارات إدارية فردية مصدرها الجزائر و مبناها على ايعازات بوليسية، توجيها الروح الاستعمارية والنوع الأول غالبه عام مطلق ، يشمل كل تعليم حر لم تباشره الحكومة بأيه لغة كان ، ومن أي جمعية صدر والثاني خاص بنا معشر المسلمين ، مصبوب علينا وحدنا موضوع بالقصد المباشر للتضييق على لغتنا وديننا ....وكلما زادت الأمة إقبالا على تعلم لغتها ودينها زادت الحكومة في القيد تضيقا).

(الإبراهيمي الجزء الثالث ، 1997 ،ص 217)

لقد جاهد الإبراهيمي من أجل نشر التعليم العربي الحر في ربوع القطر الجزائري، ولم يستسلم لمختلف العراقيل التي وضعتها الإدارة الاستعمارية من أجل إفشال مشروعه

التعليمي الذي كان يهدف من خلاله أن تعود اللغة والثقافة العربية إلى أحضان الأمة الجزائرية، وأن تسترجع حيويتها ومكانتها في حياة الأمة ، فالجزائر ترى في العربية الدرع الواقي لهويتها وثقافتها وهي حافظة دينها ومصححة عقائدها، وهي بذلك الحصن الحصين المانع من كل محاولة لفرنستها يقول الإبراهيمي:

(لغة الأمة هي ترجمان أفكارها وخزانة أسرارها والأمة الجزائرية ترى في اللغة العربية زيادة على ذلك القدرالمشترك...أنها حافظة دينها ومصححة عقائدها ، ومدونة أحكامها ... والأمة الجزائرية من أوفى الشعوب العربية لهذه اللغة وأكثرهم برا بها وتمجدا واعتزازا ، وأقواها شبها بها في الشدة على العوادي ، والصبر على المكاره، والثبات على المقاومة، فالعربية غالبت في هذا الوطن عدة لغات ، فلم تهن ولم تغلب ، والأمة الجزائرية ناهضت عدة استعمارات روحية ومادية : فلم تقهر ولم تخذل، جاهدت هذه الأمة في سبيل لغتها جهادا متواصلا ، كان من ثمرت النصر فيه هذه النهضة التعليمية التي ولدت الكتاب والشعراء والخطباء والوعاظ)(الإبراهيمي الجزء الثالث، 1997، ص282)

إن هذه النهضة التعليمية التي عرفتها الجزائر بفضل مجهودات الإمام الإبراهيمي كان التعليم العربي فيها الأداة الفعالة التي حارب بها الإبراهيمي الفرنسة ، إذ عمل على نشر التعليم العربي على مختلف المراحل التعليمية ، وفي أغلب مناطق القطر الجزائري الأمر الذي جعل فرنسا تدرك خطورته في إفشال سياسة الفرنسة ، فلجأت إلى محاربته بكل الوسائل من غلق مدارسه تارة ووضع الشروط التعجيزية في مزاولته تارة أخرى . لقد عمل المشروع التعليمي الذي قدمه الإبراهيمي على إبطال وإفشال الفرنسة فلقد كان التلميذ الذي يدرس في مدارس جمعية العلماء يتلقى دروسا تحرص على تثبيت اللغة العربية والدين الإسلامي وتاريخ الجزائر الصحيح في نفسه وعقله ووجدانه وعلى هذا أكد الإبراهيمي في الكثير من المناسبات أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ما قامت إلا لإحياء الإسلام والعروبة والعربية التي صمم الاستعمار على محوها.

II – التنصير : علم الاستعمار منذ احتلاله للجزائر أن الدين الإسلامي يؤدي دورا بارزا في الحفاظ على مقومات الشخصية الجزائرية ويساهم بشكل أساسي في تمسك الجزائريين بأرضهم والدفاع عنها وفوق كل ذلك فهو سر وحدتهم ،وأمام هذه الحقيقة لجأ إلى محاربته بشتى الأساليب وكان أهمها وأخطرها محاولة استبدال الدين الإسلامي بالدين المسحي ، فقام بمصادرة الأوقاف وتهديم المساجد أو تحويلها إلى كنائس ، وقام بتشجيع المبشرين ومساعدتهم لدفع الجزائريين لاعتناق الدين المسيحي

(وقد تجلت سياسة تنصير الجزائريين في أن فرنسا صرحت غداة احتلالها لعاصمة البلاد عام 1830 بأن من جملة أهدافها من وراء عملية غزو الجزائر هو العمل على نشر المسيحية فيها والقضاء على الإسلام).(تركي رابح 1975 ، ص107)

تبنت فرنسا سياسة تبشرية واسعة النطاق لغرض تنصير الجزائريين فقامت بتعزيز ومساعدة الهيئات التبشيرية المسيحية للقيام بعملية التنصير في مختلف مناطق الوطن فنجد من أبرز دعاة نشر المسيحية في الجزائر الحاكم العام " شاترتي " الذي قام بفرض

(رقابة شديدة على رجال الدين الإسلامي عامة في إطار مشروعه لإعادة تنظيم المدارس الإسلامية لإعطاء هم الطابع الفرنسي المحض و لم يتسامح مع تعليم القرآن فأصدر في هذا الشأن قرارات بمراقبة المدرسين وإعطاءهم رخص التنقل و لم يكن يسمح لأي كان أن يفتح مدرسة قرآنية دون موافقة الوالي أو رئيس البلدية بعد إجراء التحقيق اللازم حول شخصية المدرس ، وامتنع من جانب آخر إعطاء رخص فتح مدارس قرآنية للمدرسين غير الجزائريين كالمغاربة والتونسيين خاصة) (Ageron 1969 P.308)

وكان يساعد هذه الحملة التنصيرية المدرسة الفرنسية التي تبنت هذه السياسة منذ البداية فكانت تعمل بكل نشاط من أجل نشر المسيحية من خلال برامجها التعليمية الخاصة بتعليم أبناء الجزائريين، فكانت هذه المدرسة تلقى كل الدعم والتأييد والمساعدة من قبل أغلب

الحكام الذين توافدوا على الجزائر لاعتقادهم أن المدرسة الفرنسية هي الأداة الأنسب القادرة على تحويل الجزائريين إلى الدين المسيحي .

ولقد أدرك الإبراهيمي خطورة هذه السياسة التنصرية على الجزائر فحاربها بكل الوسائل والمنابر سواء في المساجد أو بالمقالات الصحفية أو الدروس في المدارس العربية الحرة وهذا ليس غريبا منه وهو الذي نذر نفسه لمحاربة كل المخططات الاستعمارية الهادفة للقضاء على مقومات الشخصية الجزائرية وفي مقدمتها أن يبقي الدين الإسلامي على مكانته وسلطانه في الجزائر ، فقد قال الإبراهيمي فاضحا سياسة التنصير الفرنسية

(جاء الاستعمار الدنس الجزائر ، يحمل ، السيف والصليب ذاك للتمكن وهذا للتمكين ... فكان استعمارا دينيا مسيحيا عاريا ، وقف للإسلام بالمرصاد من أول يوم وانتهك حرماته من أول يوم ، فأبتز أمواله الموقوفة بالقهر ، وتصرف في معابده بالتحويل والهدم ...وتدخل في شعائره بالتضيق والتشديد كل ذلك بروح مسيحية رومانية تشع بالحقد وتفور بالانتقام.)

(الإبراهيمي، الجزء الثالث ،1997 ،ص 80)

استخدم الاستعمار الفرنسي منذ بداية الاحتلال الدين المسيحي كسلاح لبسط نفوذه وسيطرته على الجزائر والقضاء على الدين الإسلامي فيها فقام بتقديم كل وسائل العون المادية والمعنوية للهيئات التبشيرية لنشر الدين المسيحي لعلمه أن الدين لا يحارب إلا بالدين فشن بذلك حملة تنصيرية واسعة لم تعرفها باقي المستعمرات الفرنسية الأخرى ، فكان التبشير بذلك سلاحا من أسلحة الدمار الذي اعتمده الاستعمار لطمس الهوية الجزائرية

يقول الإبراهيمي :

(التبشير بشكله الحاضر نتيجة من نتائج التعصب المسيحي المسلح ومولود من مواليد القوة الطاغية ... وأداة من أدوات السياسة في ثوب ديني وشكل كهنوتي. دفعته أولا

ليكون رائدها في الفتح وقائدها إلى الاستعمار وأمدته بالمعونة والحماية والصيانة والرعاية ، فمد أغطانه، وأصبحت جميع الأوطان أوطانه)(الإبراهيمي، الجزء الأول 1997،ص196)

وأمام هذا الخطر أدرك الإبراهيمي أن التعليم والتربية هما خير أداة لوقف هذا الخطر إذ لا تتم المقاومة برأي الشيخ الإبراهيمي :

(لمثل هذه الهجمة الشرسة ، ولا يكتمل الدفاع عن الشخصية الوطنية الجزائرية المسلمة التي أراد لها الاستعمار المسخ والتشويه والإقصاء والإبادة إلا بالتربية والتعليم).

(مجلة الموافقات 1995 ، ص 700)

فإعداد وتكوين الإنسان القادر على مواجهة الغزو الثقافي لا يكون إلا بالتعليم فعن طريقه يتعرف الفرد على دينه ولغته وتاريخه ولهذا كانت رساله المدارس التي أسسها الإبراهيمي هي تعليم الإنسان الجزائري مبادئ دينه ولغته وتاريخه.

III – الإدمـــــــاج : هو الأساس الثالث الذي قامت عليه السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر ، ومعنى الإدماج هو جعل الجزائريين فرنسيين في كل شيء لهم نفس الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون فيتلقون على إثر ذلك نفس التعليم الذي يتلقاه الفرنسيون ويعاملون نفس المعاملة التي يعامل بها الفرنسيون في مختلف الوظائف والخدمات الاجتماعية غير أن الحقيقة والواقع عكس ذلك إذ أن سياسة الإدماج التي اعتمدها الاستعمار الفرنسي لها وجهان احدهما ظاهري والآخر باطني

الوجه **الظاهري** : هو الذي يتمثل في إدعائه المساواة بين الجزائريين والفرنسيين في كل شيء .

والوجه **الباطني الحقيقي** : هو ذلك الإدماج الموجود على الأرض والواقع الذي يطبق على سائر المعمرين من الأوروبيين دون السكان الأصليين.

(لقد طبقت فرنسا الإدماج في الجزائر على الأرض ، وفرنست البلاد في معظم مظاهر حياتها العامة ولكنها لم تطبق الإدماج بمعنى المساواة الحقيقية بين السكان الجزائريين والأوروبيين، وإنما طبقته فقط على الجالية الأوروبية)(تركي رابح 1975 ، ص 112)

وهذا يدل على أن الإدماج كان يشكل بالنسبة للاستعمار الفرنسي عقدة لا يستطيع التخلي عنها (إذ كان ينظر إليه كحل جذري لمشاكله في الجزائر فالقضية بالنسبة إليه، ليست قضية استحواذ على ارض الوطن، وممتلكات أهله ، والهيمنة على اقتصاده ، وإنما تكمن في دمج الأهالي في المجتمع الفرنسي روحيا وثقافيا وفكريا أي خلق عائلة عربية مسيحية تعيش مثل العائلة الأوروبية وتفكر مثلها تماما وهو ما استعصى على منظري الاستعمار الفرنسي)(عمار هلال ، 1995 ،ص، 109-110)

فعلى مستوى التعليم بقيت المدارس الفرنسية مغلقة في وجه الجزائريين إلا في نطاق محدود، رغم أن التعليم كان يمثل للاستعمار أحد أهم أبواب ومنافذ تحقيق الإدماج

(الذي لا يمكن فصله عن المدرسة الفرنسية في الجزائر والهيمنة الاستعمارية والثقافة الغربية والاحتكار الامبريالي والرأسمالية الاستعمارية وما يترتب عن ذلك من نتائج روحيا وثقافيا واجتماعيا وسياسيا). (عمار هلال ، 1995 ،ص، 109)

فالتعليم الذي كان يسعى إليه الاستعمار هو التعليم الذي يحقق الإدماج الكلي للجزائريين في المجتمع الفرنسي ، فهو لم يلجأ إلى التعليم لتحقيق الإدماج إلا بعدما جرب كل الوسائل فاقتنع وتيقن في نجاعته وفعاليته وهذا رغم وجود تيار استعماري آخر معارض لكل محاولة لتعليم الجزائريين بدعوى أن تعليمهم يشكل أكبر تهديد للوجود الفرنسي في الجزائر فتعليمهم يؤدي إلى تفتح وعيهم على هويتهم وقضيتهم وهو ما يتعارض مع السياسة الاستعمارية.والى جانب المعارضة الشديدة من قبل هذا التيار فيما يتعلق بتعليم الجزائريين ، كان يوجد تيار آخر يدعو إلى ضرورة تعليمهم تعليما فرنسيا يحقق الولاء لفرنسا ويحقق الإدماج الذي تريده فرنسا.

(لقد كان الإدماج الطابع الأساسي للسياسة التعليمية الفرنسية وأكثر من ذلك فالعملية الإدماجية تهدف إلى جعل الجزائريين يقبلون بالحضارة الأوروبية في وقت قريب أو بعيد ... والقضاء فيما بعد على الوجود العربي بعد دمجه في الكيان الأوروبي). (عبد القادر حلوش 1999 ،ص 79)

لقد ناهض وحارب الإمام الإبراهيمي سياسة الإدماج لما تشكله من خطر على الوجود الجزائري فهي تهدد مقومات الشخصية الجزائرية التي بدونها لا وجود له، فإذا كان الإدماج يهدف إلى جعل الجزائريين فرنسيين وأن تصبح الجزائر فرنسا فها هو الإمام الإبراهيمي يصرخ في وجه أصحاب هذه الدعوة رافضا لها بقوله :

(الجزائر ليست فرنسية ولن تكون فرنسية كلمات قالها أولنا ويقولها أخرنا ومات عليها سلفنا ، وسيلقى الله عليها خلفنا). (الإبراهيمي الجزء الثالث 1997 ، ص 349)

ورغم هذا الموقف الصريح والواضح إلا أن الاستعمار واصل حملته العدائية الهادفة إلى جعل الجزائر فرنسية من خلال نشر وتعميم سياسة الإدماج بين مختلف شرائح المجتمع الجزائري يقول الإبراهيمي فاضحا سياسة الإدماج الفرنسية .

(وفي الشرائع الاستعمارية الفرنسية بالجزائر مذهب كانوا يسمون جانبه التأثيري الإدماج وجانبه التأثري " الاندماج " ومعناه قريب من معنى التركيب المزجي ، لكن هذا المذهب ألتحق بالمذاهب البائدة التي ولدها العتو عن أمر الله والعلو في أرض الله فتلك آراؤه سخرية الساخر)(الإبراهيمي الجزء الثالث 1997 ، ص 350)

إن رفض الإبراهيمي لسياسة الإدماج نابعة من وعيه وإدراكه للمخاطر التي تمثلها على الهوية الجزائرية، وهذا ما جعله لا يكتفي بفضح هذه السياسة وإنما دعا في مقابل ذلك الجزائريين إلى مواجهتها بالوحدة يقول :

(لا اندماج إلا لبعضكم في بعض ولا اتحاد إلا لأجزائكم الطبيعية بعضها مع بعضها).(الإبراهيمي 1963 ، ص 289)

كان لهذه الدعوة صدى ايجابيا كبيرا لدى الجزائريين إذ أن الواقع أثبت فشل سياسة الإدماج بفضل وحدة الجزائريين وتماسكهم (لقد فشلت فرنسا في دمج الشعب الجزائري وإذا بته في كيانها العام نظرا لتمسك الجزائريين بمقومات شخصيتهم القومية ومقاومتهم العنيفة لسياسة الإدماج والفرنسة والتنصير الرامية إلى القضاء على الشخصية الجزائرية). (تركي رابح 1975 ،ص 113)

كما استطاع الإبراهيمي بفضل بعد نظره وسداد رأيه أن يحدد أسباب فشل سياسة الإدماج فأرجعها إلى خصوصية الشعب الجزائري التي ترفض طبيعته أي ذوبان وأي انحلال في أي أمة أخرى غير الأمة الجزائرية يقول: (دأب الاستعمار على طمس كل أثر للإسلام والعربية وقطع كل صلة بينهما وبين الشرق ليتم له مسخ الأمة الجزائرية وإدماجها في الأمة الفرنسية ولكن المناعة الطبيعية في هذه الأمة وتصلبها في المحافظة على التراث الإسلامي المقدس وعلى خصائصها الشريفة دفع عنها ذلك البلاء وأنقذها من ذلك المصير) (الإبراهيمي الجزء الرابع، 1997، ص343)

كما أرجع الإبراهيمي الفضل الكبير في فشل سياسة الإدماج إلى الدور العظيم الذي قامت به جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يقول عن دورها (لقد استطاعت جمعية العلماء المسلمين بفضل الله وعونه أن تقضي على فكرة الاندماج وغيرها من مقاصد الاستعمار وأن تضع أساسا متينا للثقافة الإسلامية العربية في تلك الديار المعزولة) (الابراهيمي الجزء الرابع 1997 ، ص343)

كما كان للمجهـــودات والإسهامات الكبيرة التي بذلها الإبراهيمي في مجال التربية والتعليم الفضل الكبير في وقف مخطط الإدماج وإفشاله بفضل المدارس العربية الحرة التي أسسها والتي ساهمت في الحفاظ على مقومات الشخصية الجزائرية وعصمتها من الذوبان في الكيان الفرنسي الذي كانت تسعى إليه سياسة الإدماج الفرنسية.

هذه هي الأسس التي بنت عليها فرنسا سياستها التعليمية في الجزائر وهي الأسس التي كان للإبراهيمي موقف واضح وصريح تجاهها ، وهي نفس الأسس التي اعتمدها الإبراهيمي، في نقده للسياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر فرغم إلحاحه الشديد، وكثرة دعوته لطلب العلوم العصرية إلا أنه كان في المقابل شديد التحذير والتنبيه لأخطار التعليم الأجنبي الذي كان يلقنه ويقدمه الاستعمار للجزائريين من خلال المدارس الفرنسية التي عملت على نشر سمومها في أوساط الشعب الجزائري لصدهم عن تعلم لغتهم ودينهم وتاريخهم والعمل على قطع كل صلة بينهم وبين ثقافتهم وماضيهم ، يقول الإبراهيمي موضحا حقيقة التعليم الأجنبي (والتعليم الأجنبي على تفاهته في الكيف وقلته في الكم وعلى اضطرارنا إليه وإقبالنا عليه، يسبقه ؛ جهل وتقترن به آفات وتعقبه مفاسد وهو على ذلك كله ، يفتح عينا ليعمي عينا ومن بلغ إلى غايته منا أصبح بالطبيعة متنكرا لماضيه ، ودمه وقومه ،لأن ذلك التعليم وجده فارغا فملاه بما يشاء هو لا بما نشاء نحن) (الابراهيمي الجزء الثالث 1997 ص 275)

بل إن هذا التعليم في نظره لا يعين حتى على الخير لأنه لا يحمل في طياته بذور الخير (لا نغالط أنفسنا فنزعم ... أن هذه اليقظة البادية الآثار المتفشية في الجيل القديم، كافية في توجيه الجيل الجديد إلى الخير وفي توحيد ميوله على الخير أو نزعم لها أن هذا الحظ التافه الذي حصلنا عليه من التعليم الأجنبي يغنينا في هذا الصدد) (الإبراهيمي الجزء الثالث 1997 ص 274)

إن التعليم الذي خصصته المدرسة الفرنسية وفرضته على الجزائريين لم يكن في يوم من الأيام بريئ من محاولة طمس وتشويه الشخصية الجزائرية ، حيث ساهمت هذه المدرسة بشكل كبير في تردي الوضعية التعليمية لأبناء الجزائريين (إن هذه الصورة القاتمة لوضعية الجزائر التاريخية إنما تعكس أولا وقبل كل شيء نوعية التعليم الذي " فرضته " فرنسا على السواد الأعظم من الجزائريين — إنه تعليم مزدوج في نيته " ولكنه مذبذب في واقعه

ووسائله " — إنه " هيكل بلا روح خال من منشطات الفكر والعقل " غرضه معلوم ومدروس ووسائله محددة ومحندة جاءت متوافدة متكاملة في صراع حضاري وعقائدي قديم — إنه الاستمرار لصراع وحرب الصليب للهلال وإنه لمن السذاجة بمكان كما يلاحظ الشيخ الإبراهيمي أن تنتظر من استعمار بشع سيس العلم ووظفه إلى شيء آخر غير ما فعل)(مجلة الثقافة 1987 ،ص 327)

وتتجلى حقيقة نوايا المدرسة الفرنسية في تلك الحرب التي أعلنتها ضد المدارس العربية من خلال سياسة المكر والخديعة التي فرضتها على تعليم أبناء الجزائريين إذا لجأت إلى فتح أبواب مدارسها إلى الجزائريين لا لغرض سوى لصدهم وإبعادهم عن أبواب المدارس العربية أولا ثم لتلقينهم تعليما يخدم طموحاتها ثانيا يقول الإبراهيمي:

(... وهذا التصميم على الباطل ، وهذه البرامج التي تظهر كل يوم لحرب التعليم العربي الإسلامي ، ومن فروع هذا البرنامج الواسع الاهماك في تشييد مئات المكاتب وفتح مئات الأقسام لتسع أولادنا فتشغلهم بتعليمها عن تعليمنا وتعطلهم عن تعليم مفيد بتعليم ناقص لا يؤهلهم لشيء من طرق الحياة ووسائلها ، وإنما يؤهلهم لشيء واحد وهو الاستعباد المريح للسيد إذ لا يحصلون من وراء هذا التعليم إلا على كلمات يلوكونها بالفرنسية ويفهمون بها عن الحاكم إذا أمر وعن المعمر إذا زجر) (الإبراهيمي الجزء الثالث 1997 ، ص 249).

ويهاجم الإبراهيمي التعليم الفرنسي القائم على المخادعة بكشف حقيقته ، حيث أن السياسة التعليمية الاستعمارية لم تقم بنشر التعليم إلا عندما نهضت جمعية العلماء المسلمين بنشر التعليم في أوساط الجزائريين ومحو آثار الأمية التي تفشت بينهم بسبب سياسة التجهيل التي اعتمدها الاستعمار طوال فترة احتلاله للجزائر يقول الإبراهيمي:

(...ولكنها كانت مغتبطة بحال المسلمين من الجهل والأمية وكانت تمهد له سبيلها ، وكانت تتمنى أن لا يفتح عينه على العلم ، وأن لا يفتح عقله ، للعلم فلما أفاق من

غفوته، ونهض من كبوته وأقبل على العلم ، جاءت تخادعه ... برامج التي ذكرنا بعض فروعها لتلهيه بالقشور عن اللباب ، وتريه النافذة وتمنعه ... لباد ...فلتحذر الأمة هذه المظاهر الغرارة فإنها كالسراب ، يخدع الضامي و ... ي الجزء الثالث 1997 ، ص 249)

... هي حقيقة التعليم الأجنبي الفرنسي في نظر ... مي الذي كشف أبعاده ... سياسته وخطته في محاربته للتعليم العربي الـ ... ي ... قة تاريخية هامة صورت العر... بين الجزائر و الإدارة الا... ... ددة في محاولة الحد من نشاط رجـ ... بالترغيب حينا، وبالتره ... يرة)(مجلة الثقافة، 1987، ص 81)

وإذا كان ... نسي يدعي ... بأن رسالته هي نشر الحضارة والتقدم في هذه البلاد فإن ... ي يفضحه أ... ... د الأمم ويبين حقيقته ويظهر سياسته التعليمية الداعية إلى تجهيل الشـ ... ي ... عميم الأمية في صفوفه.

يقول الإبراهيمي :

(لقد رأينا رأي العين كيف أن ... يونين من أبناء المسلمين لا يتلقون أي علم في أي مقعد دراسي وذلك بعد أن بسط عليهم النظام الاستعماري رحمته طيلة 125 عام ، رأينا المسلمين لا يشاركون في التعليم الابتدائي إلا على نسبة 10 بالمائة ، وليس لهم في التعليم العالي إلا نحو ثلاثمائة طالب ، رأينا الأبواب العلمية كلها موصدة في وجه المسلمين ، وخرجنا من كل ذلك بنتيجة عظيمة وهي أننا إذا كنا في فرنسا نجهل معنى العنصرية فإن العنصرية في القطر الجزائري هي القانون الرسمي المعمول به).(الإبراهيمي الآثار ، الجزء الرابع 1997، ص 350)

وأمام هذه الوضعية المأساوية لتعليم الجزائريين حيث كان الجزائري بين نارين نار التربية الأسرية الفاقدة لقواعد وأصول التثقيف والتهذيب لأن قعائد البيوت جاهلات ونار

المدارس الفرنسية القائمة على مبادئ الفرنسة والتنصير والإدماج ويصور الإبراهيمي هذه الحالة المزرية التي آل إليها تعليم الجزائريين بقوله:

(وإذا كانت بيوتنا على ما نرى من فساد في الأخلاق ، وجهل بالتربية الصالحة وإهمال وفوضى وكانت ناشئتنا في هذا الطور، طور التكوين تتقلب بين بيوت هذا حالها ، وبين مكاتب فرنسية لاتكيه إن قدر لهم الوصول إليها وهي ذات برنامج استعماري يوجههم إلى غايات استعمارية ، ويبعدهم عن دينهم ولغتهم وقوميتهم).(الإبراهيمي الجزء الثاني: 1997،ص 114)

ورغم هذا الواقع المؤسف لتعليم الجزائريين إلا أن الإبراهيمي لم ييأس حيث واصل نضاله وجهاده من أجل إبطال مفعول التعليم الأجنبي بدء بكشف حقيقته حيث يقول:

(وجاءت بالمعلم الاستعماري " ليفسد على أبناء المسلمين عقولهم ويلقي الاضطراب في أفكارهم ويستزلهم ويزهدهم في دينهم ونبيهم ويعلمهم – بعد ذلك تعليما ناقصا شـــــر من الجهل). (الإبراهيمي الجزء الثالث، 1997 ،ص 96)

وإذا كان الإبراهيمي شديد المعارضة للسياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر إلا أنه لم يكن يعارض هذا التعليم من أجل المعارضة ، فهو يرى أنه لو كان التعليم الذي جاءت به فرنسا نيته صالحة للقي منا كل الترحيب ، لكن واقعه غير ذلك فهو تعليم عنصري سعى إلى تحطيم البعد الروحي للشعب الجزائري فهو (علم متحيزا إلى فئة ، وأورد على غير مشربنا ، وغرس في نفوس أبنائنا التنكر لماضيهم ، والتسفيه لتاريخهم .والنسيان للغتهم ودينهم أفـــــهذه هي النعمة التي تمنها فرنسا علينا وتتقاضانا شكرها).(الإبراهيمي الجزء الثالث ،1997 ،ص 98) .

وهذا ليس بغريب عن الاستعمار الفرنسي الذي هو (كله رجس من عمل الشيطان ، يلتقي القائمون به على سجايا خبيثة وغرائز شرهة ، ونظرات عميقة إلى وسائل الافتراس واختصاع الفرائس ، وأهم تلك الوسائل قتل المعنويات وتخدير الإحساسات الروحية ،

ولكن هناك تفاوتا بين استعمار واستعمار ، فاستعمار يباشر وسائله بالحقد ويشربها معاني من الانتقام ، وآخر يباشر بنوع من التسامح واللين والاستعمار الفرنسي من نوع الأول).(العربي الزبيري 1995،ص 93)

يكاد يكون الإبراهيمي الوحيد الذي استطاع أن يكشف مكر وخبث السياسة التعليمية الفرنسية أمام الرأي العالمي فقد بين الأرضية التي كانت تتغذى وترتوي منها المدرسة الفرنسية الحاقدة التي لم تفكر في يوم ما في تعليم وتثقيف المواطن الجزائري وهذا لأنها أسست على أساس الشر والعداوة لكل ما هو جزائري يقول الإبراهيمي :

(هذه المدرسة الاستعمارية تهيء تلاميذها أو مريدها للشر وتروضهم عليه في حال تطول قليلا أو تقصر جدا على نسبة استعداد التلميذ، إنما تروض نفوسهم على الشر بالجملة ، فإذا جاء دور التفصيل لم يعجزها أن تلبس القاتك منهم لباس الناسك ،وتقلد الراعي وظيفة الداعي ، وتسم الخلي بسمه الولي ، وتحرك لسان الماكر بورد الذاكر وتؤزر أولاد الحرام بإزار الإحرام ، وتخلع على الصعلوك ألقاب الملوك)(الإبراهيمي الجزء الثالث، 1997 ، ص 414).

وهذا الوصف البليغ والدقيق لحقيقة السياسة التعليمية الاستعمارية ولنواياها الخبيثة ، يبين لنا مدى تمكن الإبراهيمي في التصدي لهذه السياسة وهذا راجع إلى قدرة الإمام الفكرية الخارقة على إبطال كل الحجج الباطلة التي يدعيها الاستعمار ، وتمكنه أيضا من فضح كل أساليبه الشيطانية ، كما يرجع أيضا إلى ثقافته العلمية واللغوية الواسعة.

كان صاحب علم غزير وقلم بليغ ، وحجة قوية ، ولسان فصيح ، يمتلك موهبة خطابية فذة وعنصر أخر ساعده فوق كل ذلك هو إيمانه العميق بالرسالة التي كان يحملها وهي رسالة الدفاع عن مقومات الشخصية الجزائرية المتمثلة في الدين واللغة والوطن.

قائمة المراجع والمصادر

عبد المالك مرتاض: محمد البشير الإبراهيمي، طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،الجزائر 1984.

عبدالقادر حلوش:سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر،دار الأمة،الجزائر،الطبعة الأولى 1999.

محمد البشير الإبراهيمي: في قلب المعركة، دار الأمة، الجزائر، الطبعة الاولى1997.

محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، دار المعارف القاهرة، مصر 1963.

تركي رابح: التعليم القومي والشخصية الوطنية: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع 1975.

محمد البشير الإبراهيمي: الآثار، الجزء الثالث،دار الغرب الإسلامي، بيروت الطبعة الأولى 1997.

_1919, TOM – PUF Ageron (ch.R) les Algériens musulmans et la France 1871,Paris 1960.

محمد البشير الإبراهيمي: الآثار، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1997.

مجلة الموافقات: مجلة جامعية تصدر دوريا عن المعهد الوطني العالي لأصول الدين الجزائر، السنة الرابعة، العدد الرابع، جوان 1995.

عمار هلال : أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة 1830 – 1962، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995.

محمد البشير الإبراهيمي: الآثار ، الجزء الرابع، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1997.

مجلة الثقافة: تصدرها وزارة الثقافة و السياحة بالجزائر، السنة الخامسة، العدد 87 مايو – يونيو 1985.

محمد البشير الإبراهيمي:الآثار،الجزء الثاني،دار الغرب الإسلامي،بيروت،الطبعة الأولى 1997.

العربي الزبيري: المثقفون الجزائريون والثورة، المؤسسة الوطنية للاتصال و النشر والإشهار، الجزائر 1995.

الشيخ محمد البشير الإبراهيمي علم من أعلام التربية والتعليم في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

أ.د. بلقاسم شتوان

جامعة الأمير عبد القادر

بسم الله الرحمن الرحيم :

أود بدء هذه المداخلة بما بدأ به الأستاذ محمد الغسيري- رحمه الله تعالى – مقامة في رثاء إمام النهضة الجزائرية والأب الروحي للأمة الجزائرية حين قال : " الوفاء قليل في البشر ، وأوفى الأوفياء من يفي للأموات ، لأن النسيان غالبا مايباعد بين الأحياء وبينهم ، فيغمطون حقوقهم ويجحدون فضائلهم"

عرف العلماء العظام والباحثون الأجلاء من نخب العلم شيخنا محمد البشير الإبراهيمي –رحمه الله – أنه علم من أعلام الإسلام ، وإمام من أئمة اللغة والفكر ، تميز بسرعة البديهة ودقة الحفظ و الفهم لأسرار العربية وآدابها ، وعلوم الشريعة ودلائلها وأحكامها، فهو الإمام الحافظ الموسوعي، البصير بأحوال المسلمين وعللهم وأدوائهم ، حيث كان يرى أن ذهاب ريحهم من ذهاب أخلاقهم ، وأن معظم بلائهم جاءهم من كبرائهم وأمرائهم وعلمائهم[1] وهذا لعمري داء في أعماق الأمة لا يتكشف إلا لمن حنّكته السنون وخبر مهنة التعليم والتربية والدعوة الصادقة إلى الله فشارك بهذه الحلة الأنبياء والمرسلين في

[1] ـــ يعني غير العادلين وغير الصادقين المخلصين لأمتهم ، هذا المقصود من القول

علاجهم للأمة ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (**إنما بعثت معلما**)[1] وقوله : (**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**)[2]

وقول شوقي :

قم للمعلم وفه التبجيلا * كاد المعلم أن يكون رسولا

وقول حافظ إبراهيم :

إنما الأمم الأخلاق مابقيت * فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فرحم الله شيخنا الذي نهج لأمته نهج الكرامة وشرع لها سنن التضحية، وعلمها الدّرس السامي في الأ خلاق الفاضلة والعلم النافع و الثبات والإباء والشّمم، وعلّمها كيف تموت الأسود جوعا وضمأ ،ولا تطعم الأذى ولا ترد القذى .فجزاؤك أيها الشيخ الجليل في الدنيا طيب ذكر ، وعند ربك ثمين ذخر .

مولده ونشأته

ولد في يوم 14 جوان 1889م في قرية (**أولاد إبراهيم**) جنوب مدينة سطيف والكائنة اليوم بدائرة رأس الوادي التابعة لولاية (**برج بوعريريج**) . الحالية .وفي السنة الثالثة من عمره تعهده عمه الشيخ المكي بتربيته وتعليمه .

فحفظ القرآن الكريم وعمره لم يتجاوز السنة التاسعة كما حفظ أيضا متون اللغة والنحو والفقه وعيون الشعر العربي، فأهّله حفظه هذا ليكون مدرسا وهو في سن الأربع عشرة سنة من عمره .وبعد وفاة عمه سافر إلى بلاد القبائل لإتمام تعليمه الشرعي، ولكن طموحه في طلب العلم دفعه إلى مغادرة البلاد.

---

[1] ـــ للدرمي ، مسند الدارمي ، المعروف ب : سنن الدارمي ، باب في فضل العلم والعالم ، طبعة دار ابن حزم ص 57 رقم الحديث 361

[2] ـــ البيهقي سنن البيهقي ، كتاب الشهادات ، باب مكارم الأخلاق ومعاليها ... ج 15 ص252 رقم الحديث 21379

غـــادر الجزائر عام 1911م للحجاز ملتحقاً بوالده الذي كان قد سبقه إليه حيث تابع تعليمه في المدينة المنورة التي استقر بها لينهل من منابع علمها ، ويغرف من خزائن كتبها ويأخذ من رجالاتها في الحرم النبوي الشريف[1] ، وفيها تعرّف على الشيخ ابن باديس حين كان في زيارته للمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام عام 1913م .حيث كان الحدث الأكبر والأهم في حياته في هذه الفترة ، التي أتيحت له الفرصة لمناقشة الإمام في كيفية تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، والتي تحمل على عاتقها مستقبل نهضة الجزائر وتحريرها من الاستعمار الفرنسي .

وفي عام 1916 م غادر الحجاز قاصداً دمشق بعد ثورة الشريف حسين بمكة فأتيحت له فرصة اللقاء والاحتكاك بالعلماء فتفتقت فيه مواهب متنوعة كعالم وأديب بليغ . وسياسي محنك ، فارتبط بعلاقة صداقة مع زملائه العلماء ، وأبرز المثقفين آنذاك حيث أصبح محط أنظار العلماء ورجال السياسة .فدعاه الوالي العثماني على دمشق جمال باشا ليقربه منه،كما طلب منه الأمير فيصل ليتولى إدارة المعارف بالمدينة ، ولكن الشيخ يبتعد عن هذا وذاك .والسبب في ذلك كله هو حبه لوطنه لأنه كان شغله الشاغل ليحرره من ظلم الاستعمار.

وفي دمشق اشتغل بالتدريس، وشارك في تأسيس المجمع العلمي الذي كان من غايته تعريب الإدارات الحكومية، وفيها التقى بعلماء دمشق وأدبائها، الذين لم ينسهم وبقي وفيا لهم يستذكرهـــم بعد ثلاثين سنة من عودته إلى الجزائر ويكتب عنهم في (**البصائر**)في العدد 64 – عام 1949م فيقول : "**ولقد أقمت بين أولئك الصحب الكرام أربع سنين إلا قليلاً ، فأشهد صادقاً أنها هي الواحة الـــخـــضـــراء في حياتي**

[1] ـــ محمد الصالح رمضان الذكرى الأدبية لزيارة الفرقة المصرية- دار الحديث بتلمسان- طبعة ثانية مزيدة ومنقحة ص47

المجدية ، وأنها هي الجزء العامر في عمري الغامر ، ولا أكذب الله ، فأنا قرير العين بأعمالي العلمية بهذا الوطن (الجزائر) ولكن ... مَن لي

فيه بصدر رحب وصحب كأولئك الصحب ؛ ويا رعى الله عهد دمشق الفيحاء وجادها الهوامع وسقت ، وأفرغت فيها ما وسقت ، فكم كانت لنا فيها من مجالس نتناقل فيها الأدب ، ونتجاذب أطراف الأحاديث العلمية...".

عودته إلى أرض الوطن

في عام 1920م وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى غادرالشيخ محمد البشير الإبراهيمي دمشق وعاد إلى وطنه الحبيب الجزائر وبدأ بدعوته إلى الإصلاح ونشر العلم . حيث دعا إلى إقامة مسجد حر (**غير تابع للإدارة الحكومية الفرنسية**).

وفي عام 1924م زاره ابن باديس وعرض عليه فكرة إقامة جمعية العلماء . وبعد تأسيس الجمعية اُختيرمحمد البشير الإبراهيمي نائباً لرئيسها ، وانتدب من قِبل الجمعية لأصعب مهمة وهي نشر الإصلاح في غرب الجزائر وفي مدينة وهران وهي المعقل الحصين للصوفية الطرقيين: فبادر إلى ذلك وبدأ ببناء المدارس الحرة ، وكان يحاضر في كل مكان يصل إليه، وهو الأديب البارع والمتكلم المفوّه، فامتد نشاطه إلى تلمسان وهي واحة الثقافة العربية في غرب الجزائر وقـــامت قيامة الفئات المعادية من السياسيين والصوفيين وقدموا العرائض للوالي الفرنسي؛ يلتمسون فيها إبعاد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، ولكن الشيخ استمر في نشاطه ، وبرزت المدارس العربية في وهران.

وفي عام 1939 م كتب مقالاً في جريدة (**الإصلاح**) ؛ فنفته فرنسا إلى بلدة (**أفلو**) الصحراوية ، وبعد وفاة ابن باديس انتخب رئيساً لجمعية العلماء وهو لا يزال في المنفى ولم يُفرج عنه إلا عام 1943م ، ثم اعتقل مرة ثانية عام 1945 م وأفرج عنه بعد سنة.

وفي عام 1947 م عادت مجلة (**البصائر**) للصدور ، وكانت مقالات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي فيها في الذروة العليا

من البلاغة ومن الصراحة والنقد القاسي لفرنسا وعملاء فرنسا. حيث يقول عن زعماء الأحزاب السياسية: "**ومن خصومها (أي الجمعية) رجال الأحزاب السياسية من قومنا من أفراد وأحزاب يضادّونها كلما جروا مع الأهواء فلم توافقهم ، وكلما أرادوا احتكار الزعامة في الأمة فلم تسمح لهم ، وكلما طالبوا تأييد الجمعية لهم في الصغائر – كالانتخابات – فلم تستجب لهم ، وكلما أرادوا تضليل الأمة وابتزاز أموالها فعارضتهم**" كما أنه كان يدافع في (**البصائر**) عن اللغة العربية دفاعاً حاراً وشجاعا ، حيث يقول : "**اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ، ولا دخيلة ، بل هي في دارها وبين حماتها وأنصارها ، وهي ممتدة الجذور مع الماضي مشتدة الأواصر مع الحاضر ، طويلة الأفنان في المستقبل ، ممتدة مع الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتهم** "[1].كما كان مهتما بفلسطين وشعبها من خلال ماكان يكتب في (**البصائر**)مدافعا ومنافحا عن قضية فلسطين ؛ حيث كتب عدة مقالات رائعة. ولما استقلت الجزائر ، أمّ المصلين في مسجد (**كتشاوة**) الذي كان قد حُوّل إلى كنيسة عند دخول الفلرنسيين للجزائر . ولكنه لم يكن راضياً عن الاتجاه الذي بدأت تتجه إليه الدولة الجزائرية بعد الاستقلال ؛ فأصدر عام 1964 بياناً ذكر فيه: "**إن الأسس النظرية التي يقيمون عليها أعمالهم يجب أن تنبعث من صميم جذورنا العربية الإسلامية لا من مذاهب أجنبية**"فمن أجل هذا البيان الذي أعلن فيه معارضته لتوجهات ساسة الحكم ، مما دفع برئيس الجمهورية إلى سجنه .ويقال أنه سجن بسبب ماقاله في حينها أنه كتب لرئيس الجمهورية يعاتبه من أجل انحرافه السياسي إلى الاشتراكية بقوله :

---

[1] ـــ آثار محمد البشير الإبراهيمي . عيون البصائر .طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع– الجزائر ج2 ص221

باع أمنا وهـــــدوءا وخلانا أحـــــــويه * واشترى لفظا سخيفا ختمه في النطق كيه اشترى.....كيه

وفاتـــــه : تُوفي الشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي-رحمه الله- يوم الخميس في العشرين من (ماي) عام 1965م عن عمر يناهز 76سنة ودفن بمقبرة سيدي امحمد بالعاصمة الجزائرية يوم الجمعة 21ماي 1965 م بعد أن عاش حياته كلها معلما ومربيا ومكافحا من أجل إعادة عزة الجزائر وكرامة الوطن وترسيخ الإسلام والعربية لدى أبناء الأمة الجزائرية . فجزاه الله خيراً عن الإسلام والمسلمين.

شيوخه

فالشيخ محمد البشير الإبراهيمي أخذ العلم والحكمة على مشايخ كثر منهم :

أولا من الجزائر وهم :

عمه الشيخ المكي الإبراهيمي وعلى مشايخ آخرين جزائريين من بلاد القبائل وغيرها

ثانيا مشايخ من الحجاز وهم :

1 الشيخ عبد العزيز الوزير التونسي

2- الشيخ أحمد الحيدر أبادي الهندي

3 - الشيخ محمود الشنقيطي

4 - الشيخ حمدان الونيسي الجزائري

وفي دمشق تعرف على رجالاتها الأعلام من أهل الفكر والثقافة والأدب، ومن أهل السياسة: من زعماء وقادة الذين شاركوا في بناء النهضة العربية، وكان من أخلص جلسائه السادة الأعلام الذين بقي وفيا لهم ويتذكرهم دائما ويثني عليهم بالخير مدة حياته وهم :

1 -الشيخ عبد الكريم الطرابلسي

2 - الشيخ الخضر بن الحسين

3 – الشيخ الخطيب المظفر

4 – الشيخ سعيد الغزي

5– الشيخ عبد القادر المبارك

6 – الشيخ بهجة البيطار شيخ الجماعة

جهوده في التربية والتعليم

1 – درس في مدرسة دار الحديث الأشرفية بدمشق ذات الشهرة الكبيرة في العالمين العربي والإسلامي والتي تأسست في القرن السابع الهجري أي سنة 626 هـ وتخرج منها أئمة أعلام، وكان من أشهر من درسوا فيها :

أ – ابن الصلاح الفقيه المحدث (577 – 643 هـ) الذي ارتبط اسمه بمصطلح الحديث

ب – محيي الدين النووي المتوفي (676 هـ) الذي ارتبط اسمه بشرح صحيح مسلم ، وبكتابه رياض الصالحين .

ج – تقي الدين السبكي (683-756هـ) الذي تولى مشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق و تولى قضاء الشام ، كما انتهت إليه رئاسة العلم بمصر .

2 – درس في مدينة سطيف ونواحيها، حيث قام بنشرالتربية والعلم والمعرفة ،والدعوة إلى إصلاح المجتمع الجزائري الذي ابتلي بالاستدمار الفرنسي الذي حاول طمس معالم الهوية العربية الإسلامية للجزائريين .

3 – درس في زاوية سيدي الحواس بجنوب مدينة سطيف

4 – وفي عام 1931م بعد تأسيس جمعية العلماء قام رئيسها الشيخ عبد الحميد بن باديس بتوزيع أقطابها الثلاثة على عواصم العمالات الثلاث في تلك الفترة فكان كالآتي :

1 – عين الشيخ الرئيس –بن باديس –بمدينة قسنطينة مدرسا ومربيا للأجيال بالجامع الأخضر ، لأنها كانت في ذلك الوقت مهد النهضة الجزائرية الشاملة ولقيامه بهذه المهمة منذ عام 1913م

2 – عين الشيخ الطيب العقبي بالجزائر عاصمة الوطن ، بعد أن قضى سنوات في بسكرة مربيا ومعلما وداعيا إلى الله على بصيرة .

3 – عين الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بتلمسان حيث ترك التدريس بمدينة سطيف والتحق بتلمسان يدرس طلبة العلم ، ويحاضر للعامة والخاصة في المساجد الرسمية حتى منع منها فتحول إلى النوادي والمساجد الحرة وبعض الزوايا، وقد أتم بها شرح (**صحيح مسلم**) و (**مسند الترمذي**)

وغيرهما من من أمهات الكتب الإسلامية قبل أن يؤسس مدرسة دار الحديث عام 1937 م التي أصبحت أثرا من آثاره العظيمة بتلمسان ومعلما من معالم الحركة الإصلاحية بها .

يقول الشيخ محمد الصالح رمضان واصفا مدرسة الحديث بتلمسان : (هي ذات ثلاثة طوابق : طابق أرضي عبارة عن مسجد جامع ومكتبة . تحته طابق سفلي خاص بدورة المياه والمنضاة ، وطابق فوق المسجد فيه قاعة للمحاضرات ومسرح صغير للتمثيل ومكتب إدارة المدرسة ، وطابق ثالث فوقه المدرسة بأقسامها وفنائها ومرافقها)[1]

2 – إبداعه في التربية والتعليم من خلال ماكتبه

نستشف ذلك بما أفاضه الشيخ من خبرته الطويلة في ميدان التربية والتعليم على أبنائه من المعلمين والطلبة وذلك بماجاء في آثاره "**عيون البصائر** "[2]

أولا – خاطب المعلمين بقوله : " أيها الأبناء البررة : هاأنتم تبوأتم من مدارسكم ميادين جهاد ، فاحرصوا أن يكون كل واحد منكم بطل ميدان ، وهاأنتم هؤلاء خلفتم مرابطة الثغور من سلفكم الذين حملوا الدين والدنيا ، ووقفوا أنفسهم لأحدى خطتين : الدفاع

---

[1] – محمد الصالح رمضان الذكرى الأدبية لزيرة الفرقة المصرية– دار الحديث بتلمسان– طبعة ثانية مزيدة ومنقحة ص 51

[2] – الأثار محمد البشير الإبراهيمي . عيون البصائر ،طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع– الجزائر– ج2 ص 210 –297

المجيد أو موت الشهيد ، فاحذروا أن تؤتى أمتكم من ثغرة يقوم على حراستها واحد منكم فيجلب العار والهزيمة لجميعكم ، واعلموا أنكم عاملون فمسؤولون عن أعمالكم ، فمجزيون عنها من الله ومن الأمة ومن التاريخ ، ومن الجيل الذي تقومون على تربيته كيلا بكيل وزنا بزون ...."

أيها الأبناء البررة :" إن التقصير في الواجب يعد جريمة من جميع الناس ، ولكنه في حقنا يضاعف مرتين ، فيعد جريمتين ، لأن المقصر من غيرنا لايعدم جابرا أو عاذرا ، فقد يطغى على تقصيره عمل قومه أوحكومته ، وقد يقوم له بالعذر حاله الجاري على كمال مقنع ، أما نحن فحالنا حال اليتيم الضائع الجائع إذا لم يسع لنفسه مات .فإذا قصّرنا في العمل لأنفسنا ولما ينفع أمتنا ويرفعها فمن يعمل لها ؟ .....وقد نهى ديننا الإسلام عن التقصير في الواجبات ، ونعى التفريط في الحقوق ، وبين آثاره وعواقبه ، وحض على الأعمال في مواقتها ، وقبّح الكسل والتواكل والإضاعة ، فشرع لنا بذلك كله من شرائع الحزم والقوة وضبط الوقت والنفس مالم يشرعه قانون ، ولم تأت به عقلية "[1].

أيها الأبناء البررة: " احرصوا على أن يكون ما تلقونه لتلامذكم من الأقوال منطبقا على مايرونه ويشهدونه منكم من الأعمال ، فإن الناشئ الصغير مرهف الحس ، طلعة إلى مثل هذه الدقائق التي تغفلون عنها ، ولا ينالها اهتمامكم ، وإنه قوي الإدراك للمعايب والكمالات ، فإذا زينتم له الصدق ، فكونا صادقين ، وإذا حسنتم له الصبر فكونوا من الصابرين ، واعلموا أن كل نقش تنقشونه في نفوس تلامذ تكم من غير أن يكون منقوشا في نفوسكم فهو زائل ، وأن كل صبغ تنفضونه على أرواحهم من قبل أن يكون متغلغلا في أرواحكم فهو — محالة — ناصل حائل ، وأن كل سحر تنفثونه لاستزالهم غير الصدق

[1] — آثار محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ،طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع– الجزائر– ج2 ص291

فهو باطل . ألا إن رأس مال التلميذ هو مايأخذه عنكم من الأخلاق الصالحة بالقدوة ، وأما ما يأخذه عنكم بالتلقين من العلم والمعرفة فهو ربح وفائدة.

أيها الأبناء البررة: " أوصيكم بحسن العشرة مع بعضكم إذا اجتمعتم ، وبحفظ العهد والغيب لبعضكم إذا افترقتم ، إن العامة التي ائتمنتكم على تربية أبنائها تنظر أعمالكم بالمرآة الكبيرة ، فالصغيرة من أعمالكم تعدّها كبيرة ، والخافتة من أقوالكم تسمعها جهيرة فاحذروا ثم احذروا !!"

أيها الأبناء البررة " إن هذه الأمة — يأبنائي — هي أمتنا ،وهي رأسمالنا شئنا أو أبينا وهي عوننا على العلم ، وهي مددنا وملاذنا وهي نصرتنا ومعاذنا وهي مناط قوتنا ومظهر أعمالنا ، فعلينا أن نراعي شعورها في غير واجب يترك أو محرم يؤتى ، وأن نسير بها إلى الغاية في رفق وأناة ، لا أقول لكم سايروها على الباطل ، وجاوروها في البدع ، ووا طئوها على الضلال ، فذلك ميدان وقفنا فيه قبلكم موقف المنكر المتشدّد ، ونازلنا أبطال الباطل حتى زلزلنا أقدامهم ونكسنا أعلامهم ، وقد أرحناكم ومهدنا لكم السبل.... " .

أيها الأبناء البررة : " أنتم جنود العلم . ولكلمة (جندي) معنى يبعث الروعة ويوحي بالاحترام ويجلب الشرف ويغلي القيمة ...وحافظ أمانة وقيم أمة لذلك كان من واجبات الجندي الصبر على المكاره واللّزبات [1]. والثبات في الشدائد والأزمات ، والسمع والطاعة فيما يغمض على الأذهان فهمه من العلل ، ويعسر على العقول هضمه من الحكم ....."

أيها الأبناء البررة :" أنتم حراس هذا الجيل الجديد والمؤتمنون عليه ، والقوامون على بنائه، وأنتم بناة عقوله ونفوسه ، فابنوا عقوله على أساس من الحقيقة ، وابنوا نفوسه على صخرة من الفضائل الإنسانية ، واشربوه عرفان قيمها ، فإنّ من لم يعرف قيمة الثمين أضاعه .....ربوهم على التحاب في الخير والتآخي في الحق والتعاون على الإحسان

---

[1] — تقول : ضنن لازب أي لازق ، واللازب الثابت .يقال : صار الشيء ضربة لازب ، الرازي ، مختار الصحاح ، ص 322.

والصبر إلا على الضيم ، والإقدام إلا على الشر ، والإيثار إلا على الشرف والتسامح إلا في الكرامة .....ربوهم على استخدام المواهب الفطرية من عقل وفكر وذهن ، وعلى صدق التصور وصحة الإدراك ودقة الملاحظة والوقوف عندحدود الواقع..... ربوهم على بناء الأمور على أسبابها والنتائج على مقدماتها علما وعملا "

إلى أن قال : " اثنتان يجب توحيدهما وإصلاحهما بحزم وشجاعة وإخلاص - وإلا كنا جانين على النهضة ومستقبلها ، غاشين للأمة في أطفالها وشبابها ، متسببين فيا في خسارة مالها الضخم ، والثنتان هما : (هيئات التدريس ، وهيئات الكشافة ...)[1]

ثم يقسم بالله فيقول : " أما والله لواستطعت لأعطيت المعلم جما ، ثم لأوسعت العطاء ذما، حتى تقوى فيه نزعة الكرامة وشرف العلم ، الشعور بأن العلم كالعبادة ، وكفاؤه الأجر من الله لا الأجرة من المخلوق ، ولكن التمني تعلق بخيال...."[2]

ثانيا — خاطب الطلبة بقوله :" إنكم ياأبناءنا مناط آمالنا ، ومستودع أمانينا نعدّكم لحمل الأمانة وهي ثقيلة ، ولاستحقاق الإرث ، وهو ذو تبعات وذو تكاليف ، وننتظر منكم ما ينتظره المدلج في الظلام من تباشير الصبح .... إن الوطن — وهو أبو الجميع — يتطلع إلى إحياء وتعمير ، وإعادة مجد وبناء تاريخ ، وان الوطن حين يرضى بخلوه من أبنائه أنهم ما أخلوه إلا ليعمّروه ، وما قطعوه إلاليصلوه ، وما فارقوه شبابا عزلا إلاليعودوا إليه كهولا مسلحين بقوة التفكير تظاهرها قوة العلم ، تظاهرها قوة العمل ..... لاتقطعوا الفاضل من أوقاتكم في ذرع الأزقة إلا بمقدار ما تستعيدون به النشاط البدني ، ولا في الجلوس في المقاهي إلا بقد ما تدفعون به الملل والركود ، ولا في قراءة الجوائد ، إلا بقدر ما تطلعون به على الحوادث الكبرى ، وتصلون به مجاري التاريخ .

---

[1] - آثار محمد البشير الإبراهيمي : عيون البصائر ،طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- ج2 ص305

[2] — آثار محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ،طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- ج2 ص305

خذوا من كل هذا بمقدار ، ووفروا الوقت للدرس النافع والمطالعة المثمرة .....لا تعتمدوا على حفظ المتون وحدها بل احفظوا كل مايقوي مادتكم اللغوية ، وينمي ثروتكم الفكرية ، ويغذي ملكتكم البيانية ، القرآن القرآن ! تعاهدوه بالحفظ وأحيوه بالتلاوة ، وربوا ألسنتكم على الاستشهاد به في اللغة والقواعد ، وعلى الاستشهاد به في الدين والأخلاق ، وعلى الاستظهار به في الجدل ، وعلى الاعتماد عليه في الاعتبار بسنن الله في الكون .....فالحذر الحذر ! فإن الوطن يرجو أن يبنى بكم جيلا قوي الأسر [1] شديد العزائم سديد الآراء متين العلم متماسك الأجزاء يدفع عنه الفوضى السائدة في الآراء ، وهذا الفتور البادي على الأعمال والخمول المخيم على الأفكار، والخلاف المستمر على السفاسف ...فإذا استعمتم لهذه الأصوا ت المتنافرة ضيعتم على الوطن جيلا ، وزدتم في بلائه محنة، وأطلتم مدة المرض بتأخير العلاج ، لا يعذلكم في حب وطنكم إلا ظالم ، ولا يصرفكم عن اتقان وسائل النفع له إلا أظلم منه ، أنتم اليوم جنود العلم فاستعدوا لتكونوا غدا جنود العمل ."[2]

ثالثا – حب الشيخ الفاضل محمد البشير الإبراهيمي للمدارس وافتخاره بها لكونه معلما ومربيا حيث يقول : " حياة الأمم في هذا العصر بالمدارس ، مافي هذا شك ، إلا في قلوب ران عليها الجهل ، وغان[3] عليها الفساد ، ونفوس ختم عليها الضلال ، وضرب على مشاعرها المسخ ، وطال عليها الأمد في الرق ، فصدئت منها البصائر ، وعميت الأبصار ، فتغير نظرها في الحياة ووسائلها ، فرضيت بالدون ، ولاذت بالسكون . الحياة

---

[1] – الأسر : الشد . لأن الإيسار بوزن الإزار هو القد ومنه سمي الأسير أسيرا .الرازي مختار الصحاح ص 19

[2] – آثار محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ،طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- ج2 ص219

[3] – غان من (غ ي ن) أي غطى عليه .وفي الحديث(إنه ليغان على قلبي) الرازي مختار الصحاح ص 266 ، الحديث رواه مسلم ، صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب الاستغفار، طبعة دار الكتاب العربي، ص 1111 رقم 6858

بالعلم ، والمدرسة منبع العلم ، ومشرع العرفان ، وطريق الهداية إلى الحياة الشريفة ، فمن طلب هذا النوع من الحياة من غير طريق العلم زل ، ومن التمس الهداية إليه من غيرها ضل ، وحياة الأمم التي نراها ونعاشرها شاهد صادق على ذلك .تبني الأمم ماتبني من القصور ، وتشيد ما تشيد من المصانع ، وتنسق ما تنسق من الحدائق ، وتحف ذلك كله بالسور المنيع فإذا ذلك كله مدينة ضخمة جميلة ، ولكنها بغير المدرسة عقدا بلا واسطة ، أو جسم بلا قلب ، وإن ذلك كله إرواء للغرائز الحيوانية وإرضاء للعواطف الدنيا بالمتع واللذات والتباهي وطلب الذكر ، أما إرواء العقل والروح ، وإرضاء الميول الصاعدة بهما إلى الأفق الأعلى فالتمسها في المدرسة لا في القصر ولا في المصنع ، ولو تباهت الأبنية المشيدة بغاياتها ،وتفاخرت بمعانيها لأسكتت المدرسة كل منافس ."[1] فرحم الله الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وأسكنه جنانه آمين وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

[1] ـــ آثار محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ،طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر- ج2 ص283

الاستراتيجية الحجاجية في" رواية الثلاثة " (*)

- دراسة في الوظائف التداولية -

أ . إبراهيم براهمي

الملخص: تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الاستراتيجية الحجاجية بوصفها بنية خطابية قصدية لها حضورها المميز في سياق عملية التفاعل والتواصل الاجتماعي بين المتخاطبين ؛ لينظر من خلالها الى الملفوظات باعتبارها أفعالا إنجازية اقناعية تأثيرية؛ المهيمن اللساني التداولي فيها يمكن تقيده في : الغلبة، البرهنة، الدفع، المنازعة، التخاصم ، الجدل .

في نص " رِوَايَةُ الثَّلاثَةِ " محادثة بين ثلاثة أطراف متحاورة ، تبارت خطابيا فيما بينها ، حاول فيها كل طرف أن يسلك هذه الاستراتيجية متلمسا لنفسه الحجة والبرهان البين المحقق المقصد والغاية النبيلة له ؛ بأقوال صريحة ومضمرة ، فالحجاج في " رِوَايَةُ الثَّلاثَةِ " إذاً استراتيجية خطابية ذات وظيفة تواصلية وليست ترفا خطابيا، وهو بنية خطابية أملتها ضرورات التفاعل الايجابي الناجع المحقق لأغراض المتخاطبين وحاجتهم .

Résume : Cette étude vise la mise en évidence de la stratégie argumentative ,en tant que structure discursive intentionnée. En effet , la stratégie argumentative est caractérisée par sa présence distinguée dans l'interaction et la communication social , entre les interlocuteurs .

Les énoncés sont perçus en tant que verbes performatifs, convaincants et persuasifs. Aussi, la dominante linguistique et pragmatique pourrait être limité en : la dominance, la preuve, la réfutation, le conflit, la dispute et la dialectique.

Dans le texte " Riwayatte Elthalthat " une discussion entre trois interlocuteurs, qui se sont mis en une compétition discursive . chaque interlocuteur a essayé d'adopter cette stratégie en cherchant l'argument et la preuve appropriée pour atteindre ses intentions et son objectif noble .ils font recours à des énoncés explicites et implicites. L'argumentation dans " Riwayatte Elthalthat " est donc, une stratégie discursive à visée communicative et n' est pas un << superflus discursive >>. Il s'agit d'une structure discursive imposée par la nécessité d'une interaction positive et efficace, qui assure les intentions des interlocuteurs et leurs besoins .

I – مـــهـــــاد نظـــري

أ – مفهوم الإستراتيجية الحجـــاجيـــة : نلاحظ من خلال الربط بين التحديدات المعجمية لكلمة " الحجاج Argumentation " أنه لفظ يحمل معاني لغوية متعددة ولكنها متقاربة من حيث الحقل الدلالي(**) ؛ وتظهر هذه المعاني على اتساع دائرتها الحجاج في صورة : إجراء يسلكه فرد أو مجموعة لدفع مستمع إلى تبني موقف ، اعتمادا على إثباتات أو حجج ، ((فالحجاج مجال للشبيه والمحتمل وميدان لتفاعل الذوات –كمكون خطابي سياقي –، ودفاع عن قضية ، يقوم على تبريرات ، وعناصر عقلية

منطقية ليبحث عن الاتفاق في واقع الاختلافات اللانهائية بين الأفراد أو المجموعات))(1). بهذه الصورة يصبح الحجاج بعدا جوهريا في اللغة ذاتها ، مما ينتج عن ذلك أنه حيث وجد خطاب العقل واللغة فإن ثمة استراتيجية معينة نعمد إليها ، لغويا وعقليا ، إما لإقناع أنفسنا أو غيرنا . وهذه الاستراتيجية هي الحجاج ذاته . وهي تستمد خصائصها وقيمتها من الحقل الذي تتحقق فيه ويعطيها الشرعية ، وقد يكون هذا الحقل هو الحياة اليومية للناس وقيمهم ، أو يكون هو الفكر والتفكير .

وعليه يمكن أن نفهم الاستراتيجية الحجاجية على أنها خيار خطابي ينهض على مجموعة تقنيات وأدوات لغوية ومصاحبة يرتبط من خلالها الفعل اللغوي بالسياق والمتكلمين ؛ وهو بذلك فعل لغوي مركب واستراتيجية إدراكية إقناعية ، تربط المعتقدات الشخصية بالتمثلات الاجتماعية ؛ ونظرية في الخطاب تصف البنيات الحجاجية للخطاب (2) .

ب – أسس الاستراتيجية الحجاجيـــة وسماتهـــا : تتأسس هذه الاستراتيجية في السياق التخاطبي ، انطلاقا من مؤداها النبيل والمثمـــر ((وهو درس تقنيات الخطاب التي تؤدي بالذهن إلى التسليم بما يعرض عليه من أطروحات، أو أن تزيد في درجة التسليم وربما كانت وظيفتها محاولة جعل العقل يذعن لما يطرح عليه من أفكار، أو يزيد في درجة ذلك الإذعان إلى درجة تبعث على العمل المطلوب ،،، وتتصدر الحاجة كوظيفة لسانية قائمة الوظائف اللغوية بالرغم من عدم إشارة الدارسين الذين تناولوا موضوع وظيفة اللغة لها)) (3) .

لتنخرط هذه الاستراتيجية في صلب العملية التخاطبية فعلا خطابيا متجددا ؛ تبعا للسُلمية الاجتماعية ؛ فتتباين من حيث أنماط وأنواع الحجج في استعمالها اللغوي ؛ ومن جانب آخر من حيث درجة اليقين والتصديق بها ؛ فمنها ما يفيد اليقين التام ، ومنها ما يفيد دون ذلك ، ومنها ما يلزم الطرف الآخر بالتصديق ومنها غير الملزم بالتصديق .

ووفق هذا التصور رتبها " عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني " في مراتب محددة نذكر منها : (4)

أ – الحجة البرهانية: الحجة التي تفيد اليقين ، وتتألف في القياس من مقدمات يقينية على هيئة تفيد نتيجة يقينية. ب – الحجة الجدلية : الحجة المؤلفة من مقدمات يسلم بها المخاطب ، ولكن هذه المقدمات لا ترقى في حقيقة حالها إلى مرتبة اليقين التام.

ج – الحجة الخطابية : الحجة التي لا تلزم الطرف الآخر بالأخذ بها ؛ ولكنها تفيده ظناً راجحاً مقبولاً أو هي تعتمد على مقدمات ظنية ، سوء سلم بها المخاطب أو لم يسلم وسوء أفادته ظنا راجحا أو لم تفده ؛ وهذه الحجة تصلح في التعليمات والمخاطبات وتصلح للإقناع بوجهة نظر صاحب الحجة.

د – الحجة المغالطة : الحجج التي تكون فيها المقدمات قائمة على خطأ مقصود مغلف بما يوهم أنه حق ، من أجل التمويه والتضليل فهي مغالطة من المغالطات والغرض منها إبطال الحقائق .

أم فيما يخص سماتها ؛ فهي تتسم في صورتها اللغوية بعدة سمات ومن ذلك :

أ – إنها سياقية: فالعنصر الدلالي الذي يقدمه المتكلم باعتباره يؤدي إلى عنصر دلالي آخر، فإن السياق هو الذي يصيره حجة، وهو الذي يمنحه طبيعته الحجاجية .

ب – إنها نسبية: فلكل حجة قوة حجاجية معينة، فقد يقدم المتكلم حجة ما لصالح نتيجة معينة، ويقدم خصمه حجة مضادة أقوى بكثير منها، وبعبارة أخرى هناك الحجج القوية والحجج الضعيفة والحجج الأوهى والأضعف.

ج – إنها قابلة للإبطال : فلكل حجة جانب خفي بها يبطلها يدركه الذي يحسن المحاجة .

وعلى العموم فإن الحجاج اللغوي نسبي ومرن وتدريجي وسياقي بخلاف البرهان المنطقي والرياضي الذي هو مطلق وحتمي . (5).

ومن الجدير هنا الوقوف عند ما خلص إليه زامينر بادوفا "v. zammuner PADOVA" في نهاية مقاربته لـ " الخطاب الحجاجي 1987 " إذ يسجل مجموعة ملاحظات حول الاستراتيجيات الحجاجية ، حري أن ننظر لها بوصفها أسس هامة يجب أن نراعيها في دارسة الخطاب الحجاجي:

1 - إن الاستراتيجيات التي يتبعها الأفراد في الحجاج متنوعة غير أن بعضها أكثر نمذجة أو حسما في مقبولية الحجاج .(استعمال المقدمات ، السحب الصريح للنتائج ، التقطيعات الدلالية ، الإثباتات) .

2 - إن اختيار الاستراتيجيات يرتبط بأهداف الأشخاص ؛ وبمعرفة المحور ، في موضع أو مقام معين ، وتكون بعضها غير ملائمة للمتطلبات والقيود النصية والسياقية ، لأنها تغفل خصائص سياق الإنتاج .

3 - قد ينجح بعض الأفراد في الدفاع عن آرائهم ، بتكوين حجاج مفهوم ومقبول، وان استعملوا طرقا مغايرة ، وقد يختار نفس الأفراد طرقا أخرى في مناسبات مخالفة ، ومع اختلافات بارزة في السياق.

4 - يرتبط استعمال الاستراتيجيات واختياراتها بجهات وأنواع الخطاب ؛ بمعنى أن النوع أو الجهة الخاصة ، ينتخبان أو يقصيان إمكانية الالتجاء إلى استراتيجية معينة . ويحددان كيفية أو ضرورة انجازها.

5 - إذا كان من الممكن نظريا ،أن تحدد الاستراتيجيات والبنيات الحجاجية ، لأساس معرفي معطى أو نوع من السياقات ،،، فإنه لا توجد في انتاجات الحياة الواقعية بنيات صارمة يستعملها المتكلم أو السامع أو يلزمان باستعمالها ؛ وإنما هناك نماذج مفضلة ، تستعمل بكثرة من طرف بعض الأطراف في سياق معين أو بالنسبة لجهة معينة . ولن يوجد نموذج حجاجي ينمذج الانجاز البشري (6)

ج - مكونات الاستراتيجية الحجاجية : وتتجسد هذه الاستراتيجية من خلال

مجموع آليات لغوية وبلاغية تظهر في جانبين :

1 - الروابط الحجاجية : لما كانت للغة وظيفة حجاجية، وكانت التسلسلات الخطابية محددة بواسطة بنية الأقوال اللغوية وبواسطة العناصر والمواد التي تم تشغيلها، فقد اشتملت اللغات الطبيعية على مؤشرات لغوية خاصة بالحجاج. فاللغة العربية، مثلا، تشتمل على عدد كبير من الروابط الحجاجية التي لا يمكن تعريفها إلا بالإحالة على قيمتها الحجاجية . نذكر من هذه الأدوات: لكن ، بل، إذن،حتى،لاسيما، إذ، لأن. بما أن ، مع ذلك، ربما، تقريبا، إنما،ما...إلا....إلخ ، وقد اقترح"ديكرو DUCROT "وصفا حجاجيا جديدا لهذه الروابط والأدوات باعتباره بديلا للوصف التقليدي. فإذا كان هذا الأخير يصف الأداة بأنها تشير إلى أن " ب " يستلزم " أ " فقط ، ويصف بأنها تشير إلى التعارض القائم بين القضايا التي تربط بينها، فإن الوصف الحجاجي لهذين الرابطين هو كالتالي: يسلم المخاطب بـ"ب" ، وبالإحالة على استلزام "ب" لـ " أ " ، فإن عليه أن يقبل " أ " ، وبالنسبة إلى " لكن" " تميل إلى أن تستنتج من " أ " نتيجة ما، لا ينبغي القيام بذلك، لأن "ب" ، وهي صحيحة مثل" أ " ، تقترح النتيجة المضادة". والروابط تربط بين قولين، أو بين حجتين على الأصح (أو أكثر) ، وتستند لكل قول دورا محددا داخل الاستراتيجية الحجاجية العامة. ويمكن أن نميز بين أنماط عديدة من الروابط :

أ - الروابط المدرجة للحجج (حتى،بل،لكن، والروابط المدرجة للنتائج (إذن، لهذا،وبالتالي ....)

ب - الروابط التي تدرج حججا قوية (حتى ،بل،لكن،لاسيما...)والروابط التي تدرج حججا ضعيفة .

ج روابط التعارض الحجاجي (بل،لكن،مع ذلك..)، وروابط التساوق الحجاجي (حتى، لاسيما) (7)

2- العوامل الحجاجية : هي لا تربط بين متغيرات حجاجية أي بين حجة ونتيجة

أو بين مجموعة حجج ، ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما وتضم مقولة العوامل أدوات من قبيل: ربما، تقريبا ، كاد، قليلا، كثيرا ، ما...إلا، ويمكن أن نضيف لها الأساليب اللغوية والبلاغية : الاستفهام ، النداء ، الذم ، الإغراء ، الاستعارة ، التشبيه . ولتوضح مفهوم العامل الحجاجي بشكل أكثر، ندرس المثالين الآتيين: (8)

- الساعة تشير إلى الثامنة ؟
- لا تشير الساعة إلا إلى الثامنة

فعندما أدخلنا على المثال الأول أداة القصر "لا....إلا"، وهي عامل حجاجي، لم ينتج عن ذلك أي اختلاف بين المثالين بخصوص القيمة الإخبارية أو المحتوى الإعلامي، ولكن الذي تأثر بهذا التعديل هو القيمة الحجاجية للقول، أي الإمكانات الحجاجية التي يتيحها ؛ فقد يخدم هذا القول نتائج من قبيل: الدعوة إلى الإسراع، التأخر والاستبطاء، هناك متسع من الوقت، موعد الأخبار ...إلخ (9) .

II – الـــدراســـــة التـــطبيقيـــة

1 – طبيعـــة البنية الخطابية الحجاجية في " روايـــة الثلاثـــة " : يروم هذا المبحث إلى استكشاف الاستراتيجية الحجاجية نمطا خطابيا وسبل تحققه نهجا تفاعليا تواصليا بين المتخاطبين الثلاثة ؛ الذين نهتدي معهم إلى شكل من ممارسة لغوية خطابية لها سياقها الاستعمالي الخاص ؛ في صورة حوار ناشئ بين طرفين (أ) و (ب) أو أكثر ؛ طرف أول يحمل آراء ومواقف معينة حول قضية ما ؛ يسعى إلى الإقناع بها فيدافع عنها ويهاجم من يخالفه أو يقلل من قيمة أرائه ، وطرف ثان ينكر أو يجادل أو يخاصم ؛ يتواجه الطرفان ويكون الخطاب في قالـــب :

– هادئ يتصف بالتأدب وعدم الانفعال

– حاد يتصف بالإثارة والانفعال

– حاد جدا (يتراشق فيه الطرفان بأشد الأساليب الخطابية تأثيرا وغلبة) (10) ؛ وهب وافترض مسبقا عدم حصول اتفاق بين الطرفين – هذا ما هو ظاهر بين المدير والجلالي – مما يستدعي الحاجة إلى التفاوض الخطابي الذي يرتكز أساسا على استخدام الحجج والبراهين البرهنة ،،، مما نختصره بالمحاجة ، وليست هذه البنية محققة في مستوى خطابي معين ؛ بل تظهر حتى في المحادثات اليومية العادية البسيطة . تثبيتا أو تفنيدا ؛ وهي مهيمنات لغوية منطقية مثل المناقضة ، الاختلاف ، التخاصم ، الاستدلال ،

تتبعا لهذه البنية الخطابية ومن هذا المنطلق نقف أمام سيرورة حوار المتخاطبين الثلاثة تطلعا إلى الطرائق والآليات الحجاجية التي تباروا بها خطابيا حتى ارتسمت نهجا في التفاعل والتواصل ، مع التأكيد أن هذه القواعد تشكل جزءا جوهريا قائما في الأساس المعرفي للغة المستعملة بين المتكلمين وفي كيفياتها المحلية – هنا اللهجة الجزائرية – ؛ هذا يعني أن أيَّ ملفوظ ينتج يتضمن في بنائه عملية مزدوجة ؛ بناء وهدم ، قول ونقيضه ؛ والقول هو حجة ورابط ونتيجة مع وجود قرائن سياقية بطبيعة الحال . وبذلك فإن التحليل الحجاجي لحوار المتخاطبين يعني البحث في البنية الحجاجية لفحوى الخطاب ، أي كيف تتابع الملفوظات أخذا وردا إثباتا ونقضا ؛ وفي الجانب التركيبي للملفوظات بوصفها حججا برهانية تنتصر للموقف والرأي والقضية أو تدحضه وتفنده تصريحا أو تلميحا وإضمارا ؛ تستقرى بالكفاءة التداولية .

في "رِوَايَـــةُ الـــثَّـــلاثَـــة "حوار تهيمن فيه أطراف ثلاثة ؛ يحاول كل طرف منهم أن يحقق موقعه الخطابي في العملية التواصلية إقناعا وتأثيرا ، ولا شك أن ما يصدر عن الطرف (أ) من ملفوظات يرى فيها الصواب فيلتمس لها حججا وبراهين قوية ؛ قد لا ترضي الطرف (ب) أو (ج) أو ترضي أحدهما دون الآخر ، والعكس صحيح ؛ وهذا شأن المدير والجنان والجلالي . لقد ألفينا – فيما تقدم – أن محور المدير الجلالي سمته عدم التطابق والتوافق ، وهذا ما يثير التساؤل تحددا عن طبيعة التواصل المتحقق إذاً بين

الطرفين؟ ثم إن الاستفهام يظل قائما عن كيفية التفاعل بين الجنان والمدير أو الجنان والجلالي هل هناك وفاق دائم ، وما وجه الالتقاء والافتراق ؟ .

تبدو المحادثة بين الأطراف الثلاثة في صورتها العامة سجالا خطابيا يقارع فيه الواحد منهما الآخر محاولا الانتصار عليه بكل ما أوتي من سبل وطرائق خطابية من أهدئها وأقلها تأثيرا إلى أشدها تجريحا ، فالبنية الحجاجية لنص المدونة تمثل الأرضية المعرفية الذهنية المتجلية بأبنية لغوية/ملفوظات تحكمها الصرامة المنطقية الممتدة من بداية المحادثة وحيث منتهاها ، وإذا نظرنا إلى النص ككل بوصفه تركيبا قوليا/لغويا حجاجيا له أسسه الاستدلالية المنطقية في شكل قضية لتحقق بالصورة الآتية:

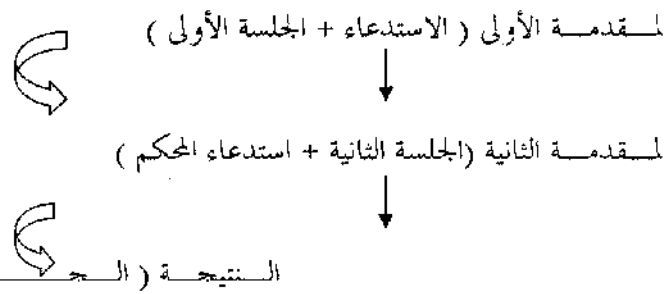

2 - **قواعد الحجاج وضوابطه في "رِوَايَةُ الثَّلاثَة"** : يمكن رصد الضوابط والقواعد الحجاجية التي بنى المتخاطبون الثلاثة بها كل واحد منهم نمطه الخطابي الحجاجي حتى اكتسب صبغة الإستراتيجية الخطابية في التفاعل والتواصل من خلال تتبع الملفوظات التي صدرت عن كل واحد منهم :

أ - المدير : يظهر فحوى خطابه الرئيس رغبته في إقناع رفيقيه بما يضمره في نفسه من مقاصد يريد الوصول إليها من حيث باشر في الكلام ؛ وهنا يبدو مقرر

المقاصد ذا وظيفة تداولية مهمة في اختيار الملفوظات التي تمارس تأثيرها أكثر من غيرها ، فقد حاول المدير وعبر صوالات وجوالات وبسلطته المهيمنة الوصول إلى ما يصبو إليه من أمر تقصيرهم في حق شيخهم ، فكان عليه أن يستوثق زمام الخطاب ، فطلب إليهم في الجلسة الأولى – ماداموا قد بلغوا نصاب الجمع – أن يرأس جمعهم فهذه حلقة أولى في بناء خطابه ، وقد أدت الملفوظات وظيفتها الحجاجية بشكل موفق إلى حد بعيد ، – واستمرارا لاستوثق سيطرته الخطابية – ، نجده في الجلسة الثانية يذكرهم أن صوت الرئيس صوتين !! ؛ وأنهم بحاجة إلى محكم في حالة الاختلاف ، وهكذا ألـــمّ بالأمر مع ما واجهه من عنت رفيقيه تملصا وعدم تسليم ، ليصل إلى الجلسة الثالثة ، ومعها يتم الوقوف على مبتغاه – النتيجة – ؛ هكذا بدت لنا استراتيجية المدير الإقناعية ؛ المحاور الرئيسية التي جرّ بها رفيقيه إلى التسليم بحججه وجعلها مقدمات تلزم عنها نتيجة ؛ ولعل التساؤل القائم في هذا المقام : وكيف سلك المدير هذا النهج الخطابي ؟وبشكل أوضح ما هي القواعد والضوابط الحجاجية التي التزمها في خطابـــــه ؟ .

من يستقري خطاب المدير يلمس جملة من المنطلقات الخطابية استفرغ فيها جهده في بناء منظومته الخطابية الحجاجية ؛ وأن لا يعتريها تناقض أو عدم مصداقية وقبول وذلك من خلال (11):

1- الحجاج بالسلطة: " L'argumentum ad véricundian " ؛ وصورته فرض الرأي ،وقصده تبعية المخاطبين وانقيادهم وذلك ما نلمسه في مثل قولـــه متوجها به إلى الجلالي زاجرا ومذكرا :

أَمَا عَلِمْتَ أَنَّنِي أَمِيرُكَ وَأَنَّنِي مِنْ قَبْلِهَا مُدِيرُكَ

فهو يريد أن يلفت انتباهه إلى أن مخاصمته له ، تعد تطاولا منه على من هو أعلى منه درجة ومرتبة . وكذلك في قوله حينما صرخ في وجه رفيقيه :

أَعْطُـــوا الرِّئَاسَةَ حَقَّهَـــا أَعْطُـــوا الرِّئَاسَـــةَ حَقَّهَـــا

2 - الحجاج بالقوة " Argumentum ad baculam ": يظهر بصورة الاستعلاء وفرض الرأي والوصاية على المخاطبين ، من مثل قولـــه :

أَنَا النَّذِيرُ فَاسْمَعُوا نَصِيحَتِـــي وَأَرْهِفُوا أَسْمَاعَكُمْ لِصَيْحَـــتِي

3 - الحجاج بالتجهيل "L'argumentation par L'ignorance": يقوم هذا الشكل من الحجاج على التقليل والتهوين من الخصم وحججه واستصغاره برميه بالجهل والسفه في مثل قولـــه مخاطبا الجلالي :

الجَهْـــلُ قَدْ يُبْـــدِي مِنَ كُـــلِّ الَّذِي مِـــنَ الْعُيُـــوبِ

وفي موضع آخر لا يتوان في أن يخاطب رفيقيه معا بالجهل والسفـــه يقـــول :

وَيْحَكُمَـــا أَتَجْهَـــلانِ النَّحْـــوَا وَتَسْـــأَلَانِ بِالثُّبُـــوتِ الْمَحْـــوَا

وتفهمان الأَمْـــرَ بِالْمَقْـــلُوبِ وَالْجَهْلُ حَـــظُّ الخَاسِرِ

أما طبيعة الحجج المستخدمة من قبل المدير فقد تركزت في الأنواع الآتية (12) :

1 - الحجج البرهانـــية : تأخذ أغلب الحجج المستخدمة من قبل المدير الطابع الاستدلالي ، إذ يورد الفكرة ويستدل عليها ، وذلك في تثبيت اليقين بصواب رأيه في كلامه تجاه رفيقيه ، ولننظر في قولـــه :

وَنَـــحْنُ .....

وَالجَمْـــعُ لا بُـــدَّ لَهُ مِنْ يَقُـــودُهُ لِتَحْصُلَ

فهو لم يطلبهم أن يزكوه رئيسا لهم بل سلك طريق البرهنة فماداموا قد بلغوا الجمع فلابد لهم من قائد يقودهم ، وقد انطلق من مقدمة يقينية ليصل في الأخير إلى نتيجة يقينية غرضها انجاز فعل قولي ما .

2 - الحجـــج الجدليـــة : يتألف هذا النمط من الحجج من مقدمات يسلم بها

المخاطب ، غير أنها لا ترقى إلى درجة اليقين التام ، مثلما ورد على لسان المدير عندما أنكر عليه رفيقاه عدم البدء بالبسملة والحمدلة في الجلسة الثالثة فقال :

لاَ تَجْهَلاَ فَالْيَوْمُ يَوْمُ وَيُذْكَرُ اسْمُ اللهِ عِنْدَ المَرْحَمَةْ
وَسَائِلُوا أَئِمَّةَ القِرَاءَةْ هَلْ ذُكِرَ اسْمُ اللهِ فِي بَرَاءَةْ
لأَنَّهَا قَدْ نَزَلَتْ بِالسَّيْفِ لِكَسْرِ الشِّرْكِ وَمَحْقِ الحَيْفِ
وَيَوْمُنَا يَوْمُ نِزَالٍ وَصِرَاعِ يَوْمُ التِحَامٍ وَجِلاَدٍ

فقد جعل من هذا الموقف الخطابي نظيرا لموقف قرآني وهو عدم بدأ سورة " براءة " بالبسملة لارتباط هذه بتلك في بدء دلالتهما على الملحمة والخصام والصراع والقراع .والواقع أن الخطاب الجدلي النابع من مواقف الخصام والمناقضة وعدم الاتفاق يكاد يطغى في جُلّ ما صدر من المدير تجاه الجلالي .

4 - الحجج التبريرية l'argument de gaspillage : إن فكرة التعليل هي أساس جامع للخطاب ، لكن تضطلع بدور أكبر في المحاجة الخطابية ، فقد يورد الحكم ويلتمس له ما يبرره زيادة في يقين المخاطب ، ولننظر في قول المدير متوجها به إلى رفيقيه معا :

فَاجْتَهِدُوا فِي غَسْلِ هَذَا العَارِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَدَ فِي الأَشْعَارِ
وَقَبْلَ أَنْ تَدْهَمَنَا بِوطْأَةٍ شُرُورُهَا

إن الدعوة إلى التسريع في غسل العار وهو الحكم الذي أورده – الفعل الإنجازي الذي طلبه منهم – له ما يسوغه وهو لا يكتفي بمسوغ واحد بل نراه يعلل بأكثر من دليل . ولننظر في قوله :

صَرِّحْ أَبِنْ فَالخَيْرُ فِي قَدْ تُبْرَأُ العِلَّةُ بِالتَّشْرِيحِ

يلاحظ بأن الشطر الأول من البيت الأول تضمن حكما وتعليلا جزئيا – الخير في التصريح – ، أما الشطر الثاني فيمثل التعليل الكلي للحكم- قد تبرأ العلة بالتشريح – الذي أصدره أول الأمر ، وهكذا لم يكتف في البيت الواحد بمسوغ واحد بل عمد إلى تعليلين اثنين .ونظير هذا المثال كثير في ملفوظات المدير .

3 – الحجج المغالطيـــــة (paralogisme) : يقوم هذا النمط من الحجج على الربط القياسي الواهم بين أمرين ، ولا يجب أن تعتقد فيه سوء النية بل قد لا يتعدى في غايته حسن الاستدلال ؛ فربما كان صادرا عن حسن نية ، مثلما ورد على لسان المدير أن الجمع مرتبط بالخير مما أربك مخاطبه وسامعه في الفهم ؛ فتوهم الجلالي أنه يريد الجمع في العد والحساب :

الجَـمْـعُ لاَ يُثْمِـرُ إلاَ خَيْـرًا

الجلالي: وَالطَّـرْحُ لَا يُثْمِـرُ إلَا ضَيْـرًا

لَسْتُ أُرِيدُ الجَمْعَ فِي فَنٍّ وَلَيْـسَ لِي إِلى جُمُوعِهِ

وَإِنَّمَـا أَرَدْتُ الاجْتِـمَـاعَـا لِلْخَيْـرِ وَالرُّشْدِ وَالاسْتِمَـاعَـا

فَمِنْ ثِمَارِ الجَمْعِ فِيمَا تَشْهَدُونْ جَاءَتْ هَدَايَا الخَيْرِ مِمَّنْ

فالجمع في نظر المدير قرين الخير ، وهو مقدمة توصل إلى النتيجة نفسها في البيت الأخير ، فالنتيجة متحققة في المقدمة سلفا وذلك من باب مغالطة المتلقي بفحوى الخطاب . ومن ذلك إيهام النفع مسبقا بأمر لم يتفق جمع المخاطبين بعد على نفعه مثلما ورد على لسان المدير في قولـــــه :

وَأَوَّلُ الْمَرْسُومِ فِي ذَا الْجَدْوَلِ تَوْضِيحُ شَيْءٍ نَافِعٍ لَكُمْ وَلِي

فَلْتَعْلَمُوا وَلَسْتُ ذَا افْتِتَانِ أَنَّ الرَّئِيسَ صَوْتُهُ صَوْتَانِ

لقد جزم المدير سلفا لرفيقيه بنفع أمر الصوتين في حال اللدد والخصام ؛ وذلك إيهاما

ومغالطة منه ووفق هذه الآليات والضوابط الحجاجية ، ووفق هذه التراتبية والسلمية الحجاجية التي تراوحت فيما بينها قوة وضعفا من حيث تواترها وحضورها أسس المدير إستراتيجيته الحجاجية ، على أن الملاحظة البارزة حول هذه السلمية الحجاجية التي تدرج فيها في توظيف أنماط وأنواع الحجج ، يظل جزئيا فالأصل فيها التداخل والتلون والتوالي والتعاقب لكن كثرة المراجعة والنظر تجعلنا نؤمن بهذه التراتبية :

حجج برهانية (أ)

↓

حجج جدلية (ب)

↓

حجج تبريرية (ج)

↓

حجج مغالطية (د)

↓

النتيجة (ن)

إن توظيف هذه الحجج يخضع للمقام ، فلو افترضنا أن المقول (ب) أو (د) الصادر عن المدير موجه إلى الجنان لجزمنا بإخفاق في تحقيق (ن) ومن ثمة فشل الاستراتيجية الخطابية ككل ، بينما لو وظف المقول (أ) أو(ج) لتحققت (ن) ومن ثمة التوفيق والنجاح وهكذا نحصل في خطاب علاقة (المدير الجنان) على هذه الصورة :

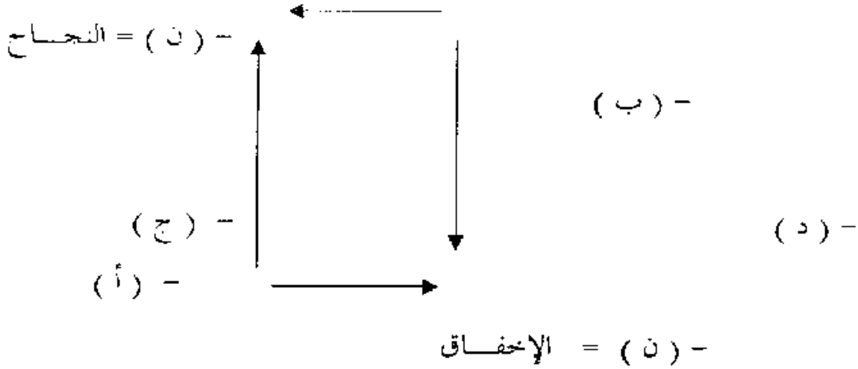

وهكذا تبدو مقولة السلالم الحجاجية (13) ذات فاعلية في بناء خطابنا ، فالمعيار هو درجة القوة والضعف في تحقيق التوفيق أو الإخفاق ؛ وهكذا تتبلور الحجج في كلامنا وفق استراتيجية يرسمها المخاطب حسبما يقتضيه المقام ويتطلبه .ولو عاودنا النظر في خطـــاب علاقـــة (المديـــر ⇐ الجلالـــي) لأمكننا الحصول على هذه الصورة :

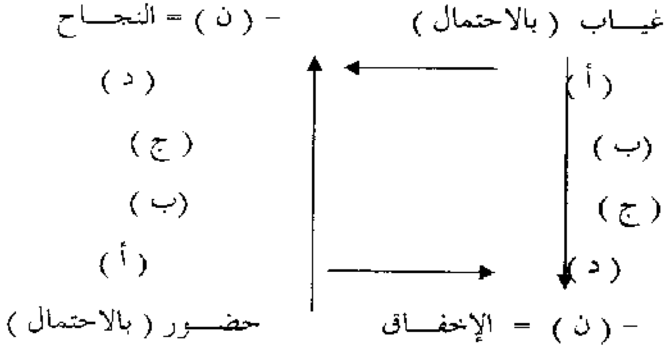

والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان في هذا السياق : لماذا هذا التراتب في توظيف الحجج كامنة ؟؟ ثم لماذا التأكيد على فكرة الاحتمالية ، هل يعني ذلك عدم الجزم بيقين الجلالي بما يتلفظ به المدير أم أن ما يشوب علاقة المدير بالجلالي من عدم وفاق له أثره في

تصديق الحجج ونفيها ؟؟ .

في التساؤل مفتاح الإجابة ، فالعلاقة بين الطرفين لها تأثيرها الظاهر ، كما أن التيقن والجزم باقتناع الجلالي بحجج المدير يبدو أمرا نسبيا ، لذلك نتصور أن المدير سوف لن يكتف بنمط محدد من الحجج بل نراه يتدرج وينتقل من نوع إلى آخر أملا في حصول التأثير والإقناع وبلوغ المقصد ، فمسار الإخفاق واردة فيه كل الأنماط ، ومسار النجاح واردة فيه أيضا كل الأنماط بصورة الاحتمال . وننتقل إلى جانب آخر ذي أهمية في الخطاب الحجاجي عند المدير ألا وهو " طبيعة الحوار وسيرورته ". لقد وجدنا المدير يسعى جهده للمحافظة على السير الحسن للمحادثة موظفا كل أساليب المهادنة والملاينة ، وهذا ما أعطى الانطباع عنه ؛ بأنه صاحب قوة شكيمة ، ورباطة جأش في الإمساك بزمام الخطاب ، وصاحب إرادة تفاوضية قوية ، لكنه لم يستطع الصمود طويلا أمام عواصف رياح المناقضة والخصومة الشديدة التي تأتيه من رفيقيه وهذا ما جعله لا يتمالك أعصابه في بعض الأحيان ، فصدر عنه ما ينم عن عجزه في نقض كلام خصومه ومواجهتهم ؛ ولننظر في قولـــه متوجها به إلى خصمه في الحجاج الجلالي :

مَـــا لَكَ لاَ تَفْتَـــأُ تَزْدَرِيني !! وَبِكَـــلَامِ السُّوءِ تَعْتَرِينـــي !!

ومن ذلك أيضا قولـــه :

أَسْرَفْتَ فِي النَّبْزِ وَلَمْ تَرْعَ وَالمَرْءُ إِنْ أَجْدَبَ عَقْلُهُ

نلاحظ من خلال هذا الملفوظ – وهو ذو بنية حجاجية تبريرية – أنه فقد به السيطرة على التواصل مع الجلالي ؛ وقد رأى فيما صدر عنه إسرافا وتعاليا منه ، وتعد وتجاوز لحدود أدب التخاطب معه ، ومعللا حكمه بأن صاحبه قد جدب عقله ، وفي ذلك قمة التقليل من شأنه ، والاستخفاف به . بل ربما صدر عنه ما هو أشد تعنيفا وتجريحا من ذلك ، يخرج الحجاج من دائرة الإيجابية الفاعلة في الخطاب إلى السلبية المؤثرة

فيه . ويعكس ذلك إجمالا على الاستراتيجية الحجاجية فتكون فاشلة وذات آثار سلبية على المتكلم فلا يحصل الإقناع وإنما ينتج عنها التباغض ؛ ولننظر في قوله متوجها به إلى الجلالي :

وَأَنْتَ وَغْدٌ مِنْ بَنِي جَلالِ فَهَلْ سَأَلْتَ العُرْبَ عَنْ جَلّالِ ؟
وَهْوَ الَّذِي يَقْتَاتُ مَحْضَ العَذِرَهْ وَالفَضَلاتِ النَّجِسَاتِ القَذِرَهْ
وَمِنْهُ جَاءَتْ صِفَةُ الجَلاَّلَهْ وَأَكْلُهَا يَحْرُمُ فِي ذِي الحَالَهْ
وَطُولُ أَنْفِكَ مِنَ الشُّهُودِ عَلَى امْتِدَادِ الْعِرْقِ

فالحوار بلغ قمة الانفعال والإثارة (لاحظ أن مكان الثلاث نقاط كلمة أكملها الجنان وهي " اليهود " إمعانا في الازدراء والاحتقار وشدة الخصومة والبغضاء) ، والهدف يتعدى الإفحام إلى إرباك الخصم المحاور ، وتوجيه السهام والطعنات الخطابية الأشد تأثيرا - التأثير هنا لغوي/نفسي - مما يخرج الحجاج إلى دائرة اللجاج والمخاصمة ، ومع كل ذلك فإنه لا يلبث أن تصفو أجواء المشاحنة المتلبدة بين الأطراف المتخاطبة ، فتعود إلى سابق عهدها ؛ وتلك سنة من سنن الخطاب ، ألفيناه في خطاب الثلاثة .

ب - الجلالي - ابن العابد - : يظهر هذا المخاطب أنه صاحب نفس طويل في المحاورة والخطاب ؛ وأنه يريد أن يكون عنصرا فاعلا ايجابيا مؤثرا بخطابه ، مع من يتفاعل معهم ، إذ لا يتحشم خوض سجال الخطاب متى بدا له ذلك دون تورع أو وجل من أحد ، وقد تحقق أن المقوم السياقي التداولي "علاقة المتخاطبين " قد برز دوره الفاعل في رسم نمط الخطاب وشكله بين المدير والجلالي ، فكلاهما يسكنه الشعور أن الآخر يتربص به ويحيك له الدوائر ، وقد شكل هذا مادة خصبة هيمنة وطغيان مبادئ الخطاب الحجاجي ، حتى غدا نهجا استراتيجيا مميزا لخطابه مفضلا عنده وجد فيه ضالته للمجابهة والتطاحن مع المدير ؛ وقد شكل له حجرة عثرة في محاولة إبداء آرائه أو

الإقناع بأفكاره ، فهو خصمه اللدود ، المعاند الناقض الدائم لحججه ؛ وحتى يصل إلى مبتغاه في هدم المنظومة الخطابية الصادرة من المدير المرتكزة على سلطته ؛ نراه قد انطلق من أسس خطابية في محاجته ومن ذلك (14) :

1 - الحجـــاج بالنقـــض : يعتمد الجلالي في محاجته للمدير على دحض ونقض ما يصدر عنه من حجج ، وهو شديد الانتباه لكل ملفوظ يتلفظ به ومن ذلك أنه حينما طلب إليهم المدير اختيار من يرأس جمعهم بقولـــه:

يَجِـــبُ أَنْ تَنْتَخِبُـــوا رَئِيسَـــا لَكُـــمْ وَحَـــاشُوا الْمُلْقَ

فرد عليه ابن العابد :

انْظُـــرْ إِلَيـــهِ كَيـــفَ قَالَ لَكُمْ وَلَمْ يَقُلْ مِنْكُمْ فَمَـــاذَا تَحْكُـــمْ

وقد رأى في ذلك استثناء من المدير لنفسه ، كما يفهم أن الرئيس لا يمكن أن يكون أحد منهما ؛ وتلك نظرة دقيقة منه لكلام المدير ، ولننظر في قولـــه دحضا لحجة المدير بأنهم بلغوا نصاب الجمع ولابد لهم من رئيس ، وهو لا يرى أن عددهم قد بلغ نصاب الجمع وحجته ما ورد في الدليل السمعي:

المدير : وَنَـــحْنُ جَمْـــعٌ

الجلالي: بَـــلْ أَقَـــلُّ الجَمْـــعِ كَمَا أَتَى بِهِ الدَّلِيلُ السَّمْعِـــي

2 - الحجـــاج بالإنـــكـــار: يقوم هذا الشكل من الحجاج على عدم قبول حجج الخصم والتهوين منها ، ومن ذلك أنه لما طلب المدير انتخاب رئيس لهم أنكر عليه ابن العابد ذكر هذه الكلمة بقولـــه :

أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْ ذِي فَإِنَّهَا تَصُـــخُّ

وحين طلب إليه بيان السبب أجابـــــه :

لأَنَّهَـــا ذَاتُ مَعَانٍ مُؤْلِمَـــهْ وَأَنَّهَـــا تُثِيرُ ذِكْـــرَى مُظْلِمَـــهْ

غير أن هذا لا يقنع المدير فيطلب إليه بيان المعنى فيجيبه ابن العابد – إنعاما في الإنكار ومرداه سخرية وتهكما غير خاف على المتلقي – بقوله :

إِنَّ الرَّئِيسَ فِي كَلاَمِ مَنْ شَجَّ فِي يَافُوخِهِ

وحينما ذكر المدير حاجتهم إلى قائد يقودهم ؛ رد عليه الجلالي منكرا ما صدر منه بقوله :

أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ القِيَادَهْ وَإِنْ غَدَتْ فِي عَصْرِنَا

قَدْ كُنْتُ عِندَ قَائِدٍ مَأْفُونِ فِي مَاءَةٍ تُنْسَبُ لِلْفَكْرُونِ

دَرَيتُ مِنْهُ الفِعْلَ وَاشْتِقَاقَهْ كَمَا عَلِمْتُ السُّمُّ وَانْشِقَاقَهْ

3- الحجاج بالمعارضة : يقوم حجاج الجلالي على مبدأ عام التزم به في أكثر الأحوال هو معارضة ما يصدر عن المدير سواء أكان في ذلك سلبا أم إيجابا ؛ وقد صرح بهذا الأساس الحجاجي بقوله :

لَكِنَّنِي لا أَتْرُكُ المُعَارَضَهْ وَلا أُحِيرُ فِي الثَّنَا المُقَارَضَهْ

ولقد بدا خطابه في صورته العامة معارضا لما يصدر من المدير من حجج ، ونجد ذلك في مثل قوله عند افتتاح المدير للجلسة الثانية ولم يبدأها بالبسملة فاعترض وأنكر عليه ذلك بقوله :

لا تَتْرُكِ المَأْثُورَ مِنْ قَولِ السَّلَفْ فَكُلُّ شَرٍّ فِي ابْتِدَاعٍ مَنْ خَلَفْ

ويبدو لنا الجلالي – بجرأته ووقوفه للمدير في صورة الند والنظير – لا يجد في نفسه الحاجة كثيرا في اللجوء إلى التلوين في أنماط الحجج المستعملة أو التدرج ؛ بل يلاحظ في الأغلب أنه قد اقتصر على توظيف نمطين مميزين اتسم بهما خطابه في الأعم وتناسب مع مواقفه الصريحة الجريئة ألا وهما :

1 - الحجج الجدلية : وظف هذا النمط من الحجج سبيلا في مقارعة المدير الحجة بالحجة أو ما يماثلها وتكاد تصبغ كل حججه بها ؛ فالجلالي شأن أناس كثيرين في التفاعل مع مخاطبيهم يرتكزون على مبدأ الانطلاق من كلام الخصم والرد به عليه ، وذلك يحمل قدرا من البراعة الإبداعية في تفكيك كلام الخصم والنظر فيه ؛ وهذا ما عمل على إحرازه مع غريمه المدير ؛ يبدو ذلك في قوله :

تُخِيفُنَا بِالعَارِ وَالأَشْعَارِ وَلَسْتَ مِنْ حَلْيِهِ مَا بِالْعَارِ

فحينما طلب المدير المسارعة في غسل العار قبل خلوده نقض كلامه بهذا الملفوظ فقد أشركه في وقوع الحكم وحدوثه ؛ إذ هو مثلهما ليس عَاريا من العار، وحينما يريد المدير إثبات الصوتين له ينتفض ضده مظهرا عدم اعترافه بمسألة الصوتين مادام أمامه فرد واحد له خلقٌ واحدٌ وخلقٌ واحدٌ..!! قائلا :

نَعَمْ نَعَمْ وَمَوْتُهُ مَوْتَانِ ! وَقُوتُهُ بَيْنَ الْوَرَى قُوتَانِ

نَعَمْ لَوْ أَنَّ حَلْقَهُ حَلْقَانِ ! وَخَلْقَهُ فِيمَا نَرَى

2 - الحجج البرهانية : سعى الجلالي جهده في ألا يكون كلامه عاريا من الصحة والتصديق ؛ بالاستدلال والبرهنة على ما يذهب إليه من أراء وما يصدر من أحكام ، وقلما صادفنا غير مستدل ومبرهن على كلامه ، مثال ذلك أنه حينما أخبره الجنان أن المدير خرج عن ميزان الشعر في شعره ثبت هذا الحكم ونفى شاعريته بحجة أنها غير معلومة عنده أو غيره من الناس فقال :

فَمَا عَرَفْتُهُ وَلا غَيرِي بَأَنَّهُ يَمْلِكُ هَذِهِ الطُّرَفْ

فقد نفى عنه الشاعرية وحجته واقعية أنه لا يعرف - ولا الناس - أنه شاعر..! ، وحينما أظهر المدير إعجابه بكلام الجنان وأرائه السديدة ، فقد رفض ذلك مبرهنا ومستدلا على كلامه ، وذلك في قوله:

أَمَّا أَنَا فَلاَ أَقُولُ حَرْفًا فِي شُكْرِهِ , وَالْمُرْسَلاَتِ
فَمَا سَمِعْتُ غَيْرَ تَطْوِيلِ الْجُمَلْ فِي مِثْلِ مَا قَالُوهُ فِي حَرْثِ
وَأَيُّ شَيْءٍ هَذِهِ السَّفَاسِفْ حَتَّى يَؤُودَ حَمْلُهَا الشَّرَاسِفْ

إن كلام الجنان الذي أرضى رغبة المدير ونزعاته لم يجد فيها الجلالي إلا تطويل الجمل وسفاسف قول ، بل – ومن وراء حجاب – رأى فيها أنها تملق كاذب للمدير ...!! . ولعل من أرقى صور البنى الحجاجية في خطاب الجلالي مرافعته عن نفسه في الجلسة الثالثة ؛ حينما حضر بوشمال وقد طرح حلان لفك مشكلة الفرنك بين الثلاثة ، تقسيم الفرنك بالتساوي بين الثلاثة مع ما يطرح من مشكلة الأجزاء (الصنتيمات) ، أو تحمل الجلالي ودفعه للفرنك بمفرده ؛ وهو رأي المدير والجنان لأنه أعزب بينما هما متزوجان ولهما أعباء عائلية كثيرة ، وقد لقي هذا الرأي استحسان من المحكم بوشمال ، وينبري ابن العابد لنقض هذا الحكم الجائر , ويرتجل ذلك الفصل , في الدفاع عن فرنكه الذي لا يملك سواه , ويفتن في وصفه وإطرائه , لعلل ضنانته به , ومن أبلغ ما يقول فيه :

أَعَزُّ عِنْدِي مِنْ وَحِيدِ أُمِّهِ كُلُّ الْمُنَى فِي ضَمِّهِ وَشَمِّهِ

كما يكشف عن كثير من حقائق الموقف وحيثياته ، مشهرا بعداوته لمديره مبينا سببها وهو ، أنه عرّض به بين القوم وسخر منه في كثير من المواقف وقد وصف ذلك أبلغ وصف ومما جاء فيها قولـــه :

وَهَلْ أَتَاكُمْ – وَالْكِذَابُ يُرْدِي – أَنِّي سَلَلْتُ بُرْدَهُ مِنْ بُرْدِي
لأَنَّهُ قَدْ سَبَّنِي سَبًّا شَنِيعْ مِنْ بَعْدِ مَا قَدْ كُنْتُ كَالْحِصْنِ
وَنَالَ مِنِّي سَجْعُهُ الْقَبِيحُ مَا لَمْ يُبِحْهُ فِي الْوَرَى مُبِيحُ
وَعَدَّنِي مِنْ عُصْبَةِ الْيَهُودِ وَهَؤُلاَءِ كُلُّهُمْ شُهُودِي

قَدْ قَرَأُوا كِتَابَهُ إِلَيَّا وَأَثْبَتُوا تَشْنِيعَهُ عَلَيَّا

وبالنظر إلى ما ميز محاجة الجلالي للمدير أو لرفيقه الجنان ؛ فقد هيمن عليها طابع الانفعال والإثارة التي خرج به في بعض الأحيان عن جادة الصواب إلى صور من التهكم والسخرية ، وهذا النهج الحجاجي قد أكثر منه حتى غدا مألوفا لديه ؛ ومن صور الخطاب التي طغى فيها الانفعال والإثارة هذه الملفوظات التي لها بعدها التأثيري النفسي المربك لمن توجه إليه ومن ذلك ؛ حينما أثنى الجنان على المدير فقـــال :

الجنـــــان: وَهَكَذَا فَلْيَكُـــنِ الْمُدِيـــرْ .....

فرد عليه الجلالي : ..... وَهَكَـــذَا فَلْيَكُـــنِ الْبَنْدِيـــرُ!!

فهذه قمة الإنعام في التهكم والسخرية من المدير ، وحينما تساءل الجنان عن سر عدم ذكر المدير للبسملة في افتتاح الجلسة الثالثة بقولـــــه :

رد عليه الجلالي : ..... النَّـــاسُ تَرْقَـــى وَالرَّئِيـــسُ يَسْفُلْ

ومن صور الخطاب البليغة في التراشق في الحوار بينه وبين المدير مظهرا شدة نقمته وسخطه عليه قوله :

وَلَا أَشُكُّ أَنَّ ذَا الأَمِيرَا قَدْ كَانَ يَرْعَى الْمَعْزَ وَالْحَمِيرَا

فَمِنْهُمَا اكْتَسَبَ هَذَا اللُّطْفَا حَتَّى ثَنَى مِنْهُ الدَّلَالُ العِطْفَا

وإذا نظرنا في مكونات الخطاب الإقناعي الحجاجي (15) عند الجلالي وجدناه يرتكز على ما يلي :

أ – مقدمات : تقرير المعطى الذي في هو الأعم هو كلام الخصم عينه ، رفيقه الجنان وفي أغلب الأحوال المدير .

ب – الدعوى : هو موقفه أو هو الكلام الناقض الصادر عنه ويمكن تمثيله بالنتيجة التي يراها محققة لذلك الحكم .

ج – التبـــريـــر : التعليل الذي يبرهن به على صحة دعواه ، وعادة ما يكون استدلالا أو برهانا حسيا.

د – مؤشر الحـــال : هو ما يؤشر على حال ما يرد فيه المقام وفي الغالب أن دعواه تكون وليدة الموقف وتتناسب معه .

هـــ – الدعامـــة : وهي جملة الوسائل والأدوات التي يتجسد بها الحجاج وتكون في أكثر الأحيان استفهاما أو تعجبا . ويمكن أن نوضح ذلك في هذا الجـــدول :

المقدمـــات	الدعـــوى	التبريـــر	مؤشر الحـــال	الدعامة
كلام الخصم عينه (عبارة عن فعل كلامي يتضمن حكما قيميا ما أو سلوكا ما)	الكلام الناقض (هو وليد التجربة الخاصة ، أو حكم قيمي متوارث ومتعارف عليه)	التعليل في صحة دعواه ويكون مقبول في منظور المنطقي الطبيعي المعلوم بين الناس	المراد فكرة التناسب والاقتضاء بين الدعوى ومقام الحال	يراد بها الأسلوب الذي ترد فيه الدعوى ويكون بالاستفهام والتعجب ،،،

ج – الجنـــــــان : يمثل العنصر السلبي من منظور الفاعلية التواصلية الحجاجية ؛ ذلك أن مشاركته في المحادثة حافظت على وتيرة واحدة تقريبا ؛ ألا وهي إحداث التوازن الخطابي بين المدير ورفيقه الجلالي ، وسبب ذلك أن الجنان تحركه مقاصده وأغراضه ، فحيثما حققها كان حضوره ، ولذلك تارة نجده في صف الجلالي ، وتارة أخرى في

صف المدير – وهو الغالب – ، وهذا ما جعل خطابه وليد منطق طبيعي يوصف صاحبه بالحكمة والتعقل ، وترتسم فيه سمات الحجاج ، الذي لا تحركه نوازع التخاصم أو الرغبة في الغلبة أو التصدي للمخاطب الآخر مما لمسنا بعض سماته عند الجلالي ، وهو نمط من المخاطبين مألوف في واقع التفاعل الاجتماعي ، سمته الأساس التسليم بما هو كائن ولو كان لا يرضيه أو يتوافق معه في دخيلة نفسه . وهو نمط يحقق الترجيح والتوازن في بناء المحادثات ، ويمثل الخيط الرفيع المتين الذي يحافظ على سيرورة التخاطب والتفاعل وديمومتها (16)، ولنتطلع إلى قوله حينما اشتد وطيس المعركة الخطابية بين المدير والجلالي فقـــال :

تَثَبَّتُـــوا فَلَسْتُـــمْ تَلامِـــذَهْ وَحَكِّمُـــوا الْمَنْطِـــقَ يَا

ففي هذا الملفوظ دعوة إلى الارتقاء والسمو في التفكير وتحكيم المنطق وحجته أنهم أساتذة ، فالكبر دليل اكتمال العقل ، والصغر دليل عدم النضج ووفق هذا البناء الطبيعي للتفكير الذي هو وليد الحكمة والتجربة تأسس الخطاب الحجاجي عند الجنان ، وهو خطاب ينهض على أسس واقعية لا تثمر الشحناء أو الجدال أو المناقضة ؛ بل غايتها إظهار الموقف وليس الدخول في الجدل ومن ذلك إيضاحه لموقفه طالبا عدم تأويل كلامه أكثر مما يحتمل يقـــول :

ذَهَـــبْتَ مِـــنِي مَذْهَبًا بَـــعِيـــدًا وَصَـــارَ وَعْـــدِي كُلُّـــهُ

أَنَا شَرَحْـــتُ الحَقَ بِالإِيضَـــاحِ وَلَـــمْ أُبَـــالِ مَا يَقُولُ اللاحِـــيّ

وذلك لا ينفي دوره في التصدي لمحاولة المدير الهيمنة الكلية ، بل نراه يحاججه حينما يشعر أن الخطر يداهمه ، فحينما أدرك أن المدير يريد رئاسة جمعهم ولكنه يتواضع أمامهما بقوله :

المدير: لا تَبْتَئِـــسْ فَـــكُلُّنَـــا بَئِيـــسْ

أكمل الجنان : قِيَـاسُـــهُ وَكُـلُّـــنَا رَئِيـــسْ

وهذه إشارة ولفتة خطابية حجاجية رائعة منه ارتكزت على مبدأ القياس المنطقي سلبت المدير روح الرغبة في الرئاسة وهو لم يحصل عليها بعد بتفويض منهم ، وحينما يهمس لزميله بأن المدير يكتنز الدراهم ويتظاهر بالبؤس يطلب إليه الجلالي بيان الحجة فيجيبـــه :

لَقَدْ قَـضَى زَمَانَهُ حَزَّابـَا مِثْلِي مُذْ كُنـَّا مَـعًا عُزَّابـًا

وهو حجاج بواقع الحال – حجة تجريبية – أي مما خبره ، ولذلك فهو يريد به التصديق ، وبمثل هذه الملفوظات جاءت البنية الحجاجية عند الجنان تفتقر إلى كثير من أصول الحجاج الايجابي الفاعل والناجح ، ربما لأنه ارتكز على استراتيجيات خطابية أخرى لا تتجاوب مع النهج الحجاجي .

وبالنظر في مكونات الاستراتيجية الحجاجية في خطاب الأطراف الثلاثة ؛ فإن ذلك يدفع إلى الوقوف عند ما يسمى بالروابط الحجاجية ثم العوامل الحجاجية (17):

أ – الروابـــط الحجـــاجيـــة : هي ما نهضت عليه الاستراتيجية الحجاجية خطابا متماسكا في تفاعل الأطراف الثلاثة بالاعتماد على أدوات ووسائل لغوية جعلت من الحجاج بنية فاعلة وذات وظيفة ؛ وهذه الأدوات تختصر بالروابط الحجاجية التي تساهم في عملية الربط بين قولين، أو بين حجتين أو أكثر ، وتبرز وظيفتها في إسناد كل قول دورا محددا داخل الاستراتيجية الحجاجية .ولقد تعددت بحسب طبيعة الحجج المستخدمة من قبل كل مخاطب ؛ إذ لم يكتف المتخاطبون بنمط واحد منها بل نجدها تتعدد وتتغير من موقف إلى آخر إلا أنه يمكن حصرها في شكلها العام في:

1 – روابـــط الحجـــج القويـــة : نجدها ترد في بناء حجج المدير والجلالي– بالأخص – ويمكن أن نذكر من أنواعها الأكثر حضورا (إذن ، ما ، لا (النافيتين) ،

قد . هكذا . هذا ، لأجل ، حتى ، أن ، إنّ ، لو ، لولا ، قبل ، كل ، بعد ، لا سيما ، ليس ،،،) ؛ والى جانبها هذه الأدوات نجد حروف الجر والضمائر المتصلـــة (الكاف والياء والهاء) والمنفصلة ، وحروف العطف كثيرة الاستخدام والتوظيف ، وهذه الروابط ترد في أغلب الأحوال مصرحا بها ؛ محققة الوصل بين الحجة وأختها ، أو بين الحجة ونقيضها ، وفي أحيان أخرى ترد مضمرة تدرك من سياق الخطاب، وتضطلع هذه الروابط – إلى جانب إيجاد تماسك الخطاب الحجاجي – بتحقيق الوظيفة التصديقية له ، ولننظر في هذين المثالين على سبيل التمثيل :

الرابـــط الحجـــاجي	البيـــــــت الذي يرد فيه		رقم البيت
– ليس (النفي وعدم التساوي)	وليس من مكارم الأخلاق	تعريض ذي الغنى بذي الإملاق	- 51
– قد (التحقيـــق ، الإثبات)	قـــد وضعوك أيها المدبر	في رتبـــة أنت بهـــا حديـــر	- 82
–قـــد(التعليل، الإثبات)	صرح ابن فالخير في التصريح	قـــد تبرأ العلة بالتشريح	- 85

وفي مقابل هذا النمط من الروابط الحجاجية يمكن الإشارة إلى نمط موازي لها وهو روابط الحجج الضعيفة والتي تتحدد بحسب طبيعة وقيمة الحجج في حد ذاتها ؛ وتحدد في خطاب الأطراف الثلاثة فيما أتى مصاحبا لحجج الجنـــان ، وأكثر أدواته استخداما فيما يبدو هو تكرار اللفظة في حد ذاتها (سواء أكانت فعل أو اسم أو حرف).

2 – روابـــط التعارض الحجاجـــي : تقوم هذه الروابط بتحقيق عملية النقض والدحض ، والتعليل والتبريرمن جانب آخر ولذلك فهي تقترن بحجج الخصم الناقض ، فهي في خطاب الثلاثة تهيمن على خطاب الجلالي ومن أبرز أدواتها اللغوية (لام التعليل ، أنّ ، إنّ (المقترنتين بلام التعليل)،بل،لكن، مع ذلك ...) إلى جانب الضمائر المتصلة أيضا وحروف العطف – المقترنة في أحيان كثيرة بلام التعليل خاصة الفاء الرابطة –

وتؤدي هذه الأدوات ؛ التي ترد جزءا مكونا لجوهر الحجة وظيفة النقض والهدم لحجج الخصم ، ومما يقترن بهذه الروابط ما يسمى بـــ "روابط التساوق الحجاجي" (18)

(حتى، لاسيما)، غير أن الملاحظ أن أكثر الأدوات شيوعا في هذا النمط هو حرفا التوكيد (إنّ ، أنّ) المقترنان بسياق التعليل ، أو بحروف العطف أو الضمائر المتصلة ؛ إذ بهما عمل الجلالي على إنكار دعاوى المدير ،أو تأكيد ما يذهب إليه ، ولننظر في هذه الأمثلة الصادرة عن الجلالي حينما أنكر على المدير ذكر الرئاسة لجماعتهم :

الرابـــــط الحجـــــاجي	البيـــــــــــت الذي ورد فيه	رقم البيت
- الفاء+إنّ+الهاء(إنكار، وتفنيد)	أعوذ بالرحمـن من ذي الكلمـه فـإنهـا تصـخ سمعـي	- 45
- اللام + أنّ +الهاء (التعليل)	لأنهـا ذات معـان مـولمـه وأنهـا تثيـر ذكرى مظلمـه	- 46
- إنّ (التوكيد ، الإثبات)	إن الرئيـس في كـلام العـرب من شـج في يافوخه بالضرب	- 48

الملاحظة الأساس التي تجب الإشارة إليها فيما يتعلق بحضور الروابط - ولطبيعة قالب الخطاب الشعري الذي يعتمد على التكثيف والإيجاز - أنها جاءت في صورتها العامة مضمرة غير مصرح بها .

ب - العوامـــل الحجـــاجيـــة : العوامل الحجاجية فهي لا تربط بين متغيرات حجاجية أي بين حجة ونتيجة أو بين مجموعة حجج) ، ولكنها تقوم بحصر وتقييد الإمكانات الحجاجية التي تكون لقول ما وتضم مقولة العوامل أدوات من قبيل: ربما، تقريبا، كاد، قليلا، كثيرا ، ما...إلا، وجل أدوات القصر ، وأساليب لغوية بلاغية من قبيل الاستفهام ، التعجب ، الإغراء ، التحذير ، أسماء الأفعال ، والنداء - بتعدد صوره - ، وكلها مكونات تضفي على الحجاج قوة إقناعية وبرهانية مؤثرة وتزيد من فاعليته

وايجابيته استراتيجية في الخطاب ؛ فلولا وجود هذه العوامل لما تنامى الخطاب الحجاجي وتطور في سيرورات الكلام في المحاورات التواصلية والتفاعلية .

1 - الاستفهـــام : يعد الاستفهام من العوامل الحجاجية بالنظر إلى وظائفه التداولية التي ترتسم في الخطاب فعلا كلاميا إنجازيا يحقق للمتخاطبين أغراضهم الخطابية التواصلية ، فهو أداة للدعوى ونقضها ، وعلى هذا يمكن فهم وظيفة الاستفهام فعلا كلاميا في عملية المحاجة بين المتخاطبين الثلاثة ، حتى أنه ربما مثل العامل الطاغي في بناء المنظومة الحجاجية في خطاب الثلاثة ، يتضح ذلك في قول الجنان :

يَا سَـــادَتِي يَا إِخْوَانِي يَا زُمَـــلا أَمَا تَخَافُونَ افْتِضَاحًا فِي الْمَـــلَا

إن الجنان لم يجد من سبيل - الحجة - في تهدئة خواطر رفيقيه إلا التساؤل عن خشية افتضاحهم أمام الملأ ، إنه إنكار فاعل لنهج رفيقيه يولد التشكيك والمراجعة في المواقف وذلك بالاستفهام والتساؤل ، وقد أردفه بداية بنداء الأخوة والزمالة حتى يجد الاستفهام سبيله للتأثير والإقناع ، و في قول الجلالي منكرا على المدير كلامه :

أُنْظُـــرْ إِلَيـــهِ كَيـــفَ قَالَ لَكُمْ وَلَمْ يَقُلْ مِنْكُمْ فَمَـــاذَا تَحْكُـــمْ

إذا لم يجد من طريق ينقض وينكر به قول المدير سوى العامل الحجاجي الاستفهام ، وربما تعدى في وظيفته الإنكار والنقض إلى الاستغراب أو التعجيز وسواها من الوظائف التداولية .

2 - التعجـــب : هو من العوامل الحجاجية التي كثر استخدامها من قبل المتخاطبين الثلاثة ، والواقع أن توظيفه بقدر ما هو فعل كلامي ذاتي ؛ فيجد سبيله في التواصل والتفاعل الخطابي بما يحمل من عمليات التأثير مثل الإرباك والاستغراب ،،، لذلك فهو ذو وظيفة تداولية خطابية مهمة ؛ ولا سيما في عمليات النقض والاستدلال والمغالطة ، بهذه الصورة يمكن النظر إلى قـــول الجلالي حاملا على المدير في أسلوب فيه شدة نقض :

يَا عَجَبًا يَثْنِي الْحِجَى مُفَكِّرًا إِبْلِيسُ أَمْسَى وَاعِظًا مُذَكِّرَا

فالعامل الحجاجي الذي وجد الجلالي نفسه بحاجة إليه لإظهار استغرابه وإنكاره على المدير ؛ إنما هو استخدام صيغة التعجب السماعي" عجبا " ؛ التي تحقق لكلامه القبول والمشاركة من قبل المخاطبين وقد يكون التعجب عاملا لتحقيق التهكم والسخرية في قول المدير موجها كلامه إلى الجلالي :

عَجِبْتُ مِنْ خُرْطُومِكَ كَيْفَ حَرَمْتَهُ لَذِيذَ

3 – النداء : من العوامل التي تؤسس الحجاج عند الأطراف المتخاطبة ؛ في أغراضه المتعددة ، والنداء إلى جانب وظيفة الإظهار والإعلام يتحقق فعلا خطابيا في التفاعل ؛ ليتعدى إلى وظائف سياقية مقامية يولدها الموقف ، ففي المحاججة يصبح حجا للتصديق الحجاجي أو الإنكار والتهكم والسخرية بحسب المعطى السياقي ؛ بهذه الصورة يمكن النظر في نداء الندبة الوارد على لسان الجلالي في سياق تفنيد ونقض كلام المدير :

وَاحَرَابَا فَهَذِهِ أَكْبَرُ مِنْ تِلْكَ وَبَادُعَائِهَا أَنَا قَمِنْ

فنداء الندبة ذو تأثير نفسي بالغ ، فهو يربك الخصم إلى حد بعيد إذا تحققت المطابقة المقامية ،.وقد يكون النداء عاملا للتحريض والدفع إلى المحاججة في قول المدير مخاطبا به الجنان :

هَلْ لَكَ يَا جَنَّانُ أَنْ تُقَارِعْ زَمِيلَكَ الشَّيْخَ الأَدِيبَ

4 – أسماء الأفعال : جاء توظيفها ضمن الاستراتيجية الحجاجية في صورة العامل المحقق لبناء الخطاب وتماسكه ، وهي التي تنوب عن أداء أفعال كلامية معينة ؛ وظيفتها رسم رؤية العالم عند المتكلم من حوله ؛ ومن صوره الرائعة المستخدمة في خطاب الثلاثة ما ورد على لسان الجلالي متوجها بكلامه إلى الجنان ؛ لينكر ويستغرب شاعرية المدير في قوله :

مَـــــهْ وَأَبِيكَ إِنَّهُ لَشَاعِرْ وَإِنَّـــهُ يَسْتَـــوقِـــفُ المَشَاعِرْ
فَمَـــا عَرَفْتُهُ وَلا غَيرِي عَـــرفْ! بَأَنَّـــهُ يَمْـــلِكُ هَـــذِهِ الطُّرَفْ !

5 – الإغـــراء : من العوامل الحجاجية التي لجأ إليها المتخاطبون الإغراء – ولاسيما الجنان – قصد تحقيق التأثير والإقناع ، فهو يبلور من خلال فعل التصديق والتأييد للمدير يتضح ذلك في مثل قوله للمدير :

بَلْ فِيـــه ذُو بَـــالٍ وَذُو مَبَالِ وَحَبَّـــذَا لَوْ كُنْـــتَ ذَا سِبَـــالِ

6 – الـــــــــذم : لا يرد هذا النمط من الأساليب اللغوية إلا في سياق النقض وتسفيه آراء الخصم وحججه ، في مثل قول الجنان – وقد اشتط غضبه على المدير – فقـــال :

قُبْحًـــا لأَشْيَـــاءٍ بِهَا تَرْمِينَا وَلِبَـــالٍ رِيشُهَـــا يُصْمِينَـــا

هذه بعض العوامل الحجاجية التي نجدها عند المتخاطبين الثلاثة، فغدت عندهم آليات في الإقناع والتأثير.

ويمكن أن نضيف إلى هذه العوامل اللغوية أساليب بلاغيـــة أخرى أسهمت بقسط وافر في بناء صرح الخطاب الحجاجي عند أطراف الخطاب . ومن ذلك :

أ – الاستعـــــارة : هي بحث منطقي في العلائق القائمة بين المفاهيم والتصورات (19)؛ وتكون في الغالب هي صورة التعليل الذي تنبني عليه الحجة ، وبهذه الصورة تكتسي بعدها الحجاجي التداولي ، ومن أرقى صورها ما ورد على لسان الجنان في إبراز تحول مسألة الصوتين بمثل الجذع من الشجرة :

مَسْأَلَـــةُ الصَّوْتَيْنِ عَادَتْ أَوْ لاَ فَـــمَا مَعْنَـــاهُ فِيمَا

ومن ذلك أيضا قـــول المدير في العار وقد شبهه بالثوب الذي يغسل وينقى :

فَاجْتَهِـــدُوا فِي غَسْلِ هَذَا الْعَـــارِ مِنْ قَبْـــلِ أَنْ يُخَلَّـــدَ فِي الأَشْعَارِ

ب – توظيـــف العبـــارات الجاهـــزة :تمثل العبارات الجاهزة العامل الأكثر تأثيرا في عمليات التفاعل والتواصل الاجتماعي ، لذلك فإن استخدامها يمثل أساسا متينا لعمليات المحاججة ومن صوره الرائعة ما ورد على لسان الجلالي :

يَا أَيُّهَـــا الرَّئِيسُ (دَبِّرْ رَاسَـــكْ) أَوْ فَادِعُ لِلحَرْبِ الضَّرُوسِ نَاسِكْ

وفي معرض تزكية الجنان المدير للرئاسة علل ذلك بأنه يحسن قيادتهم في قوله :

وَأَنْتَ تَدْرِي بِالقَضَاءِ الْفَصْلِ مِنْ أَيْنَ يُؤْكَلُ (الدِّمَاغُ الْمَصْلِي

والحق أن المكونات اللغوية البلاغية ؛ وتعدد صورها قد اضطلعت برسم ملامح الاستراتيجية الخطابية ، غير أن توظيفها يكتسب حضوره الفاعل ضمن الاستراتيجيات الخطابية الأخر .

والذي نخلص إليه أن الخطاب الحجاجي عند الأطراف الثلاثة هو بنية غائية ؛ تحمل مقاصد خطابية وتروم تأدية وظائف تداولية مهمة بتحقيق أفعال إنجازية يمكن أن نوجزها في ثلاثة أفعال كلامية بحسب الملفوظات الصادرة عن الأطراف الثلاثة :

- إقناع المخاطبين بحكم مـــا ؛ ودفعهم إلى التصديق به هذا بالنسبة للمدير .
- أما بالنسبة للجلالي فهو دفع بـــلاء أمـــر غير سار متوقع حدوثه .
- أما بالنسبة إلى الجنان فهو إرضـــاء الأطراف المتخاطبة وتحقيق المقاصد الخاصة .

فالحجاج في " رِوَايَـــةُ الـــثَّـــلاثَـــةِ " إذاً استراتيجية خطابية ذات وظيفة تواصلية وليست ترفا خطابيا ، وهو بنية خطابية أملتها ضرورات التفاعل الايجابي المحقق لأغراض المتخاطبين وحاجتهم .

الهوامش والإحالات

* – روايـــة الثـــلاثـــة ، محمد البشير الإبراهيمي ، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، 1997 ، بيروت ، لبنان ، مج2 / من ص 59 إلى 102 .

** – ومن ذلك : الغلبة ، البرهان ، الدفع ، المنازعة ، التخاصم ، الجدل ، الدليل ،،، جاء في لسان العرب في مادة حجج : حاججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها ، الحجة هي البرهان أو ما دوفع به الخصم . وتجمع الحجة على حجج وحجاج . ويقال حاجه محاجة وحجاجا أي نازعه الحجة ، التحاج هو التخاصم والرجل المحجاج هو الرجل الجدل ، الاحتجاج من احتج بالشيء أي اتخذه حجة . ويقال أنا حاججته فأنا محاجة وحجيجه أي مغالبه بإظهار الحجة التي تعني ((الدليل والبرهان)) . ينظر : لسان العرب ، ابن منظور ، طبعة دار الجيل ودار لسان العرب ، د.ط ، 1988 ، بيروت ، مج 2 /228 .

1 – النظرية الحجاجية – من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية – /محمد طروس/ دار الثقافة /ط1/2005/ الدار البيضاء / المغرب/ ص 8

2 – الحجاج والاستدلال الحجاجي عناصر استقصاء نظري / حبيب أعراب / مجلة عالم الفكر/ ع1– مج 30 /2001 / الكويت / ص 98

3 – نظرية الحِجاج ، نعمان بوقرة ، الموقف الأدبي/ ع 407 / آذار 2005 / دمشق / سوريا / ص93

4 – ينظر : ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة /عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني/دار القلم/ط 1993/4/ دمشق/ سوريا/ ص298 ، 300

" الحجاج في اللغة ، أبو بكر العزاوي ، مجلة فكر ونقد ، العدد 61 ، السنة

الخامسة ، أكتوبر 2002 ، المغرب ، ص 71

6 - ينظر : النظرية الحجاجية ، محمد طروس ، مرجع سابق ، ص 160

7 - الحجاج في اللغة ، أبو بكر العزاوي ، مرجع سابق ، ص 74

8 - النظرية الحجاجية ، محمد طروس ، مرجع سابق ، ص 163

9 - ينظر : الحجاج في اللغة ، أبو بكر العزاوي ، مرجع سابق ، ص 75

10 - ينظر : أخلاقيات الحوار / عبد القادر الشيخلي / دار الشروق /ط1/1993/ عمان / الأردن / ص 17

11 - ينظر حول هذه الضوابط الحجاجية : النظرية الحجاجية ، محمد طروس، مرجع سابق ، ص 35

12 - ينظر حول أنواع الحجج : ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة ، عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، مرجع سابق ، ص 300

13 - ينظر في الجانب النظري لنظرية السلالم الحجاجية : نظرية الحجاج / نعمان بوقرة ، الموقف الأدبي، ع 40 ، آذار 2005 ، دمشق ، سوريا ، ص 90

- وحول تطبيقات نظرية السلالم الحجاجية ضمن النصوص الحجاجية .يمكن مراجعة : LE TEXTE ARGUMENTATIF ET LES MARQUEURS DE RELATION, Robert TREMBLAY. Jean Guy . Lise LACERTE , Cégp du Vieux-Montréal.(1994), Canada .p62

-

14 - ينظر : النظرية الحجاجية ، محمد طروس ، مرجع سابق ، ص36

15 - ينظر : الحجاج في اللغة ، أبو بكر العزاوي ، مرجع سابق ، ص 75

16 - استراتجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، دار الكتاب الجديد المتحدة ،ط1 ، 2004 ، بيروت ، لبنان ، ص446

LE TEXTE ARGUMENTATIF ET LES MARQUEURS DE RELATION, 17 -p68

18 – ينظر : نظرية الحِجاج /نعمان بوقرة ، ص 90

19 – استراتجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، عبد الهادي بن ظافر الشهري ، مرجع سابق ، ص 496

العلاقة بين اللفظ والمعنى بين المفهوم المعجمي والاستعمال عند البشير الإبراهيمي من خلال عيون البصائر

أ.د. عبد الله بوخلخال

جامعة الأمير عبد القادر

1- العلاقة بين اللفظ والمعنى

تحتل اللغة مكانا بارزا جدا، في الدراسات المعاصرة، باعتبارها الجسر الرابط بين الحياة والفكر والإنسان، خاصة بعد أن أصبحت الكرة الأرضية عبارة عن قرية صغيرة تتفاعل فيها مختلف اللغات واللهجات، والأفكار والحضارات.

فاللغة في شكليها المرفوض والمكتوب أداة تبليغ عجيبة، تنتقل بوساطة ألفاظها مدلولات الأشياء التي تقع عليها حواسنا إلى أذهاننا، وكذلك كل ما في الذهن من أفكار وخواطر ومشاعر، ينتقل إلى الآخرين، وينتقل عبر الزمان والمكان بوساطة اللغة وألفاظها.

ولكن السؤال المطروح: هل هذه الألفاظ تحمل المدلولات نفسها، المسجلة في المعاجم، عند الاستعمالات المتعددة بين أفراد المجموعة اللغوية الواحدة، في الزمان والمكان، وعبر الزمان و المكان،؟

باعتبار أن المعنى اللغوي، هو تلك العلاقة التي تتحقق، باتحاد عنصري العلامة اللغوية والمعنى، أي باتحاد عنصري الدال والمدلول، ونتساءل مرة أخرى هل الدراسات الدلالية بلغت من الرشد، وأزالت أمامها كل الصعوبات، أم لا؟.

لقد حاول الإنسان منذ القدم، أن يزيح كثيرا من الغموض، الذي يكتنف اللغة البشرية وخاصة، في موضوع الدلالة وتحديدها.

كما أن موضوع الدلالة، أو دراسة المعنى، لم يكن في يوم من الأيام مقصورا على اللغويين وحدهم. بل كان وما يزال موضوعا للدراسة في علوم اللغة وفي الفلسفة والمنطق،

والفقه، والقانون، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الأجناس، وعلم الحيوان، والتربية، وتدريس اللغات، والآداب والنقد، والبلاغة.

وهو موضوع يدرسه أيضا رجل أعمال، ومصمم الإعلانات الدعائية، والإشهار، ورجل السياسة، والجغرافي، والمؤرخ، والطبيب النفساني، وغيرهم.

وكل المختصين في فروع العلم والمعرفة يهتمون بعلم الدلالة، ما دامت اللغة مستعملة عند الجميع بطريقة أو بأخرى. واللغة العربية ذات ثروة لفظية واسعة. ولكل لفظ منها مدلول خاص في الغالب وقد تنفرد بعض الألفاظ لتدل على معان متعددة ذات ارتباط بها، بل قد تجتمع عدة ألفاظ للدلالة على معنى واحد، كما هو واضح في معاجمنا اللغوية.

ثم أن تلك الدلالة، قد تبقى ثابتة وقد تتسع أو تضيق، وقد تتحول عن المعنى الذي كانت تدل عليه عند الوضع لتدل على معنى آخر. إذن استنباط الدلالة وتحديد المفاهيم والمعاني التي تحملها مفردات اللغة وصيغها وتراكيبها، عملية معقدة للغاية، على الرغم من وفرة الدراسات والنظريات القديمة والحديثة في هذا الموضوع.

فالصعوبات التي تواجه الباحث عن الدلالة كثيرة ومعقدة نظرا لكون دلالة الألفاظ عند الاستعمال قد تختلف من شخص إلى شخص آخر عبر الزمان والمكان لأسباب لغوية، واجتماعية، وثقافية، وسياسية، ودينية، وحضارية، وتاريخية، وجنسية، ونفسية، وغيرها.

- هل نبحث عن المعنى في الألفاظ المفردة خارج السياق اللغوي وهو المعنى المعجمي.
- أم نبحث عن المعنى في إطار الجملة الإسنادية، وهذا موجود أيضا في المعاجم اللغوية لأنها تقدم المادة اللغوية في سياقات نحوية غالبا.
- أم نبحث عن المعنى في الألفاظ والجمل في إطار السياق اللغوي العام، وهل هذا يكفي؟.

أو هناك عناصر أخرى تدخل بقوة في تحديد المعنى بالإضافة إلى الجوانب اللغوية، مثل المقام والمعنى الاجتماعي للمفردة والجملة والتعبير، والمعنى السياسي والثقافي والمعنى الحضاري، وغير ذلك.

ويذهب أصحاب نظرية السياق إلى أن اللغة هي في المقام الأول جزء من النشاط الاجتماعي متسق، ومن ثم، فإن الكلمة إذا عزلت عن سياق هذا النشاط، الذي تستخدم فيه، تصبح وعاء فارغا من المعنى، فالألفاظ لا يمكن أن توجد في فراغ.

إنّ سر اللغة ليس هو الكلمة المفردة، وإنما هو السياق الذي ترد فيه، فالسياق هو الذي يوضح المعنى الوظيفي لكل كلمة، ويفرض عليها قيمة حضورية معينة، فأية كلمة ليس لها إلا معنى واحد في الوقت الواحد.

حيث أن معنى الكلمة في المعجم متعدد ومحتمل، ولكن معنى اللفظ في السياق واحد لا يتعدد، لأنه يوجد في سياق قرائن، تعين على اختيار معنى واحد من بين المعاني المختلفة التي نجدها للكلمة في المعجم.

وقد تنبه الأقدمون لأهمية العلاقة بين اللفظ والمعنى في السياق فراحوا يعقدون المجالس لذلك والبحث المعمق في استنباط الدلالة، وفي هذا يقول عبد القاهر الجرجاني: ((**إن الألفاظ لم توضع لتعرف بها معانيها في أنفسها، ولكن لأن يُضَمّ بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها علم، شريف**)) (**1**).

ويقول في باب نظم الكلام بحسب المعاني ((**ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل... وبعد أن كنا لا نشك في أن لا حال للفظة مع صاحبتها تعتبر، إذا أنت عزلت دلالتها جانبا**)) (**2**).

وقد حصلت بين قدماء مناظرات علمية ذات قيمة كبيرة، كان لها الأثر البالغ في تطوير البحث الدلالي وفي استنباط الأحكام الشرعية من نصوص القرآن الكريم ومن غيره، وقد نقلت كتب المجالس والطبقات طرفا من تلك المناظرات.

فمن ذلك ما نقله الزبيدي الإشبيلي (ت379هـ) عن المناظرة التي دارت بين القاضي أبي يوسف (ت182هـ) صاحب أبي حنيفة، وبين الكسائي(ت182هـ) إمام مدرسة الكوفة في عصره، وذلك في حضرة هارون الرشيد(ت193 هـ)، حيث سأل الكسائي أبا يوسف عن حكم قول الرجل لامرأته: أنت طالق أن دخلت الدار.

(بـ أن مفتوحة الهمزة وإن مكسورة الهمزة) فقال أبو يوسف: إن دخلت الدار طلقت منه، وأرسل الحكم بالتعميم، فقال الكسائي: الحكم في ذلك يا أبا يوسف أنه إن قال: (أنْ) (3). بفتح الهمزة فقد ثبت الدخول، وحينئذ يتحقق الطلاق، أما إذا قال: ((إنْ)) (4) بكسر الهمزة، فإن الدخول لم يتحقق ويبقى الطلاق معلقا على دخولها. وكذلك فعل الأمر في اللغة فهو يحمل في صيغته الإفرادية على الوجوب ولكنه في السياق قد يحتمل غير ذلك.

فقوله تعالى: ((**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ**)) (البقرة/282) إلى أن يقول: ((**وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ**)) (**البقرة/ 282**) بينت هذه الآية حكم كتابة ((**الدين**)) والإشهاد عليه وعلى البيع وقد حصل خلاف بين العلماء في وجوب ذلك أو عدم وجوبه. فذهبت جماعة إلى أن الكتابة والإشهاد واجبان لأنها جاءت بصيغة الأمر الصريح ((**فاكتبوه، وأشهدوا**)). وذهب الجمهور إلى أن الكتابة مندوبة وليست واجبة انطلاقا من السياق،

فالسياق هو الحكم هنا، لأن فعل الأمر هنا خرج عن أصله وهو الوجوب إلى الدلالة عن المندوب. لوجود قرينة سياقية تصرفه إلى هذا المعنى وهي في قوله تعالى في الآية اللاحقة ((**فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ**)) (**البقرة/283**).

وقس على هذا جميع الألفاظ المحتملة الدلالة على معاني متعددة. وقد ذهب الفراء في معاني القرآن (5) والنحاس في إعراب القرآن (6) وأبو حيان الأندلسي في البحر المحيط (7) إلى الإباحة في ترك المكاتبة بالدين انطلاقا من القرينة السياقية ((**إن أمن بعضكم بعضا**)) وإلى هذا ذهب جمهور الفقهاء.

وإن كان القدماء قد انتهجوا هذه المناهج في استنباط الدلالة انطلاقا من السياق، فإننا الآن أحوج منهم إلى ذلك، نتيجة تداخل الثقافات والمفاهيم والاحتكاك الفكري والمادي بين أفراد المجتمعات، فينعكس كل ذلك على اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية وظيفتها التواصل والتفاهم. وإنّ التمايز بين شخص وآخر يتمثل في القدرة على التعبير بدقة ووضوح، عن الأفكار والمشاعر التي يريد إيصالها إلى الآخرين، والقدرة على اختيار الألفاظ والتراكيب المعبرة بدقة عما يريد قوله أو كتابته. والقدرة على فهم وتحليل ما يقوله الآخرون، فالعلاقة بين اللفظ والمعنى مطروحة بالنسبة للملقي والمتلقي، لأنه محال أن تكلم شخصا بألفاظ وهو لا يعرف معانيها ونظام تركيبها ونظمها.

2- دلالة الألفاظ بين المفهوم المعجمي والاستعمال عند الإبراهيمي من خلال عيون البصائر:

كان الشيخ البشير الإبراهيمي من الفرسان الذين لا يشق لهم غبار في اختيار الألفاظ وتوليد المعاني الدقيقة وفي تبليغ رسالته إلى الآخرين من أبناء أمته، في مرحلة من أدق مراحل الصراع بين الشعب الجزائري وفرنسا الاستعمارية.

وخاصة في ((**عيون البصائر**)) (8) التي دارت مضامينها أساسا على أبرز المعاني الجوهرية في النهضة العربية الإسلامية الحديثة في الجزائر، وذلك بالدفاع عن الدين الإسلامي واللغة العربية، والجزائر وشخصيتها ومقوماتها الأساسية، والعمل على تثبيت هذه المقومات في نفوس أبناء الأمة الجزائرية، الذين كانوا يتأهبون في هذه المرحلة بالذات (45-1954م) لخوض ثورة عارمة وشاملة ضد الاستعمار الفرنسي الاستيطاني. وتعد

((**عيون البصائر**)) أرقى ما كتبه الشيخ البشير الإبراهيمي من حيث فصاحة اللفظ وحسن اختياره في التركيب اللغوي والسياقي، والعناية الفائقة بتوليد المعاني والصيغ، وإحداث المتعة الجمالية والأدبية والفكرية لدى القارئ.

انظر إلى كيفية فهمه وتحليله لاسم ((**عبد الحي الكتاني**)) في مقال له بعنوان ((**عبد الحي الكتاني، ما هو؟ وما شأنه؟**)) (**9**).

يقول الإبراهيمي في تعريف الرجل ((**إذا أنصفنا الرجل قلنا: إنه مجموعة من العناصر، منها العلم ومنها الظلم، ومنها الحق، ومنها الباطل، وأكثرها الشر والفساد في الأرض**)) (**10**). ثم يقول عن اسم ((**عبد الحي**)) ((**هذا الاسم المركب الذي لا يلتقي مع الكثير منها {أي العناصر المكونة للرجل} في اشتقاق، ولا دلالة وضعية، كما تطلق أسماء الأجناس المرتجلة، وكما يطلق علماء الكيمياء على مركباتهم أسماء لا يلمعون فيها أصلا من أصولها**))(**11**) ثم يتحدث عن نظام التسمية عند العرب وعلاقة اسم ((**عبد الحي**)) بهذا النظام.

فيقول: ((ومن الأسماء ما يوضع على الفال والتخيل، فيطيش الفال وتكذب المخيلة. ومنها ما يوضع على التوسع والتحيل، فيضيع المجال وتضيع الحيلة.

وإن اسم صاحبنا لم يصدق فيه إلا جزؤه الأول، فهو عبد، لعدة أشياء، جاءت بها الآثار وجرت على ألسنة الناس... أما جزؤه الثاني فليس هو من أسماء الله الحسنى، ولا يخطر هذا على بال مؤمن يعرف الرجل، ويعرف صفات عباد الرحمن المذكورة في خواتيم سورة الفرقان (**12**). وإنما هو بمعنى القبيلة، كما يقال: ((**كاهن الحي، وعراف الحي، وعير الحي**)) (**13**). ثم يقول: ((**قبح الله الاشتراك اللفظي، فلو علم العرب أنه يأتي بمثل هذا الالتباس لطهروا منه لغتهم**)) (**14**).

والدراسة الدلالية المفهومية ((**لعيون البصائر**)) لابد لها من بعدين جوهريين، بعد لغوي معجمي، توجد شروحه وتصوراته في المعاجم والقواميس. وبعد وظيفي سياقي

استعمالي، يرتبط بالحياة العملية، والنماذج السلوكية المميزة لشخصية الشيخ الإبراهيمي وثقافاته، والمحيط العام للألفاظ والكلمات المستعملة وقدرتها على إفادة المعنى المقصود، بغرض الإقناع والتأثير في المتلقي.

وقد استعمل الإبراهيمي كلمات كثيرة عربية وأجنبية في عيون البصائر تحمل دلالات جديدة مضافة من عنده في نظام لغوي محكم وعلاقات متناسقة. يمكن أن تكون علاقات تجاور، أو علاقات تنافر وتضاد مع المفهوم المعجمي.

وبدراسة تلك العلاقات فقط في سياق الإبراهيمي ومحيطه، نستطيع استنباط معنى تلك الوحدات المعجمية في الاستعمال في عيون البصائر والغرض من توظيفها في خطاب الإبراهيمي وكتاباته.

أما الحقول الدلالية التي استعمل فيها الإبراهيمي هذه الألفاظ والمصطلحات بمفاهيم مخالفة للمفهوم المعجمي فتتمثل خاصة في:

1- **الحقل السياسي:** مثل: الديمقراطية الدكتاتورية، اللائكية، الساندیكا.

2- **الحقل الديني** : مثل: إكليرجي،كاتيدرائية، ثيوقراطية.

3- **الحقل الاقتصادي:**مثل: الفرنك، الدولار ، البورصة ،الكولون.

4- **الحقل الإداري:**مثل:البريفي، ديكرى، دوسي .

5- **حقل وسائل قمع الاستعمار للأمة الجزائرية:** مثل: البوليس، الكوميسير، الجندرمة، ميكروب، انديجان..الخ.

6- **حقل عام:** مثل كليشي، كوكتيل...الخ.

1- **الحقل السياسي:** نأخذ من هذا الحقل كلمة (ديمقراطية).

لأنها المكون الأساسي لهذا الحقل، وقد تكررت عنده كثيرا، وأخذت عنده دلالات مختلفة عن مفهومها القاموسي.

فمفهوم الديمقراطية القاموسي: هو سلطة الشعب، وتتميز بعدد من المبادئ، كالاعتراف بالشعب كمصدر للسلطة وبحقوق المواطنين وحرياتهم ومساواتهم.

والدولة التي تحترم هذه المبادئ تعد دولة ديمقراطية...الخ.

ولكن مفهوم الديمقراطية عند الإبراهيمي مناقض لمعناه القاموسي الثابت، فهو عنده يحمل مفهوما مرتبطا بالممارسة الاجتماعية والواقع المعيش.

يقول عن الديمقراطية في مقال له بعنوان ((**كلمات مظلومة**))(**15**): ((**الديمقراطية رأي يوناني نظري جميل، منسوب إلى اسم صاحبه، وهو قائم على أن الشعب هو مصدر السلطة، ومن ثم فهو صاحب الحق في الحكم والتشريع وعلى أن الأفراد متساوون في هذا الحق**))(**16**). ولكنه عندما يرى الديمقراطية في الممارسة الاستعمارية يراها شيئا آخر، فأضاف مفهوما للديمقراطية الاستعمارية وهي الديمقراطية الصناعية التي أصبحت تقابل الديمقراطية الطبيعية في علاقة تضاد.

فالديمقراطية الطبيعية، تعني عنده السماحة والمساواة والعدل، لا تختلف عن جوهر الإسلام، وقد سماها أيضا الديمقراطية العمرية، وهي ذات قيمة دلالية ثابتة في المكان والزمان. أما الديمقراطية الصناعية فهي التي تسعى فرنسا إلى تطبيقها في الجزائر وهي ذات قيمة دلالية متغيرة.

ويقول الإبراهيمي في مقال آخر (**17**): ((**إن الشعب الجزائري، مريض متطلع للشفاء، وجاهل متوثب إلى العلم، وبائس متشوق للنعيم، ومنهوك من الظلم مستشرف إلى العدالة، ومستعبد ينشد الحرية، ومهضوم الحق يطلب حقه في الحياة، وديمقراطي الفطرة والدين، يحن إلى الديمقراطية الطبيعية لا الصناعية، ولكنه ليس كما يقال عنه: جائع يطلب الخبز فإن وجده سكت**)) (**18**). وفي نص آخر تحول مفهوم الديمقراطية عنده إلى المعنى المضاد أي المرادف للدكتاتورية التي وردت عنده بكثرة أيضا.

قال سنة 1947م ((**أصبح استعمار الأقوياء للضعفاء ديمقراطية وتسميتهم للعزل الأبرياء ديمقراطية، ونقض المواثيق ديمقراطية، لك الله أيتها الديمقراطية**)) (19).

ثم قارنها في مقال آخر سنة 1949م مع لفظ الديكتاتورية في نفس الطور وترادف بصريح العبارة، كما قارن اللائكية بالمسيحية للغرض نفسه قال ((كأني بهذه **الحكومة اللائكية (20) المسيحية– معا– الديمقراطية الديكتاتورية معا**)) (21).

فهذا التركيب ليس طباقا عند الإبراهيمي بل هو ترادف وتوكيد لفظي، فالحكومة الفرنسية لائكية، ولكن حكامها في الجزائر رهبان يعملون على محاربة الإسلام، وينشرون المسيحية وهي تنتسب إلى جمهورية ديمقراطية لكن ممارسات حكامها في الجزائر ممارسات دكتاتورية.

أما ((**السانديكة**)) التي هي تجمع مكون أصلا للدفاع عن المصالح المشتركة لأعضاء هذا التجمع، ولكن معناه في الجزائر في الفترة الاستعمارية أصبح مرتبطا بجمعية رجال الدين الذين كونوا ((**سانديكا**)) ليس للدفاع عن أصحابها ولكن لمقاومة كل جزائري يريد التحرر من الاستعمار فهي في هذه الحالة أصبحت في خدمة الاستعمار الفرنسي وآلة في يده، لا علاقة لها بالدفاع عن المجموعة التي تمثلها.

يقول في ذلك (في مقال له سنة 1951م) ((**مازلنا نجهل معنى (السانديكة) التي سموها جمعية رجال الدين، ونتساءل لماذا لا تكفي رجالها مؤونة التردد على هذه الإدارات أو تكفهم عنها؟، إلى أن يكون معنى وجودها محصورا في مقاومة العاملين لتحرير الدين ورجاله**)) (22). فالإبراهيمي لم يستعمل مصطلح ((نقابة)) مثلا وإنما استعمل (**سانديكة رجال الدين**) حتى يحمل القارئ أو السامع على السخرية أو التهكم من هذا الاستعمال الوارد في غير محله.

يتضح مما سبق أن الإبراهيمي يعمد إلى استعمال هذه المصطلحات ويعمد إلى مخالفة دلالتها المعجمية، ويضفي عليها دلالات مرتبطة بالتداول والاستعمال الاجتماعيين، مما يؤكد صلته الشديدة بواقع مجتمعه السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

ويقدم هذه الألفاظ للقارئ في دلالات جديدة ساخرة مرتبطة بالممارسة اليومية، حتى يقف منها السامع أو القارئ موقف المنتقد الرافض لها، وهذا يعد سلوكا وضربا من المقاومة الشعبية ضد الممارسات الاستعمارية المكشوفة منها والمستترة.

وما يقال عن الحقل السياسي يقال أن ألفاظ الحقل الديني لارتباطها بالحقل السياسي ارتباطا وثيقا.

فالإبراهيمي وهو يكتب بالعربية لا يطلق على رجال الدين المسيحيين بالجزائر مصطلح رجال الدين أو القساوسة، لأن القيمة الدلالية لرجل الدين في المعجم العربي الإسلامي هو رمز السماحة والعدل والرأفة بالناس...الخ وهي قيمة ثابتة في أذهان الناس، إنما يوظف اللفظ الفرنسي ((الأكليرجي))(**23**)(**le clergé**) لأنه رمز الظلم والتسلط والتغير في الجزائر.

يقول في مقال له سنة **1948** مقارنا بين الدين الإسلامي ورجاله والأديان الأخرى ((**يا هذا، أو يا هؤلاء أعني البارز منكم والمستتر، إن الإسلام دين (ديمقراطي) سمح، ليس فيه نظام اكليرجي متسلط كبقية الأديان**)) (**24**).

أما ألفاظ الحقل الدلالي الاقتصادي، فقد وظفها الإبراهيمي أيضا باعتبارها وسيلة لخدمة المستعمر ومخططاته المدمرة للدين والوطن والأمة، حتى يبعد الإبراهيمي المواطن الجزائري من السقوط في مغريات الفرنك والدولار وغيرهما. فالفرنك في مفهوم المعجمي وحدة نقدية فرنسية، ووسيلة التبادل التجاري مثل بقية النقود، ولكن الإبراهيمي وظفه للدلالة على مطلق المال، وأبرز من خلاله انقياد بعض رجال الدين المسلمين وخضوعهم للمستعمر وغوايته وحبهم للفرنك وتفضيله على واجبهم.

قال في مقال له سنة 1950م ((**إن رجال الدين يصلون الركعة لمائة فرنك، لا للواجب الديني**)) **(25)**.

ثم يقرن الدولار بالفرنك كرمز للتسلط وقهر الجزائريين، وكذلك البورصة. حتى يبعد المواطن عن التعامل بها ومعها.

- كذلك استعمل لفظ ((**الكولون**)) بدل لفظ المعمر،لأنه يعرف وقع معناها في الوسط الاجتماعي الجزائري، ومفهومها في القاموس الاجتماعي الجزائري غير مفهومها في القاموس الفرنسي، فهم في نظر الجزائريين أولائك الغزاة الذين أخذوا أراضي الجزائريين بالقوة والقهر ظلما وعدوانا، ونهبوا وسلبوا، وقتلوا من الجزائريين ما قتلوا، فهم مدمرون وليسوا معمرين.

فلفظ ((**الكولون**)) يؤدّي دلالة السخط والكره والتحقير، وكان بإمكان الإبراهيمي استعمال لفظ ((**المعمر**)) ولكنها قد تؤدي هذه الأخيرة معنى مخالفا للأول وهو إصلاح الأرض الشاغرة وتعميرها وتطويرها، وهو المعنى المعجمي لمادة تعمير وعمران: وهو تطوير البلد زراعيا وصناعيا وتجاريا وبناء. ولكن معنى الكولون هو التخريب والتدمير وليس التعمير.

والخلاصة أن الشيخ البشير الإبراهيمي لم يكن يتحرج أبدا من توظيف هذه الوحدات المعجمية العامية أو الأجنبية، ما دامت تؤدي الرسالة اللغوية أحسن من غيرها، على الرغم من وجود ما يقابلها في اللغة العربية الفصيحة.

وهذا لأن معالم خطابه محددة انطلاقا من الرموز الدلالية المشتركة بينه وبين المتلقي وهو الجمهور الجزائري الواسع حتى يقترب من أحاسيسه ويبلغ رسالته على أحسن وجه وبأحسن وسيلة وأدقها دلالة، ولا يعنيه المفهوم المعجمي ما دام الغرض قد تحقق.

الهوامش

1- عبد القاهر الجرجاني – دلائل الإعجاز ص: 418.

2- المصدر نفسه ص 65- 66.

3- (أنْ) هنا مصدرية.

4- (إنْ) هنا شرطية.

5- معاني القرآن ج 1ص 183.

6- إعراب القرآن ج 1 ص 347.

7- البحر المحيط ج 2 ص 343.

8- هي مجموعة من المقالات التي كتبها الشيخ البشير الإبراهيمي في جريدة البصائر، لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في سلسلتها الثانية من سنة 1947م، حتى 1953م. وقد جمعت هذه المقالات (137 مقالة) في مجلد واحد سنة 1963م، وطبعت بدار المعارف بمصر بإشراف الشيخ البشير الإبراهيمي نفسه، ثم (بعد وفاته في 20 ماي سنة 1965 نشرت بالجزائر سنة1971م ثم سنة 1981 ضمن سلسلة آثار محمد البشير الإبراهيمي وشكلت الجزء الثاني بالمؤسسة الوطنية للكتاب.

9- عبد الحي الكتاني، ما هو؟ وما شأنه؟ العدد 33 من جريدة البصائر سنة 1948م.

10- عيون البصائر ص 615.

11- المصدر نفسة والصفحة السابقتان.

12- إشارة هنا إلى ما ورد في سورة الفرقان ابتداء من الآية 63 ((**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا..**)) حتى آخر السورة.

13- عيون البصائر ص 616.

14- المصدر والصفحة السابقتان.

15- المنشور في العدد الأول من جريدة البصائر السلسلة الثانية سنة 1947م.

16- عيون البصائر ص: 584.

17- نشر في العدد 81 من جريدة البصائر سنة 1949م.

18- عيون البصائر ص 79.

19- المصدر السابق ص 585.

20- اللائكية: تعني الفصل بين الدين والحكومة، وعدم تدخل الكنائس في السلطة السياسية أو الإدارية أو التربوية.

21- عيون البصائر ص 89.

22- المصدر السابق ص: 161.

23- الاكليرجي (le clergé) هو سلك رجال الدين أو قساوسة المقاطعات التي كانت تنتمي إلى فرنسا، وكانت ممثلة في مجالس رجال الدين لمحاربة اللائكية واللفظة مشتقة من اللغة اليونانية (kleros).

24- عيون البصائر ص 74.

25- المصدر السابق ص 117.

موقف البشير الابراهيمي من اللغة العربية

د. مراد مزغاش

المدرسة العليا للأساتذة — قسنطينة

يعد الشيخ البشير الإبراهيمي من أهم الشخصيات الأدبية والفكرية بل وحتى السياسية الجزائرية التي ناضلت وجاهدت جهادا مستميتا من أجل اللغة العربية وعروبة الجزائر وخاصة من موقعه كرئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين... للوقوف في وجه الاستعمار الفرنسي ومخططاته .

وتعد مواقف وكتابات الشيخ البشير الابراهيمي حول اللغة العربية وثيقة تاريخية هامة بل وتمثل نظرية اجتماعية وقومية وتاريخية حول اللغة العربية ومكانتها ، وخاصة أهميتها في بناء الشخصية الجزائرية وعروبة الوطن الجزائري ...

وربما تفرد الإبراهيمي بنظرته العميقة والشاملة عن اللغة العربية وعن عروبة المجتمع الجزائري نوجزها في النقاط التالية :

أولا : اللغة العربية قضية سياسية :

اعتبر الشيخ البشير الإبراهيمي السياسة من أنجع الوسائل في الدفاع عن اللغة العربية والحفاظ عليها ، فجعل منها قضية سياسية تهم جميع الجزائريين و على جميع المستويات والأصعدة ، عند الأحزاب والجمعيات و النواب و غيرهم...وقد كانت له صولات وجولات مع الحكومة الفرنسية حول مطالب جمعية العلماء عن اللغة و التعليم العربي الحر، و الدين الإسلامي .

و يعتبر الإبراهيمي رائدا ومتفردا بكتاباته التاريخية عن مأساة اللغة العربية في الجزائر في عهد الاستعمار،خاصة منها القوانين التي وضعت لضرب التعليم العربي و اللغة العربية، وقد سجل هذا الصراع مع المستعمر حول التعليم الحر و اللغة العربية في سلسلة مقالات نشرها في البصائر الثانية سنة 1949م بعنوان : (التعليم العربي و الحكومة) و هذه

الدراسات [illegible] التسع وثيقة تاريخية هامة صورت تطور الصراع العنيف بين الجزائر و الإدارة الاستعمارية حول قضية التعليم العربي الحر، وفضحت أساليبها المتعددة في محاولة الحد من نشاط رجاله المخلصين ، بالترغيب حينا و بالترهيب أحيانا "[1]. يقول في إحدى هذه الأنقاض: " كل الوسائل التي تتذرع بها حكـــومة الجزائر لمقـــاومة التعليم العربي هي: [illegible] أصدرها مجلس الأمة في فرنسا ، في أوقات مختلفة ، ولأسباب متنوعة ، وإما قرارات إدارية فردية مصدرها الجزائر ، و مبناها على إيعازات بوليسية توجيها الروح الاستعمارية... يحرم الاستعمار الفرنسي التعليم على مسلمي الجزائر ويفرضه على أبنائه في وطنه ، فاعجب لشيء واحد يحرم في وطن و يفرض في وطن. ومن عرف الاستعمار معرفتنا به لم يعجب ولم يندهش ، خصوصا في وطن كالجزائر لغته العربية ، و دينه الإسلام "[2].

كما دعا في هذه السلسلة من المقالات الشعب الجزائري إلى تحدي هذه القوانين التي تعرقل التعليم العربي ، وتجاهلها ، ومقاومتها مقاومة مشروعة ، والمضي في حركة التعليم ونشر العربية لأبناء الأمة مهما كانت الشدائد ، و مهما طال الأمد.

و رغم أن الاستعمار تراجع عن هذه القوانين و أعلن في 20 سبتمبر سنة 1947م ترسيم اللغة العربية في التعليم الثانوي ، وهو ما يعتبر انتصارا شعبيا... غير أنه بقي حبرا على ورق ، وبقيت معه فرنسا تحارب اللغة و التعليم العربيين.

و هذا ما جعل الإبراهيمي لا يسكت عن الجهر بكلمة الحق، والمناداة في كل مناسبة، وفي كل مكان، بأحقية الأمة الجزائرية في تعلم لغتها، وأن تكون لها مدارسها و مؤسساتها الخاصة، و إلغاء جميع القوانين التي تحد من ذلك.

---

[1] عبد الرحمن شيبان – [illegible] الشيخ محمد البشير الإبراهيمي و اللغة العربية – مجلة الثقافة – ص81 – العدد 87 – سنة 15 – [illegible]

[2] البشير الإبراهيمي [illegible] – دار المعارف – القاهرة – جمهورية مصر العربية – سنة 1963 م – ص225.

فها هو يستثير في الأعضاء المسلمين بالمجلس الجزائري عروبتهم و دينهم وتخوفهم، لعلهم يتحركون ويضغطون على الاستعمار من أجل رفع يديه و الكف عن ظلم هذا الوطن في دينه و لغته، فكانت هذه الصيحة المدوية عبارة عن : (كتاب مفتوح إلى الأعضاء المسلمين بالمجلس الجزائري) يقول فيه: " أيها السادة..إن لغتكم العربية مصفّدة بالسلاسل و الأغلال من القوانين و القرارات ، وإن مدارسها- على ضعفها و قلتها - معرضة للإغلاق، و إذا كانت اللغة سائرة إلى المحو و الاندثار بسبب هذه التضييقات فإن النتيجة الحتمية لذلك هي محو الدين و اندثاره، لأنها الوسيلة الوحيدة التي يتوقف عليها حفظه وبقاؤه "[1]. فكان الإبراهيمي يتذرع بالسياسة و السياسيين ليدفعهم إلى تبني و حمل قضية غير سياسية لينصفوها و يعيدوا لها الاعتبار، لتأخذ مكانها الطبيعي الذي وجدت فيه عبر العصور.

ثانيا : عروبة و وحدة الجزائر.

إن المعركة التي وقف الإبراهيمي لها نفسه مع الاستعمار، هي معركة بقاء و وجود، هي معركة الأمة و تمايزها... لهذا عمل الإبراهيمي على تثبيت عروبة الجزائر عبر التاريخ و تمايزها عن فرنسا. و بخاصة في لغتها، لأن القضاء عليها يعني القضاء على عروبة هذا الوطن و إسلامه وثقافته وتراثه.. وهي أصول هذا الشعب و مقوماته، فأخذ يناضل من أجل ذلك عشرات السنين ، "..لأن موضوع العروبة و العربية في الجزائر هو الذي قسمه الله لي، وجعله ميدان أعمالي وأحاديثي ومجال قلمي عشرات السنين "[2]. وحين يدلل على عروبة الجزائر فإنه يستلهم لها التاريخ و الواقع، ويناقش كل المسائل المرتبطة بذلك .كما أنه لا ينكر بعد ذلك ما أثبته التاريخ من أصل أمازيغي للجزائر لأن العروبة فوق السلالات وفوق العرقيات ." والإبراهيمي يميل في مناقشته لمسألة اللغة إلى طريق الإقناع

---

[1] - البصائر السلسة الثانية - العدد33 - السنة 3 - أوت 1948م.

[2] - البشير الإبراهيمي- أنا - مجلة الثقافة - العدد87 - السنة15 .

فيبني حديثه على أسلوب التقابل، فيعلل ويشرح كيفية حل المعادلات بعد أن يقدم الافتراضات "[1].

وقد عـــالج عروبة الجزائر في مقال بعنـــوان (اللغة العربية عقيلة حرة ليس لها ضرة) جـــاء فيه : " اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها وبين حماتها وأنصارها ، وهي ممتدة الجذور مع الماضي، لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ترحل برحيلهم و تقيم بإقامتهم. فلما أقام الإسلام بهذا الشمال الإفريقي إقامة الأبد، وضرب بجران فيه أقامت معه العربية لا تريم و لا تبرح مادام الإسلام مقيما لا يتزحزح.

و من ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس، وتنساغ في الألسنة و اللهوات و تنساب بين الشفاه والأفواه، يزيدها طيبا وعذوبة أن القرآن بها يتلى، وأن الصلوات بها تبدأ و تختم، فما مضى عليها جيل أو جيلان حتى اتسعت دائرتها وخالطت الحواس و الشواعر، وجاوزت الإبانة عن الدين إلى الإبانة عن الدنيا، فأصبحت لغة دين ودنيا معا. وجاء دور القلم والتدوين فدونت بها علوم الإسلام و آدابه وفلسفته و روحانيته "[2].

و هو بهذا التدليل يثبت عروبة الجزائر و يرد على المستعمر و أذنابه الذين حاولوا " تقسيم الشعب بإحياء النزعة البربرية و تغذيتها في نفوس ضعاف العقول من الجزائريين بل وجنّد لها طائفة من أعوانه كان قد جندهم ثقافيا واجتماعيا للقيام بتلك المهمة على أحسن وجه وهيأ لهم من الوسائل ما يمكن من بلوغ مقصده"[3] . فتصدى لهم الإبراهيمي و فند مزاعمهم، وبين نوايا المستعمر من هذه النعرة، ورد على الدعاوى القائلة بأن الأمازيغ – البربر – أكرهوا على الإسلام و على العروبة، وأن اللغة العربية غريبة عن هذه الديار بحجة

---

[1] – محمد عباس– الإبراهيمي أديبا – ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر – ص128 .

[2] – البشير الإبراهيمي– عيون البصائر– دار المعارف – القاهرة – جمهورية مصر العربية – سنة 1963 م– ص213.

[3] – محمد ميداوي – الإبراهيمي نضاله و أدبه – دار الفكر دمشق سورية – الطبعة الأولى – 1408 هـ/1988م – ص88 .

وجود لهجات مختلفة كثيرة..فيواصل حديثه في نفس المقال: " وعرف العرب عن طريقها- أي العربية – ما لم يكونوا يعرفون، وسعت إليها حكمة يونان ، تستجديها البيان ، و تستعديها على الزمان فأجدت وأعدت. وطار إلى البربر منها قبس لم تكن لتطيره لغة الرومان، وزاحمت البربرية فأحالتها عربية كل ذلك باختيار لا أثر فيه للجبر، وقناع لا يد فيه للقهر ، وديمقراطية لا شبح فيها للاستعمار. وكذب وفجر كل من يسمي الفتح الإسلامي استعمارا، وإنما هو راحة من الهم الناصب و رحمة من العذاب الواهب، و إنصاف للبربر من الجور الروماني البغيض.

من قال إن البربر دخلوا في الإسلام طوعا، فقد لزمه القول بأنهم قبلوا العربية عفوا، لأنهما شيئان متلازما حقيقة وواقعا ، لا يمكن الفصل بينهما، ومحاولة الفصل بينهما كمحاولة الفصل بين العرقين، ومن شهد أن البربرية مازالت قائمة الذات في بعض الجهات، فقد شهد للعربية بحسن الجوار، شهد للإسلام بالعدل و الإحسان، إذ لو كان الإسلام دين جبرية وتسلط لمحا البربرية في بعض قرن ، فإن تسامح ففي قرن...فالعدل هو الذي أخضع البربر للعرب، ولكنه خضوع الأخوة لا خضوع القوة...و العلم هو الذي طوع البربرية للعربية ، و لكنه تطويع البهرج للجيدة، لا طاعة الأمة للسيدة ، لتلك الروحانية في الإسلام و لذلك الجمال في اللغة العربية، أصبح الإسلام في عهد قريب صبغة الوطن التي لا تنفصل و لا تحول ، وأصبحت العربية عقيلة حرة ليس لها بهذا الوطن ضرة "[1] .

" فليس – إذا – في المسألة مفاضلة بين العربية و البربرية إلا بما تمتاز به كل لغة منهما من خصال حضارية و جاذبية فطرية و نفسية "[2].

و حين تنشئ الحكومة الفرنسية موجة من الإذاعة الفرنسية باللسان القبائلي موجه إلى سكان القبائل، يتصدى لهذا الأمر ويفضحه ويبين أن الهدف منه ليس سوى ضرب اللغة

---

[1] – البشير الإبراهيمي- عيون البصائر – ص222/221 .

[2] محمد عباس – الإبراهيمي أديبا – ص126 .

العربية والقضاء عليها، ويرد على المستعمر في مقال بعنوان : (موجة جديدة) يقول فيه: " ما هذه النغمة السمجة التي ارتفعت قبل سنين في راديو الجزائر بإذاعة الأغاني القبائلية و إذاعة الأخبار باللسان القبائلي، إن القبائل مسلمون عرب، كتابهم القرآن يقرأونه بالعربية، ولا يرضون بدينهم ولا بلغته بديلا "[1] ويقول في موضع آخر: " وقد فات هذه الحكومة التي تنفق أموال الأمة في مالا يفيدها، أن اللهجات البربرية بهذا الوطن متعددة متباعدة بحيث لا يفهم أهلها بعضهم عن بعض"[2] .

و هكذا يأتي الإبراهيمي على كل ادعاءات المستعمر يفندها جميعا،فتتهاوى سريعة، فيما لا يدع مجالا للشك في عروبة هذا الوطن ، وأنه لا يرضى غير العربية لغة، لأنها هي الرابطة بين أفراده، تاريخا وحضارة و عادات و تقاليد و فنونا و تراثا لا يمكن لأي لغة أو لهجة أخرى أن تزاحمها في دارها، لأنها كما قال : عقيلة حرة ليس لها ضرة .

ثالثا :العربية و القومية .

ينطلق البشير الإبراهيمي في دعوته إلى القومية العربية لغرض بيان أن الأمة العربية هي الامتداد الطبيعي للجزائر ، بحكم علاقة الدين، والتاريخ، والتراث ، والأخلاق ، وخصوصا اللسان العربي ، " إن الشعب الجزائري فرع باسق من تلك الدوحة الفينانة، وزهرة عبقة من تلك الروضة الغناء ، عدت عليه عوادي الدهر، فنسي مجد العروبة ولكنه لم ينس أبوتها.."[3] .

---

[1] - المصدر السابق- ص223 .

[2] - المصدر نفسه - ص223 .

[3] - المصدر نفسه - ص35 / 36 .

و إذا كانت الجزائر لم تنس عروبتها لأنها بكل بساطة مازالت تعتبر نفسها مرتبطة بالعرب و بالأمة العربية .يقول الإبراهيمي عن ذلك: " وقومي هم العرب أولا ، و المسلمون ثانيا، فهم شغل خواطري ، وهم مالئوا أرجاء نفسي ومالكو أزمة تفكيري ".[1]

فالعرب هم قومه الحقيقيون، والعربية هي لغته الطبيعية لهذا نجده دائم التفكير فيهما وفي أحوالهما، يتألم لآلامهما، و يسعد لأفراحهما ، "و أفكر في قومي العرب فأجدهم يتخبطون في داجية لا صباح لها،و يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ، وأراهم لا ينقلون قدما إلى الأمام،إلا تأخروا خطوات إلى وراء، وقد أنزلوا أنفسهم من الأمم منزلة الأمة الوكعاء من الحرائر، عجزت أن تتسامى لعلاهن، أو تتحلى بحلاهن ، فحصرت همها في إثارة غيرة حرة على حرة ، وتسخير نفسها لضرة نكاية في ضرة..."[2] .

و إذا كانت الجزائر جزء من هذه الأمة العربية التي ينتمي إليها كل جزائري، فإن الرابطة التي تربطنا بهذه الأمة العربية هي اللغة ، التي تربط بين الأجزاء كلها ، " إن مواطن العروبة متفرقة متباعدة و إن الرابط الطبيعي بينهما هو هذه اللغة، وقد ألم بها من أحداث الدهر ما إن ضعف تلك الرابطة، حتى رثت حبالها..ولكنها لم تبتل بداء مثل هذا الداء العضال الذي نسميه الاستعمار، ولو أنصفنا أسميناه الطاعون، فهو الذي ألح عليها عن قصد وتعمد حتى كاد يزهق روحها، لإيقانه بمبلغ تأثيرها في تثبيت الروابط بيننا. ومن بلاء العربية أن هذا الداء تسلط على جميع أقطار العروبة فتمكن من حرب العربية في جميعها بوسائل شيطانية، ولولا عناية الله وما أودعه فيها من القوة والمناعة لقضى عليها.."[3]. ويقول أيضا: "..فالعالم العربي بهذه العروبة المكينة كالجسد الواحد إذا ألم بجزء من أجزائه حادث أو نزلت به مصيبة تداعت له سائر الأجزاء بالنصرة و الغوث ، أو بالتوجع و الامتعاض

---

[1] – المصدر السابق – ص547/546 .

[2] – المصدر نفسه – ص547/546 .

[3] – مجلة مجمع اللغة العربية – الجزء16 – القاهرة 1963 .

..ومن آيات بغض الاستعمار لكلمة العروبة و نفوره منها أنه لا يريد أن يعترف بأثر من آثاره الطبيعية، من تراحم و تعاطف "[1]. و بهذا تكون اللغة العربية عند الإبراهيمي " هي الحبل المتين الذي يشد أطراف الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، وهي سجل تاريخهم المشترك، ووعاء حضارتهم وهي مخزن كبير لكل ما لهذه الامة من ذخائر في الفكر والفلسفة والدين والعلم والآداب و غيرها من المكتسبات التي كونتها عبر مسيرة الزمن وتعاقب الأجيال"[2] . ثم إن العربية عند الإبراهيمي ليست فقط ترابط في الفكر والأدب والدين والعلم والفلسفة...بل هي كذلك ترابط بين العقليات والأفكار والمشارب والأذواق لذا نجده يقول: " فاللغة العربية منذ دخلت في ركاب الإسلام على الأمم التي أظلها ظله كانت سببا في تقارب تفكيرهم، وتشابه عقلياتهم، وتمازج أذواقهم، وتوحيد مشاربهم، وإن هذا لمن المناهج السديدة في توحيد الأمم المختلفة الأجناس، ولولا العربية لاختلفت الأمم الإسلامية في فهم حقائق الدين باختلاف العقليات والجنسية "[3].

وإذا كانت هذه هي نظرة الإبراهيمي إلى القومية العربية وما يجب أن تمتاز به من ترابط وتلاحم وتآزر وامتداد تاريخي وحضاري فيما بين أجزائها المختلفة فهو يرد بعد ذلك بقوة على ادعاءات المستعمر بأن الشمال الإفريقي — المغرب العربي- لم يكن عربيا ولا امتداد له مع الأوطان العربية، فنجده يعتبر: " عروبة الشمال الإفريقي..عروبة فطرية طبيعية مهما اختلفت الأصول التي انحدرت منها الدماء ،ومهما تعددت مناورات الاستعمار في إثارة الدفائن والأحقاد، وبث التفرقة بين أبنائه، فهي عروبة راسخة الجذور، قائمة على أسس ثابتة من دين ولغة وآداب، ومترع، وتشريع، وتاريخ ممتد، ودين قويم"[4]، يقول الإبراهيمي في هذا المجال : " عروبة الشمال الإفريقي بجميع أجزائه طبيعية كيفما

---

[1] البشير الإبراهيمي- عيون البصائر - ص480/479 .

[2] محمد مهداوي - الإبراهيمي نضاله و أدبه- ص96 .

[3] - البشير الإبراهيمي — آثار الإبراهيمي- الجزء الأول - المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر-1987م - ص263.

[4] - علي الدين صابر محمد البشير الإبراهيمي والدعوة القومية - مجلة الثقافة - العدد87 السنة15 - ص111

كانت الأصول التي انحدرت منها الدماء، والينابيع التي جاءت منها العادات والتقاليد. وهي أثبت أسسا، وأقدم عهدا وأصفى عنصرا من إنجليزية الإنجليز وألمانية الألمان..قضت العروبة بقوتها وروحانيتها وسمو خصائصها، وامتداد عروقها...وزاد العروبة تثبيتا وتمكينا في هذا الشمال هذه الأبجدية العربية الشائعة التي حفظت أصول الدين وحافظت على متون اللغة ودونت الآداب والشرائع، وكتبت التاريخ، وسجلت الأحكام والحقوق، وفتحت الباب إلى العلم وكانت السبيل إلى الحضارة، كل هذه العوامل صيرت هذا الشمال عربيا قار العروبة على الأسس الثابتة، من دين عربي، ولغة عربية، وكتابة عربية، وآداب عربية، ومنازع عربية، وتشريع عربي، جاء التاريخ — وهو الحكم في مثل هذا — فشهد وأدى، وجاءت الجغرافيا الطبيعية فوصلت هذا الشمال بمنابت العروبة من جزيرة العرب ... وأن عروبة هذا الوطن جرت في مجاريها طبيعية مناسبة لم يشبها إكراه، ولم يشبها عنف، ولم يؤثر فيها عامل دخيل، ولم تقم على تحليل أو استغلال، وإنما هي الروح عرفت الروح، والفطرة سايرت الفطرة، والعقل أعدى العقل...إن كل ما يحتج به القادمون في عروبة هذا الشمال هو حجة عليهم، فالدول التي قامت فيه — كالمتونية، والرستمية، والموحدية، والصنهاجية، والمدينية، والزيانية — ليس لها من البربرية إلا النسبة العرقية، وهي فيما عدا ذلك عربية صحيحة ؛ عربية في الضروريات المقومة للدولة، كوظائف القلم من ادارية ومالية، ووظائف القضاء من عقود وتسجيلات، وعربية من الكماليات التي تقتضيها الحضارة والترف، كالغناء والموسيقى والشعر، فما علمنا أن شعراء البلاط في تلك الدول تقربوا إلى المنوك بالشعر البربري إلا أن يكون في النادر القليل وفي حال الاصطباغ بالبداوة الأولى"[1].

هذا الدفاع عن عروبة الشمال الإفريقي، وعن ارتباط الجزائر بالوطن العربي، وعن دور اللغة العربية في توحيد أجزاء هذا الوطن، جعل الإبراهيمي لا يغفل عن الحديث والكتابة

[1] – البشير الإبراهيمي – عيون البصائر ص 80/79/78/77 .

عن أي جزء من الأرض العربية مهما تباعدت ، " فقد كتب عن الحجاز والمدينة المنورة وبلاد الشام، وخص القضية الفلسطينية بأوفر ما كتبه كاتب مغربي، كما كتب عن مصر، والعراق، إضافة إلى كتاباته عن أقطار المغرب العربي، تونس، والمغرب الأقصى، وليبيا، كل ذلك من أجل تأكيد اللحمة العربية، انطلاقا من شعوره بالانتماء إلى الأمة العربية، وانتماء الشعب الجزائري إلى هذا الوطن الأرحب الذي يمتد من المحيط إلى الخليج"[1].

والإبراهيمي بهذا التحليل يكون قد أعطى مفهوما حضاريا للقومية العربية والوحدة العربية مما يدعو إليه مفكروا العروبة والقومية العربية اليوم.

رابعا : العربية والإسلام .

يرى الإبراهيمي أن العلاقة بين العربية والإسلام متينة ومتحدة بحيث لا يمكن فصلها عن بعض مهما تعددت الأسباب واختلفت الظروف، ومهما كانت الدواعي إلى ذلك، لأنهما متلاحمان متفاعلان يؤثر كل منهما في الآخر سلبا وإيجابا، لأنه " كما ترتبط اللغة بالثقافة ترتبط بالدين أيضا، وخاصة إذا كان الدين سماويا وقد نزل بتلك اللغة، كما هو الشأن بالنسبة للإسلام واللغة العربية، إذ تدعم اللغة العربة الدين الإسلامي وتنشره، كما ينشر الدين الإسلامي اللغة العربة ويفرضها على الألسن لكونها لغة تأدية شعائره.."[2] ، يقول الإبراهيمي في هذا الشأن :" لغة الأمة هي ترجمان أفكارها، وخزانة أسرارها، والأمة الجزائرية ترى في اللغة العربية- زيادة على ذلك القدر المشترك - أنها حافظة دينها، ومصححة عقائدها، ومدونة أحكامها، وأنها صلة بينها وبين ربها...فهي لذلك نشد عليها يد الضنانة، وما ترد أن تبدل لها لغات الدنيا، وإن زخرت بالآداب، وفاضت

---

[1] - د.محي الدين صابر – محمد البشير الإبراهيمي و الدعوة القومية – مجلة الثقافة – ص 110- العدد87 - السنة15.

[2] محمد مهداوي – الإبراهيمي نضاله وأدبه – ص 81 .

بالمعارف...وهي قبل وبعد كل شيء حاضنة الإسلام، ودليله إلى العقول، وقائده إلى الأفكار، دخلت به إلى الهند والصين، وقطعت به البحار والفلوات.."[1].

فاللغة العربية بهذا المفهوم هي اللسان الرسمي للدين الإسلامي، وهي ترجمان حاله في كل المجالات، ومبلغة وشارحة مفاهيمه وأبعاده وأحكامه في كل حين، لذا كان حقا على الأمة أن تتعلم لغتها لتعرف دينها، وتفقه لغتها لتفقه دينها..يقول الإبراهيمي :" اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسمية ومن ثم فهي لغة المسلمين الدينية والرسمية، ولهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان، كل منهما يقتضي تعلمهما فكيف إذا اجتمعتا ؛ حق من حيث أنها لغة دين الأمة، بحكم أن الأمة مسلمة، وحق أنها لغة جنسها، بحكم أن الأمة عربية الجنس، ففي المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معا.."[2].

ولما كانت العلاقة بين الدين واللغة تمثل هذا المفهوم عمل المستعمر كل جهده للقضاء عليها، لأن في موتها موت للإسلام، وفي بقائها بقاء للإسلام، وهذا ما لا يريده المستعمر؛ فإذا علمنا هذا، عرفنا أن مشكل العروبة والعربية في الجزائر سببها الاستعمار لأنه عدو للعربية وللدين، وهذا ما أشار إليه الإبراهيمي في قوله :" وبيان ذلك مع الإيجاز أن الاستعمار الفرنسي صليبي النزعة فهو — منذ احتلال الجزائر – عامل على محو الإسلام لأنه الدين السماوي الذي فيه من القوة ما يستطيع به أن يسود العالم، وعلى محو اللغة العربية لأنها لسان الإسلام، وعلى محو العروبة لأنها دعامة الإسلام، وقد استعمل جميع الوسائل المؤدية إلى ذلك، ظاهرة وخفية، سريعة ومتأنية، وأوشك أن يبلغ غايته بعد قرن من الزمن متصل الأيام والليالي في أعمال المحو لولا أن عاجلته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على

[1] – البشير الإبراهيمي – عيون البصائر– ص910.

[2] – المصدر السابق – ص24.

رأس القرن بالمقاومة لأعماله، والعمل على تخييب آماله "[1]. فالاستعمار بنزعته الصليبية اندفع للقضاء على اللغة العربية والإسلام، لأن في القضاء على أحدهما يعني القضاء على الآخر وهذا الذي أدركه رجال جمعية العلماء المسلمين وفي مقدمتهم الإبراهيمي – رحمه الله– الذي كان يؤمن إيمانا راسخا بأن اللغة العربية هي وعاء الإسلام وحافظة قرآنه وتراثه، وأن المحافظة على اللغة في الجزائر يعني بقاء الإسلام في الجزائر وبقاء العروبة في الجزائر، وأن محاولة فرنسا القضاء عليها إنما يستهدف عروبتها وإسلامها في الدرجة الأولى، وهذا الذي لن يكون أبدا.

خامسا : العربية والبعد الحضاري .

اللغة العربية التي هي لغة الوطن، ولغة القومية، ولغة الدين، لا يمكن لها إلا أن تكون لغة حضارة ومدنية لكل الأمم التي قبلت الإسلام دينا والعربية لغة، وهذه النظرة هي التي امتاز بها الإبراهيمي عن غيره، بحيث كان يرى بعمق، ويعي بدقة، الأبعاد الحضارية لهذه المسألة، وتحليله العلمي الدقيق لكل جوانبها المختلفة، التاريخية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية،... وبخاصة فهمه العميق لوظيفة اللغة في تطور الأمم والمجتمعات، وصناعة الحضارة والمدنيات، يقول الأستاذ عبد الرحمان شيبان أن الإبراهيمي :" قد أولى هذه القضية الخطيرة عناية كبيرة، فلم تمنعه فترة الاستعمار الحالكة من معالجتها معالجة علمية دقيقة، فبين ما تنطوي عليه اللغة العربية ذاتها من أسباب القوة وعناصر الكمال، وما تتميز به عن سائر اللغات، ثم فصل القول في أفضالها على العلم والمدنية بالرغم مما كان يدعيه الاستعمار "[2].

---

[1] – مشكلة العروبة في الجزائر – محاضرة للشيخ البشير الإبراهيمي في ندوة الأصفياء سنة 1952 – دار مصر للطباعة 1955 م – ص 207 .

[2] – عبد الرحمان شيبان – الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيمي واللغة العربية – مجلة الثقافة – ص 78/77 – العدد 87 – السنة15.

فاللغة العربية لو لم تكن لغة مدنية وحضارة، وفيها من الخصائص ما يؤهلها لأن تكون كذلك، وتحتضن جميع النظم والعلوم والفنون والفلسفات...وتصوغها بخصائص العربية لتكون لها حضارة متميزة، غير التي أخذت منها، يقول الإبراهيمي في هذا: " لو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران، لو لم تكن لغة متسعة الآفاق، غنية بالمفردات والتراكيب، لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان وآداب فارس والهند ، لألزمتهم الحاجة إلى تلك العلوم بتعليم تلك اللغات، ولو فعلوا لأصبحوا عربا بعقول فارسية وأدمغة يونانية، ولو وقع ذلك لتغير مجرى التاريخ الإسلامي برمته.

لو لم تكن اللغة العربية لغة عالمية لما وسعت علوم العالم، وما العالم إذ ذاك إلا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون "[1].

وهذه الميزة بلا ريب تعبر عن فلسفة عميقة وشاملة للتعريب تفرد بها أسلافنا وتفردت بها اللغة العربية بين اللغات.

ويواصل الشيخ الإبراهيمي شرحه لهذا المفهوم بقوله: " قامت اللغة العربية في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم ونظمها الاجتماعية وآدابها، فوعت الفلسفة بجميع فروعها، والرياضيات بجميع أصنافها، والطب والهندسة والآداب والاجتماع، وهذه هي العلوم التي تقوم عليها الحضارة العقلية في الأمم الغابرة والحاضرة، وهذا هو التراث العقلي المشاع الذي ما يزال يأخذه الأخير عن الأول، وهذا هو الجزء الضروري في الحياة، الذي ما إن تنقله إليك فيكون قوة فيك، أو أن تنقل إليه في لغة غيرك فتكون قوة في غيرك، وقد تفطن أسلافنا إلى هذه الحقيقة فنقلوا العلم و لم ينتقلوا إليه "[2]. وبهذا الأخذ المتنوع والمتعدد المصادر تكون اللغة العربية قد قدمت خدمات جليلة وعظيمة لجميع الأمم، لأنها قاربت بين جميع العلوم والفلسفات والنظم..لتقدم بعد ذلك في صورة أخرى متكاملة وبخصائص

[1] – البشير الإبراهيمي – آثار الإبراهيمي– الجزء الأول – ص 261.

[2] – المصدر نفسه – ص 261 .

أخرى لجميع الأمم..يقول الإبراهيمي: " إن اللغة العربية لم تخدم مدنية خاصة بأمة، وإنما خدمت الإنسانية العامة، مدنية الخير العام والنفع العام، ولم تخدم علما خاصا بأمة وإنما خدمت العلم المشاع بين البشر بجميع فروعه النافعة، ومن يستقرئ خاصة هذه اللغة لعلم الطب وحده يتبين مقدار ما أفاءت هذه اللغة على البشرية من خير ونفع "[1]. وبهذا يكون الفضل الوافر فيه للغة العربية بتأثيرها حتى في الحضارة الحديثة، " إن كثيرا من العلوم التي بنيت عليها الحضارة الغربية لم تصلها إلا على طريق اللغة العربية بإجماع الباحثين منا ومنهم، وإن المنصفين منهم ليعترفون للغة العربية بهذا الفضل على العلم والمدنية ويوفونها حقها من التمجيد والاحترام"[2].

ولم يقف تأثير اللغة العربية على هذه الأمم في مجال الحسيات والعقليات، بل تعداه إلى مجال الوجدانيات والعواطف والانفعالات النفسية، " إن اللغة العربية هي التي قاربت بين الفكر الفارسي المنفعل القلق وبين الفكر البربري الرصين الهادئ ، ثم هيأت لكل فكر قابليته، واللغة العربية هي التي سهلت لهذه الأمم المختلفة أسباب العلم والمدنية ومهدت لها الطرائق المؤدية إليها حتى أخذت كل أمة حصتها منها "[3].

وما كان للغة العربية أن تحقق كل هذا لولا الخصائص، والمميزات، والدقائق، والأسرار، والقدرة العلمية والفنية و الروحية التي تملكها وتتميز بها عن غيرها، والتي أمدت علماء الإسلام والعربية بها ليقوموا بما تمليه عليهم من واجب خدمة الإنسانية والعلم والحضارة، " فاللغة العربية هي التي أفضلت على علماء الإسلام بكنوزها ودقائق أسرارها، وأمدتهم بتلك الثروة الهائلة من المصطلحات العلمية والفنية التي تعجز أي لغة من لغات العالم عن إحضارها بدون استعانة واستعارة، فبحثوا في كل علم، وبحثوا في كل فن، وملأوا الدنيا

---

[1] – المصدر نفسه – ص 262/261/260 .

[2] – المصدر نفسه – ص 262/261/260 .

[3] – المصدر السابق – ص 263/262 .

مؤلفات ودواوين، ومن عرف كتاب أبي حنيفة الدينوري في النبات، وكتاب أبي عبيدة في الخيل، وكتاب الهمذاني في تخطيط جزيرة العرب، وكتاب الجاحظ في الحيوان، وكتب الأئمة في الطب والنجوم والإبل، رأى العجب من اتساع هذه اللغة وغزارة مادتها، وعلم مقدار أفضالها على الأمة العربة، كما أنه من يقرأ شعر شعراء النفسيين من الفرس بهذه اللغة، وشعر شعراء الوصافين من الأندلس، يتجلى له أي أفضال أفضلته العربية على تلك القرائح الوقادة التي وجدت في العربية فيضا لا ينقطع مدده "[1].

والعجيب أن اللغة العربية قامت بكل هذا الإنجاز الحضاري والعلمي والمدني لوحدها، في وقت تعجز فيه كثير من اللغات عن ذلك إلا إذا اجتمعت وتعاونت فيما بينها، يقول الإبراهيمي: " ومن العجائب أن هذه الحضارة القائمة الآن تساندت في تكوينها وفي تلوينها عدة لغات مختلفة الأصول، ولم تستطع أن تقوم بها لغة واحدة، على حين أن العربية قامت وحدها ببناء حضارة شامخة البنيان ولم تستعر من اللغات الأخرى إلا قليلا من المفردات "[2].

هذا هو فضل العربية على أمة العروبة وعلى أمة الإسلام، بل وعلى الإنسانية جمعاء، فهل يعي المسلمون والعرب – خاصة منهم الجزائريون- ما يمكن أن تقوم به لغتهم العربية اليوم في ميدان العلم والحضارة، لو وجدت من أهلها الرعاية والعناية والاهتمام ؟؟!

---

[1] – المصدر السابق – ص 262/261 .

[2] – المصدر نفسه – ص 263/262 .

قائمة المصادر والمراجع

1 - البشير الابراهيمي- عيون البصائر – دار المعارف - القاهرة – جمهورية مصر العربية – سنة 1963م.

2 – البشير الابراهيمي- أثار الشيخ محمد الإبراهيمي– المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر- سنة 1987 م.

3 – محمد مهداوي - البشير الإبراهيمي نضاله و أدبه – دار الفكر دمشق سورية – الطبعة الأولى - 1408 هـ/1988م.

4 – محمد عباس - البشير الإبراهيمي أديبا – ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر .

5 - محمد علي الحوماني – ندوة الأصفياء – دار مصر للطباعة – جمهورية مصر العربية –سنة 1955م .

6 - مجلة الثقافة - العدد 87 - السنة 15 – شعبان/رمضان 1405 – مايو/يونيو 1985 .

7 – البصائر السلسة الثانية – العدد33 - السنة 3 – أوت 1948م.

8 – مجلة مجمع اللغة العربية - الجزء16- القاهرة 1963 .

مقتطفات

من آثار الشيخ البشير الإبراهيمي

ومن الدراسات والبحوث التي تناولت

جهوده العلمية والفكرية

خطاب من الشيخ الأبراهيمي لبعض علماء [illegible]

قد كنت في جن النشاط والأشر ... كأنني خرجت عن طور البشر

وكنت نجديا من الصغر ... أهيم في بدر الدجى إذا سفر

وأتبع الظبي إذا الظبي نفر ... أنظم إذ هب نسيم [illegible]

ما رق من شعر الهوى وما سحر ... وأقطع الليل إذا الليل اعتكر

في جمع أطراف العشايا والبكر ... وإن هوى نجم الصباح وانكدر

لبيت من أعلى النداء وابت،،در ... إذا ارعويت بعدما ندا الكبر

وأكدت شهوده صدق الخبر ... وكتب الشيب على رأس النذر

باكرني فكان فيه مزدجر ... فلست أنسى فضله فيما حجر

ولست أنسى وصفه لما ازدجر ... أكسبني ما يكسب الماء الشجر

حسنا وظلا ولحياء وثمر ... طبعني عفوا ومن غير ضجر

على صفات أشبهت نقش الحجر ... عقيدتي في الصالحات ما أثر

عن أحمد وما ترامى ونثر ... من سير أعلامها لم تندثر

وسنن ما شان راويها الحصر ... قد طابقت فيها البصيرة البصر

وما أتى عن صحبه الطهر الغرر ... والتابعين المقتفين للأثر

وقائدي في الدين أي وأثر ... صح براو ما ونى ولا عثر

ومذهبي حب علي وعمر ... والخلفاء الصالحين في الزمر

هذا ولا أحصرهم في إثني عشر ... لا ولا أرفعهم فوق البشر

ولا أنال واحد منهم بشر ... ((وشيعتي في الحاضرين)) من نشر

دين الهدى وذب عنه ونفر ... لعلمه وفق الدليل المستطر

حتى قضى من نصرة الحق الوطر ... هم شيعتي في كل ما أحدي وطر

ومعشري في كل ما ساء وضر ... وعصبتي في كل ما بدر وحضر

أما رقا حسنت هذه الزمر ... في واحد يجمع كل ما [illegible]

((فخذني من بينهم أخ دهر)) ... في الدعوة الكبرى [illegible]

[illegible] في نشر العلوم وقهر ... كتائب الجيش المغير [illegible]

(عبد اللطيف) المرتضى الندب الأبر ... سلالة الشيخ الإمام المعتبر
من آل بيت الشيخ إن غاب قمر ... عن الورى خلفهم منهم قمر
فجدهم نقى التراب وبر ... ولقي الأذى شديدا فظهر
على الأذى فكان عقباه الظفر ... والابن والى السقي كان يجني الثمر
((وإن أحفاد الإمام)) لزمر ... ((محمد)) من بينهم حادي الزمر
تقاسموا الأعمال فاختص نفر ... بما نمى محمد وما أمر
واختص بالتعليم قوم فازدهر ... بيني عقول النشء من غير حور
قاد جيوش العلم للنصر الأغر ... كالسور يعلو حجرا بعد حجر
والجيش محمول الزمام وانتشر ... ما لم يسور بنظام مستقر
ولم يقده في الملا بعد نظر ... من قائد ساس الأمور وخبر
محنك طاوي الزمان ونشر ... والجيش في كل المعاني والصور
تناسق كالربط ما بين السور ... والجيش أستاذ لنفع يدخر
والجيش أشبال لنفع ينتظر ... والكل قد سيقوا إليك بقدر
صنع من الله العزيز المقتدر ... خل الهويني للضعيف المحتقر
واركب جواد العزم فالأمر خطر ... فيا أخا عرفته عف النظر
عف الخطى عف اللسان والفكر ... ويا أخا جعلته مرمى السفر
وغاية الجمع المفيد في الخطر ... تجمعني بك خلال وسير
ما اجتمعت إلا ثوى الخير وقر ... وليس فيها تاجرا وما تجر
وليس فيها ما بغى الباغي وجر ... وما تقارض الثنا فينا يقر
إن فضول القول جزء من سقر ... فلا أقول في أخي: ليث خطر
ولا يقول: إنني غيث قطر ... وإنما هي عظات وعبر
عرفت مبداها فهل تم الخبر؟ ... وبيننا أسباب نصح تذكر
كتمانها غبن وكش وضرر ... لا تنس ((حوا))إنها أخت الذكر
تحمل ما يحمل من خير وشر ... تثمر ما يثمر من حلو ومر
وكيفما تكونت كان الثمر ... وكل ما تضعه فيها استقر
كيف يرضى عاقل أن نستمر ... مزيدة على الحواشي والطرر

تزرع في النشء أفانين الـــــخور ترضعه أخلاقها مع الضرر
وأنها إن علمت كـــــان وزر أولا فوزر الجالب سوء الأثر
ومنعها من الكتاب والنظـــــر لم تأت فيه آية ولا خبر
والفضليات من نساء صدر غير هن في العرفان ورد وصدر
وانظر هداك الله ماذا ينتـــظر من أمة قد شل نصفها الخدر
وانظر فقد يهديك للخير النظـــر وخذ من الظهر تجاريب العبر
هل أمة من الجـــــماهير الكبر فيما مضى من القرون وحضر
خطت من المجد ومن حسن السير تاريخها وإلا بأنثى وذكر
ومن يقل في علمها غير وشـــــر فقل له هي مع الجهل أشر
ولا يكون الصفو إلا عن كـــــدر وإن تيار الزمان المنحدر
لجارف كل بنـــاء مشـــــمخر فاحذر وسابق فعسى يجدي الحذر
واعـــــلم بأن المنكـــرات والغير تدسست للغرفات والحجر
من مصر والشام ومن شط هجـــر وإنها قارئة ور مفر
إن لم يكن عنك فعن قوم أخـــــر واذكر ففي الذكرى إلى العقل ممر
من قال قدما((بيدي ثم انتـــحر)) حظها بعلم الدين والخلق الأبر
صبيـــة تأمن بوائق الضـــــرر واعلم بأن نشأنا إذا كبر
عاف الزواج بابنة العم الأغـــر يهجرها بعد غد فيمن هجر
لأنها في رأيه مثل الحجـــــــر ويصطفي قرينة من الغجر
لأنها قارئـــــة مثل البشـــــر خذها إليك درة من الدرر
من صـــــاحب راز الأمور وخبر صميمة في المنجبات من مضر

نسبتها البدو وسكانها الخضر (1/2 17)

نقلها بشير كاشة الفرحي عن الشيخ محمد العيد آل خليفة عن الشيخ أحمد السرحاني عن الشيخ نعيم النعيمي عن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وقد نقلها الشيخ النعيمي عن الإبراهيمي بالجزائر العاصمة في 1963/12/04م

الرسالة الأولى

القاهرة في 18 يناير سنة 1955

ولدنا السيد البشير كاشة – وفقه الله إلى الخير –

سلام الله عليكم وتحيات مباركات.

أنا أدعو لكم الله أن يفتح عليكم، ويوفقكم لطاعته، وأحمد لكم بما هيأ لكم من الفرار بدينكم من تلك البعثة التي شاع فيها الإلحاد، وفسدت الأخلاق، ولم يبق فيها من ينهى عن المنكر. فاحمدوه أنتم لا بالقول ولكن بالعمل، على أن لا يراكم إلا في طاعته ومرضاته، وتوسعوا في العلوم الدينية ما أمكنكم، فإن وطنكم في حاجة إلى هذا، وإنكم أبناء جمعية حاربت ضلال العقائد، وبدع العبادات، وانحلال الأخلاق.

وسبقت الناس إلى نشر السلفية الصحيحة علما وعملا، فغير غريب عنكم أن تظهروا بمظهر جمعيتكم، وأن تمثلوها تمام التمثيل، وأن تفخروا بأعمالها وجهادها وانتصارها على الضالين والمتجرين بالدين من مشائخ الطرق، والمتجرين باسم السياسة من الأحزاب.

كانت وصلتني رسالة منكم ولم أجاوبكم عليها لتراكم الأشغال والاهتمام بالحوادث في الجزائر، واستغراق الوقت في تمهيد السبل لهذه البعثات التي لم يستقر لها قرار إلى الآن بسبب تعقيد الإجراءات في هذا الشرق. وقد قبلت لنا الحكومة المصرية رسميا للمعارف مائة تلميذ، وللأزهر خمسين، وقبلت لنا حكومة سوريا لعشرة جدد، وقبلت الجمعية الغراء الإسلامية بدمشق عشرة آخرين على نفقتها، وأمرت المركز أن يحضر هذه الأعداد بالشروط التي اشترطتها الحكومات، فأحضروا نحو مائة وعشرة، ولما عزموا على السفر، وقعت الحوادث، فعطلتهم الحكومة، وتسرب منهم نحو ثلاثين إلى تونس، ولم يحسوا مصر إلا في آخر ديسمبر بعد سد جميع المدارس لباب الامتحان، ولكني وفقت إلى إرسال عشرين إلى سوريا. وبقي هنا نحو 15 حاولت أن أرسل منهم خمسة إلى الكويت وإلى الآن لم يرجع لي منها خبر، والبقية حاولت إلحاقهم بمعاهد مصر، فواجهتني عراقيل أكبرها فوات الوقت القانوني، وكنت أرسلت واحدا إلى بغداد من هنا فقبلوه، ثم أربعة آخرين ليحلو محل المفصولين فلم يقبلوهم لحجة فوات الوقت واكتظاظ الأقسام، وهم الآن عاطلون ببغداد، وقد كتبت اليوم برقية إلى الإمام الشيخ محمد بن إبراهيم وأخرى إلى جلالة الملك راجيا قبولهم بمعهد الرياض الذي أنت فيه، وأنا

أكلفك أن تكلم الشيخ المفتي وتذكره بترقيتي إليه وترغبه في قبولهم، لتكونوا نواة لعشرات ستلتحق بكم، وأبرق لي بالإجابة لأجلبهم من بغداد فإن حالتهم خطيرة.

أما الأربعة فهم: طلعي يحي من عنابة، ومسعود خليلي من فج مزالة، وله ستة بمصر، والاثنان الآخران: مدني الجيلاني، والربيع أيوب، من المفصولين من الكويت، وقد لبثا ثلاثة أشهر بمصر، وتابا وأكثرا التضرع، فلم أشأ أن أضيعهما فأرسلتهما إلى بغداد تعويضا عن المفصولين، إذ لا سبيل إلى إرجاعهما إلى الكويت، فرفض الجميع بالعذر المذكور، فعليك أن تقوم بالواجب.

سلامي إلى الشيخ الإمام وإلى جميع أساتذتك وزملائك.

ودمت سالما لوالدك محمد البشير الإبراهيمي.

في قلب المعركة

نداء إلى الشعب الجزائري المجاهد..

نعيذكم بالله أن تتراجعوا..

(بيان نشر ووجه من القاهرة في 15 نوفمبر 1954، وهو منشور في كتاب (الجزائر الثائرة) للمرحوم الأستاذ الفضيل الورتلاني الذي طبع بلبنان في الخمسينات)

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها المسلمون الجزائريون:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حياكم الله وأحياكم، وأحيا بكم الجزائر،وجعل منكم نورا يمشي من بين يديها ومن خلفها. هذا هو الصوت الذي يسمع الآذان الصم، وهذا هوالدواء الذي يفتح الأعين المغمضة، وهذه هي اللغة التي تنفذ معانيها إلى الأذهان البليدة، وهذا هو المنطلق الذي يقوم القلوب الغلف، وهذا هو الشعاع الذي يخترق الحجب والأوهام.

كان العالم يسمع ببلايا الاستعمار الفرنسي لديياركم، فيعجب كيف لم تثوروا، وكان يسمع أنينكم وتوجعكم منه، فيعجب كيف تؤثرون هذا الموت البطيء، على الموت العاجل المريح، وكانت فرنسا تسوق شبابكم إلى المجازر البشرية، في الحروب الاستعمارية، فتموت عشرات الآلاف منكم في

غير شرف ولا محمدة، بل في سبيل فرنسا، وتوسيع ممالكها، وحماية ديارها، ولو أن تلك العشرات من الآلاف من أبنائنا ماتوا في سبيل الجزائر، لماتوا شهداء، وكنتم به سعداء.

أيها الإخوة الجزائريون:

اذكروا غدر الاستعمار ومماطلته.

احتلت فرنسا وطنكم منذ قرن وربع قرن، وشهد لكم التاريخ، بأنكم قاومتموها مقاومة الأبطال، وثرتم عليها مجتمعين ومتفرقين ، نصف هذه المدة.

فما رعت في حربها لكم دينا ولا عهدا، ولا قانونا ولا إنسانية، بل ارتكبت كل أساليب الوحشية، من تقتيل النساء والأطفال والمرضى وتحريق القبائل كاملة، بديارها وحيواناتها وأقواتها.

ثم حاربتم معها وفي صفها، وفي سبيل بقائها نصف هذه المدة، بأبنائكم الأوطان وقهرت بهم أعدائها، ورحمت بهم وطنها الأصلي، فما رعت لكم جميلا، ولا كافأتكم بجميل، بل كانت تنتصر بكم، ثم تخذلكم، وتحيا بأبنائكم، ثم تقتلكم، كما وقع لكم معها في شهر مايو سنة 1945، وما كانت قيمة أبنائكم الذين ماتوا في سبيلها، وجلبوا لها النصر، إلا أنها نقشت أسماء بعضهم في الأنصاب التذكارية، فهل هذا هو الجزاء؟

طالبتموها بلسان الحق، والعدل، والقانون، والإنسانية، من أربعين سنة، بأن ترفق بكم، وتنفس عنكم الخناق قليلا، فما استجابت، ثم طالبتموها، بأن ترد عليكم بعض حقوقكم الآدمية، فما رضيت، ثم طالبتموها بحقكم الطبيعي، يقركم عنه كل إنسان، وهو إرجاع أوقافكم ومعايدكم وجميع متعلقات دينكم، فأغلقت آذانها في إصرار وعتو، ثم ساومتموها على حقوقكم السياسية بدماء أبنائكم الغالية التي سالت في سبيل نصرها، فعميت عيونها في هذا الحق. الذي يقرره حتى دستورها، ثم هي في هذه المراحل كلها، سائرة في معاملتكم من فظيع إلى أفظع.

أيها الإخوة الجزائريون الأبطال:

لم تبق لكم فرنسا شيئا تخافون عليه، أو تداروها لأجله، ولم تبق لكم خيطا من الأمل تتعللون به، أتخافون على أعراضكم وقد انتهكتها؟ أم تخافون على الحرمة وقد استباحتها، لقد تركتكم فقراء تلتمسون قوت اليوم فلا تجدونه؟ أم تخافون أم تخافون على الأرض وخيراتها، وقد أصبحتم فيها غرباء حفاة عراة جياعا، أسعدكم من يعمل فيها رقيقا زراعيا يباع مغها ويشترى، وحظكم من خيرات بلادكم، النظر بالعين والحسرة في النفس؟ أم تخافون على القصور، وتسعة أعشاركم يأوون إلى الغيران كالحشرات والزواحف؟ أم تخافون على الدين؟ ويا ويلكم من الدين الذي لم تجاهدوا في سبيله، ويا

ويل فرنسا من الإسلام، ابتلعت أوقافه وهدمت مساجده، وأذلت رجاله، واستعبدت أهله، ومحت آثاره من الأرض، وهي تجهد في محو آثاره من النفوس.

أيها الإخوة المسلمون:

إن التراجع معناه الفناء

إن فرنسا لم تبق لكم دينا ولا دنيا، وكل إنسان في هذا الوجود البشري، إنما يعيش لدين وإحيا بدنيا، فإذا فقدهما فبطن الأرض خير له من ظهرها.

وإنما سارت بكم من دركة إلى دركة: حتى أصبحت تتحكم في عقائدكم وشعائركم، وضمائركم، فالصلاة على هواها لا على هواكم، والحج بأيديها لا بأيديكم، والصوم برؤيتها لا برؤيتكم، وقد قرأتم وسمعتم من رجالها المسؤولين عزمها على إحداث الإسلام (إسلام جزائري) ومعناه إسلام ممسوخ، مقطوع الصلة بمنبعه في الشرق وبأهله من الشرقيين.

إن الرضى بسلب الأموال، قد ينافي الهمة والرجولة، أما الرضى بسلب الدين والاعتداء عليه فإنه يخالف الدين، والرضى به كفر بالله وتعطيل للقرآن.

إنكم في نظر العالم العاقل المنصف، لم تثوروا، وإنما إثارتكم فرنسا بظلمها الشنيع وعتوها الطاغي، واستعبادها الفظيع لكم قرنا وربع قرن، وامتهانها لشرفكم وكرامتكم، وتعديها المريع على مقدساتكم.

إن أقل القليل مما وقع على رؤوسكم من بلاء الاستعمار الفرنسي يوجب عليكم الثورة عليه من زمان بعيد، ولكنكم صبرتم، ورجوتم من الصخرة إن تلين، فطمعتم في المحال، وقد قمتم الآن قومة المسلم الحر الأبي فنعيذكم بالله وبالإسلام، أن تتراجعوا أو تنكصوا على أعقابكم، إن التراجع معناه الفناء الأبدي والذل السرمدي.

إن شريعة فرنسا، إنما تأخذ البريء بذنب المجرم، وإنما تنظر إليكم مسلمين أو ثائرين نظرة واحدة، وهي أنها عدو لكم وإنكم عدو لها، ووالله لو سألتموها ألف سنة، لما تغيرت نظريتها العدائية لكم، وهي بذلك مصممة على محوكم، ومحو دينكم وعروبتكم، وجميع مقوماتكم.

إنكم مع فرنسا، في موقف لا خيار فيه، ونهايته الموت، فاختاروا ميتة الشرف على حياة الخيبة التي هي شر من الموت.

إنكم كتبتم البسملة بالدماء، في صفحة الجهاد الطويلة العريضة، فاملأوها بآيات البطولة التي هي شعاركم في التاريخ، وهي إرث العروبة والإسلام فيكم.

ما كان للمسلم أن يخاف الموت، وهو يعلم أنها كتاب مؤجل، وما كان للمسلم أن يبخل بماله أو بمهجته، في سبيل الله، والانتصار لدينه، وهو يعلم أنها قربة إلى الله، وما كان له أن يرضى الدنية في دينه، إذا رضيها في دنياه.

أخلصوا العمل وأخلصوا بصائركم في الله، واذكروا دائما وفي جميع أعمالكم، ما دعاكم إليه القرآن، من الصبر في سبيل الحق، ومن بذل المهج والأموال في سبيل الدين، وذكروا قبل ذلك كله قول الله " **جاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم**" وقول الله " **كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ".

أيها الإخوة الأحرار:

هلموا إلى الكفاح المسلح.

إننا كلما ذكرنا ما فعلت فرنسا بالدين الإسلامي في الجزائر، وذكرنا فظائعها في معاملة المسلمين، لا لشيء إلا لأنهم مسلمون، كلما ذكرنا ذلك احتقرنا أنفسنا واحتقرنا المسلمين، وحجلنا من الله أن يرانا ويراهم مقصرين في الجهاد لإعلاء كلمته، وكلما استعرضنا الواجبات وجدنا أوجبها وألزمها في أعناقنا، إنما هو الكفاح المسلح فهو الذي يسقط علينا الواجب، ويدفع عنا وعن ديننا العار، فسيروا على بركة الله، وبعونه وتوفيقه إلى ميدان الكفاح المسلح، فهو السبيل الواحد إلى إحدى الحسنين، إما موت وراءه الجنة، وإما حياة وراءها العزة والكرامة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

عن مكتب جمعية العلماء الجزائريين بالقاهرة

محمد البشير الإبراهيمي

الفضيل الورتلاني

القاهرة: 15 نوفمبر 1954

حول ثورة الجزائر والمغرب العربي

ثلاث صرخات...

الصرخة الأولى: موجهة إلى ذات الآذان الصماء عن الحق، وعن عويل الباكين، فرنسا التي تتمارى بالنذر وتعمى عن الحقائق، وتكفر بسنن الله في أمثالها من الظالمين، وتسجد للأقوياء، وتتألّه على الضعفاء.

هذه نتيجة سياستك البليدة، وهذا جني غرسك الخبيث، زرعت الحنظل فتجرعي مرارته، وحاربت الله في دينه، ومحارب الله محروب، فأخزاك في جميع المواقف، ورماك بالإفلاس في المال والرجال والرأي والسياسة، حاولت أن تقطعي ما وصل الله من أجزاء الشمال الإفريقي، وأن لا تجمعينا إلا في بلاباك ومصائبك، فكان ظلمك أكبر جامع لشملها، وأعظم موحد لها في بغضك، ثم في الثورة عليك، ويا ويحك إذا انفجرت عليك موجات الغضب من القلوب المملوءة حقدا عليك، والصدور التي ضاقت بظلمك وطغيانك، وقد رأيت وسترين ما يقض مضجعك.

ابتلعت المغرب العربي قطعة قطعة، وستخرجين منه دفعة واحدة بإذن الله.

والصرخة الثانية: موجهة إلى أبناء المغرب العربي كلهم:

اعلموا أيها المواطنون الأحرار، أن مهر الحرية غال، وأنه لا ينقد إلا دماء تراق، ونفوسا تزهق، فوطنوا أنفسكم على تحمل الشدائد والمكاره، وإن وطنكم عزيز فادفعوا في تحريره الثمن الباهظ.

إنكم قمتم بواجب لا يقبل منكم أداؤه إلا بالمحبة وطهارة القلوب، واقتحمتم ميدانا لا تنتصرون فيه، إلا بالإتحاد وجمع الكلمة، وتسوية الصفوف، وتنظيم الخطط، والصبر على البلاء في الأنفس والأموال، لأن كل بلاء يصيبكم في هذا السبيل قبلاء الاستعمار البغيض أشد منه وأنكى.

أيها الأحرار: (اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون)

والصرخة الثالثة: موجهة إلى الشعوب العربية وحكوماتها:

يا أبناء العمومة: إن هذه الشعوب الثائرة في تونس والجزائر ومراكش هم إخوانكم، وأجزاء من جسمكم، ونصف عددكم، والقطع الحصية من وطنكم، والسهام الرابحة من رأس مالكم، وقد ابتلاهم الله باستعمار منهوم، لم يترك لهم درهما في جيب، ولا ريشة في جناح، ولا عقلا في دماغ، فإذا ثاروا اليوم فإنما يثورون لشرف هو شرفكم، وكرامة هي كرامتكم، فالآن وجب حق الأخ على أخيه،

من إسعاف يشد العزيمة وتجدة تقوي الأمل، وأن عدوهم هو عدوكم، لم تجدوه دائما إلا في مواطن الخذلان لكم، وجلب الشر إليكم، وكفى بموقفه منكم في قضية فلسطين.

إن المجاملات لا تنفع مع هؤلاء المتألهين، فاروهم من أنفسكم القوة والمعاملة بالمثل يحترموكم.

أنتم قادرون إن شاء الله على تجدة إخوانكم في موقفهم الفاصل، الذين هم فيه، وعارفون بوجوه النجدة، ولاتحتاجون -بحمد الله- إلى من يعرفكم بواجب، أو يدلكم على كيفية أدائه، وإنما نحن مذكرون متألمون، وذكرى المتألم تنفع المؤمنين.

من جمعية علماء الجزائر إلى القائدين العظيمين*
السيد الرئيس جمال عبد الناصر والسيد الوزير أنور السادات

بمناسبة الجهاد الذي يقوم به إخواننا الجزائريون ضد الاستعمار الفرنسي الغاشم دلل رجال الثورة في مصر من جديد على مروءتهم الكاملة، وعلى وفائهم الدائم لإخوانهم الأحرار المكافحين في المغرب العربي، فلقد كان أول صوت ارتفع عاليا مدويا بعد اندلاع الثورة الجزائرية هو صوت الرئيس جمال عبد الناصر في تصريحاته القوية المتزنة لجريدة كارفور الاستعمارية. والصوت الثاني هو صوت السيد القائم مقام أنور السادات وزير الدولة وسكرتير المؤتمر الإسلامي العام. وبهذه المناسبة أرسل السيدان البشير الإبراهيمي والفضيل الورتلاني يشكران القائدين العظيمين بالبرقيتين التاليتين:

السيد الرئيس جمال عبد الناصر،

شكرا عميقا لا نهاية لأثره، على تصريحاتكم العبقرية لجريدة كارفور الاستعمارية وإن الجزائر والمغرب العربي في كفاحهم المرير ليحيون في سيادتكم مثال البطولة الفذة ويأملون رعايتكم الكريمة أبقاكم الله سندا للمجاهدين الأحرار ومخيفا للظالمين الأشرار.

أما تحيات فرنسا على مقامكم الكريم فقد أكسبتكم قلوب ثلاثين مليونا من المغاربة ومئات الملايين من العرب والمسلمين، بل حتى الأوروبيين المنصفين.

السيد القائم مقام أنور السادات سكرتير المؤتمر الإسلامي العام بالقاهرة

شكرا جزيلا على كلمتكم العبقرية لجريدة الجمهورية عن شقيقتكم المكافحة وعن فرنسا أخبث شيطان. حياكم الله وزملاءكم القادة الأبرار وقوى بكم جهاد الأحرار وأخاف بكم الظالمين الأشرار وبارك رعايتكم لإخوانكم باستمرار.

عن مكتب جمعية العلماء المسلمين بالقاهرة

البشير الإبراهيمي . والفضيل الورتلاني

(*) نشرت البرقيتان في الصحف المصرية (نوفمبر 1945)بالقاهرة.

موالاة المستعمر خروج عن الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها المستمعون الكرام.....السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إذا قلنا أن موالاة المستعمر خروج عن الإسلام فهذا حكم مجمل تفصيله أن الموالاة مفاعلة أصلها الولاء أو الولاية، وتمسها في معناها مادة التولي والألفاظ الثلاثة واردة على لسان الشرع، منوط بها الحكم الذي حكمنا به وهو الخروج عن الإسلام، وهي في الاستعمال الشرعي جارية على استعمالها اللغوي وهو — في جملته — ضد العداوة، لأن العرب تقول واليت أو عاديت، وفلان ولي أو عدو. وبين فلان أولياء أو أعداء، وعلى هذا المعنى تدور تصرفات الكلمة في الاستعمالين الشرعي واللغوي.

وماذا بين الاستعمار والإسلام من جوامع أو فوارق حتى يكون ذلك الحكم الذي قلناه صحيحا أو فاسدا؟

إن الإسلام والاستعمار ضدان لا يلتقيان في مبدأ ولا في غاية، فالإسلام دين الحرية والتحرير، والاستعمار دين العبودية والاستعباد، والإسلام شرع الرحمة والرفق، وأمر بالعدل والإحسان. والاستعمار قوامه على الشدة والقسوة والطغيان، والإسلام يدعو إلى السلام والاستقرار، والاستعمار يدعو إلى الحرب، والتقتيل والتدمير والاضطراب، والإسلام يثبت الأديان السماوية، ويحميها، ويقر ما فيها من خير ويحترم أنبيائها وكتبها، بل يجعل الإيمان بتلك الكتب وأولئك الرسل قاعدة من قواعده وأصلا من أصوله والاستعمار يكفر بكل ذلك ويعمل على هدمه خصوصا الإسلام ونبيه وقرآنه ومعتنقيه.

نستنتج من كل ذلك أن الاستعمار عدو لدود للإسلام وأهله، فوجب في حكم الإسلام اعتبار الاستعمار أعدى أعدائه ووجب على المسلمين أن يطبقوا هذا الحكم الإسلامي وهو معاداة الاستعمار لا موالاته.

الاستعمار الغربي – وكل استعمار في الوجود غربي – يزيد على مقاصده الجوهرية وهي الاستثمار والاستعلاء والاستغلال، مقصدا آخر أصيلا وهو محو الإسلام من الكرة الأرضية خوفا من قوته الكامنة، وخشية منه أن يعيد سيرته الأولى كرة أخرى

وجميع أعمال الاستعمار ترمي إلى تحقيق هذا المقصد، فاحتضانه للحركات التبشيرية وحمايته لها وسيلة من وسائل حربه للإسلام

وتشجيعه للضالين المضلين من المسلمين غايته تجريد الإسلام من روحانيته وسلطانه على النفوس، ثم محوه بالتدريج ونشره للإلحاد بين المسلمين وسيلة منه وسائل نحو الإسلام، وحمايته للآفات الاجتماعية التي يحرمها الإسلام ويحاربها كالخمر والبغاء والقمار – ترمي إلى تلك الغاية، ففي الجزائر– مثلا – يبيح الاستعمار الفرنسي فتح المقامر لتبديد أموال المسلمين، وفتح المخامر لإفساد عقولهم وأبدانهم، وفتح مواخير لإفساد مجتمعهم، ولا يبيح فتح مدرسة عربية تحيي لغتهم أو فتح مدرسة دينية تحفظ عليهم دينهم. ويأتي في آخر قائمة الأسلحة التي يستعملها الاستعمار الفرنسي الغربي لحرب الإسلام اختلاقه بالإجماع على خلق دولة إسرائيل في صميم الوطن العربي، وانتزاع قطعة مقدسة من وطن الإسلام وإعطائها لليهود الذين يدينون بكذب المسيح وصلبه، وبالطعن في أمه الطاهرة

فالواجب على المسلمين أن يفهموا هذا، وأن يعلموا أن ما كان عدوا لهم فأقل درجات الإنصاف أن يكونوا أعداء له، وأن موالاته بأي نوع من أنواع الولاية هي خروج عن أحكام الإسلام، لأن معنى موالاة له أن تنصره على نفسك وعلى دينك وعلى قومك وعلى وطنك

والمعاذير التي يعتذر بها الموالون للاستعمار كالمداراة وطلب المصلحة، يجب أن تدخل في الموازين الإسلامية، والموازين الإسلامية دقيقة تزن كل شيء من ذلك بقدره وبقدر الضرورة الداعية إليه، وأظهر ما تكون تلك الضرورات في الأفراد لا في الجماعات ولا في الحكومات

وموالاة المستعمر أقبح وأشنع ما تكون من الحكومات، وأقبح أنواعها أن يحالف، حيث يجب أن يخالف، وأن يعاهد، حيث يجب أن يجاهد، وأقبح ما فيها من القبح أن يحالف استعمار على حرب استعمار. وقد كانت الحروب قبل اليوم لمعان بعضها شريف، وقد يكون أحد الجانبين فيها على حق، أما هذه الحروب التي لا تنتهي الواحدة منها إلا وهي حامل مقرب بأخرى أشد منها هولا وأشنع

عاقبة. فلم يبق فيها شيء من معاني الشرف ولا من معاني الرحمة ولا من معاني الكرامة الإنسانية، وإنما هي حرب مجنونة يبعثها حب الاستعلاء والتسلط على الضعفاء، والاستئثار بخيرات أرضهم، والضعفاء دائما هم الأدوات التي تقع بها الحرب، وتقع عليها الحرب، فهم في السلم محل النزاع، وفي الحرب ميدان الصراع.

لا مثالة للبلاهة والبلادة أوضح من مخالفة الضعيف للقوي إلا إذا صح في الواقع وفي حكم العقل أن يخالف الديك الثعلب، وأن تحالف الشاة الذئب.

كيف تحالف الأقوياء وقد دلت التجارب أنهم إنما يحالفوننا ليتخذوا من أبنائنا وقودا للحرب، ومن أرضنا ميدانا لها، ومن خيرات أرضنا أزوادا للقائمين بها، ثم تنتهي الحرب ونحن المغلوبون الخاسرون على كل حال، وقد تكررت النذر فهل من مدكر؟

يا المسلمون أفرادا وهيئات وحكومات.

لا توالوا الاستعمار فإن موالاته عداوة لله وخروج عن دينه.

ولا تتركوه في سلم أو حرب فإن مصلحته في السلم قبل مصالحكم، وغنيمته في الحرب هي أرواحكم.

ولا تعاهدوه فإنه لا عهد له.

ولا تأمنوه فإنه لا أمان له ولا إيمان.

إن الاستعمار يلفظ أنفاسه الأخيرة فلا يكتب عليكم التاريخ أنكم زدتم في عمره يوما بموالاتكم له.

ولا تحالفوه فإن من طبعه الحيواني أن يأكل حليفه قبل عدوه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كلمة في مجمع اللغة العربية باسم الأعضاء الجدد

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام: حياكم الله وبياكم، وأدامكم وأحياكم، وأبقاكم للعروبة تعتزون عرضها، وتستردون قرضها، وللغة العرب تجمعون شتاتها، وتحبون مواتها، وترعون — على تيهم الأحداث، وسفه الوراث — متاتها، ولهذا المجمع تعلون بنيانه وترفعون على العمل النافع أركانه.

أيها الإخوة: إن هذه اللغة العربية الشريفة التي طرقنا خيالها المؤوب، ثم أسمعنا داعيها المثوب، فاحتسعنا على بساطها اليوم من جميع أقطار العروبة، هي الرحم الواصلة بيننا وهي اللحمة الجامعة لخصائصنا وآدابنا، فمن بعض حقها علينا أن نبلها ببلاها، وأن نرعى حقها علينا أن نحب لنجددها، كلما مسها ضر أو حز بها أمر، وأن قمتم به اليوم من هذا الاستقبال المتهلل، واللقاء المرحب المؤهل، بإخوانكم أعضاء المجمع الجدد، هو فن جميل من البر بالعربية في أبنائها، يرضي الله الذي اصطفاها ترجمانا لوحيه، ويرضي محمدا الذي أدى بها أمانة الله، وبلغ بها رسالته إلى خلقه، ويرضي عربا وزارا اللذين سكبا بها التغاريد العذبة الجميلة في آذان الأجيال، وتركاها كلمة باقية في الأعقاب، ويرضي أسلافكم الذين ساسوا بها العقول، وصقلوا بها الأذهان والقرائح وراضوا على بيانها الألسنة، ودونوا بها العلم والحكمة، وخطوا بها التاريخ، وشادوا بها الحضارة الشماء التي لا تطاول، ووسعوا بها آفاق الخيال العربي، ووقفوا ببيانها العواطف الكثيفة، وحدوا بها ركب الإنسانية حينا فأطربوا.

أيها الإخوة: لقد كانت العربية قبل اليوم وإن رباعها لمفجوة، وإن قصاعها لمكفوة وإن رقاعها لغير ملتامة ولا مرفوة، لقد كانت تلقى الأذى من الغريب المتنمر، ومن القريب المتنكر، فيحف لنصرتها أفذاذ من أبنائهاالأوفياء، وجنودها المجهولين، ولكن لا يسمع لهم صوتا لتفرقهم في أقطار العروبة المتباعدة، حتى ظهر هذا المجمع، فسعى في إعادة شبابها وتجديد معالمها، وجمع أنصارها على نعش خطواته في السنوات الأولى لإنشائه، كشأن كل ناشئ، ثم مازال يقوى ويشتد. وكلما انضمت إليه طائفة من رجال العربية، وفرسان بيانها انتعش وشاعت فيه الحياة، ووخزته الخضرة من جوانبه، ثم مازال المدد يتلاحق، والعدد يتكامل، حتى وصل إلى الحالة التي هو عليها اليوم، وإن لنرجو فوق ذلك مظهرا، وإن هذا المجمع إذا أطرد سيره، وتم إتمامه ليكونن أداة فعالة في وحدة العرب. ولا عجب فأقوى جامع لكلمة العرب كلام العرب، ولئن تم ذلك لتكونن هذه الأسرة أعز رهط في العرب.

بناء النسق الفكري عند محمد البشير الإبراهيمي
قراءة في أصل البنية والتغير

بين يدي الإمام محمد البشير الإبراهيمي

دلالة النسق ومتغيرات الواقع

الشيخ الرئيس محمد البشير الإبراهيمي علم من أعلام الجزائر العربية المسلمة الذين استطاعوا أن يمثلوا في أصل ثقافتنا الحديثة الأساس المحوري الذي لا يمكننا أن نتجاوزه أو مؤصل لهذه الثقافة دونه، وقد تحدث العلماء والباحثون والمثقفون عن هذه الشخصية مدركين عظمة ما أنتجته وقيمة ما خلفته، والحديث مؤول في أغلبه بالظاهر الذي يسم الرجل بالمصلح والإمام المرشد والشيخ والثائر الذي أنجز الخطاب الإصلاحي القوي المجلجل الذي هاجم به أهل البدع والملل والنحل والطرائق المعدد التي لا يسعها عد في زمانه، كما يسمه الحديث بالمطلع والحافظ والفصيح، وبأنه دائرة معارف جامعة تشكلت بذاكرة مرنة طيعة جعلته أشبه ما يكون "بالعقل الإلكتروني، وهو في الأخير" فلتة من فلتات الزمان.

معالم الفكر السياسي والاجتماعي عند الشيخ البشير الابراهيمي

وفي هذا الكتاب. محاولة لرفع الستار عن المعالم الكبرى التي يتشكل منها الفكر السياسي والاجتماعي عند الإبراهيمي، والذي يعد –في نظرنا– جانبا مغمورا ، على الرغم من أهميته الكبرى، وتأثيره في مجريات الأحداث الجزائرية خلال الفترة التاريخية التي عاشها الإبراهيمي.

الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الابراهيمي
بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين،

أيتها السيدات الفضليات،

أيها السادة الأفاضل،

السلام عليكم ورحمة الله.

لم يعد شاعر الجزائر المغفور له محمد العيد آل خليفة الحقيقة حين قال:

إن الجزائر لم تزل في نسلها أما ولودا خصبة الأرحام

فقد أنجبت الجزائر الكثير من الرجال، هم الرجال ما زالوا وسيبقون معالم وأعلاما ومنارات وذكرى وقدوة لخلفنا ولمن يليه من الأجيال عبر الأزمنة والعصور.

من هؤلاء الأعلام الأفذاذ إمام الجزائر وعلامتها، وفخر علمائها بل فخر العلماء العرب والمسلمين فضيلة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الذي نقف اليوم في الذكرى الأربعين لوفاته المتزامنة مع الذكرى الخمسين لإعلان جهادنا التحريري، والذكرى الخمسين لتأسيس الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين. والذكرى الستين لتأسيس الجامعة العربية، والذكرى الخمسين لمؤتمر باندونغ. أجمل بها من ذكريات أربع تنم عن فترة زاهرة من تاريخنا الحديث، أدركت فيها حركات التحرير غايتها، وأحرزت القومية العربية مجدها، وبلغت الحركة الأدبية والفنية أوجها، وكانت فيها للجزائر مساهمة فعالة. وما كانت تلك الفترة لتزدهر لولا أبطالنا الميامين الذي نقف اليوم لنتذكر أحد عمالقتها ونذكر خصاله ونشيد بأعماله وذلك في إطار رد الاعتبار لرجالنا.. هذا الاعتبار الذي بدأنا منذ ألقى الشعب هذه المسؤولية الثقيلة على كاهلنا..

إن الحديث عن الأشخاص لمن أشق الأمور، لأن بعضهم لا تستطيع أن تحيط بهم وتفيهم بعض حقهم لضخامتهم في المباني والمعاني..ومن هذا الصنف الإمام الإبراهيمي، فأعماله كبيرة، وآراءه كثيرة، وأفكاره عزيرة، وأسلوبه سلس كالكوثر العذب، وبيانه ساحر أخاذ.

إن حياة الإبراهيمي مبينة بجميل الأفعال، عامرة بعظيم الأعمال. غنية بحكيم الأقوال. وقد بدأها ناشرا للعلم، دالا على الخير في المدينة المنورة بجوار خير الخلق كلهم، ثم نزلت به الأقدار في مدينة دمشق فلفت إليه الأنظار، وانتزع وهو شاب مجلسه بين العلماء الكبار، وتصدر للتدريس بجامع عبد الملك بن مروان الأموي، وهو أكبر الجوامع العامرة، فتحلق حوله فتية لم يلبثوا أن أصبحوا علماء عصرهم يشار إليهم بالبنان، لكن تلك المكانة الرفيعة وذلك التألق المتميز لم ينسياه حق وطنه وحق مواطنيه عليه، فعاد إلى الجزائر وهي يومئذ تحت سلطة استعمارية ظالمة، وتكابد سياسة عنصرية غاشمة، فوجد أهلها يتخبطون في ظلمات، ظلمة المحتل، وظلمة الجهل وظلمة الصف المختل، فبدأ العمل كالفلاح الذي يحدوه الأمل عندما يضع بذرة صغيرة في الارض، فإذا هي تنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبّة، وعندما يغرس فسيلة فإذا هي شجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء ذات أغصان يانعة وظلال وارفة.

الاستبداد والاستعمار وطرق مواجهتهما عند الكواكبي والإبراهيمي

وإذا كانت المرحلة تستلزم الدراسة الواعية لفكر المصلحين الثائرين على الاستبداد والاستعمار عبد الرحمن الكواكبي والشيخ محمد البشير الإبراهيمي فإن فهم فكرهما يساعدنا على معرفة كيفية مقاومة الاستبداد والاستعمار، ولذلك نقول: من أجل الحرية والاستقلال، من أجل التقدم والترقي، من أجل الوحدة والتوحد، وتحقيقا للإصلاح والنهضة، فلنعمل من أجل الإنسان المستخلف في الأرض، ولنأخذ المنهاج من سيرة المصلحين وفكرهم.

د. أسعد السحمراني

بيروت في 12 ذي القعدة 1403 هـ

20 آب 1983م

التجديد عند البشير الإبراهيمي

(منهجه ومضامينه)

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الدعوة

(براهيم بريك 2008م-1429هـ)

من المقدمة:

ومن هذه التجارب الإصلاحية في الجزائر، تجربة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في التجديد والتغيير، والتي سنقف عليها بالتفصيل في دراستنا -إن شاء الله- مركزين على جوانب من فكره التجديدي الذي مس جميع مناحي واقع الأمة الإسلامية بصورة عامة، والأمة الجزائرية بصورة خاصة.

والحقيقة الثابتة أنه لولا جهود الإبراهيمي التي بذلها بمعية إخوانه العلماء في سبيل المحافظة على الكيان القومي للأمة، سواء في مجال التربية والتعليم، أو في مجال الإصلاح بجميع جوانبه لانهدت المقومات الأساسية للأمة، فهذه الجهود المبذولة من قبل الإبراهيمي ورفاقه، هي التي حفظت على الأمة شخصيتها وكيانها من الذوبان.

والواقع أن الشيخ الإبراهيمي كان واحدا من أبرز المدافعين على القومية الجزائرية العربية في العصر الحديث، وقد أطراه إمام النهضة "عبد الحميد بن باديس" بما هو جدير به، حيث يقول الإبراهيمي عن ذلك "أطراني فيها بما أبكاني من الخجل، وكان مما قال: عجبت لشعب أنجب مثل فلان أن يضل في دين أو يخزى في دنيا أو يذل لاستعمار، ثم خاطبني يقول: وري بك زناد هذه الجمعية"[1]

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، "أنا"، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة والسياحة -الجزائر، س: 15، ع: 87،(1405-1985) ص:23

نثر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في الفترة من 1929 إلى 1939م

جمع وتوثيق ودراسة

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي الحديث

إعداد: محمد العيد تاورته

من المقدمة:

والحق أن قصة هذه الرسالة هي جزء من إجابة عن ذلك السؤال، إذ لم تكن رؤيتي إذ ذاك واضحة عن حجم ونوع إنتاج الشيخ الإبراهيمي- (في الجزائر)- خلال الفترة السابقة لكتاب عيون البصائر.

ولذلك بدأت البحث عن الصحافة المكتوبة بالعربية في الجزائر ابتداء من سنة 1920، وعن صحافة الإصلاح في الجزائر التي بدأت بشكل جاد منذ سنة 1925، ثم عن صحافة (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين). لأبحث في ثنايا ما وصلت إليه منها جميعا عن إنتاج الشيخ الإبراهيمي.

كما كنت في الوقت نفسه أبحث عن الدراسات أو الأبحاث التي قد تكون أقيمت حول ذلك الإنتاج.

أما البحث عن (الدراسات والأبحاث) المقامة حول إنتاج (الشيخ الإبراهيمي) فقد كان حظي ضئيلا في الوصول شيئا منها وبديهي أن تقل أو تندر الدراسات حول إنتاج إن لم يكن مجهولا، فهو (غير مجموع).

ولهذا، فإن معظم ما وجدته من دراسات حول (الشيخ الإبراهيمي) أو حول إنتاجه – قد أقيمت – على قلتها- حول كتاب "عيون البصائر".

وأهم ما وجدته من هذه الدراسات : (فصلا ودراسة ومقالين).

أما الفصل فقد كتبه الدكتور (عبد المالك مرتاض[5] تحت عنوان (محمد البشير الإبراهيمي) .

ومع أن الدكتور مرتاض قد أشار في ذلك الفصل إلى بعض المصادر التي يوجد بها بعض آثار (الشيخ الإبراهيمي) . ومع أنه وقف عند بعض سمات أسلوب الإبراهيمي في الكتابة، إلا أنه انتصر في كتابة ذلك الفصل – على الاعتماد- على مقالات "عيون البصائر" دون غيرها.

وأما الدراسة التي أشرت إليها فهي: (المحاولة المخطوطة) التي كتبتها السيدة (مارى نجم) تحت عنوان: "الإبراهيمي في حياته، وبعض آثاره المنشورة والمخطوطة"[6] .

ولعل عدم وضوح هذه السيدة "مارى نجم) في تلك الدراسة وعدم تحديد فترة النصوص التي ألحقتها بدراستها يجعلنا نقول: أن قيمة تلك الدراسة تكمن في كون ملحقها يشتمل على بضع نصوص للإبراهيمي، وعلى شيء حول الإبراهيمي.. وفي كون فصولها محاولة لتتبع حياة (الشيخ الإبراهيمي) في جميع مراحل حياته..

وأما المقالان فأولهما [7] للأستاذ الدكتور إبراهيم السمامرائي، وقد اعتمد في كتابته أيضا على مقالات "عيون البصائر"، فأشار إلى موضوعاتها، ونبه إلى بعض ملامح أسلوبها، ومكانة ذلك الأسلوب بين أساليب العربية في عصورها الزاهرة.

وثانيهما للأستاذ الشيخ أحمد بن ذياب، وهو المقال الوحيد[8] – فيما أعلم – الذي تناول كاتبه في جزء منه شيئا مما كتبه الإبراهيمي قبل فترة " عيون البصائر " فقد تعرض الأستاذ أحمد بن ذياب في جانب من ذلك المقال إلى محاضرة "عرض الحالة العلمية"[9] وإلى "خطبة الشيخ الإبراهيمي التي ختم بها حفلة تكريم الإمام عبد الحميد بن باديس لختمه القرآن الكريم"[10].

---

[5] – ضمن كتابه : (نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر 1925–1954 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع..الجزائر. سنة 1971– ص 115

[6] – هذا هو عنوانها على الغلاف الخارجي أما الصفحة التي تلي الكتاب فمكتوب عليها "دراسات أدبية: الإبراهيمي في حياته وبعض آثاره المنشورة والمخطوطة ولقد مكنني الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله من رؤية هذه المخطوطة

[7] – أصالة العربية في عيون البصائر – الثقافة – مجلة تصدرها وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر السنة الرابعة العدد 24 (ذو القعدة ذو الحجة 1394هـ (ديسمبر – جانفي 1975) ص:59

[8] – محمد البشير الإبراهيمي ونضال الكلمة . الثقافة (الجزائرية) السنة السادسة العدد : 33 (جمادى الثانية رجب 1396 هـ ، (يونيو –يوليو 1976) ص: 59

[9] – ينظر: الشهاب قسنطينة ج: 9 م:10 (غرة جمادى الأولى 1353 هـ –12 أوت 1934م) ص: 380

[10] – ينظر: الشهاب: قسنطينة .جـ:4. م: 14 . (ربيع الثاني وجمادى الأولى 1357هـ – جوان جويلية 1938م) ص:277.

آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (الجزء الثاني)

تساؤل نفس

سؤال: أين –يا أخت – الحسام المنتضى لصروف الدهر في اليوم العصيب

أين –يا أخت–الإمام المرتضى ذو البيان الحر والرأي المصيب

أين؟ من أن أهل الفكر مضى يرحض الأمحال بالفكر الخصيب

جواب: جاءه المحتوم من صرف القضا فقضى، لم يرض بالدنيا نصيب

سؤال: أين –يا أخت–هلال الداجية فارس الحلبة كشاف الكرب

كان نورا في الليالي الساجية ويل قومي إن توارى أو غرب

أين–ياأخت– إمام الناجية وأمين الله عن مجد العرب

جواب: حرمت منه النفوس الراجية وتملت حظها منها التّرب

سؤال: أين حامي الدين من شوب الضلال ومجير الحق من إفك الهوى

أين–يا أخت–حواري الجلال صيقل الأذهان إكسير القوى

عاف خفض العيش في برد الظلال وامتطى للمجد نزاع الشوى

جواب: خبر الأظعان والحي الحلال أن نجم الدين فيهم قد هوى

سؤال: أين ليث كان بالأمس هنا غادرا قد ملأ الدنيا زئير

أغلبا في لبدتين ارتمنا عن عرين الدين يرمي ويجير

ما وني عن فرصة أو وهنا هل رأيت المخذم العضب الطرير

جواب: هجر الغيل وأسرى موهنا والحمى أصبح لها للمغير

سؤال: أين منا اليوم-يا أخت-الرئيس كم به قد رفع القوم الرؤوس

ما له غاب؟ فما منه حسيس ما له أقصر واليوم عبوس

من رمى الأمة بالجد التعيس وسقاها جرع الغم كؤوس

جواب: غاله من خاتل الموت دسيس فهو قد أصبح رهنا في الرموس

....والسلام عليكم مجتمعين على الحق ومتفرقين في خدمة الحق.

آفلو، يوم السبت 13 رجب الفرد 1359هـ، الموافق 18 أغسطس 1940م.

أخوكم المعتد بوجودكم وعطفكم : محمد البشير الإبراهيمي[1]

تقرير إلى لجنة الإصلاحات الإسلامية بالجزائر

" إننا نرى أن المصلحة المشتركة بين جميع المتساكنين بالقطر الجزائري والنظر السديد في بناء مستقبله على أساس تؤمن معه غائلة استعمار جنس لجنس وامتياز عنصر على عنصر واستعباد طائفة، كل ذلك يقتضي بناء هيكل الإصلاح الجديد على الأسس الآتية:

أولا: إنشاء جنسية جزائرية تشمل جميع الطوائف التي تعيش بهذا الوطن بغير تمييز بين أصولهم وأديانهم، يتساوون بموجبها في الحقوق والواجبات.

ثانيا: تستبدل جميع التشكيلات الاستعمارية بحكومة تسمى"الكحومة الجزائرية" تكون مسؤولة أمام مجلس تشريعي جزائري(برلمان).

1- ذكر هذا النص أحمد قصية في مجلة "الثقافة"، عدد 87، الجزائر، مايو-يونيو 1985.

ثالثا: الوظائف الإدارية تعطى لجميع الجزائريين على أساس الكفاءة الشخصية.

رابعا: تعتبر اللغة العربية لغة رسمية في المعارف والإدارات بجانب اللغة الفرنسية.

خامسا: يحفظ لأهل كل دين حقهم في إقامة شعائر دينهم، وتصرفهم المطلق في معابدهم وأوقافهم بواسطة تشكيلات حرة يرتضونها لأنفسهم.

سادسا: الأحوال الشخصية للمسلمين خاصة،تجري على التفصيل السابق في إصلاح القضاء الإسلامي.

هذه آرائي التي أعتبرها بحق آراء الجمهور الأعظم من الأمة الإسلامية الجزائرية، أقدمها للجنة المحترمة بكل إخلاص واحترام، وأنا أرجو لها توفيقا ونجاحا في أعمالها، وأن يتم على يديها ما فيه خير الجزائر وفرنسا معا، وأتمنى أن توضع العلاقات الجزائرية الفرنسية على أساس متين من الثقة والتعاون الصادق.

الجزائر في 3 جانفي 1944

محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

رسالة إلى الطلبة الجزائريين بالزيتونة

بمناسبة ذكرى الإمام ابن باديس

" أيها العلماء الخيرة، أيها الأبناء البررة:

حياكم الله وبيّاكم، وأبقاكم عوامل رفع لهذا الوطن وأحياكم، وأطال أعماركم للعربية وتعلون صروحها وتنقشون في الأنفس لا في الأوراق شروحها، ولهذه الأمة تضمدون جروحها وتداوون قروحها، وللملة الحنفية تحمون حماها وترمون من رماها.

إن الإسلام والعروبة-يا إخواني ويا أبنائي-إذا ذكرا ذابت القيود، وتلاشت الحدود، واجتمعت الأقطار على رحبها في بيت. وإن أخوة الإسلام والعروبة لا تقوم على الأقوال وإن طالت وكثرت، وإنما تقوم على الأعمال والحقائق. ولو أوتينا رشدنا لأقمنا كلمتي المسلم العربي مقام هذا النسب المعروف إلى البلدان والقبائل، فما هذا النسب إلا ثُغر ومداخل لشيطان الوطنيات الضيقة التي ليست من ديننا ولا ميراث سلفنا،فتواصوا جميعا بتحقيق هذه النسبة الإسلامية العربية وتثبيت أصولها في نفوس أبناء هذه الأمة.

أيها الإخوان، أيها الأبناء:

لا نكون مبالغين إذا قلنا إن لفقيدنا العزيز عبد الحميد ابن باديس منّة على كل من يحمل بين جنبيه روحا جديدة أو فكرة سديدة من أبناء الجزائر أينما كانوا، لا فرق في ذلك بين طلاب العلم وبين غيرهم من طلاب الحياة في جميع فروعها، وإن من دلائل الوفاء وشكر الصنيع في نفوس أولئك الطلاب أن ينهجوا نهجه في التفكير وطرائق الإصلاح، ويتعاونوا على إكمال ما بدأ بوضعه من أسس العلم والحياة ويشاركوا في هذه الذكريات التي تقام كل سنة لعرض أعماله واستخراج العبر من تلك الحياة التي ليست حياة فرد وإنما هي حياة أجيال، إذ كامل الوفاء لفقيدنا العزيز هو الذي عمل عمله في نفوس أبنائنا، وحدا بهذه الطائفة المهاجرة في سبيل العلم بجامعة الزيتونة المعمورة إلى إحياء هذه الذكرى في هذه السنة بتونس.

وإن في كون الذكرى بتونس، وفي مشاركة الأفذاذ النوابغ من رجال العلم والأدب للطائف دقيقة ومغازي سامية وإلهامات رقيقة، هي من آثار الروحية والوجدان والضمير، لا من آثار المجاملة والتدريس، فإذا جاوزنا الصلة العلمية الروحية العربية جاءت الصلة الزيتونية الوثيقة، وإنها لصلة مرعية الأنساب مبرورة العهود محكمة الوثائق.

أيها الإخوان:

أشكركم شكرا تثقل موازينه، يطرزه الحب ويزينه بركم بأخيكم وأخي، الذي نفي بعهده الثقيل، وأرجو أن تتضافر الأيدي وتتوافر الهمم وتتعاون الألسنة والأقلام على خدمة هذا الدين وتاريخه ولسانه، بهذا الوطن الذي هو قطعة من ملك الإسلام وركن من حصن العروبة الأشم.

أحبي- على بعد الدار- تونس العزيزة علي، الحبيبة إليّ، فكم لي بها من علاقات يبلى الزمن وهي جديدة، وأعلاق تنحط القمم وهي-أبدا-عالية، وذخائر من صداقة وأصدقاء هي مع أعمالي كل رأس مالي.

وواشوقاه إلى تونس، وواشوقاه إليكم أيها الإخوان الخيرة والأبناء البررة."

معهد قسنطينة[1]

(إدارته، برنامجه، شروط الالتحاق به)

يسمى المعهد معهد عبد الحميد بن باديس.

تتألف الإدارة العامة للمعهد من ثلاث هيئات متضامنة، وكل واحدة منها مسؤولة فيما يخصها من الأعمال لمجلس الإداري لجمعية العلماء.

الأولى الهيئة العلمية، والثانية الهيئة المالية، والثالثة هيئة المراقبة والضبط، ويرأس المدير العام جميع الهيئات، وللمجلس الإداري الإشراف الأعلى على الجميع وإليه المرجع في الكليات، وهو الذي يفصل الخلاف بين الهيئات أو بين أفراد الهيئة الواحدة.

فالهيئة العلمية تتألف من المشائخ المدرسين، ووظيفتها وضع البرنامج وتنفيذه واختيار الكتب وامتحان التلامذة، وتوزيعهم على السنوات حسب الأهلية والاستحقاق.

والهيئة المالية تقوم بجمع المال وضبطه وصرفه في مصالح المعهد التي تقررها الهيئات الثلاث مجتمعة، وأول ما تبدأ به لتحقيق غرضها إعادة فتح صندوق الطلبة باسم(صندوق التعليم) وتفتح له حسابا جاريا في البريد تسهيلا على المتبرعين المحسنين.

1،"البصائر"، العدد 8، السنة الأولى من السلسلة الثانية، 26 سبتمبر 1947م.

وهيئة المراقبة والضبط تقوم بتسجيل أسماء التلامذة ومراقبتهم خارج المعهد مراقبة دقيقة، وملاحظة سلوكهم من استقامة واعوجاج، وتطبيق لائحة المعهد الداخلية عليهم، ويوكل إليها النظر في النظافة والصحة والعلاج والفصل بين التلامذة فيها يشجر بينهم من خلاف.

كل هيئة من الهيئتين الأخيرتين تتألف من رئيس وثلاث أعضاء.

مدة الدراسة بالمعهد أربع سنوات تبتدئ بالسنة الأولى وينتقل التلميذ إلى الثانية ثم الثالثة بامتحان: وتنتهي السنوات الأربع بشهادة تساوي في القوة مثلها في جامع الزيتونة، وتخول تلك الشهادة لحاملها الدخول في القسم الثانوي من الجامع المذكور.

الدروس اليومية ستة: ثلاثة في الصباح وثلاثة في المساء، وكل درس يستغرق ساعة إلا عشر دقائق.

برنامج الدراسة وكتبها هو برنامج السنوات الابتدائية في جامع الزيتونة، فإن خولف في بعض الجزئيات فإلى كمال وسداد إن شاء الله.

وسيحرص المعهد على تكميل البرنامج بدروس في مبادئ الرياضيات والطبيعيات والجغرافيا والتاريخ وحفظ الصحة وأصول الأشياء، يقوم بها طائفة ممتازة من الأساتذة والأطباء والصيادلة والمحامين ويؤدي فيها التلامذة الامتحانات السنوية.

يقوم بفحص التلامذة وأماكن الدراسة والسكنى جماعة من الأطباء يوما من كل أسبوع، وتخصص لفحص التلامذة حجرة خاصة مجهزة بالضروريات اللازمة.

ذكرى عبد الحميد بن باديس الثامنة وموقع معهده منها

مات الأستاذ الرئيس والأمة تختلج في نفسه وتعتلج مع خواطره. ولقد مات وعواصف الفتن تعصف، ومدافع الحرب تقصف، وأعضاء الجمعية مشتتون بسبب تلك الظواهر التي تذهل الخليل عن خليله. فلما تنفس الخناق قليلا رأت جمعية العلماء التي كان يعمل الفقيد لها وباسمها وهي الوارثة لمعنوياته والمؤتمنة على مبدإ الإصلاح المشترك، أن تتم أعماله وتحقق آماله، وأن تبرز الكلية من الخيال

إلى الحقيقة، فوجدت أن ذلك-كما هو الواقع- يستلزم اجتياز مراحل متتابعة: توسيع التعليم العربي الابتدائي بتكثير مدارسه وتصحيح مناهجه وإعداد رجاله، وقد بلغت الجمعية من هذا في السنوات الأخيرة-رغما عن العراقيل- ما تغبط عليه، وما لو اطلع عليه المرحوم من وراء حجاب الغيب لسره ولعده من الخوارق. ثم خطت إلى المرحلة الثانية خطوة بتأسيسها لمعهد قسنطينة في أواخر السنة الماضية. ولسنا نعد المعهد مدرسة ثانوية فضلا عن كونه لأننا نسمي الأشياء بأسمائها ولا نزور فيها، ولأننا نعلم أن تفخيم مثل هذه الأشياء مزلقة إلى الكذب فيها والتزوير على الحقيقة بها، ومسعاة إلى غش الأمة في أبنائها. وما وجد التفخيم إلا كان سببا في الترخيم. والترخيم حذف ونقص. وإنما المعهد مدرسة دينية ابتدائية أرقى من مدارس البنين تهيئ للتعليم الثانوي الذي يهيئ للتعليم العالي. وما ربطناه بجامع الزيتونة إلا تمهيدا لذلك، وإلا تدريبا لطلابه من أول مرحلة على المناهج التي تفضي بهم إلى آخر مرحلة، حتى ينتقلوا من الأشبه إلى الأشبه، فلا تشتبه عليهم المسالك ولا يضل بهم الدليل. والنية معقودة-إذا يسر الله الأسباب- على إحداث معهد في الجزائر وآخر في تلمسان تسهيلا على الطلاب واستيعابا لعددهم المتزايد.

وسنربط الجميع-على التدريج والاقتضاء والاستعداد -بالزيتونة والقرويين، بل ستكون هذه المعاهد إحدى وسائل التقريب بين الكليتين. فإننا نعتقد أن الزمن سائر بكليتنا إلى الإصلاح إن آجلا ذروة، وسائر بهما حتما أو اختيارا إلى توحيد المناهج والكتب. وسيكون آخر ما ينتهي إليه الإصلاح بطبيعته إلغاء التعليمتين الابتدائي والثانوي من الكليتين وقصرهما على التعليم العالي للعلوم الإسلامية العربية -بالمعنى الواسع لهذه العلوم- وما تتطلبه من علوم الحياة وإبكال ذينك التعليمين إلى مدارس في الآفاق موحدة الإدارة والإشراف.

رمضان وحدة الصوم والإفطار[1]

كان الخلاف في الصوم والإفطار أمرا دائرا بين المسلمين في هذا الوطن يسببه جهل العامة، أو تعصب الفقهاء، أو تباعد الأمكنة، وقد تزيده سماحة الدين ويسر تكاليفه أحيانا، وكنا-على ذلك

1" البصائر"، العدد 84، السنة الثانية من السلسلة الثانية، 20 جوان 1949م

نكره ونعده شرا على الأمة، وسبيلا إلى التفرق في الدين، ونعمل للتوحيد فيهما ما نستطيع، بالعلم الذي يرفع الجهل والتسامح التي يميت التعصب، والتعميم الذي يزيل التباعد. وكدنا ننجح في توحيد الأمة على يوم واحد للصوم والإفطار، حتى يزدان جمال العبادة بجمال الاتحاد فيها، والتقرب إلى الله بتقارب القلوب فيه. ولكن الحكومة الجزائرية التي تريد دائما أن تجعل من الدين الإسلامي دعامة لسياستها، وسلاحا في أيدي ساستها. كبر عليها أن تبقى هذا الركن الإسلامي مفلتا من يدها وخارجا عن تصرفها، بعد أن هيمنت على الصلاة والحج، فكونت-لسنوات خلت-لجنة الأهلة والأعياد الإسلامية من موظفيها الذين يدينون بطاعتها قبل طاعة الله، ويخضعون لأمرها وإن خالف أمر الدين، ثم وضعت في أيديهم لعبة يفتنون بها الصائمين والمفطرين، وهي اعتبار الأعياد الإسلامية رسمية تعطل فيها المصالح، ويستريح الموظفون والعمال، لتضلهما عن الهدى، وتستزفهما عن الحق، ليرجحا-إذا اختلف الناس-عيد الحكومة على العيد الديني، ثم يعتقدا-مع طول الزمن- أن رأي الحكومة في الدين هو الرأي، وأن أمرها هو المتبع، وأن حكمها في الخلاف الديني هو فصل الخطاب.....

فهمنا مرمى هذه الحيلة لأول ما دب دبيبها، بل تبينا مغزى هذه المكيدة لأول ما ذر قرنها، ونشرها على الأمة في العامين الماضيين ببانين أعلنا فيهما كلمة الحق وإن كانت موجعة، وجهرنا بحكم الله وإن كان ثقيلا على الحكومة ولجنتها، وها نحن أولاء نعززهما في هذا العام بهذا البيان الثالث، لم نغير فيه رأينا لأن الدين لا يتغير، ولأن خصمنا في القضية هو الحكومة، ومواقفها من ديننا لم تتغير.

حركة الإسلام في أوروبا

وهناك في الأقاصي من شمالي أوروبا طوائف من إخواننا المسلمين المتحدين من السلالة التركية والقلبية التي امتزجت في شبه جزيرة البلقان ثم مدت مدها إلى النمسا وهنغاريا، ثم نزحت منها مجاميع إلى الشمال، فكان من بقاياها هذه المجموعة المتوطنة في (فنلندا).

ولا نشك أن إخواننا هؤلاء قد اصطبغوا بصبغة ذلك الوطن في حياتهم الدنيوية وطرق معايشهم، ولا نشك أنهم أخذوا فيها بنظام العصر وقوته وجده، ولكنهم في حياتهم الدينية، مستضعفون محتاجون إلى إمداد من إخوانهم المسلمين في الأقطار، تقوي ضعفهم المادي، وتكمل نقصهم العلمي، وتشعرهم بالعزة والكرامة وترفع رؤوسهم بين مواطنيهم.

ويظهر للقارئ من كلمة الأستاذ محمد فهمي عوض المنشورة في العدد الماضي ومن الصور التي ننشرها اليوم، ومن الرسالة المفصلة التي كتبها إلينا الشيخ حبيب الرحمان شاكر إمام المسلمين في فنلندا، يظهر من ذلك كله ما هم في حاجة إليه، فليس لهم مسجد جامع يؤدون فيه الشعائر الدينية، وإنما يصلون الجمعة في قاعة سينما يكترونها لساعات، وليس عندهم من الكتب الدينية العربية شيء إلا المصاحف، وغنما يتمتعون بشيئين مهما تكن قيمتهما غالية فإنهما لا تغنيان عن المفقود. وهما: العقيدة المتينة، والحرية التامة.

وجمعية العلماء تبتهج بهذه الصلة الجديدة بإخواننا مسلمي فنلندا، وتصل بهذه الكلمة وشائج القربى الدينية، وتحرك بها سواكن هم المسلمين في الشرق والغرب ليلتفتوا إلى هذه الناحية من جسمهم فيداووا علتها، ويسدوا خلتها، ويربحوا بها ما يزيد في عددهم، وإن هذا لأقل ما يوجبه الإسلام على المسلم.

التهنئة باستقلال ليبيا[1]

1- نص البرقية التي أرسلها رئيس جمعية العلماء إلى الملك إدريس السنوسي:

الجزائر في 24 ديسمبر 1951

جلالة الملك إدريس السنوسي ملك ليبيا- بنغازي

جمعية العلماء المسلمين المترجمة عن إحساسات الأمة الجزائرية تعلن مشاركتها للشعب الليبي في ابتهاجه بتحقيق استقلاله، وترفع إلى جلالتكم تهانيها الأخوية راجية تتويج هذا الاستقلال بالوحدة الشاملة والتقدم المطرد تحت رعايتكم الحكيمة.

الرئيس: محمد البشير الإبراهيمي.

---

1 البصائر، العدد 178-179، السنة الرابعة، 7 جانفي 1952م.

2 نص البرقية التي بعث بها رئيس جمعية العلماء إلى سعادة بشير بك سسعداوي، رئيس المؤتمر الوطني بطرابلس:

الجزائر في 24 ديسمبر 1951

جمعية العلماء المسلمين المعبرة عن عواطف الشعب الجزائري تشارككم في الفرح بإعلان الاستقلال، وتتقدم إلى شعب ليبيا بالتهنئة الأخوية، وتتمنى أن تتضافر الجهود لتحقيق وحدة ليبيا.

الرئيس: محمد البشير الإبراهيمي.

آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي(الجزء الخامس)

نداء إلى الشعب الجزائري المجاهد[1]

نعيذكم بالله أن تتراجعوا..

بسم الله الرحمان الرحيم

أيها المسلمون الجزائريون:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حياكم الله وأحياكم، وأحيا الجزائر، وجعل منكم نورا يمشي من بين يديها ومن خلفها.هذا هو الصوت الذي يسمع الآذان الصم، وهذا هو الدواء الذي يفتح الأعين المغمضة، وهذه هي اللغة التي

---

1. نشر لأول مرة ووجه من القاهرة في 15 نوفمبر 1954، وهو منشور في كتاب(الجزائر الثائرة) للمرحوم الأستاذ الفضيل الورتلاني الذي طبع بلبنان في الخمسينات. وذكر الشيخ محمد خير الدين في مذكراته أن نسخة من هذا النداء تحت يده.مذكرات، ج1، ص 384.

تنفذ معانيها إلى الأذهان البليدة، وهذا هو المنطلق الذي يقوم القلوب الغلف، وهذا هو الشعاع الذي يخترق الحجب والأوهام.

كان العالم يسمع ببلايا الاستعمار الفرنسي لديباركم، فيعجب كيف لم تثوروا، وكان يسمع أنينكم وتوجعكم منه، فيعجب كيف تؤثرون هذا الموت البطيء على الموت العاجل المريح، وكانت فرنسا تسوق شبابكم إلى المجازر البشرية، في الحروب الاستعمارية، فتموت عشرات الآلاف منكم في غير شرف ولا محمدة، بل في سبيل فرنسا، وتوسيع ممالكها، وحماية ديارها، ولو أن تلك العشرات من الآلاف من أبنائنا ماتوا في سبيل الجزائر، لماتوا شهداء وكنتم بهم سعداء.

إلى الثائرين الأبطال من أبناء الجزائر والمغرب العربي

اليوم حياة أو موت: بقاء أو فناء

حياكم الله أيها الثائرون الأبطال وبارك في جهادكم وأمدكم بنصره وتوفيقه وكتب ميتكم في الشهداء الأبرار وحيكم في عباده الأحرار.

لقد أثبتم بثورتكم المقدسة هذه عدة حقائق:

الأولى: أنكم سفهتم دعوى فرنسا المفترية التي تزعم أن الجزائر راضية مطمئنة فأريتموها أن الرضى بالاستعمار كفر وأن الاطمئنان لحكمها ذل، وأن الثورة على ظلمها فرض.

الثانية: أنكم شددتم عضد إخوانكم المجاهدين في تونس ومراكش، وقويتم آمالهم في النصر، وثبتم عزائمهم في النضال، وقد كان من حقهم الثابت أن ينتظروا هذه النجدة منكم فجئتم بها في وقتها وكفرتم عن التقصير بهذه المباغتة المفزعة لعدوكم.

الثالثة: أنكم وصلتم بثورتكم هذه حلقات الجهاد ضد المعتدين الظالمين، الذي كان طبيعة ذاتية في الجزائري منذ كان، وكشفتم عن حقيقته الرائعة في إباء الضيم والموت في سبيل العزة وجلوتم عن نفسيته الجبارة ما علق بها في السنين الأخيرة من صدإ الفتور.

الرابعة: أنكم بيضتم وجوها وأقررتم عيونا، وسررتم نفوسا، مملوءة بحبكم معجبة بصفاتكم القديمة في الجهاد، راثية لحالتكم الغابرة.

أيها المجاهدون الأحرار:

إن فرنسا لم تترك لكم دينا ولا دنيا: فأوقافكم صادرة لم يبق منها أثر ولا عين، ومساجدكم حولت إلى كنائس ومرافق عامة، وأرضكم الغنية مغصوبة، وأعراضكم مستباحة، وكرامتكم مهدورة، وقد أراقت فرنسا من دماء أبنائكم أنهرا في الحروب الاستعمارية الإجرامية، ولا تزال حتى الآن تطمع في تسخير الملايين منكم لإذلال الأحرار من أمثالكم، كما فعلت في مدغشقر والهند الصينية، ولا تزال تساوم بكم وبخيرات أرضكم الدول الكبرى لمصالحها، كأنهم ضرب من البضاعة، ولقد عرفنا من خبث فرنسا ما يحملنا على الاعتقاد بأن ما تنويه من غدر وما تخفيه من حقد أعظم من أن يوصف فانتبهوا أشد الانتباه.

أيها الأحرار الجزائريون، أيها المكافحون في جميع أقطار المغرب العربي:

اعلموا أن الجهاد للخلاص من هذا الاستعباد قد أصبح اليوم واجبا عاما مقدسا، فرضه عليكم دينكم وفرضته قوميتكم، وفرضته رجولتكم، وفرضه ظلم الاستعمار الغاشم الذي شملكم، ثم فرضته أخيرا مصلحة بقائكم لأنكم اليوم أمام أمرين: إما الحياة أو الموت، إما بقاء كريم أو فناء شريف.

في الذكرى الأولى للثورة الجزائرية[1]

إنه لمن السنن المقدسة أن تحتفل بمرور عام على ظهور هذا المولود إلى عالم الوجود،وإنه من دواعي فخرنا أن نحتفل بذلك؛ فسلام على هذا المولود، وسلام على الأم الولود، وسلام على الحافظ لمهده، وسلام على الحارسين لهذا المهد، وسلام على المربي إلى أن ينشأ نشأته الحرة إلى أن يصبح مستقلا. فيبلغ ما يبلغه الرجال، بل سلام عليه وهو يمر بما تفرضه السنن الإلهية في المواليد فيدب ثم يشب.

هذا المولود الذي ستكون نتيجته أو ثمرته أو بلوغه الأشد أن تبلغ الجزائر كل استقلالها. هذا المولود الذي هو تلك الثورة العارمة التي شنناها على الاستعمار الغاشم ولن تكون نتيجتها إلا التحرير إلا بلوغ الحرية التامة للوطن الجزائري بل المغربي كله، هذا الوطن الذي اصطبغ بدم أبنائه سيظل هكذا إلى أن ينتصر الحق.

هذا الوطن الذي يهب أبناؤه الآن هبة رجل واحد لنصرة العروبة والإسلام، فلا نرى منهم إلا الثائر أو المهيأ للثورة على الأقل والدافع إليها والممهد لها، هؤلاء هم إخوانكم العرب المسلمون الذين يطلبون قلوبكم ويأملون بعواطفكم، وتلك هي الجزائر العربية المسلمة التي تخصكم كما تخصهم منذ ثلاثة عشر قرنا.

إلى مؤتمر التعريب بالرباط[2]

بسم الله الرحمن الرحيم

التعريب نوعان: نوع جزئي ونوع كلي، فالتعريب الجزئي هو تعريب الألسنة والأقلام وآثارهما من خطابة وكتابة، ويدخل فيه تعريب الدروس التعليمية، والثاني يشمل هذا، ويشمل التخلق بأخلاق العرب والتحلي بكل ما اشتهر عنهم من محامد وفضائل، ويظهر مما وصلني من جدول أعمالكم أنكم

---

1 مجلة "العرفان"، لبنان، المجلد 43، الجزء 3، كانون الأول (ديسمبر) 1955

2 رسالة إلى مؤتمر التعريب الذي انعقد بالرباط عام 1961

قصدون الأول، فلنجر معكم في هذا العنان، ولنعرب ما استطعنا من الألفاظ، والمصطلحات، والتعبير وكتبه، وأساليبه، ولغته، ولننقح على قدر الإمكان، ولنكل بقية التصفية والغربلة للزمن. فإننا اليوم في وقت ضرورة تتقاضانا الاستعجال في كل شيء، وليس المستعجل كالمتأني، ولنطهر لغتنا من أوضار الاستعمار ولغاته،ولا ندع أجيالنا الناشئة تنشأ على اعتقاد ناقص في لغتنا، بل نتحيل لها في جلب معاني الاعتزاز بها، ونغرس فيها معاني التمجيد لها.

ولسنا بدعا في هذا النوع من التعريب، فقد سبقنا إليه إخواننا في الشرق العربي، وكان أسبقهم إليه وأسرعهم خطى فيه إخواننا السوريون، فما خرجوا من التسلط التركي حتى كانت كتب التربية والتعليم على اختلاف فروعه جاهزة باللسان العربي، وكذلك كتب الطب والصيدلة والحقوق ومصطلحاتها، وكانت الجهود التي قامت بذلك جهودا فردية، وما تم أسبوع على الجلاء التركي حتى ظهرت كتب عربية موضوعة ومترجمة في التعليم بجميع مراحله،وللسوريين إلى الآن نشاط محمود في الميدان ولصديقنا الدكتور أحمد حمدي الخياط شيخ المتخصصين في التحليلات الكيماوية طريقة معروفة هو فيها نسيج وحده، فهو يأبى أن يكتب كلمة غير عربية في الفرع الطبي الذي هو من اختصاصه. وقد سمعت منه مرات أن العربية تتسع لدقائق الطب الذي برع فيه العرب، إذا استثنينا كلمات قليلة يونانية أو فارسية أدخلها الفارابي وابن سينا من ميراثهما الفارسي.

آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (الجزء الثالث)

ذكرى 8 ماي[1]

ذكراك يا يوم تحز في الأحشا
إذا أقبل القوم وحش تلا وحشا

* * *

يا يوم لم تشرق شمس على مثلك
أن الضحى مغرق والملتحي مهلك

* * *

ذكراك يا يوم لا تأتلي حوما
تعتاد في النوم فتطرد النوما

* * *

ربع الحمى فيكا والأهل في غفله
لم يعف عافيكا طفلا ولا طفله

* * *

فيك اعترت لمه رهطا من الشمس
فقتلوا أمه أحيتهم أمس

1 نشرت في العدد 119 من جريدة "البصائر"، 15 ماي 1950

* * *

ساقت لهم نصرا جازوه بالكسر

كمن فدى الأسرى فبات في الأسر

* * *

لهفي على هاو على شفا العمر

قد تله غاو فخر للصدر

* * *

لهفي علي مرضع قد عفرت أمه

ما خب أو أوضع إلا الشقا أمه

* * *

الشعب مسته فيك اليد العسرا

أضحى فمسته بالضر والعسرى

* * *

يا يوم، ذكراكا لم تبرح البالا

لو طاف مسراكا باليث ما صالا

* * *

زرعت أحساكا منبتها الصدر

فكيف ننساكا إنا إذن غدر

محنة مصر محنتنا[1]

تعاني مصر العزيزة هذه الأيام، ما يعانيه الحر الأبي، أكره على الضيم، وأريد على ما لا يريد، وجرع السم مدوفا في الحنظل، وقطعت أوصاله وهو يشعر، واستبيحت محارمه وهو يسمع ويبصر، حتى إذا استيأس من الإنصاف ونفذ صبره، خطا الخطوة الفاصلة، وأقدم على تحطيم القيد بنفسه، وعلى تمزيق الصحيفة التي أملتها القوة على الضعف، فقبلها مكرها كمختار، وكانت أهون الشرين، فأصبحت-بحكم الزمان- أثقل الخطبين.

البشير الإبراهيمي- نضاله وآدابه -

إن الحديث عن عصر الإبراهيمي، لا ينفصم عن كتاباته، فهو قد عاش عصره تأثرا وتأثيرا. وذلك لا يرى الباحث حرجا في أن يستشهد لبعض أحداث العصر، بنصوص من آثار الشيخ، فربما يزيد ذلك في توضيح علاقة الكاتب بعصره، وقدرته على التفاعل مع أحداثه أخذا وعطاء. فقد أخى الاستعمار الفرنسي على الجزائر وتمكن منها، وأفرغ فيها شروره، وسد في وجهها، جميع أبواب التطور والرقي، فأضعف الدين في النفوس، ونشر الفساد في المجتمع. وعمد إلى تجهيل الناس، وخنق الأنفاس وقطع الصلات بين الجزائر وجيرانها، ولذلك حق للإبراهيمي أن يصف الاستعمار في الجزائر بقوله:"....جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن، كما تجيء الأمراض الوافدة، تحمل الموت وأسباب الموت، فوجد هذه المقومات راسخة الأصول، نامية الفروع على نسبة من زمنها، فتعهد في الظاهر باحترامها والمحافظة عليها، وقطع قادته وأئمته، العهود على أنفسهم وعلى دولتهم ليكونن الحامين للموجود المشهود، من عقائد ومعابد وعوائد[2] ولكنهم عملوا في الباطن على محورها بالتدريج.." ثم

---

1 نشرت في العدد 174 من جريدة "البصائر"، 5 نوفمبر سنة 1951.

1 عندما استولى الجيش الفرنسي على الجزائر العاصمة أبرم قادته اتفاقية مع المسؤولين الجزائريين تعهدوا فيها باحترام المقدسات الدينية والحريات العامة وممتلكات الشعب وغيرها، عرفت الاتفاقية باتفاقية الجزائر ولكنهم لم يحترموا منها بنداً.

يتسبب في المقال نفسه قائلا:" ..والاستعمار سل يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح، وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية وعبث بحرمة المعابد، وحارب الإيمان بالإلحاد، والفضائل بحماية الرذائل، والتعليم بإفشاء الأمية، والبيان العربي بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها ولا تفكير....."[1]

بناء الأسلوب في المقالة عند الإبراهيمي

-دراسة وصفية تحليلية فنية-

يعد محمد البشير الإبراهيمي شخصية أدبية متميزة في الأدب الجزائري الحديث، والذي يجيء إلى تراثه الأدبي ليلم به، يقتنع لا ريب ببعض هذا الحكم، فإن هذه الشخصية المتفردة تطالعنا في كل مقالة من مقالاته، وخطبة من خطبه، وفي كل أثر من آثاره الأدبية الأخرى.

وليس المقصود بالتفرد هنا هو رفض التراث والثورة عليه، أو التجديد الجذري جنس من الأجناس الأدبية، ولا سوى ذلك مما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما المقصود هو إضفاء مسحة عصرية على الأشكال الأدبية الموروثة. ولعل عبقريته تبدو قوية في التراث المقالي الذي خلفه لنا.

---

1 آثار الإبراهيمي، عيون البصائر 22.

من أجل ذلك جئنا إلى بعض هذا التراث المقالي، ثم حاولنا أن نلتمس فيه عند الشخصية الفذة، وكان إلتماسنا هذا منصبا خاصة، على مجال السطح أو الشكل الخارجي الإبراهيمي.

وبعض هذا الصنيع جعل دراستنا هذه تتسم بالمسحة التطبيقية أكثر من النواحي الأ

البشير الإبراهيمي أديبا

محمد عباس

مقدمة:

إن إقبالي على دراسة أدب الإبراهيمي يؤول إلى بواعث إخالها موضوعية، وهي: أني لشغف -في الأدب الجزائري الحديث عن شخصية أدبية تمثل هذا الأدب أحسن تمثيل، وتستحق الدراسة والاهتمام، فلم أعثر على شخصية أفضل من شخصية الإبراهيمي في جوانب حضارية وتاريخية إسلامية ووطنية. فقد كان أدبه يمثل إرهاصات حية تشق ركام السحائب الجون لترى شعاع الفجر، وتتبين حقائق الحرية والعز أمامها في مجتمع أمة هذا الأديب، من هذه الزاوية إعجابي واختياري للموضوع، وبهذه الرؤية وقفت أرصد أدب الإبراهيمي في لمساته وقسماته.

الأسس النظرية لمنهج التفسير عند محمد البشير الإبراهيمي

-أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الفكر الإسلامي الحديث-

-الباحث: محمد زرمان-

فقد شهد النصف الأول من القرن العشرين، ميلاد حركة تجديدية إسلامية في الجز من أهدافها تغيير المجتمع الجزائري، ونشر الوعي الديني والسياسي والاجتماعي في أوسا

ومحاربة السياسة الاستعمارية التي كانت تعمل على تغريب المجتمع الجزائري، والقضاء على مقومات الشخصية الجزائرية.

وقد استطاعت هذه الحركة التغييرية الجادة أن تؤثر كثيرا في مجريات الأحداث، وبخاصة بعد ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي عملت على تجميع الكفاءات العلمية،وتنظيم الجهود، وتوحيه الأعمال.

وفي إطار هذه الجمعية، تألق نجم الكثيرين من رواد التغيير الإسلامي الذين تركوا آثارهم العميقة في الحركة الوطنية في الجزائر، ومنهم الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والشيخ العربي التبسي، والشيخ الطيب العقبي، والشيخ مبارك الميلي وغيرهم.

وإذا كان هؤلاء العلماء قد قاموا بواجبهم في تغيير المجتمع، ومحاربة مخططات الاستعمار الثقافية والاجتماعية والسياسية، فإن حقهم علينا مازال قائما، إلى آن نقوم بتعريف الأجيال بالأعمال الجليلة، والمبادئ العظيمة التي آمنوا بها، وضحوا في سبيلها بكل ما يملكون.

ومن هؤلاء الرواد المجددين الذين يستحقون اهتمام الدراسين، وعناية الباحثين الشيخ الإمام محمد البشير الإبراهيمي، نائب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1931-1940) ثم رئيسها بعد ابن باديس (1940-1956)، وعضو المجامع العلمية العربية بالقاهرة ودمشق وبغداد، واحد رموز الإصلاح الكبرى في الجزائر والعالم الإسلامي.

والموضوع الذي اخترته لإعداد أطروحة دكتوراه الدولة في الفكر الإسلامي الحديث، يدور حول الأسس النظرية لمنهج التغيير عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي. وهو موضوع يعالج-في نظرنا- جانبا هاما من الجوانب الكثيرة والمتنوعة التي تزخر بها شخصية الإبراهيمي والذي مازال إلى حد الآن يعد جانبا مجهولا في فكره، لم تتناوله بعد أقلام الدارسين والباحثين.

آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (الجزء الرابع

وظيفة علماء الدين[1]

توجد في الإسلام "وظيفة" أشرف قدرا، وأسمى منزلة، وأرفع ... رتبة، وأوثق عهدا، وأعظم أجرا عند الله، من وظيفة العالم الديني؟ ذلك لأنه وارث ... النبوة وآخذ بأهم تكاليفها وهو الدعوة إلى الله وتوجيه خلقه إليه وتزكيتهم وتعليمهم وتروي... الحق حتى يفهموه ويقبلوه، ثم يعملوا به ويعملوا له.

فالعالم، بمفهومه الديني في الإسلام، قائد ميدانه النفوس، وسلاحه ... الكتاب والسنة وتفسيرهما العملي من فعل النبي صلى الله عليه وسلم وفعل أصحابه، وعونه الأكبر على ... في هذا الميدان أن ينسى نفسه ويذوب في المعاني السامية التي جاء بها الإسلام، وأن ... وشهواتها من الاعتبار، وأن يكون حظه من ميراث النبوة أن يزكي ويعلم وأن يقول ... ويفقه بجوارحه، وأن ينصره إذا خذله الناس، وأن يجاهد في سبيله بكل ما آتاه الله من قوة.

المرأة المسلمة في الجزائر[2]

كانت المرأة المسلمة في الجزائر إلى عهد قريب، لا يجاوز ... تسمى تعليما إلا شيئا من القرآن يؤدي إلى معرفة القراءة والكتابة البسيطة، وهذا التعليم ... خاص ببعض بيوت العلم، ولا يجاوزون بالبنت فيه الثانية عشرة من عمرها.

---

1 مجلة "المنهل"، محرم 1372 هـ/أكتوبر 1952م، جدة.

1من محاضرة عن "المرأة" ألقيت في " جمعية الشبان المسلمين" عام 1953م.

[illegible] في [illegible] منذ قرون وتشاركها فيها جميع الأقطار الإسلامية على تفاوت بسيط [illegible] في [illegible] قديمة خاطئة راجت بين المسلمين وهي أن تعليم البنت مفسدة لها، [illegible] مقطوعة الأسانيد، مخالفة لمقاصد الشريعة العامة وتربية محمد صلى الله [illegible] العملية لنسائه ونساء المسلمين العالمات، ثم يؤيدون تلك الآثار الضعيفة الإسناد بأقوال [illegible] يستمدون شعورهم من شريعة العواطف المتباينة، لا من شريعة الله الجامعة، ومتى كان [illegible] فتوى في الدين؟

الرق في الإسلام[1]

تمهيد: يرى كثير من الباحثين الغربيين في شرائع الإسلام أنه شرع الاسترقاق ومكن له [illegible] كلمة باقية في أتباعه، وأبقاه سمة مميزة له، حتى إنه كلما ذكروا الإسلام ذكروا معه [illegible] كنقيصة اختص بها، ويذكرون معه تعدد الزوجات، ونقص ميراث المرأة، وضرب الحجاب [illegible] الرجل بالعصمة والطلاق، وينتزعون من إباحة التسريب الإماء في الإسلام وأحكامه [illegible]، ولا يرون إلا أنه دين إتباع للأهواء واسترسال في الشهوات، كل ذلك لينفروا قومهم [illegible] عن سبيله، وليفسوا عن أنفسهم ذلك الحقد المتأجج على الإسلام والمسلمين.

---

[1] [illegible] على تاريخ ومكان إلقائها.

ملحق الصور

الشيخ البشير الإبراهيمي في تونس
في أوائل العشرينات

الشيخ البشير الإبراهيمي في تونس في أوائل العشرينات

الشيخ الإبراهيمي في جمعية الشبان المسلمين في بالقاهرة خطيبا ، ويظهر من اليسار إلى اليمين الدكتور الشرباصي من علماء الأزهر والأمير عبد الكريم الخطابي البطل المغربي ومحمد علي الحوماني الشاعر اللبناني في الخمسينات.

... القاهرة في الخمسينات مع السيد عبد الخالق حسونة ... العربية الذائد و بطل الريف المغربي الأمير عبد الكريم الخطابي

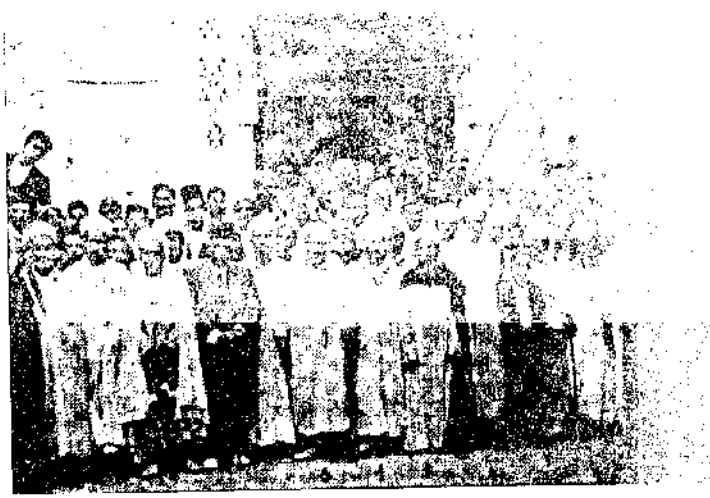

... الأطفال مدينة تلمسان بافتتاح مدرسة" دار الحديث

- الشيخ عبد الحميد بن باديس
- الشيخ محمد البشير الابراهيمي

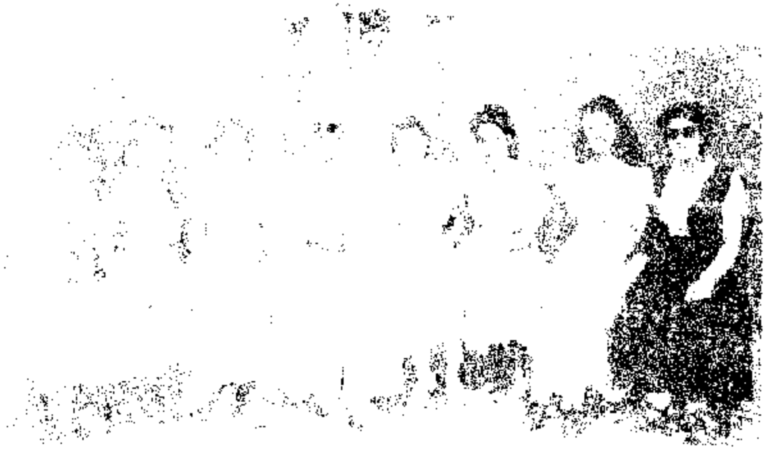

معلمات مدرسة [illegible] [illegible] الأول [illegible]
[illegible]

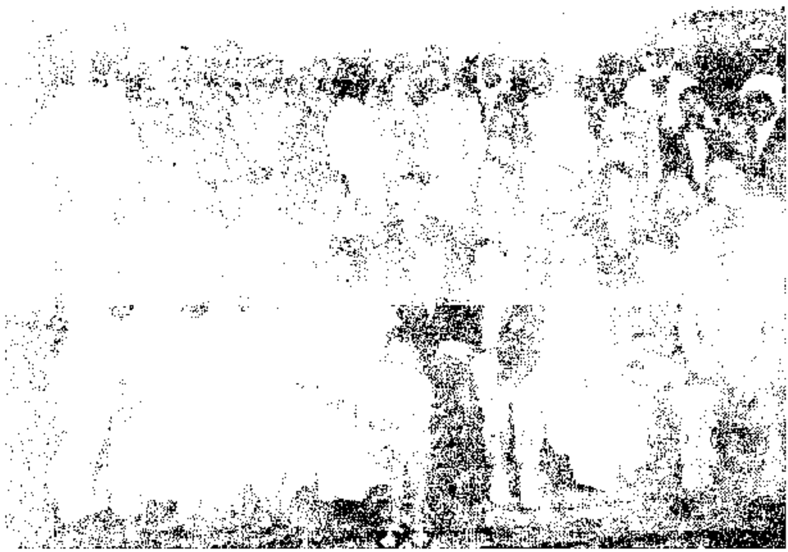

صورة المؤتمر أو اللجنة التنفيذية المركزية ويظهر الشيخ
الإبراهيمي في الصف الأول ثالث شخصية على اليسار

صورة تسليم الوثيقة

تأسيس جمعية العلماء

مجلس إدارة جمعية العلماء في عامها الثاني

المجلس الإداري لجمعية العلماء بعد رئاسة
الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

فضيلة الشيخ [illegible] الثاني لجمعية العلماء المسلمين [illegible] مع أفراد من بعثة جمعية [illegible]

الشيخ البشير الإبراهيمي رفقة أعضاء البعثة الجزائرية (المكتب الممثل لجبهة التحرير الوطني في دمشق من بين الحاضرين: الشيخ عباس بن الشيخ حسين والشيخ سعيد البيباني وعبد الحميد مهري ومحمد الغسيري والشيخ عمر دردور – دمشق – سوريا 1957م.

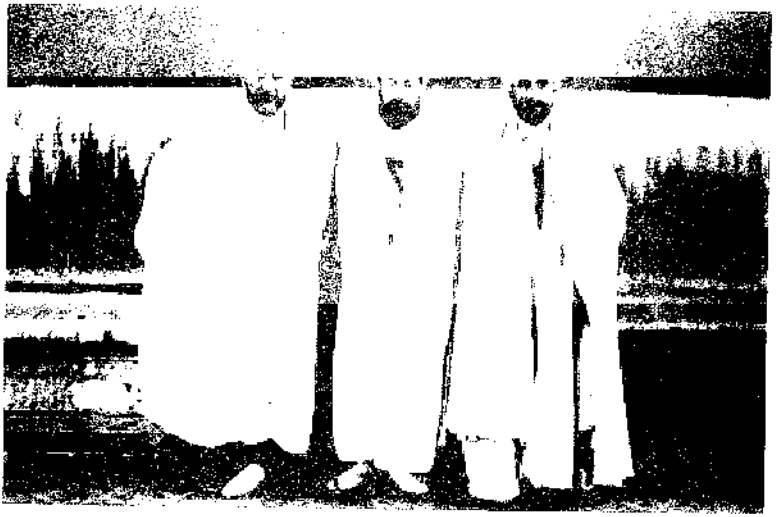

ـ يظهر في الصورة من اليمين الى اليسار الشيخ الطيب العقبي ـ الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ الشيخ محمد البشير الابراهيمي.

الجالسون من اليمين الشيوخ : عبد القادر بن زيان، العربي التبسي، الأمين العمودي، عبد الحميد بن باديس، البشير الابراهيمي، مبارك

الشيخ عبد الحميد بن باديس وكبار أعضاء جمعية العلماء.
الجالسون من اليمين إلى اليسار : محمد السعيد الزاهري، العربي التبسي البشير الإبراهيمي، محمد إبراهيم الكتاني : من المغرب ضيف عيد الحميد بن باديس، الطيب العقبي، عبد القادر بن زيان، مبارك الميلي.
الواقفون : محمد العيد آل الخليفة، فرحات الدراجي، باعزيز بن عمر، مصطفى حلوش، محمد خير الدين، علي الخياري، أبو اليقظان.
(أخذت هذه الصورة بنادي الترقي حوالي 1934م)

الشيخ الإبراهيمي في جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة جالسا ، ومعه الدكتور الشرباصي من علماء الأزهر والأمير عبد الكريم الخطابي البطل المغربي والمحمد علي العرماني الشاعر اللبناني في الخمسينات.

آخر صور الإمام الراحل محمد البشير الإبراهيمي الرئيس الثاني لجمعية العلماء و هو في فراش مرضه الأخير سنة 1965 قبيل وفاته و بجانبه الشيخ العباس بن الشيخ الحسين ، العضو الإداري لجمعية العلماء.

الفهرس

كلمة مدير الجامعة

أ.د. عبد الله بوخلخال 07

تقديم : قضايا الأمة في رؤى الشيخ البشير الإبراهيمي

أ.د إسماعيل سامعي 09

حياته

حياة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

بقلم نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي..... 15

تهنئة الإبراهيمي: قصيدة

الشاعر محمد العيد آل خليفة 22

العُقبَريُّ الفَذّ ، "فخرُ علماء الجزائر": العلاّمة محمد البشير الإبراهيمي

أ . سمير يحيى سمراد 23

صفحات مشرقة من حياة الإمام الشيخ: محمد البشير الإبراهيمي

أ . دوادي فرادي 57

القضايا العربية

العلاقة الجزائرية التونسية في نظر الشيخ البشير الإبراهيمي

د. عبد المجيد قدور 93

علاقة الشّيخ محمد البشير الإبراهيمي بعلماء المغرب (محمد إبراهيم الكتّاني نموذجا)

أ . محمد السعيد قاصري 105

البشير الإبراهيمي ونضاله في سبيل العربية والعروبة

د. رمضان يخلف 127

الفكر الإصلاحي

العلامة المصلح والداعية الأديب : الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

د. أحمد عيساوي 143

معالم الفكر الإصلاحي عند الشيخ البشير الإبراهيمي

أ . أكرم بلعمري 175

شروط النهضة عند الشيخ البشير الإبراهيمي

د. البشير قلاتي 193

المرأة في الفكر الإصلاحي الإبراهيمي

أ . زكية منزل غرابة 203

معالم المشروع النهضوي الإبراهيمي

أ . بوفدح باديسي وحيدة 209

الفكر الفقهي

لمحات من الفكر الفقهي عند الإمام محمد البشير الإبراهيمي

أ.د. مسعود فلوسي 229

نظرات فقهية للشيخ العلامة محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله

أ.د. كمال لدرع 247

قضايا التعليم واللغة

موقف الإبراهيمي من التعليم الاستعماري الفرنسي بالجزائر

أ . مرزاق بيبي 281

الشيخ محمد البشير الإبراهيمي علم من أعلام التربية والتعليم في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

أ.د. بلقاسم شتوان 309

الإستراتيجية الحجاجية في " رواية الثلاثة "

أ . إبراهيم براهمي 313

العلاقة بين اللفظ والمعنى بين المفهوم المعجمي والاستعمال عند البشير الإبراهيمي من خلال عيون البصائر

أ.د. عبد الله بوخلخال 347

موقف البشير الابراهيمي من اللغة العربية

د. مراد مزعاش 361

مقتطفات 379

ملحق الصور 423

تم الطبع بمطبعة دار الفجر للطباعة والنشر

ص.ب. 89 الطريق الوطني رقم :05 عين اسمارة – قسنطينة 25010

الهاتف : 031.97.37.85 الفاكس : 031.97.42.78

البريد الإلكتروني : E-mail. impdarelfadjr@yahoo.fr